

517172

نفاضة الكلاب والكلاب

عاليق

ادمون ومولان

ترجمة من اللغة الفرنسية

المردوم

أحمد بن زغلول باشا

« عني بتصحيحه ونشره »

توفيق الرافعي

يطلب منه المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بصره
لصاحبه راضي محمد

—————

الطبعة الثانية
لصاحبه راضي محمد

27

OL 28917.33

✓

DE MOLINS

«SIRR TAQADDUM AL-INGLIZ»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الامين
وعلى آله وأصحابه والتابعين

ظهر بفرنسا في شهر افريل سنة ١٨٩٧ ميلادية كتاب ألفه موسيو
أدمون ديمولان وسماه سر تقدم الانكليز السكسونيين بحث فيه بحثاً دقيقاً
عن أحوال الامم الفرنسية وقارن بين التربية فيها وفي المانيا وبينها في انكثرة
واستدل على ضعف أمتة بفساد التربية فيها واستشهد على فضل الامم
الانكليزية السكسونية بتربيتهم ونشأتهم وما ألقوه من العادات والاخلاق.
وغرضه من بيانه هذا حث الامة الفرنسية على العدول عن تقاليدھا في
التربية والتعليم وادخال الاصلاح في المدارس حتى تؤدي الغرض المقصود
منھا وهو تخرج رجال قادرين على العمل الصحيح غير معتمدين الا على
انفسهم ولا يطلبون سعادتهم الا من كدھم واجتهادھم

والمؤلف رجل ظل السنين الطوال في عزلة لا يكاد يشعر به أحد من
قومه وأنشأ مجلة شهرية سماھا (العلم الاجتماعي) مضى علیھا الى يوم نشر الكتاب.
اثنتا عشر سنة ولم يكن لها من الشهرة أكثر مما لغيرھا من المجلات العلمية
ولكنه كان في عزلته يركب الصعاب في البحث عن أحوال أمتة ويعطيل

النظر في أسباب تأخرها عن الامم الانكليزية السكسونية ويجمع مواد كتابه من كل شاردة يعز نوالها ويسعى وراء الادلة التي يؤيد بها رأيه من النظر في الحوادث ونتائجها والعادات وآثارها والاخلاق وما يترتب عليها وقسم كتابه الى ثلاثة أبواب بحث في الباب الاول منها عن نظام المدارس عند أمته والامتين الاخيرتين وأعرب عن نتائج ذلك النظام في كل أمة منها. وقارن في الثاني بين الفرنسيين والانكليزيين السكسونيين في معيشتهم الشخصية خصوصية فتكلم عن المسكن والملبس والصنائع والحرف والزواج والمواليد والوفيات وتأثير ذلك في الامة من حيث الثروة العمومية والزراعة والصناعة والتجارة. وخصص الباب الثالث للكلام عليهما في حياتهما العمومية فقارن بين أهل السياسة في البلدين وفرق بين مجلسي النواب فيهما وأفاض في بيان مزايا الحرف المستقلة والصنائع الفنية كما أطلال في ذكر مضار أهل الحرف الادبية كالاطباء والمحامين ووكلاء الدعاوى والموثقين وأهل الصحافة وأرباب الجرائد إذا كان الصوت صوتهم في سياسة الامة وأجهز على مذهب الاشتراكيين بساطع البرهان وأقوى الحجج وفند أقوال أصحابه تفنيدياً يخضع له المسكابرون وخاض في الكلام على معنى الوطن والوطنية فردهما الى معنهما الصحيح بعد ان بين المعاني الفاسدة التي أخطأ غلاة الوطنية في فهمها من هاتين الكامتين ودل على الفرق الموجود بين أمته وبين الامم الانكليزية السكسونية في ادراك معنى التكافل والتعاون من بعض الافراد لبعضهم وأرشد الى أحسن أحوال الاجتماع لتحصيل السعادة في هذه الدار. وهذا الفصل الاخير كله حكم بليغة ودرر ثمينة وختم الكتاب بالكلام على الدين

في سيره في النفوس وفعله في سعادة الامم بصلاحه وشقاها بفساده وتخلص
 في ذكر الحوادث الجديدة التي أخذت تبدو في الامة الفرنسية مما يدل
 على أنها سائرة نحو التقدم شاخصة الى التحول من حالة سيئة الى حالة راضية
 ويمرّ القارىء على الكتاب من أوله الى آخره فلا يجد فيه دليلاً خطايا
 أو حجة غير معترف بها لأن المؤلف أردف كل قول بدليله المنتزع من الحوادث
 الصادقة والمشاهدات الصحيحة مما لا يدع مجالاً للشك أو محلاً للاعتراض
 فلما فرغ من تأليفه ورمى به بين القراء من قومه كان كسيلة من النار
 أصابت وقوداً جافة فالتهمت لساعتها وسرى لهيبها في جميع الاندية والبلدان
 غير ان الناس لم يشتغلوا باطفائها بل كل يذكيها ويصلبها لانها نار هدى
 وسلام

وحقيقة ما نشر الكتاب حتى اشتهر وعظم شأنه وتهافت الناس على
 تلاوته وأقبل الجموع على مطالعته وقامت له قيامة المدرسين واشتغل بالبحث
 في أبوابه كبراء الكتاب والمدققين وتلقفته الجرائد فشرحتة وذيلته وقرظته
 وانهالت على صاحبه المراسلات ترى من كل ناحية يسأله أصحابها أين
 المدارس التي يشير اليها والسبيل الى تربية أبنائهم على غير تربية آبائهم ولم
 يمض الا القليل من الايام حتى ترجم الكتاب الى لغات عديدة فقرأه
 الانكليز والالمانيون والاسبانيون والبولونيون. وهانحن اليوم نرزه الى
 قراء العربية يتهادى في أحسن معانيه ورفيع مبانيه

هذا كتاب لم يترك منقصة في تربية الامة الفرنسية إلا أذاعها ولا
 خلقاً سيئاً أو عادة سافلة إلا ندد بها لذلك اشتد وقعه في قلوبهم وضرّبوا

بأيديهم على جيوبهم ولكنهم مع ذلك لم يلوموا المؤلف بل عظموه ولم يعنفوا بل احتراموه وعرفوا أنه مخلص يحب أمته ويطلب لها النفع والفخار فما من إلا من أكرم منوى الكتاب ورأى فيه تذكرة لأولى الألباب وأجلس صاحبه حيث يجلس الحكماء وأحله حيث تحمل العطاء وسألوه أن يكون قائداً حركة التعليم والهدى بهم إلى الطريق المستقيم فجاءه أرباب الغنى واليسر يقدمون له الاموال ويمدونهم بالنفس والنفيس وامتاز من بينهم ثلاثة عشر رجلاً من سراة القوم عقدوا معه شركة واشتروا على مسافة ساعتين من مدينة باريس قصرًا مشيداً وحديقة أنيقة وأرضاً فسيحة تبلغ الأربعمائة والعشرين فداناً واستخدموا المهندسين وأرباب الصنائع والحرف في إعداد القصر مدرسة والبستان ميدان تمرين والغيط موضعاً للتجارب والاختبار فقام كل واحد بما عهد إليه وأعلن عن افتتاح المدرسة في شهر أكتوبر سنة ١٨٩٩ للطالبين

وألف مسيو ديولان كتاباً آخر سماه (التربية الجديدة) ظهر في السنة الماضية ذكر فيه ما كان من أمر كتابه الذي تقدمه للقراء وضمنه نظام المدرسة الجديدة وبين الفرق بين التعليم الذي يقصده وبين التعليم الذي يجري عليه قومه وجاء فيه على ذكر بعض الرسائل التي كتبت إليه من جميع الطبقات وكل الجهات وأهداه إلى صديقه موسيو (جول لومتر) عالم من أرباب الافهام وكاتب نابغة بين أهل الأقلام قدر كتابه سر تقدم الانكباب حق قدره وساعد كثيراً بخطبه وقلمه على إذاعته ونشره ولاجل أن يعلم القراء ما كان للكتاب من التأثير نلخص بعض شذرات

مما نشرته الجرائد وبعض الرسائل التي كتبت الى المؤلف |
قال موسيو (جورج رودوناخ) في جريدة (باترويو تدي بروكسيل)
« ظهر كتاب في فرنسا عظم اشتهاره وكان له تأثير كبير في تلك البلاد عنوانه
سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه موسيو ادمون ديمولان وقد اشتهر
هذا المؤلف بكتابه دفعة واحدة فانا عرفناه منذ زمان مكباً على العمل بصبر
وسكون وحضرنا مجلسه عند (لاپلي) مؤسس العلم الاجتماعي وكان أكبر
تلامذته وهو الذي كان يجي مجلسه بأحاديثه ويفيد الحاضرين بمعارفه وينسبهم
الوقت بما يحكى من الحوادث وما يشرح من الحقائق فلما رحل أستاذه عن
هذه الدار اتزوى هذا الرجل ونسيه أكثر العارفين به وصار اسمه لا يرد
على الألسنة إلا ضمن الحديث حتى اننا كنا نتساءل عنه ونقول لعل ديمولان
لم يك من الناجحين مع ما ظهر منه أولاً من غزارة المادة وعظيم العرفان .
وبينما الناس يتناسونه واذا به قد ظهر ظهور القمر في الليلة الظلماء بكتابه سر
تقدم الانكليز السكسونيين الكتاب الذي امتحن فيه المؤلف وجدان الأمة
الفرنساوية فجاء يبرهن على ان زمان السكر بالزهو قد انقضى وقام العلماء
والكتاب يدلون على مواقع الضعف ويشعرون الأمة بما أصبحت في حاجة
اليه ولم يأت موسيو ديمولان في مقابله بين الفرنسيين وبين الانكليز
السكسونيين إلا بالوقائع الثابتة والمشاهدات الصحيحة واختار المقابلة بين
الماديات فليس كتابه كتاب مذهب يريد نشره ولكن كتاب أفكار
تؤيدها الحوادث والمشاهدات . فالارقام فيه ناطقة بلسان فصيح والاحصاء
ينتج النتيجة من نفسه ويدل على الاصلاح الذي ينبغي » اه

وقال موسيو (درومون) في جريدة (ليبر پارول) :

« كثيراً ما سألتني بعض الشبان أى كتاب يقرأون . وانى أجيبهم الآن عليكم بكتاب من الكتب الرئيسية اختر فيه مؤلفه حالة الأمة اختباراً دقيقاً اقرأوا كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين فقد بحث فيه موسيو ادمون ديمولان عن مزاج الأمة الانكليزية وبين أسباب انتشارها المجيب في الدنيا ودل على علة سيادتها بين الأمم تلك الأمة القوية القادرة التي تلجى أكبر مفضيها الى الاعجاب بها والاعتراف بفضلها » اه

وقال موسيو (ديلاهي) في تلك الجريدة أيضاً :

« انى فرغت من قراءة كتاب موسيو ديمولان ووعدت نفسى بقراءته مرة ثانية لانه جمع شيئاً كثيراً ولكنى لا أنتظر تلك الفرصة لانشر ما وجدته فيه من المادة الغزيرة والعلم الكثير وليس لنا نحن أصحاب الجرائد من الخدم إلا أن نقرأ كتاباً يكون مؤلفه قد أعمل الفكرة في فصوله قبل أن يكتبها وهو نادر في هذه الايام ثم نشره بين الناس

« يوجد في إحدى زوايا باريس أربعة شبان أو خمسة لا تفتر لهم همة عن البحث والتنقيب ولا يعرفون الملل من العمل مهما كان شاقاً قد أفادوا وخدم في العشر سنين الأخيرة أكثر مما أفاد ذلك القطيع الذى يتألف من أعضاء مجالس النواب ومجلس الأعيان ولهم مجلة شهرية لا يعرفها ولا بالاسم إلا القليل النادر من ذلك القطيع مع أنها أكثر أعظم فائدة من مجموعات تلك المجالس التي غصت بذكراتها وخطبها تحت حكم الجمهورية الثالثة » الى أن

قال « ان كان في ديولان شيء يوجب الإعجاب فهو حسن مقصده وسلامة ذوقه رجل ما قصد إلا استخلاص الحقيقة مما غشيها من الألفاظ والجل والأوهام التي اعتاد الناس عليها وقد توصل بحسن أسلوبه الى احياء حقائق كانت نسياً منسياً . ملأ كتابه علماء وأسندته الى الوقائع الصحيحة وأعمل الفكرة قبل أن يكتب وكل الناس معترف بأنه مصيب في تلخيصه الى السؤال عن سبب سقوط فرنسا وجوابه بأنه سوء التربية . وليست المسئلة الاجتماعية الامسئلة التربية فكما تكون الآباء تكون الابناء وكما تكون الابناء تكون الرجال وكما تكون الرجال تكون الامة . وموسيو ديولان لا ينكر هذه الحقيقة ولكنه أراد الدلالة عليها ببيان معنى التربية الاجتماعية الصحيحة وقد دل بمقارنته بين الامتين الفرنسية والانكليزية السكسونية في التربية والمعيشة البيتية وقوة الانتشار والمعيشة العمومية والسياسة على ان من البديهيات ما ينساه الناس ويجهلونه جهلاً كلياً

« وأجمل فصل في الكتاب على ما أرى هو الذي عقده لبيان أحسن الحالات لنوال السعادة وهو الذي يحلوني النقل عنه » ثم أخذ الكاتب ينقل عن ذلك الفصل ما حوى من الحكم

ولما انتشرت هاتان الجملتان في تلك الجريدة تهافت قراؤها على مطالعة الكتاب ونقلت جرائد الأرياف ما كتب الفاضلان وعلقت عليه من الشروح والاقوال ما لا يحصى وكلها تمجد الكتاب وتمظم الذي أهداه وقالت جريدة (لاريوبليك فرانسيز)

« جاء كتاب ذلك المؤلف العظيم الشأن بمسئلة شغلت الافكار في

هذه الايام ألا وهي السر في انتشار الامة الانكليزية السكسونية ذلك الانتشار العجيب . ولقد كان الناس يشعرون بوجود تلك الافضلية الا أن موسيو ديمولان أتى لها بالبراهين العقلية والحجج العلمية « اه
وكتبت جريدة (الكوكارد) مقالة طويلة ختمتها بقولها « ينبغي
لصادق الوطني أن يطيخوا النظر في هذا الكتاب وأن يشكروا موسيو
ديمولان على هديته » اه

وقالت جريدة (لوبيتي پاريزيان) بمد الفراع من الكلام على فصل التربية
« تلك افكار حقة صحيحة يجب الالتفات اليها بالنظر الى حالتنا الحاضرة »
وقالت جريدة (لوپوبل فرانسيه) « ذلك كتاب ينير الخاطر وان كان
كله جذاً وهو لذيد وان كان قاسياً » اه

ونشر موسيو (باريزيو) جملاً في يوم واحد في جرائد (لايه)
و (لوبيتي) و (سوفر تقيه ناسيونال) و (لوليبيرال) و (لوكونستيتسيونيل)
و (ليتندار) أجمعت على مدح المؤلف ووصف الكتاب بأنه « مفيد مؤيد
بالشواهد ربما حملنا على التحلي باخلاق الامة الانكليزية السكسونية » اه

ونشر موسيو (لوسيان ديكاف) مقالة طنانة في جريدة (ايكودي پاري)
منها « هذا كتاب شديد الوقع لولا ان قراءته واجبة على كل رب عائلة
وكل مشتغل بالتربية والتعليم » ثم ختمها بقوله « ان كتاباً حوى تلك المسائل
كلها لجدير بالاذاعة والاشتهار فكلنا في حاجة الى معرفة سر تقدم الانكليز
السكسونيين والاصدق فينا قول (پرودون) « أوروبا حبلى بثورة اجتماعية
ولكنني أخشى أن تموت قبل أن تضع حملها » اه

وقال موسيو « فرانسيسك سارسي » في تلك الجريدة مختتما كلامه على الفصل المتعلق بالمقارنة بين تشكيل مجلس النواب الفرنسي ومجلس النواب الانكليزي ما نصه « ذلك الكتاب مفيد جداً لما حواه من الافكار الجديدة أو التي وضعت في قالب جديد وللناس فائدة كبرى في معرفة ما اشتمل عليه من الحقائق فان المؤلف عالم حكيم » اهـ

وبعد أيام عاد الكاتب المشار اليه الى الكلام على ذلك الكتاب في جريدة (رايبيل) وبدأ مقالته بهذه الجملة « لقد هاج كتاب موسيو ديولان عامل الهوس في نفسي وقد تكلمت عليه قبلاً ولا بد من العودة اليه لانني لا أعرف كتاباً أحسن منه في الغرض المقصود لمؤلفه » اهـ

ولم يكتب أحد كلمة ضد الكتاب الا واحداً من النواب ومع ذلك فانه اعترف بافضلية الانكليز السكسونيين والالمانيين وعلل ذلك بشدة الاقدام وكبر الهمة ولعله من أولئك الثلاثة والاربعين نائباً الذين قال فيهم موسيو ديولان انه لم يجد لهم طائفة أو حرفة يلحقهم بها ^(١)

ولم يمض الشهر الثاني على نشر الكتاب الا وقد طبق صيته الخافقين وتناولته الايدي في المشرقين وكتبت عنه الجرائد الالمانية والتليانية والانكليزية والامريكية وغيرها بلهجة تمجد الكاتب وتمدح الكتاب ولما نشر موسيو ديولان كتابه الثاني (التريية الجديدة) صدره بكثير من الرسائل التي وردت عليه أثر انتشار كتابه الاول ومن الفائدة أن تقتطف البعض منها:

(١) راجع جدول تشكيل مجلس النواب في فرنسا

كتب اليه صاحب معمل صناعى فى مديرية (سين ابواز)
 «أنا رجل من أهل الصناعة وقد انتهزت فرصة السفر فطالمت كتابكم
 ولا حاجة بى أن أذكر لكم مقدار استفادتى منه الا أنه ألقى الخيرة فى أمرى
 من جهة انى صانع ووالد ابنتين فى العاشرة والحادية عشر من عمرهما وأنا
 أكتب اليكم هذا الخطاب تحت تأثير الاعجاب بالفصل المتعلق بنظام
 التربية فى المدارس الانكليزية أتوجد مدارس فى فرنسا على هذا النحو قد جمعت
 العلم والعمل والرياضة والمعيشة البيتية حتى أسارع الى وضع ابنى فيها الى
 أن يشتدا فأرسلهما الى احدى المدارس الانكليزية» اه
 وكتب اليه صاحب معمل فى (هيرولت):

«لما طالمت كتابكم عقدت العزيمة على ارسال ابنى الى احدى المدارس
 التى وصفتموها وهو الآن فى الثانية عشرة وقد سافرت لاشاهد مدرسة
 (بيدال) بنفسى فاعجبنى نظام التعليم فيها وكان ذلك من مؤكدات رغبتى فى
 ارسال ابنى الى انكلترة. نعم سيكون الامر صعباً علينا وبالاخص على والدته
 لاننا نسكن فى جنوب فرنسا ولا يتيسر لنا أن نراه إلا فى المساحات الكبيرة
 غير أن تربيته أعز وأبقى» اه
 وكتبت اليه سيدة من (تولوز):

«لعلكم لا تعجبون من أن احدى الوالدات تكتب اليكم لتسألكم
 بعض المعلومات عن المدارس التى وصفتموها وجعتم كل مشتغل بمستقبل
 أبنائه يعرف قدرها ومزاياها فكل من أمعن النظر فى الفوائد التى تنجم عن
 التعليم فيها يندب عدم وجود مثلها فى البلاد الفرنسية. لى ولدان ولكن

يعوزها الاقدام والهمة الذاتية التي هي شرط النجاح في هذه الايام وهما صغيران وتربيتنا التي استولت على زمام الاطفال واستغرقت كل أوقاتهم لا تترك وقتاً يكون لهما فيه ففكر ذاتي أو تصور شخصي ولا تؤدي الى الفرض الذي أقصده فيهما ولو اني أتق بمدرسة (بيدال) من الجهة الدينية لما تأخرت عن ارسال ابني اليها وأرجو سيدي عفواً اذا أكثر من السؤال فأتم الذين شرفتموني الى الاستفهام اذ كشفتم القناع للآباء والامهات الفرنسيين عن سبل وطرائق يجب على الكثير منهم أن يسلكوها وكثير يود سلوكها» اهـ

وكتبت اليه سيدة :

« أبنائي ثلاثة وأنا أشتغل بتربيتهم كل الاشتغال واني لمحزونة لمخالفة التربية التي يتلقونها في المدرسة لافكارى على خط مستقيم ترى الطفل مشغولاً على الدوام بالامور العقلية فلا يكاد يتفرغ هنيهة لامور الحياة العملية وعلى التحقيق ليس له من وقته يسير يمكنه من الرياضة والتمرينات الجسمية التي تقوم الجسم وتشد الاعصاب لهذا أتشوف الى أخبار التعليم وأتتبع خطاً تعديل طريقته بكل اهتمام

ولقد يتولاني القنوط عند ما أشاهد ابني الاول الذي بلغ الثانية عشرة من عمره متخمشاً لا يقدر على مساعدتي في أى أمر على قليل الهمة ضعيف الارادة ولكنى أؤتم في ذلك المدرسة والواجبات الكثيرة التي تطلب من الاطفال وقد دلتهموني بكتابتكم على أنه يجب على أيضاً أن أعد نفسى من الآثمين إذ صحيح أنني ووالده كلما أردنا الخوض في موضوع مهم أو في

عمل من الاعمال المفيدة تنتظر حتى لا يكون الاولاد معنا ولو اتفق
 لاحد منهم انه اشترك معنا في الحديث أو تطرف الى الخوض في كيفية معيشتنا
 أو تطاول فسالنا عن أمر لم يدركه فيها ردناه في الحال على عقبه بألفاظ
 كهذه : ليس هذا مما يعينك - اشتغل بواجباتك - من كان في سنك فلا
 يمول عليه - اخرس

« وقد اجتهدت في تلقين أبنائي المبدأ الآتي : ان الاطفال يضايقون
 الناس فيجب عليهم اذا كانوا في غير بيتهم أن يكونوا بحيث لا يشعر بوجودهم
 أحد من الحاضرين . وقد كافأني احدى صديقاتي على اجتهادي بهذه الجملة :
 ان أبناءك اعلى تهذيب عظيم

« سيدى لقد هديتني ببعض أسطر من كتابك الى أنني ضللت السبيل
 وذكرتني بذلك القول الذي لست أذكر أين قرأته » اذا عاملت ابنك معاملة
 الرجال لا يلبث أن يصير رجلا » وعلى العموم أسلم معك ان الامهات
 الفرنساويات عقبه عظمة امام الافكار التي تهم أتم وموسيو (بونفالو)
 بنشرها وان بناتهن لا يصلحن زوجات للمستعمرين والزوجة الحقيقية التي
 أتمنى وجودها في القرن المتمم للمعشرين هي التي تكون صديقة زوجها وشريكته
 ورفيقتته وهي التي لا تقتصر على كونها والدة أبنائها المحترمة بل تكون أليفتهم
 ومرجع سرهم قد عرفت الحياة واختبرت كل أمورهما لا لتوافق على كل
 أمر بل لتفهم كل شيء ولن يجب علينا أن ننسج على منوال تلك الرومانية
 التي قيل فيها (أقامت في بيتها وبرمت منزل صوفها) اه

هذا ولم تقتصر حركة الافكار التي أحدثها هذا الكتاب على الجرائد

والرسائل بل تعدت بعد انتشاره أيضاً الى المشتغلين بالتعليم وظهرت في خطابات رؤساء الامتحانات والذين تولوا توزيع الجوائز والمكافآت السنوية على تلامذة المدارس ومن تمام الفائدة أن نأتى على طرف من ذلك

قالت جريدة (الطان) وهي أكبر الجرائد الفرنسية وأنفذها رأياً « قرأنا خطب توزيع المكافآت في هذا العالم والذي استوقف نظرنا فيها هو اتفاق الخطباء جميعاً من غير موعد بينهم في الارشادات والنصائح التي ألقوها على التلامذة فلم نر هذه المرة في خطبهم ما جرت به العادة من تمجيد التعليم المعروف ومدح الطرق المألوفة والاطراء بنتائج الامتحانات ولا ما كنا نسمعه منهم من الجمل الطويلة والقول الموشى في الادب وقواعده ولكنهم أجمعوا تقريباً على الخطابة في موضوع العمل والحث عليه وامتداح خصال الرجولية الحقة وتعظيم شأن فضيلة الاقدام والهمة الذاتية ولم يقفوا عند ذلك بل امتدحوا الجرأة والتزاحم

« هذا موسيو (رني ميله) مبعوثنا في تونس قد هنا نفسه بما شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية في التعليم التي ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم أي اهمال
« وهذا موسيو (بولسون) يرفع راية المجد والفخار لاصحاب الارادة الصادقة ويشير الى أن أول واجب في التربية هو تكوين الرجال بالمعنى الصحيح

« وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربية التي ترجع الى أن الحكومة وصية على الافراد بالرداءة والفساد ويدعو الشبان الى اعتناق

الحرف المستقلة وان كانت مما يقتضى المخاطرة والمجازفة

« وأولئك غيرهم كثيرون من الخطباء يحادثون شبببتنا فيما وراء المستعمرات من الخيرات وما ينال النازح اليها من المعيشة المستقلة وبسطة اليد مما يؤدي أيضاً الى زيادة ثروة الوطن ويعلى شأنه ويشد أزره »
 « وعلى هذا فقد ظهر اليوم في الأفكار رد فعل الماضى وانعطفت الاميال الى التمثل بالانكليز وهى حركة من شأنها أن تدخل الفرخ في قلوب محبي الوطن فعلينا أن تقابل تلك الفصاحة الحربية بهزة فرخ في النفوس وأن نرى فيها تحذيراً ووعداً ورجاءاً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل فى مدرسة (كوندورسى)

(يجب عليكم فى مساعدة الضمفاء أن تكونوا أقوياء فقولوا ولا تخشوا
 أحداً ان التكافل فى الوجود نوعان صحيح وفساد . طيب وردى . أما
 الأول فهو أن يعمل الرجل لغيره ما استطاع وهو التكافل الحق فاتبعوه واعملوا
 به جهدهم . وأما الثانى فهو أن ينتظر الواحد كل شىء من غيره وهو تكافل
 لا خير فيه ولا قيمة له وان كان له أحزاب ومعجبون فاحذروه واجتنبوه
 ولا يعملن الواحد منكم فى نفسه على غيره بل ليكن اعتماده أو لاعلى نفسه وهمته
 وارادته وصره وجلده ومثابرتة على العمل بذاته وعودوا أنفكم على الارادة» اه
 وقابل موسيو (فاجت) فى مدرسة شارلمان بين الحرف اليدوية وبين
 الحرف الادبية وبرهن على ان الاولى ليست أقل فضلاً ولا شرفاً من الثانية
 إلا أن الكاتب الذى اهتزت لقلمه الأفكار وانحازت لصوته الاميال
 وتم بقوله النصر لكاتب سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه هو موسيو

(جول لومتر) وهو الذي أهدها المؤلف كتابه الثاني (التربية الجديدة) قال في جريدة الفيجارو وهي أيضاً من أهم الجرائد الفرنسية وأكثرها انتشاراً « ما أصاب كتاب موسيو ديولان على النفوس. ولكن يجب ان يقرأه الناس ويشربوا ذلك الكأس الذي ملئ بالحسرات . ان الذي يقوله موسيو (ديولان) كنا نعرفه أو نشعر به ولكنه حدد المطاب وجمع بين شتان جمعاً محكماً . والذي يستخلص من هذا الكتاب الذي يقنع القراء بقدر ما يحزنهم هو أفضلية الأمة الانكليزية السكسونية من حيث أحوالها الاجتماعية وسياستها وتجارها ومالياتها وأخلاقها وآدابها مقابل ضعفنا وسكنتنا وعدمنا في الوجود لان أفضلية هزلياتنا وأفضلية طهاتنا لن تنجينا من الوهدة التي نحن فيها . ولقد يجوز أن تكون أفضليتنا الفنية لا فائدة فيها

« ومن سوء الحظ لا يمكننا القول بأن الزمان قلب فالיום مر وغداً حلولنا أمة اتكالية كل واحد من أفرادها يعتمد على البقية والانجليز السكسونيون أمة استقلالية لا يعتمد الواحد من قومها إلا على نفسه والنتيجة من هذا خطر علينا »

ثم أخذ الكاتب يسرد أفكار المؤلف ويؤيد استنتاجاته الى أن قال: « ذلك ما يجده القراء مفصلاً ومبرهنًا عليه بأقوى الحجج في كتاب موسيو ديولان مضافاً الى كثير غيره كاه حق وكاه لا يوجب العزاء ولا يؤدي الى السلوان »

وبعد ان جرى المؤلف في مقدمة الكتاب وأتى على ذكر انتشار الأمة الانكليزية السكسونية ختم مقالته بما يأتي :

« ليس لنا إلا أن نحمل ما فاتنا من الفضائل التي كثرت في أمة
الانكايير السكسونيين فنساعد على نمو الهمة الشخصية ونعود أهلنا على
الاعتماد على أنفسهم وعلى ذلك الاقدام والمزينة والاهتمام
« يلزمنا آباء يعتقدون كل الاعتقاد انه لا يجب عليهم لابنائهم إلا
التربية بشرط أن تكون حقيقية قوية
« يلزمنا شبان يعتقدون كل الاعتقاد أنهم هم الذين عليهم لا أنفسهم
تحصيل رزقهم بأنفسهم في الحياة الدنيا
« يلزمنا شبان يقدون الخناصر على أن يطلبوا من الزواج رقيقاً
لا مهراً جزيلاً
« يلزمنا حكومة ترجع اختصاصها الى الحد الأدنى وتقل عملها الى
الحد الأدنى وترد بذلك الشبان الى المهن المستقلة التي تقتضى الهمة الذاتية
والاقدام والعمل
يلزمنا حالة اجتماع يكون فيها الموظف والسياسى ومن لا عمل له
أقل اعتباراً من الزراع والصناع والتجار
« يلزمنا ان نلنى دروس اللغات الميته من مدارسنا الابتدائية وأن
نلنى جمعية المعارف ذاتها ان لم تلغ جمعيات العلوم وان نلنى مدرسة
الهندسة وجميع مدارس الحكومة وان نلنى طريقة الانتخاب التي
يتساوى فيها صوت العظيم بالحقير والجاهل بالعالم والزراع باهل البطالة
والكسل وأن نلنى ثلاثة أرباع الموظفين وان نلنى ذلك النظام الادارى
الذى أسسته الثورة وأيدته الامبراطورية الاولى

« إنى لأرى ضرراً من إلقاء هذا كله وإن كنت أراه صعباً
 « يلزمنا اقصاء الاموال التي نصرناها على الجيوش فانها تجلب علينا
 الخراب والدمار والفاء الخدمة العسكرية التي تأخذ من حياة شباننا ثلاث
 سنين ولا تنمى روح الهمة فيهم الايسيراً وان نكتفى كما نكتفى انكلترا بمجيش
 لا يزيد عدده على مائة ألف أو الولايات المتحدة بجند لا يزيد عن ستة
 وعشرين ألفاً

« يلزمنا أن نلقى تلك الحجة المادية الى الدفاع عن الوطن والطموح الى
 الاخذ بالثار من قاهرينا

« يلزمنا أن ننسى انكسارنا الذي أضعفنا وجعلنا نخجل في كل آن
 « يلزمنا ان نبدل نفوسنا

« يا قوم هل تعرفون وسيلة نوجد بها الهمة والارادة من حيث فقدنا
 ونجعل اللاتيني أو السلتى الضعيف انكليزياً سكسونياً من الجبارين
 « وبعد هذا فعليكم بما يسرى الهم عنكم لعل صاحب الكتاب الذي
 اشتد وقعه قد بالغ وغالى

« يا قوم لا ينفعكم اعتقادكم بانكم أمة خير تطلب الخير للناس وبان
 الانكليز السكسونيين أمة اختصاص وخداع وبان الدولة الالمانية انما تعيش
 من فوائد نصرها عليكم
 « يا قوم لا ينفعكم غير اصلاح حالكم فاعملوا ان كنتم في الترقى
 راغبين» اه

ثم كتب ذلك العالم الشهير رسالة أخرى وكانت الاولى قد أجهزت

على الطبعة الأولى من الكتاب ويقول صاحب التزامه انه اضطر الى طبع الثانية على عجل فقد كان يطالب منه في اليوم الواحد ما يزيد على مائة نسخة ورددت جميع الجرائد صدى هاتين المقاتلتين ونشرتهما جرائد الاقليم كلها على التقريب ولكل واحدة منها قول يشجع على اقتناء هذا الكتاب ويؤيد ما اشتمل عليه من النصائح والمبادئ

هذا هو الكتاب الذي نهدي اليوم ترجمته الى الناطقين بالضاد عموماً والى المصريين خصوصاً لمطابقة الوقائع التي دونت فيه عن الامة الفرنسية لما هو حاصل في بلادنا ولا تفاق البلدين في كثير من العادات والاخلاق والافكار التي عنى المؤلف ببيان جهات النقص فيها اللهم الا أن الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا ووجه الشبه هذا هو الذي اخترناه سبباً في طلب الاذن من المؤلف واليك نص ما بعثنا به اليه بعد الديباجة

لما قرأت كتابكم النفيس « سر تقدم الانكيز السكسونيين » اثر عندي بما رأيته من الشبه الكلي بين أمتي وأمتكم فأخلاقنا أخلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفرق بيننا وبينكم ان العيوب عندنا كبيرة جداً، ولا شك في انه سيكون لكتابكم هذا من التأثير ما يرجع بالفائدة على الامة الفرنسية لذلك رأيت أن نقله الى اللغة العربية يفيد أهل بلادي أهل تسمحون لي بترجمته وقد تفضل حضرته فأجابني على طلبي في ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ بما يأتي

« أخذت خطابكم بعد عودتي من غيبة قصيرة وقد سررت جداً من حسن ظنكم بكتابي وفي اعتقادي ان بلدكم تستفيد من تلك الافكار مثل بلدي فانا أصرح لكم بكمال الارتياح أن ترجموه الى اللغة العربية »
ويحتاج سر تقدم الانكليز السكسونيين في مطالعته الى دقة نظر وروية حتى لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر الى أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط

ومن المقرر ان ميلنا الى مطالعة المؤلفات التي من هذا القبيل ضعيف حتى في هذه الأيام وان المشتغلين بنشرها أشقى العاملين فان الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويقات نومه ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب مالا تقدر قيمته ثم لا يستعيز عن تعب بلذة ان الناس يقرأون ما هدى اليهم فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين

لكن الذي لا يأخذ الامور بظواهرها بل يطلب الحقيقة اني وجدت، يعلم أن ازواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة وملاهم من العلم بما يجري في الوجود من تقدم الامم بترقي المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئاً عن بغضهم للعلم أو نفورهم من القارئ بنشره وانما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشئ عن الضعف العام الذي ألم بروح الشرق منذ أجيال طويلة حتى أمات ملكة حب الاستطلاع وجعل النظر في أحوال الامة خصوصاً وأحوال الامم عموماً قاصراً على ما يحس احساساً مادياً فلا يتحرك الفكر الا من جانب الشعور الجسماني على ان تحركه انما يكون مجرد التوجع والتحسر أو لجرد الابتهاج والفرح الوقتي ثم لا يلبث أن يرجع الى

السبات العميق فيذهل عن أمته وعن نفسه ويصبح كما أسى بل أقل
عزماً وأكثرهما

ذلك ما أصاب الأمم الشرقية واستحكم في عقولنا حتى عم الفتور وصار
كأنه حالة فطرية فخبسناه خلقاً من أخلاقنا وعدادنا من يخرج عن حالتنا
هذه مبتعداً عن المنهج القويم ومارقاً عن تقاليد الأمة وعاداتها ومهيناً لها
فيما ترى التمسك به من موجبات كمالها . خصوصاً اذا جاءنا بما يكشف
القناع عن المصائب المتولدة من ذلك التحول ويبين وجه الضرر فيما نحن فيه
من الانزواء وندد بما اعتقد - كما هو الصحيح - انه أصل الشقاء ومجلبة
العناء من أخلاق تخالف النرض من الحياة وطباع تبعد باصحابها عن محجة
النجاة ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال . تلك عادة
المرء ان كلت همته ووهن عن القيام بما وجب كان أقرب الى الغضب دفماً
لمؤثر يؤلمه وانتقاماً من نصوص يدب على موضع الألم فتتأثر النفس مع فقد
القدرة على نفي أسباب التأثير ويصير المخاطب كمن شد وثاقه وانهاالت عليه
السياط فلا هو قادر على تحمل آلامها ولا هو يجد من وثاقه فكاً كما فيكتفى
بالصياح والاكثار من النواح وتمتلي نفسه بالحق على ذلك المسئء اليه في
نظره قيبيت نفوراً منه لا يسمع له قولاً ولا يبي عنه فعلاً

هذا هو السبب في الاقبال على مطالعة القصص والخرافات والتهافت
على اقتناء التافه من المؤلفات والتسابق الى حفظ كتب المجون والروايات
والنفور من القول الجد وهجر النافع واغفال المفيد وفيه تمليل واضح لكثرة
انتشار كتب المجون والهزيان وقلة كتب العلوم الصحيحة فان الاولى لا تطاب

شيثاً من همة القراء ولا تشغل محلاً من مدركتهم ولا يتكفون أكثر من النظر الى الاحرف ليحصلوا منها صورة في الذهن تضحكهم أو يدركوا واقعة تعجبهم ثم يتقضى الوقت بسلام وغطاء الادراك الحقيقي مقفل عليه . ولان الثانية تقتضى امان النظر وتستوقف الفكر وتنساب في النفس فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه الى العمل أو ينهيه الى الواجب عليه . فان كان من أهل الهمم الساقطة - وهو الغالب - وجدته يشعر بثقل الواجب المطلوب منه ومتى أحس من نفسه العجز عن القيام به أسرع الى طرح الكتاب واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب وربما أوقد النار وأحرق الكتاب كما فعل بعضهم في العام الماضي بترجمة كتاب الاسلام ظناً بان احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذي انغمس فيه تلك حال تسوء عقباها وتدعو الى أسوأ منها وقد أحدثت عندنا من انحلال الاخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه في جميع مشاعر الأمة وتقاليدها

هذه المجتمعات أصبحت معدومة في منازلنا حتى بين أهل الحرفة الواحدة بل صار هؤلاء أشد الناس نفوراً بعضهم من بعض فجعل كل واحد سبيل أخيه وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم أن يفوز بيننا فوزاً مبيناً . نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة في هذه الايام ولكنها حول الكؤوس والاكواب أو في ميادين الملاهي والالعب

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها في كل يوم إلا سافر

عمل من الاعمال المفيدة ننتظر حتى لا يكون الاولاد معنا ولو اتفق لاحد منهم انه اشترك معنا في الحديث أو تطرف الى الخوض في كيفية معيشتنا أو تطاول فسالنا عن أمر لم يدركه فيها ردناه في الحال على عقبه بألفاظ كهذه : ليس هذا مما يزينك - اشتغل بواجباتك - من كان في سنك فلا يعمل عليه - اخرس

« وقد اجتهدت في تلقين أبنائي المبدأ الآتي : ان الاطفال يضايقون الناس فيجب عليهم اذا كانوا في غير بيتهم أن يكونوا بحيث لا يشعر بوجودهم أحد من الحاضرين . وقد كافأتني إحدى صديقاتي على اجتهادى بهذه الجملة : ان أبناءك اهل تهذيب عظيم

« سيدى لقد هديتني ببعض أسطر من كتابك الى أنني ضللت السبيل وذكرتني بذلك القول الذي لست أذكر أين قرأته » اذا علمت ابنتك معاملة الرجال لا يلبث أن يصير رجلا » وعلى العموم أسلم معك ان الامهات الفرنساويات عقبه عزيمة امام الافكار التي تهم أتم وموسيو (بونفالو) بنشرها وان بناتهن لا يصلحن زوجات للمستعمرين والزوجة الحقيقية التي أتمنى وجودها في القرن المتمم لعشرين هي التي تكون صديقة زوجها وشريكته ورفيقتة وهي التي لا تقتصر على كونها والدة أبنائها المحترمة بل تكون أليفتهم ومرجع سرهم قد عرفت الحياة واختبرت كل أمورهما لا لتوافق على كل أمر بل لتفهم كل شيء ولن يجب علينا أن ننسج على منوال تلك الرومانية التي قيل فيها (أقامت في بيتها وبرمت منزل صوفها) اه

هذا ولم تقتصر حركة الافكار التي أحدثها هذا الكتاب على الجرائد

والرسائل بل تعدت بعد انتشاره أيضاً الى المشتغلين بالتعليم وظهرت في خطابات رؤساء الامتحانات والذين تولوا توزيع الجوائز والمكافآت السنوية على تلامذة المدارس ومن تمام الفائدة أن نأتى على طرف من ذلك

قالت جريدة (الطان) وهي أكبر الجرائد الفرنسية وأتقدها رأياً « قرأنا خطب توزيع المكافآت في هذا العالم والذي استوقف نظرنا فيها هو اتفاق الخطباء جميعاً من غير موعد بينهم في الارشادات والنصائح التي ألقوها على التلامذة فلم نر هذه المرة في خطبهم ما جرت به العادة من تمجيد التعليم المعروف ومدح الطرق المألوفة والاطراء بنتائج الامتحانات ولا ما كنا نسمعه منهم من الجمل الطويلة والقول الموشى في الادب وقواعده ولكنهم أجمعوا تقريباً على الخطابة في موضوع العمل والحث عليه وامتداح خصال الرجولية الحقة وتعظيم شأن فضيلة الاقدام والهمة الذاتية ولم يقفوا عند ذلك بل امتدحوا الجرأة والتراحم

« هذا موسيو (رني ميله) مبعوثنا في تونس قد هنتأ نفسه بما شاهد من تقدم التمرينات الرياضية وترك تلك الطريقة الوحشية في التعليم التي ما كان يلتفت فيها لغير الرأس حيث يهمل الجسم أي اهمال
« وهذا موسيو (بولسون) يرفع راية المجد والفخار لاصحاب الارادة الصادقة ويشير الى أن أول واجب في التربية هو تكوين الرجال بالمعنى الصحيح

« وهذا موسيو (هنات) يحكم على طريقة التربية التي ترجع الى أن الحكومة وصية على الافراد بالرداءة والفساد ويدعو الشبان الى اعتناق

الحرف المستقلة وان كانت مما يقتضى المحاطرة والمجازفة
« وأولئك غيرهم كثيرون من الخطباء يجادثون شبببتنا فيما وراء
المستعمرات من الخيرات وما ينال النازح اليها من المعيشة المستقلة وبسطة
اليد مما يؤدي أيضاً الى زيادة ثروة الوطن ويعلى شأنه ويشد أزره »
« وعلى هذا فقد ظهر اليوم في الأفكار رد فعل الماضى وانعطفت
الاميال الى التمثل بالانكليز وهى حركة من شأنها أن تدخل الفرخ في
قلوب محبي الوطن فملينا أن تقابل تلك الفصاحة الحربية بهزة فرخ في
النفوس وأن نرى فيها تحذيراً ووعداً ورجاءاً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل في مدرسة (كوندورسى)
(يجب عليكم في مساعدة الضعفاء أن تكونوا أقوياء فقولوا ولا تخشوا
أحدًا ان التكافل في الوجود نوعان صحيح وفساد . طيب وردى . أما
الأول فهو أن يعمل الرجل لغيره ما استطاع وهو التكافل الحق فاتبعوه واعملوا
به جهدهم . وأما الثانى فهو أن ينتظر الواحد كل شىء من غيره وهو تكافل
لا خير فيه ولا قيمة له وان كان له أحزاب ومعجبون فاحذروه واجتنبوه
ولا يعولن الواحد منكم في نفسه على غيره بل ليكن اعتماده أو لاعلى نفسه وهمته
وارادته وصبره وجلده ومثابرتة على العمل بذاته وعودوا أنفسكم على الارادة» اه
وقابل موسيو (فاجت) في مدرسة شارلمان بين الحرف اليدوية وبين
الحرف الادبية وبرهن على ان الاولى ليست أقل فضلاً ولا شرفاً من الثانية
إلا أن الكاتب الذى اهتزت لقله الأفكار وانحازت لصوته الاميال
وتم بقوله النصر لكاتب سر تقدم الانكليز السكسونيين ومؤلفه هو موسيو

(جول لومتر) وهو الذي أهداه المؤلف كتابه الثاني (التربية الجديدة) قال في جريدة الفيجارو وهي أيضاً من أهم الجرائد الفرنسية وأكثرها انتشاراً « ما أصاب كتاب موسيو ديمولان على النفوس. ولكن يجب ان يقرأه الناس ويشربوا ذلك الكأس الذي ملئ بالحسرات. ان الذي يقوله موسيو (ديمولان) كنا نعرفه أو نشعر به ولكنه حدد المطاب وجمع بين شتان جمعاً محكماً. والذي يستخلص من هذا الكتاب الذي يقنع القراء بقدر ما يحزنهم هو أفضلية الأمة الانكليزية السكسونية من حيث أحوالها الاجتماعية وسياستها وتجارها ومالياتها وأخلاقها وآدابها مقابل ضعفنا وسكنتنا وعدمنا في الوجود لان أفضلية هزلياتنا وأفضلية طهاتنا لن تنجيننا من الوهدة التي نحن فيها. ولقد يجوز أن تكون أفضليتنا الفنية لا فائدة فيها

« ومن سوء الحظ لا يمكننا القول بأن الزمان قلب فاليوم مر وغداً حلو لاننا أمة اتكالية كل واحد من أفرادها يعتمد على البقية والانجليز السكسونيون أمة استقلالية لا يعتمد الواحد من قومها إلا على نفسه والنتيجة من هذا خطر علينا »

ثم أخذ الكاتب يسرد أفكار المؤلف ويؤيد استنتاجاته الى أن قال: « ذلك ما يجده القراء مفصلاً ومبرهنًا عليه بأقوى الحجج في كتاب موسيو ديمولان مضافاً الى كثير غيره كله حق وكله لا يوجب العزاء ولا يؤدي الى السلوان »

وبعد ان جرى المؤلف في مقدمة الكتاب وأتى على ذكر انتشار الأمة الانكليزية السكسونية ختم مقالته بما يأتي :

« ليس لنا إلا أن نحمل ما فاتنا من الفضائل التي كثرت في أمة
الانكليز السكسونيين فنساعد على نمو الهمة الشخصية ونموّ أهلنا على
الاعتماد على أنفسهم وعلى ذلك الاقدام والعزيمة والاهتمام

« يلزمنا آباء يمتقدون كل الاعتقاد انه لا يجب عليهم لابنائهم إلا
التربية بشرط أن تكون حقيقية قوية

« يلزمنا شبان يمتقدون كل الاعتقاد أنهم هم الذين عليهم لانفسهم
تحصيل رزقهم بأنفسهم في الحياة الدنيا

« يلزمنا شبان يمتقدون الخناصر على أن يطلبوا من الزواج رقيقاً
لا مهراً جزيلاً

« يلزمنا حكومة ترجع اختصاصها الى الحد الأدنى وتقل عملها الى
الحد الأدنى وترد بذلك الشبان الى المهن المستقلة التي تقتضى الهمة الذاتية
والاقدام والعمل

يلزمنا حالة اجتماع يكون فيها الموظف والسباسبى ومن لا عمل له
أقل اعتباراً من الزراعة والصناع والتجار

« يلزمنا ان نلنى دروس اللغات الميتة من مدارسنا الابتدائية وأن
نلنى جميع المعارف ذاتها ان لم تلغ جميعات العلوم وان نلنى مدرسة
الهندسة وجميع مدارس الحكومة وان نلنى طريقة الانتخاب التي
يتساوى فيها صوت العظيم بالحقير والجاهل بالمالم والزراع باهل البطالة
والكسل وأن نلنى ثلاثة أرباع الموظفين وان نلنى ذلك النظام الادارى
الذى أسسته الثورة وأيدته الامبراطورية الاولى

« إنى لأرى ضرراً من إلغاء هذا كله وان كنت أراه صعباً
 « يلزمنا اقتصاد الاموال التى نصرها على الجيوش فانها تجلب علينا
 الخراب والدمار والغاء الخدمة العسكرية التى تأخذ من حياة شباننا ثلاث
 سنين ولا تنمى روح الهمة فيهم الا سيراً وان نكتفى كما نكتفى انكثرة بجيش
 لا يزيد عدده على مائة ألف أو الولايات المتحدة بجند لا يزيد عن ستة
 وعشرين ألفاً

« يلزمنا أن نلقى تلك الحجة المادية الى الدفاع عن الوطن والطموح الى
 الاخذ بالثار من قاهرينا

« يلزمنا أن ننسى انكسارنا الذى أضعفنا وجعلنا نخجل فى كل آن
 « يلزمنا ان نبدل نفوسنا

« يا قوم هل تعرفون وسيلة توجد بها الهمة والارادة من حيث فقدنا
 ونجمل اللاتينى أو السلتى الضعيف انكليزياً سكسونياً من الجبارين
 « وبعد هذا فعليكم بما يسرى الهم عنكم لعل صاحب الكتاب الذى
 اشتد وقعه قد بالغ وغالى

« يا قوم لا ينفعكم اعتقادكم بانكم أمة خير تطلب الخير للناس وبان
 الانكليز السكسونيين أمة اختصاص وخذاع وبان الدولة الالمانية انما تميش
 من فوائد نصرها عليكم

« يا قوم لا ينفعكم غير اصلاح حالكم فاعملوا ان كنتم فى الترقى
 راغبين» اه

ثم كتب ذلك العالم الشهير رسالة أخرى وكانت الاولى قد أجهزت

على الطبعة الأولى من الكتاب ويقول صاحب التزامه انه اضطر الى طبع الثانية على عجل فقد كان يطلب منه في اليوم الواحد ما يزيد على مائة نسخة ورددت جميع الجرائد صدى هاتين المقاتلتين ونشرتهما جرائد الاقاليم كلها على التقريب ولكل واحدة منها قول يشجع على اقتناء هذا الكتاب ويؤيد ما اشتمل عليه من النصائح والمبادئ

هذا هو الكتاب الذي نهدي اليوم ترجمته الى الناطقين بالضاد عموماً والى المصريين خصوصاً لمطابقة الوقائع التي دونت فيه عن الامة الفرنسية لما هو حاصل في بلادنا ولا تفاق البلدين في كثير من العادات والاخلاق والافكار التي عنى المؤلف ببيان جهات النقص فيها اللهم الا أن الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا ووجه الشبه هذا هو الذي اخترناه سبباً في طلب الاذن من المؤلف واليك نص ما بعثنا به اليه بعد الديباجة

لما قرأت كتابكم النفيس « سر تقدم الانكيز السكسونيين » اثر عندي بما رأيته من الشبه الكلي بين أمتي وأمتكم فأخلاقنا أخلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفرق بيننا وبينكم ان العيوب عندنا كبيرة جداً، ولا شك في انه سيكون لكتابكم هذا من التأثير ما يرجع بالفائدة على الامة الفرنسية لذلك رأيت أن نقله الى اللغة العربية يفيد أهل بلادي أهل تسمحون لي بترجمته وقد تفضل حضرته فأجابني على طلبي في ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ بما يأتي

« أخذت خطابكم بعد عودتي من غيبة قصيرة وقد سررت جداً من حسن ظنكم بكتابي وفي اعتقادي ان بلدكم تستفيد من تلك الافكار مثل بلدي فأنا أصرح لكم بكمال الارتياح أن تترجموه الى اللغة العربية »
ويحتاج سر تقدم الانكيز السكسونيين في مطالعته الى دقة نظر وروية حتى لا يفوت الغرض المقصود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر الى أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط

ومن المقرر ان ميلنا الى مطالعة المؤلفات التي من هذا القبيل ضعيف حتى في هذه الأيام وان المشتغلين بنشرها أشقى الغاملين فان الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويقات نومه ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب مالا تقدر قيمته ثم لا يستعيز عن تعب بلذة ان الناس يقرأون ما هدى اليهم فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين

لكن الذي لا يأخذ الامور بظواهرها بل يطلب الحقيقة انى وجدت، يعلم أن ازواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة وملاهم من العلم بما يجري في الوجود من تقدم الامم بترقي المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئاً عن بغضهم للعلم أو نفورهم من القارئ بنشره وانما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشئ، عن الضعف العام الذي ألم بروح الشرق منذ أجيال طويلة حتى أمات ملكة حب الاستطلاع وجعل النظر في أحوال الامة خصوصاً وأحوال الامم عموماً قاصراً على ما يحس احساساً مادياً فلا يتحرك الفكر الا من جانب الشعور الجسماني على ان تحركه انما يكون لمجرد التوجع والتحسر أو لمجرد الابتهاج والفرح الوقتي ثم لا يلبث أن يرجع الى

السبب العميق فيذهل عن أمته وعن نفسه ويصبح كما أنسى بل أقل
عزماً وأكثرهما

ذلك ما أصاب الأمم الشرقية واستحكم في عقولنا حتى عم الفتور وصرار
كأنه حالة فطرية فبسناه خلقاً من أخلاقنا وعددنا من يخرج عن حالتنا
هذه مبتعداً عن المنهج القويم ومارقاً عن تقاليد الأمة وعاداتها ومهيناً لها
فيما ترى التمسك به من موجبات كمالها . خصوصاً اذا جاءنا بما يكشف
القناع عن المصائب المتولدة من ذلك التحول ويبين وجه الضرر فيما نحن فيه
من الانزواء وندد بما اعتقد - كما هو الصحيح - انه أصل الشقاء ومجلبة
العناء من أخلاق تخالف الفرض من الحياة وطباع تبعد باصحابها عن محبة
النجاة ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال . تلك عادة
المرء ان كلت همته ووهن عن القيام بما وجب كان أقرب الى الغضب دفماً
لمؤثر يؤلمه وانتقاماً من نصح يدب على موضع الألم فتتأثر النفس مع فقد
القدرة على نفي أسباب التأثير ويصير المخاطب كمن شد وثاقه وانهاالت عليه
السياط فلا هو قادر على تحمل آلامها ولا هو يجد من وثاقه فكاً كما فيكتفي
بالصياح والاكثار من النواح وتمتلئ نفسه بالحقد على ذلك المسمى، اليه في
نظره قييدت نفوراً منه لا يسمع له قولاً ولا يمي عنه فعلاً

هذا هو السبب في الاقبال على مطالعة القصص والخرافات والتهافت
على اقتناء التافه من المؤلفات والتسابق الى حفظ كتب المجون والروايات
والنفور من القول الجد وهجر النافع واغفال المفيد وفيه تمليل واضح لكثرة
انتشار كتب المجون والهزيان وقلة كتب العلوم الصحيحة فان الاولى لا تطالب

شيئاً من همة القراءة ولا تشغل محلاً من مدرّكهم ولا يتكفون أكثر من النظر إلى الحرف ليحصلوا منها صورة في الذهن تضحكهم أو يدركوا واقعة تعجبهم ثم يتقضى الوقت بسلام وغطاء الإدراك الحقيقي مقفل عليه . ولأن الثانية تقتضى إمعان النظر وتستوقف الفكر وتنساب في النفس فتحدث فيها من التأثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه إلى العمل أو ينهيه إلى الواجب عليه . فإن كان من أهل الهم الساقطة - وهو الغالب - وجدته يشعر بثقل الواجب المطلوب منه ومتى أحس من نفسه العجز عن القيام به أسرع إلى طرح الكتاب واشتغل عن العمل بالنعيف والعتاب وربما أوقد النار وأحرق الكتاب كما فعل بعضهم في العام الماضي بترجمة كتاب الإسلام ظناً بأن إحراقه ينجيه من وصمة الخمول الذي انغمس فيه تلك حال تسوء عقباها وتدعو إلى أسوأ منها وقد أحدثت عندنا من انحلال الأخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه في جميع مشاعر الأمة وتقاليدها

هذه المجتمعات أصبحت معدومة في منازلنا حتى بين أهل الحرفة الواحدة بل صار هؤلاء أشد الناس نفوراً بعضهم من بعض فجعل كل واحد سبيل أخيه وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم أن يفوز بيننا فوزاً مبيتاً . نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة في هذه الأيام ولكنها حول الكؤوس والأكواب أو في ميادين الملاهي والألعاب

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها في كل يوم إلا سافر

فلان وعاد فلان ونشكر فلاناً ونحذر فلاناً وهكذا وكله راجع الى ذلك الحال الذي استولى على الأمة فجعلها لا تقبل إلا ما يوافق الكسل ويلائم عدم الحركة في كل شيء . أما ما كان في تلك الجرائد مما يرشد الى فضيلة أو يذم على رذيلة أو يوضح حقيقة فحظه حظ كتب الجدل من جعلها خلف الظهر والاستعاضة عنها بما لا يفيد

لكن على قدر فقدان الشعور العام في الأمة يجب العمل على تنبيهه وبمقدار اعراضها عن النافع ينبغي السعي في حملها على الرغبة فيه ومن الحقائق أن الأمة لا تنهض من رقدتها ولا تهب من سباتها إلا اذا خلصت من قيودها وفارقتها الامراض التي تنهك قواها وتخط من عزيمتها ولا يتيسر للامة أن تتخلص من آلامها وتبرأ من أمراضها إلا اذا عرفت أسبابها وأحاطت بموجبات الضعف فيها

فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها حتى اذا تم تشخيص الداء سهلت معرفة الدواء وليس من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب واننا أمامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا أن نفوز ببيغيتنا مادامنا ودامت على هذا الحال نحن ضعاف في كل شيء تقوم به حياة الامم متأخرون في كل شيء عليه مدار السعادة

ضعاف في الزراعة وهي الأس المتين الذي تقوم به حياة الامم والشعوب فلا مطمع لرجل لا يحصل غيش يومه ولا حول لامة لا تجد ما تقنات منه وبالزراعة تأمن الامة عائلة الشقاء المادى فتممكن من النهوض الى الحياة

الادبية وطب الكمال ، ونحن لا نعرف حتى اليوم من أصولها غير شق الارض بقطعة من حديد مركبة في كتلة من الخشب يجرها ثوران ورمى البذور كما كان يرميها آباؤنا ثم انتظار الريح بعد ذلك من وراء الكسل والانكماش ، وأهل الارض يستحدثون لاصلاح الاراضى كل يوم جديداً ويخترعون من الآلات ما تتضاعف به الهمم وتشتد به الايدى ويؤلفون الشركات للقيام بما يعجز عنه الافراء من جلب المياه وتصريفها وجمع الحاصلات وبيعها وغير ذلك مما جعلهم يشتغلون الصخر ويستنبتون الجبال ، والزراعة عندنا حليفة الانحطاط فالفلاح هو ذلك المسكين الذى اقتنى أثر آبيه القديم فى عمله ولم يجدد بعده طريقة ولا صنفاً فاكسى أردأ الملابس وتفدى بأخس المأ كولات وقضى حياته فى أدنى المساكن ، وهو أبو الجمالة المحقر المرذول فلا تزال نقول عن أنفسنا اذا أردنا أن نبالغ فى ذم أحدنا بالجهل انه « فلاح »

صناع فى الصناعة لاننا أهملناها وجهلنا طرائقها فأصبحنا وليس منا إلا الفعلة والحمالون ومنفذوا ارادة الاجنبى ، نشقى ليسعد ونموت ليحيى هذه المعامل الفسيحة والمصانع العظيمة التى أقيمت بين بيوتنا كلها للاجنبى واذا زرتها وجدتها تنقسم الى أقسام مختلفة بحسب طبيعة العمل المطلوب وفى كل قسم رئيس من الافرنج والكل بعد ذلك مصريون ، هذه المباني الضاهقة والقصور الشائخة شيدت كلها بيد المصريين لكنهم كانوا فى تشييدها من الاجراء يعملون بمشيئة الاجنبى ولفائدة الاجنبى أدخل بيت عظيم من عظمائنا أو بيت شيخ من علمائنا أو بيت راهب من

رهباننا وبيت حقير من اجرائنا ثم أعدد ما فيه من أنواع الاثاث والامتعة وانظر إلى بنائه وما يتركب منه ووزع كل شيء، على صناعه وابحث عن يد المصرى فيه لا تجدها الا فى قطع الاحجار ورصها وما بقى كله من آنية طعام ومواد وأخشاب وأطالس وحرار ووسط وحديد ومقاعد ومصاييح وأكواب ومفاتيح وألوان وملابس ومطابخ وكل شيء، صنع الاجنبى

ضعاف فى التجارة فلا نعرف منها غير أن الرجل منا يشتري الصفقة من المخزن الكبير ويجلس بهانى حانوته الصنير حيث يفتحه متأخراً ويقفله قبل المساء ويتحدث مع جاره طول النهار واذا جاءه طالب أجلسه مكانه وبالغ فى مؤانسته واكرامه بما ينقضى به الوقت والرجل ما اشترى والتاجر ما استفاد . وهو يحسب من التجار ذوي المسكنة والاعتبار مع أنه لا يعرف أين تصنع بضاعته ولا من الذى جلبها اليه ولا من مادتها الاولى ولله الآخرة والاولى ، لذلك ضرب الاجنبى على أبواب التجارة وأحاطها بسور من علمه وهمته فاستأثر بصادراتها واختص بوارداتها وأنشأ الشركات توسعاً فيها واستخدم الوطنيين سماسة لا يكسبون من كدم الا اليسير

ضعاف فى العلم اللهم الا علم مداره جهل حقائق الاشياء فى الوجود اما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على ما يختص بعلاقة الانسان مع ربه والباقي منه أخرجنا عن معناه الصحيح وحكمنا عليه بالاعدام وشهرنا المشتغلين به حتى أمتنا روح للتقدم وأطفأنا مصاييح العرفان فى الاذهان ، أين منا المؤرخ والنباتى والطبيب والكماوى والمهندس والطبيعى والاديب والمنطقى والنوى وعالم الاخلاق والحكيم والفلكي وعالم الزراعة وغير هؤلاء نعم

نحن لانعدم نقرأ منهم ولكنهم قليلون بدليل انه لو كان عندنا منهم عدد يكفيننا لما وجد الاجنبي بيننا على هذه الكثرة التي نشاهدها لانه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح

ضعاف في العزيمة فلا يبدأ الواحد منا في عمل الا وقد أدركه المال وأحاط به الفشل فترك عمله وتقهقر فرحاً بسلامته واذاقم أحد منا مشروع يقتضى المعونة لبيت دعوته من كل مكان حتى اذا آن أو ان الشروع في العمل هرب كل واحد من ناحية وأصبح صاحبه يندب الوقت الذي قد أضاعه فيه بل ربما وجد في نفسه ارتياحاً أيضاً لانه كان قد عرضها لامر يجر اليه ضرراً بل ان تلبية النداء أصبحت معدومة لكثرة ما كان من الفشل والخذلان فانت بدلك روح الطلب واستولى الخمول على كل الطبقات وانفرد أولو العزيمة بمثل هذه المشروعات

ضعاف في الالفة والمودة فكل يوم ترى الاصحاب أعداء والاصدقاء متنافرين وأهل العلم متباغضين متحاسدين

ضعاف في النخوة والشعور الملى والجامعة القومية فالعظيم منا يهان والكبير ينتابه الزمان وأمثاله ينظرون اليه فرحين بمصيبته مستبشرين بنكيبته أو آسفين من بعيد بحيث لا يسمع لهم صوت لمعونته والاصاغر يشمتون جهلاً أو انتقاماً وما درى العظماء ان ذل الواحد منهم ذل لهم أجمعين ولا حسبت الطبقات النازلة ان زوال الطبقات العالية من الامة بمثابة زوال الروح من الجسم لانها سياج الاخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الامة في حياتها وشعورها ولا حياة لقوم لا يشعرون

ضعاف في الخيرات فما أثقل طلب الاحسان على أغنيائنا والموسرين
ضعاف في طلب حقوقنا فالرجل منا يسلب حقه ويهان ملكه وهو يقول

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

ضعاف في اداء الواجب علينا فكل من أقام في عمل يهرب منه ، ان
كان رئيساً استعمل الرئاسة في البطالة واتخذها شعاراً لعدم العمل ورمى
أعماله على مرؤسيه وان كان مرؤساً طفق يندد بالرئيس ويقول كان يجب
عليه أن يعمل كذا وكذا ولقد أخطأ في كذا وكذا وعاقبوني لاني قتت
بالواجب ولكنهم قوم لا يعقلون

١١ ضعاف في الاعتبار بالحوادث فنحن ننسى كل شيء وقد يكون
النسيان حاصلًا في زمن التذكير لذلك تقع في الخطأ بعينه كل يوم

١١١ ضعاف في حفظ ما ترك الآباء فكل يوم تشرق الشمس على بيوت
دصرت وأملأك نفر من أيدي وازيها فتتلقفها أيدي عرفت مكان الضعف
منا وتنبأت بزوال النعمة عنا فتربصت بنا ريب الزمان

ضعاف في التحصيل فالرجل يولد ويتربى ويهرم ويموت وكلما تراه قد

حافظ على ما كان في يده والنادر هو الذي يزيد عليه شيئاً يسيراً

ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة فهي التي نطالبها
بحفظ حياتنا وخصوبة أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا . هي التي
نطلب منها أن تربي الابناء وتطعم الفقراء وترزق المجزة وتنتج أسباب
البطالة وتحفظ الاخلاق وتلم شعث العائلات وتجمع أشتات القلوب، هي
التي نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا

وسيرتنا ورد هجمات المزامين عنا والسهر على مصالح كل واحد منا ، فاذا تأخرنا في عمل من تلك الاعمال باهمالنا رمينها بسوء الادارة واتهمناها بحب الاثرة والقيينا عليها تبعه خمولنا كلها

لا ريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل فانما الحكومة وازع لا يكف إلا ما اقتضته طبيعته وشأن الحكومات في الأمم تأييد النظام وحفظ الامن وإقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاودة بعضهم بعضاً على ما يضمن حرية التجارة ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة وعلى قدر ما تسمح به المكنات . وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه إلا الامر العام مما يدخل تحته جميع الناس ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه

وعلى الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام وتتنهز فرصة الامن والطمانينة لتسعى وراء منافعها وتطلب الكمال في زراعتها وصناعاتها وتجارتها وفي نشر المعارف وإحياء العلوم وفي أداء الواجب والمحافظة على الحقوق وهذا هو الذي أهملناه حتى أضغناه

تركنا الزراعة في انحطاطها والصناعة في تأخرها والتجارة في كسادها وصار كل الذي نطلبه من التعليم لا بنائنا ووظيفة في الحكومة يعيشون فيها عيشة الانكماش جرياً على سنة الآباء وما درينا أن الزمان يتقلب وأحوال المعيشة تتبدل وان وظائف الحكومة أصبحت آخر الحرف كسباً وأشدها تقييداً لحرية العمل وأقلها مشجعاً على الهمة والاقدام لانحصار مزاياها في ذلك الراتب الزهيد الذي لا يفي في الحقيقة بجميع حاجات الانسان في

حياته بعد ان كانت مصدر الثروة وموضع الراحة والامل ومظهر الأبهة
والفخار وعنوان الشرف والاعتبار

ولما قفل باب التوظيف خصوصاً في وجه العظلة والذين أضعوا وقتهم
في اللهو واللعب ظن الناس كلهم ان أبواب الرزق كلها أقفلت في وجوههم
وظهرت في الوجود نشأة جديدة تراها في الغدو والرواح مجتمعة في القهاوى
ومنتشرة في الطرقات وهى أعلم الناس بطرق التخريب وأسرعهم الى
الانصباب على تمزيق ثروتهم وتبديد ما جمع الآباء، وأصبحت الشبيبة أقل
استمداداً الى العمل الذى يمود على الامة بالخير وينهض بها الى التقدم والترقي
هكذا انصرفنا عن مصالحنا وأضعنا الوقت فيما لا يفيد حتى أحدثت
بنا المصائب وضائق علينا أرضنا

مصائبنا جهل بما احتجنا اليه وإهمال لما يعول في حياة الامم عليه وتمسك
بأهداب أحلام قد أشرقت عليها شمس الحقيقة فبددت غياها بها إلا من
عقولنا وبرهنت على بطلانها إلا في خيالنا فكان من وراء اصرارنا على
التعلق بهذا الخيال أن تربع الاجنبي بين ربوعنا وانفرد بمصالح دارنا وصرنا
تردد عليه لنخدمه وهو يتردد في قبولنا لكثرة ما أهملنا أنفسنا وقلة
ما اهتممنا بصالحنا وطول غيبة الصواب عنا

بذلك ازددنا ضعفاً على ضعف فاصبحت شؤوننا في أيد غير أيدينا
وذهبت أموالنا الى غير أهلينا مما لا يشفق علينا ولا لوم عليه لانه استفادها
بجده من خمولنا واكتسبها بكده مما أضعفنا واستخدمنا في منافعه جزاء
ما أهملنا منافعنا. ولانه رجل ثقفته العلوم وهذبته التربية الصحيحة فامت فيه

الادراك واستنارة بصيرته وقويت ارادته واشتدت عزيمته وعلم ان الحياة لا تقوم إلا بالمثابرة على العمل والسعى المستمر في طلب الكمال ومن سنن الله في خلقه أن يسود العلم على الجهل وأن تملو القوة على الضعف وان يبدد النور الظلمات . وعلم ذلك الرجل نور انبعثت أشعته وراء عزيمته تضيء جوانب الجهل فالت من الغرب الى الشرق وانكشف الستار عن رجلين أحدهما عالم مقدم ومدرك همام عزيز الجانب بهمته رفيع الشأن بفطنته والثاني جاهل قد استولى الجبن عليه فاستكان لحكم الزمان وأن تحت أثقال الحمول هذا هو الداء الذي نتألم منه وتلك هي الامراض التي تنهك جسم أمتنا وبديهي أن معرفة الدواء صارت سهلة على القراء

دواءنا التريية وسلامتنا في نشر المعارف والعلوم فعلينا بها بما بقى فينا من الشعور وماترك لنا من الاختيار في العمل قبل أن يتم الانحلال ويتعذر علينا القيام نعم لا أنكر أن النداء بوجوب التربية والتعليم يشعر بان المنادى بعيد عنهما ومثل هذا النداء لا يروق للذين تمكنت من قلوبهم الاثرة وحب الذات وصار أحب الناس اليهم من يهش لهم ويبش في وجوههم وان كان أقلهم رحمة بهم وحناناً عليهم - وكلنا ذاك الرجل - لكن الذي يسمى وراء الحقيقة ويطلب النفع لقومه مضطراً الى التخفيف من تلك العزة الباطلة والاقلاع عن حب ذاته وعدم الاسراع الى النفور من النداء حتى يتبين صوابه من خطائه ويميز بين ضاره ونافعه

وحب الاثرة هذا هو الذي جعل كتاب حضرة صديق الفاضل قاسم بك أمين (تحرير المرأة) الذي نشره في الشهر الماضي لا يروق في عين بعض

القراء، لانه يدعوهم إلى ترك عادة تأصلت في النفوس و عدت من الاعتقادات
 ونسبت غلطاً الى الشريعة السمحاء وليست منها في شيء من الاشياء مع أن
 المؤلف جمع في كتابه من شوارد الافكار ورفيع الافوال ما يعجب به كل
 محب لخير الأمة طالب لنفعها ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال
 النساء وعدم تربيتهن وتعدي الرجال على حقوقهن فكان ذلك النفور من
 كتابه لمحيثه على ما يخالف ما ألقته النفوس وارتاحت اليه

ولعل سر تقدم الانكليز السكسونيين لا يسلم من مثل هذا الانتقاد
 ولكننا الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى

غرضي من ترجمة هذا الكتاب تنبيه الافكار الى حالتنا التي نحن فيها
 ومقارنتها بحالة الأمة الفرنسية لتوقن بمد علمنا بما هي عليه من التقدم
 والعمران وبما بلغت من الدرجات الرفيعة في العلم والحضارة والعرفان انها
 احتاجت وهي على تلك الاحوال الى اصلاح شؤوننا لتضارع غيرها من
 الأمم فنحن أحوج منها الى التعليم وأشد افتقاراً الى التربية وأعوز الناس
 الى الاشتغال بما ينفعنا في هذه الحياة، كما اني أقصد الفات الاذهان الى أن
 الزمان يمر بالاقوال والأمة لا تحيي إلا بصالح الاعمال وانا أولى الأمم بالجد
 في تحصيل سعادتنا فبقدر التأخر ينبغي شد العزائم وتقوية الهمم وادامة
 السهر في العمل حتى نفوز بحظنا من هذه الدنيا

كذلك أريد أن تميل الافكار الى اطالة النظر في أحوال الأمة
 الانكليزية التي تحتل البلاد والى ان عمال الاحتلال هم قوم من ذلك
 الجنس الذي ألف هذا الكتاب لبيان السر في تقدمه وسيادته في الوجود

وهم ماداموا في بلادنا يجب علينا أن نقارن بين أحوالهم وأحوالنا وعاداتهم وعاداتنا ومعارفهم ومعارفنا وهممتنا وهممتنا وحركتهم وحركتنا واقتدارهم واقتدارنا وكفائتهم وكفائتنا وحوطهم وحوطنا وثروتهم وثروتنا، يجب علينا أن نقارن بين هذا كله وبين ذلك كله لاننا مضطرون الى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم في جميع أمورنا حتى إذا صح نظرنا وعرفنا الامر على حقيقته وتشعبت نفوسنا بما هو واقع لا بما نتخيله من غير تبصر وروية اهتدينا الى واجبنا القومى وعلما ان كان مجرد القول يجدينا نفعاً وهل الاجدر بنا دوام الاسترسال مع الامانى التي لا مرجع لها من عملنا وكفائتنا أم إطالة التفكير في الحوادث التي تجرى علينا لتعين الصالح لنا من الضار بنا ولتقصد باب النجاة فندخل منه ولا نبتغى عنه من ذلك الخيال بديلا

غرضى من ترجمة هذا الكتاب أن يكون مرآة يرى القراء فيها أمتين عظيمتين ودولتين نخيمتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت احدهما الاخرى فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكر في أسباب تلك الافضلية وقام العقلاء فيها وأرباب الاقلام يخبرونها بأسباب ضعفها ويرشدونها إلى سبيل الاصلاح فلم تنفر من هذا النداء بل أجابت الدعوة شاكرة مرشديها وثارَت مذعورة في طلب الكمال والتشبهه بجمارتها . وأخلق بنا أن نتمظبا أعظم منا وتمثل بمن بيننا وبينه في العلم والتهديب والقوة والسلطان والهمة والاقدام ما بين الارض والسماء ، ثم نأسف على زمن قضيناه في التنى وننفذ غبار الاوهام وناتمس اصلاح شؤونا بأنفسنا ولا نلجم عن سلوك طريق الكد والعمل فهو الذى فيه الحياة ودونه الموت الصحيح

غرضى من ترجمة هذا الكتاب لقومى هو غرض المؤلف من نشره على قومه لذلك يحمل بى أن أستعير فى البيان عبارته حيث يقول

« ان الحياة ليست لعباً وهواً وانما هى مغالبة دائمة ضد المتاعب والمتاعب لا تحصى والمتاعب متجددة فى كل آن ولن تنالوا النصر فى هذا الجهاد إلا إذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم لا على غيركم إذ كل ما يمكن لاهليكم وأصدقائكم ومحبيكم وجيرانكم وحكومتكم أن يساعدوكم به أقل فى الحقيقة بكثير مما يمكنكم أن تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم إذا عولتم عليها ولم ترجعوا فى أموركم إلا إليها

هذا غاية الحكمة ومنتهى رأى الصواب فاتبعوه ان كنتم للسعادة طالبين
 إنما رجل الدنيا وواحد لها من لا يعمل فى الدنيا على رجل
 أحمد فتحى زغلول

مصر فى أول صفر سنة ١٣١٧ - ١٠ يونيو سنة ١٨٩٩



مقدمة المؤلف

للانكليز السكسونيين أفضلية لا شك فيها لان كل انسان يشعر بها
ويقدرها قدرها ومن أكبر الدلائل عليها ما يجده كل واحد عند ملاقة
الانكليزي من التهيّب والحذر والغبطة أحياناً
نحن لا نكاد نخطو خطوة في العالم إلا وجدنا الانكليز امامنا ولا
نرى بنظرنا الى أملاك قديمة إلا رأينا العلم الانكليزي يخفق عليها وقد
احتل الانكليزي السكسوني الاماكن التي كانت لنا في أمريكا الشمالية من
كندا الى لويزيانا وفي الهند وفي موريس التي كانت جزيرة فرنساوية قديمة
وفي مصر وهو الآن يشرف على أمريكا بكندا والولايات المتحدة وعلى
أفريقيا بمصر ورأس الرجا الصالح وعلى آسيا بالهند وبرمانيا وعلى الاقيانوس
بأستراليا وزيلاندا الجديدة وعلى أوروبا وعلى العالم بأجمعه بمتاجره وصنائه
وسياسته والخريطة التي رسمناها في أول الكتاب يدل بأجلى بيان على
ما لهذه الامة من القوة على الانتشار فيخيل انها تريد أن تقوم مقام المملكة
الرومانية في سياسة الدنيا

لغير انكليز من الامم مستعمرات كفرنسا والمانيا وايطاليا وأسبانيا
إلا أنها مستعمرات تنحصر منافعها على الخصوص في الموظفين فترى ساطتها
المسكويه ممتدة في تلك الاقاليم ولكنها لا تأهلها ولا تغير من أحوالها ولا
تعود على الإقامة فيها كما هو شأن الانكليزي السكسوني ولروسيا والصين

أملاك شاسعة إلا أن غالبها خراب وقد لا يدخلها التمدن إلا بعد زمن طويل أما الأمم الانكليزية السكسونية فإنها بلغت ذروة التمدن الفعال الذي يترقى على الدوام وينبسط في جميع الأرجاء فلا يكاد ذلك الجنس ينزل بمكان مهما كان من الأرض إلا بدله وأدخل فيه بسرعة عجيبة أقصى ما وصلت إليه الأمم الغربية من التقدم والترقى وقد تفوتنا في ذلك غالباً تلك الأمم الحديثة حتى أنها تسمينا بالدنيا القديمة تسمية تشعر باحتقارها لنا ونحن في الواقع نظهر بجانبها من القدماء . انظر الى مافعلناه في كاليدونيا الجديدة وأملاكنا في الاوقيانوس وانظر الى مافعلوه في اوستراالياوزيلاندا الجديدة وقابل بين مافعله الاسبانيون والبرتغاليون في أمريكا الجنوبية وبين مافعله الانكليزي السكسوني في أمريكا الشمالية تجدد الليل والنهار

ولنا على هذه الافضلية دليل قاطع في الاحصائيات الرسمية التي تنشرها شركة قناة السويس فقد كان عدد المراكب التي مرت في القنال مدة سنة واحدة كما يأتي

١٦٠	مراكب فرنساوية
٢٦٠	مراكب المانية
٢٢٦٢	مراكب انكليزية

وعندي انه لا يكفي بيان هذه الافضلية والنداء بها على منابر النواب أو صفحات الجرائد واطهار الفيض مشيرين بقبضة اليد الى الانكليز كما تفعله القواعد من النساء الفضابي بل انواجب أن ننظر الى الامر من حيث ضرورة الاستعداد له كباحث يرتاض الحقائق بتأن واهمان حتى

يصل الى معرفة أسبابها لان حاجتنا هي في الواقع اكتشاف السر في انتشار تلك الامة وتقدمها في المدنية والعمران لنتهدى بذلك الى معرفة الوسائل التي أدت اليه

والفرض من هذا الكتاب هو البحث عن تلك الاسباب لاني أرى ان حياتنا ومستقبل أبنائنا متوقفان عليه

مقدمة الطبعة الثانية

قول

﴿ فيما يدعى من أفضلية الالمانيين ﴾

أبدأ بشكر الصحافة والقراء على حسن قبولهم هذا الكتاب الذي انتهت الطبعة الاولى منه في بضعة أيام وعرضى في هذه الطبعة الجديدة أن أجيب مقدماً على اعتراض عساه يخطر بالبال وهو من المعلوم ان التجارة الالمانية عظمت منذ خمس عشرة سنة حتى احجمت امامها التجارة الفرنسية في جميع الجهات وأضاعت جميع المراكز التي كانت تشغلها واحداً فواحداً وقد يخطر ببال المتأمل في هذا التقدم التجاري انه ربما يخشى منه أيضاً على تقدم الامم الانكليزية السكسونية في التجارة ويكنى للاجابة على ذلك أن نوضح الفرق بين الاسباب التي توجب قوة الانكليز السكسونيين وكنه هذه القوة وبين علة قوة الالمانيين، واني

اقتصر هنا على بيان مقدمات هذه المسئلة وتوضيح عناصرها وأشير على كثير من الشبان الذين حضروا درسنا في العلم الاجتماعى أن يتوجهوا في هذا الصيف الى المانيا ليشهدوا حالة تلك البلاد بأنفسهم

تكثر الجبال في القسم الجنوبي من المانيا كما تكثر الرمال والمستنقعات والجذب في الشمال ولذلك كان أهلها على الدوام من الفقراء المتعودين على التدبير في حاجاتهم والبساطة في معيشتهم والاكتفاء بالاجر القليل ففضيلة البساطة المشهورة عن الالمانيين هي فضيلة ألتأتم اليها طبيعة بلادهم وذلك مما يضعف من شأنها ولقلة أجور الفعلة وقلة حاجات تلك الامة انحصرت المصنوعات الالمانية بحكم الطبيعة دائماً في الاشياء المستعملة عند العموم ذات القيمة الزهيدة وهي حالة تستلزم في الحقيقة تأخر أتمها إلا انها صارت الآن مزية عند الالمانيين لسبب خارجى على انها لن تدوم أبداً، وبيانه ان اتساع نطاق وسائل النقل سهل الوصول الى البلاد الجديدة أو المتأخرة في التمدن ومكن من الاختلاط بالأأم البسيطة أو الهمجية فكثير عدد الذين يشترون البضائع العادية الرخيصة ووجدت الامة الالمانية سوقاً جديدة لمبيع سلمها واستفادت من ذلك على قدر أموال تجارها واقتدارهم في الصناعة والبيع والشراء ولكنها فائدة صغيرة لقله رأس مال كل تاجر على حدته وضعفه منفرداً - وطلباً للزيادة مال التجار إلى عند الشركات فجاءت لهم عوناً على نشر متاجرهم وتوسيع نطاقها وتوفر المال لديهم فقاموا الاسواق الكبيرة لعرض متاجرهم ومعرفة الانواع التي يكثر الطلب فيها وهذا عمل نستفيد منه علماء لدلالته على أن الشركات تسد جزءاً

عظيماً من النقص الذي ينشأ عن طبيعة الاماكن والعمل والترية التي تزيد في الشخص قوة الميل إلى الاشتراك اكثر مما تهيبه إلى العمل بنفسه سنيينه في هذا الكتاب ، إلا أن الشركات لا تزيل النقص وان خففته ولذلك فهي لا تقيد الالمانيين إلا حيث تسهيل العمل دون أن تحدث فيهم ما احتاج اليه كل فرد من القدرة الشخصية التي تمكنه من التقدم في الصناعة والتجارة بنفسها ولنا على ذلك ما جاء في رسالة نشرت حديثاً في المانيا عن تجارة تلك الامة في بلاد الترنسفال وبعث سفيرنا المركزي نواي بنسخة منها إلى وزير التجارة مما يدل على تأخر التاجر الالماني منفرداً عن التاجر الانكليزي السكسوني كذلك قال كاتب الرسالة « يحتاج التاجر الالماني إلى مساعدة حكومته وإلا احاط به الفشل كما أصابه في منافسته مع الانكليز أولاً فالالماني يخرج إلى العمل برأس مال صغير ثم هو على ما به من إقدام قليل الصبر غالباً » ولعله قال قليل الوسائل لان الالماني صبور « فلا ينتظر النجاح بل تنحل عزيمته اذا خاب صرة في مساعيه أما الانكليزي فانه يعلم أن النجاح معقود بأطراف المثابرة» ولديه من الوسائل ما يساعده على الانتظار « وفي الالمانيين عيب خاص يحيط مساعيمهم غالباً في « الترنسفال » وهو جهلهم بحركة الاسواق فيأتون ببضائع لا طلب لها يضاف الى ذلك عدم اعتنائهم بربط المتاجر وتغليفها « وهذا يدل على مقدار تمكهم في علم الاقتصاد المشهور عندهم قديماً « وجهلهم بطرق التسفير وعدم التفاتهم إلى اختلاط الاجناس في أسواق تلك البلاد ، ومن أسباب عدم نجاح التجارة الالماتية اختيار العمال ممن لا خبرة لهم بالتجارة وحاجات البلاد

التي يعملون بها ثم عدم اطلاق صراحهم في العمل كما ينبغي «
 ويعلم القارئ من أقوال صاحب الرسالة وهو الالمانى ان الالمانيين
 وان توصلوا بالشركات الى توسيع نطاق تجارتهم حتى خيل انهم يهددون
 تلك القوة العظيمة التي امتاز بها الانكليز في التجارة والصناعة لا يتيسر لهم
 ان يلحقوا ضرراً صحيحاً بهؤلاء

ذلك لان طريقة الانكليزى السكسونى في التجارة والصناعة تختلف
 عن طريقة نظيره . فالانكليز السكسونيين انما استولوا على الاسواق
 في الدنيا بأنفسهم وخدم الشخصى من غير مشاركة غيرهم لهم في العمل ولا
 مساعدة الحكومة وبالجملة فانهم توصلوا الى ذلك بواسطة احوالهم الاجتماعية
 التي ألفنا هذا الكتاب في بيانها ، وبديهي ان افضلية الرجل الذي يأتي
 بنفسه من الاعمال مالم يأتيه غيره مع الاستمانة فيه إلا ناقصاً لا يمتثل الشك
 ولا يحتاج الى الدليل وهذا هو حال الانكليز السكسونيين بالنظر الى غيرهم
 ومهما اجتهد الالمانيون وبالغوا في نشر متاجرهم في أسواق الدنيا فانهم لن
 يسبقوهم بل تبقى لهم تلك الافضلية لان الفضل الذاتي أثبت قدماً من
 الفضل المكتسب وكل انكليزى تاجر كبير بنفسه وصانع عظيم بعمله
 فلا خوف عليهم من صناع لا قوة لهم إلا مجتمعين ومن تجار لا حول لهم
 إلا مشتركين

ثم انه يجب على التجار أن ينوعوا تجارتهم وعلى الصناع أن يتفننوا في
 صناعتهم حتى تكون المتاجر والمصنوعات موافقة لرغائب الناس وطلبات
 الشرائين بحسب الزمان والمكان في كل آن ومعلوم انه يصعب على الشركات

التجارية والصناعية مهما قوى نظامها أن تتكيف بحسب الظروف لما يوجد بينهما وبين بعضها عادة. من تخالف المنافع وحصول المنافسة فالخلف لازم لطبيعة الشركات وهو السبب في اختلالها وهنا يثبت ان العمل قد يخالف العقول وان كان سديداً

ان الشركات الصناعية لا يمكنها أن تقاوم هذه البيوتات الانكليزية السكسونية لاجتماع أزمتهما في قبضة رجل واحد أو رهط من الرجال متحدين في المنافع ذى رأس مال طائل ولهم من الدراية مايفوق الوصف مما هو طبيعي في تلك الأمة التي يسهل عليها أن تدور مع أحوال التجارة كلما رأت ان الكسب قد وقف لتتجه في طريق جديد ، وبرهانه انه لما أحس الانكليز بغارة التجارة الالمانية صاحت جرائدهم بأصوات التحذير كما هو الواجب على كل حارس أشد تيقظاً من حراسنا وذلك يدل على شدة حذرهم وقوة التفاهم لما عساه يهدد ولو من بعيد أفضليتهم العظيمة في التجارة والصناعة . ولقد أخطأنا في فهمنا ان ذلك الصوت نذير الدمار صاحوا به لكي ينجو من يتمكن من النجاة ولا يجوز ان يجول هذا بخيالنا لان الفرق بين مائتين وستين مركباً ألمانية تمر في السنة بقنال السويس وبين ألفين ومائتين واثنين وستين مركباً انكليزية لا يخفى على من تأمل

على ان الصناعة الالمانية لم تتقدم في الاسواق على الصناعة الانكليزية كما قدمنا إلا في السلع الاعتيادية ذات الثمن الزهيد ولما رأى الانكليزي انه لا يمكنه صنع مثلها بمثل ثمنها في بلاده حيث الاجور مرتفعة حول نظره الى صنعها في بلاد أخرى تقل فيها حاجات الاهالي فاتخذ في تلك البلاد

بيوتاً تجارية ولا يخفى ما للانكليز من سهولة التوطن في البلاد الاجنبية وانى
أود أن يرتاح ضميرى فتلين تجارة فرنسا وصناعاتها كما لان الانكليز فيهما
ويفضل الانكليزى الالماني بأمرين مهمين لابد أن يتغلبا في المستقبل
الاول ان الالمانيين على العموم ما عدا سكان (هنفر ووستفالى)
الذين يلحقون بجنس الانكليز السكسونيين قليلوا الهمة في الزراعة فهم
حضرىون يفضلون الهجرة للتجارة عنها للاستثمار والزراعة فلا يتأصل نوعهم
في البلاد كما يفعل الانكليزى السكسونى ، ومن هنا جاء انهم كلما التقوا به
يبتلعهم هكذا يصير المهاجرون من الالمان في أمريكا الشمالية سكسونيين
بسرعة عجيبة فلم يتكلم الجيل الثانى منهم إلى الانكليزية ويصبحون
انكليزيين في عاداتهم وطباعتهم انهم يتعجلون في هذا التحول فيختارون
حتى من الاسماء ما يوافق أسماء الانكليز ، وهذا هو السبب في ان الجرائد
التي تصدر بالالمانية لا تثبت قدمها في الولايات المتحدة الا قليلا لان قراءها
ينحسرون في المهاجرين الوافدين قريبا من البلاد الالمانية ، وبينما طلاب
المصنوعات الانكليزية يكثر وازيادة عدد المستعمرين منهم في جميع أنحاء
المسكونة وانتشار جنسهم في الاصقاع كلها يقل عدد طالبى المصنوعات
الالمانية لتحول المانيين عن الزراعة واستحالتهم إلى انكليز سكسونيين
طوعا لما في هؤلاء من شدة المقاومة وقوة التغلب

وثانيهما شكل الحكومة التي وجدت في البلاد الالمانية عقب قيام
الامبراطورية لانا ذكرنا فيما سبق كيف ان المانيا القديمة توصلت على فقرها
بعملها واقتصادها إلى بث روح الانتشار الصناعى والتجارى في هذه الازمان

وقلنا ان ذلك راجع الى ما فطرت عليه تلك الامة من المزايا الحقيقية التي بقيت كامنة فيها الى أن ساعدت الظروف على نموها نمواً فجائياً وتلك الظروف هي اتساع نطاق وسائل النقل وتسهيل طرق المواصلات . فتقدم الامة الجرمانية في عصرنا هذا ناتج عن المانيا القديمة أما الامبراطورية الالمانية الجديدة فانها لا تنتج غير انتشار الجندة والادارة ومذاهب الاشتراكيين كما هو مشاهد الآن ما دامت على نظامها الحالي ، ولا يخفى ان تلك النتائج لا تقترن بسعادة الامم التي توجد فيها و ثروتها ، ألا توي انه لم يكن عندنا أيام لويز الرابع عشر و نابليون غير الداءين الاولين ولقد ذهبنا بنا الى أسوأ الاحوال ، وكذلك كان شأن البلاد الاندلسية أيام الملك شارل كان وفيليب الثاني

ومن لوازم تلك المنظمات في أول الامر انها تمثل الامة بمظهر القوة السياسية والاجتماعية لانها تجمع بسرعة جميع العناصر الحية التي تكوّنت شيئاً فشيئاً تحت ظل المنظمات السابقة في قبضه رجل واحد ، وذلك هو الزمن المجيد الذي كان للبروسيا أخيراً كما كانت عليه الاندلس وبلادنا في الازمان الغابرة ، غير ان اجتماع قوى الامة الحية في يد واحدة يؤدي مع الزمن الى ضعفها كلها وتمطيل منفعتها فتمنحل وتصير عقيمة وحينئذ يستولى الدمار والانحطاط على الامة ، واذا استمرت الامبراطورية الالمانية في الطريق التي وصلت منها « والظاهر انها تستمر » فانها لا تنجو من نتائجها وعلى الالمانيين أن يعجلوا الاستفادة من فضائلهم الاولى فينشروا تجارتهم ويكفوا عن ملامنا على تأخرنا فانما نحن السابقون وهم بنا لاحقون ، والخلاصة ان

الامة الانكليزية السكسونية تعظم وتتقدم بما لافرادها من الاعمال المفيدة المتجددة على الدوام وبما لها من حكومة نفسها بنفسها والامة الالمانية القديمة تفقد كل يوم فضائلها الاولى التي كانت أساس قوتها الاجتماعية ولا تزال تمدها الى الآن وسببه الافراط في السلطة السياسية، وقد توخيت تمييز المانيا القديمة من المانيا الجديدة في هذه المقدمة لان كلامي في الفصل الثاني من هذا الكتاب راجع كله الى هذا الاخيرة وأريد أن لا يتلبس الامر على القراء، وسنين في هذا الفصل كيف يسى امبراطور المانيا كما اعترف هو بنفسه الى اعدام المانيا القديمة وإيجاد المانيا الجديدة بواسطة تنظيم التعليم على مثال الامة البروسيانة

الباب الأول

﴿الفرنساويون والانجليز السكسونيون في المدرسة﴾

يظهر الفرق بين انكلترا والامم الغربية الاخرى منذ عهد المدرسة وهو فرق كبير إذا عرفناه سهلت علينا معرفة السبب في أفضلية الانجليز السكسونيين

كل أمة تنظم التربية حسب طبيعتها وعلى مقتضى أخلاقها وعوائدها ثم التربية نفسها تؤثر على الهيئة الاجتماعية وسيقف القارئ على بيان ذلك بما تقدمه له من الشرح على التربية في فرنسا والمانيا وانكلترا وبمد ذلك

مخصص مطالباً رابعاً نيين فيه تفسير الاحوال في هذه الايام ونأتى على ذكر الطريقة التي يجب أن تتبعها في تربية أبنائنا حتى يكونوا على درجة من الاستعداد تناسب الازمان الحاضرة التي أصبحت تخالف الازمان القديمة من جميع الوجوه

الفصل الأول

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنسية رجالات ﴾

اذا سألت مائة شاب فرنساوي عقب خروجهم من المدرسة أى صنعة يريدون أن يشتغلوا بها أجابك ثلاثة أرباعهم انهم يتطلعون الى التوظيف في الحكومة فغالبيهم يطمع في الانتظام في الجندية أو القضاء أو النظارات أو المديرية أو المالية او السفارات أو المصالح الاخرى كمصلحة القناطر والجسور والمعادن والدخان والمياه والغابات والمعارف والمكاتب العمومية ودور المحفوظات وغيرها، ولا يميل الى الصنائع الحرة في العادة منهم إلا الذين لم يتمكنوا من الالتحاق باحدى المصالح الاميرية

ولما كانت الوظائف في الحكومة معدودة عمدت الى طريقة الاختيار بقدر ما لديها من الوظائف الحالية، وطرق الاختيار ثلاثة الامتحان والوسائط ومراعاة الانساب والاحساب الا أن الوسائط والانساب لا يعول عليها إلا نادراً والامتحان هو القاعدة العمومية: لذلك أصبح النجاح فيه الشغل

الشاغل لجميع شباننا فان مستقبلهم متوقف عليه وأنحصر فكر العائلات في إيجاد الوسائل التي تمكن أبناءها من هذا النجاح وهكذا تولدت في أذهان الفرنسيين أهمية المدارس لأنها الواسطة الوحيدة التي توصل الى تلك المطامع وتجعل للانسان مركزاً في أمته وعنى القائمون بأمرها الى جعل نظامها بحيث يساعد على هذا النجاح وهم معذورون لان أهالي التلامذة لا تعتبرها إلا بقدر من ينجح من طلبتها في الامتحانات السنوية ، والمدرسة التي يقل عدد الناجحين من متخرجيها تنحط درجتها ويهجرها التلامذة حتى صار الفوز في الامتحان علة حياة المدارس الفرنسية

ولاسبيل الى تهيئة الطلبة للامتحان إلا بانهاك قوى المتعلم حتى يتحصل في زمن يسير على تعليم سطحي يتناول جميع العلوم المطلوبة في الامتحان فأما قلة الزمن فلسبيين ، الاول ملاحظة السن المقرر قانوناً للدخول في بعض الوظائف وقد لاحظت الحكومة في تحديده تقليل عدد الطلاب الذي يزداد كل يوم وجعل الامتحان صعباً ، والسبب الثاني تعجل الشبان على التوظيف لكي يترقوا سريعاً قبل وصولهم للسن المحدد للتقاعد ولا شك في أن التسرع في الزمن والاكتثار من المواد يجعلان التعليم سطحياً إذ كلما زاد عدد المتعلمين كثرت العلوم الواجب تعلمها وزادت صعوبة الامتحان ولم يقد في إمكان الطالب مهما بلغ من العقل والذكاء أن يتقن تلقى تلك العلوم كلها وأصبح يكتب منها بتصفح أوراقها ، ولو أن المعلمين أنفسهم تقدموا إلى الامتحان مع طلبتهم لمجزوا عن الاجابة على كثير من المسائل وخيف عليهم من الخذلان ، ولو كان الغرض من هذه الطريقة ايداع

المعلومات الحقيقية في أذهان التلامذة وتربية ملكاتهم العقلية لرسخت
التعاليم عندهم غير انه لا نتيجة لها ولا يقصد بها إلا تشجيع الذاكرة، لذلك
قلنا ان التعليم لا يدوم الا قليلا فلا يكاد التلميذ يجتاز الامتحان إلا وقد
أدركه النسيان، والناس لا يرون في هذا ضرراً لحصول الغرض المقصود اذا
يكفى أن يكون الطالب مستعداً لجواز الامتحان فان وفاه حقه صار كل
مرغوب بئمه من الكماليات، فيه يحصل التوظيف وهو متعنى الآمال،
وعلى هذا يتبين لك أن الامتحان أصبح السبب الوحيد في تكليف التلامذة
ملا يطيقون ومن أجله أيضاً وجد نظام انقطاع الابناء عن أهليهم وسكنهم
بالمدراس ليلا ونهاراً وهو النظام المعروف عندهم (بالداخلية)

وقد احتاجوا الى ذلك لاعتماد الفرنسيين في تربية أبنائهم على
المدرسة توصلنا الى النجاح في الامتحان حتى ينالوا وظيفة في الحكومة،
وصعوبة الامتحان على ما قدمنا تقتضى طرقاً مخصوصة في التعليم ووسائل
تجهلها العائلات وان لم تجهلها فانه لا يتيسر له استعمالها ولا أن تراقب العمل
بها ومن جهة ثانية فانهم يخافون أن يضيع الوقت ويخشون من اشتغال
أبنائهم بما يلزمهم عن الغرض المقصود ان لم يبتوا في المدارس

ومما لا شك فيه ان هذا النظام ملائم لذلك الغرض كما ينبغي أي انه
يهيئ الطلبة الى الوظائف الملكية والعسكرية، ويبيانه ان الموظف الحقيقي
هو الذي يجب عليه أن يتناول عن ارادته ولهذا وجب أن يتربى على الطاعة
ليسهل عليه تنفيذ أوامر رؤسائه من غير مناقشة ولا نظر فيها لان المطلوب
منه أن يكون آلة في يد غيره، والداخلية من أعظم البواعث على هذه التربية

لان المدرسة نظمت على نسق ثكنة عسكرية يقوم الطلبة فيها من نومهم على صوت البوق أو رنة الجرس وينتقلون مصطفين بالنظام من عمل الى آخر ورياضتهم تشبه الاستعراض العسكري فهم لا يخرجون من الدرس إلا في رحبات داخل البناء عالية الاسوار ويتمشون فيها جماعات جماعات كأنهم لا يلعبون ، وليس لهم من الزمن ما يستريحون فيه من عناء الدرس والمطالع فلهم نصف ساعة في الصباح وساعة بعد طعام الظهر ونصف ساعة بعد العصر ومعدل خروجهم من المدرسة يوم واحد في الشهر ولا يتيسر للعائلات زيارة أبنائهم أكثر من مرتين في الاسبوع مدة ساعة على الاكثر في مكان مخصوص مزدحم بالموجودين بحيث يسمع بعضهم بعضاً ، ومن الواضح ان هذا النظام يضعف في الشاب قوة العمل الاختياري ويوهن الهمة والاقدام كما أن من شأنه أيضاً إزالة ما قد يوجد بين الطلبة من تفاوت الانساب لان الدائرة التي تدور على الجميع واحدة فتجماهم في الحقيقة آلات معدة للعمل الذي يقصده منها ، ومما يزيد في سهولة اتقيادهم وحسن طاعتهم كون النظام التي تربوا عليه لا يؤدي الى تربية الفكر والتعقل بل الطالب يتناول مسرعاً كثيراً من المواد سوام أحكم تعلمها أم لا ولا تشغل من ملكاته إلا الذاكرة فكما أنه يتلقى التعليم من دون نظر فيه تراه يتحنى من غير تردد أمام الاوامر التي تصدر له من رؤسائه في المصالح التي يوظف فيها ولا غرابة في هذا الفن فان مصدر ذلك التعليم وتلك الأوامر واحد في الحقيقة وهي الحكومة ، وكأني بهم يقولون له : أيها التلميذ ان الحكومة قد علمت مبادئها فصرت اليوم موظفاً تتأقأوامرها ، ومرجع الصفتين واحد

كما ترى

وأول من التفت إلى جعل المدارس أماكن لتربية الموظفين نابوليون الأول، ففي القرن السابع عشر والثامن عشر كانت «الداخلية» نادرة ولم تعمم الأيام الامبراطورية الأولى، فلما أسس نابوليون الأول مدارس الحكومة جعلها قاعدة عمومية لأنه ما كان يتيسر له أن يدير للسلطة الملكية التي جمعها في يده إلا بكثرة عدد الموظفين ووجب من ذلك الحين على الحكومة أن تلاحظ تربية الشبان الذين تضطر إلى استخدامهم فالت بالطلب إلى تقرير المبادئ التي توافق مصلحتها وتمويد الطلبة عليها قبل نمو الإدراك الحقيقي فيهم حتى تتوصل بذلك إلى الغرض المقصود وهو إضعاف همهم وتمويدهم على الطاعة والاشتراك في الاحساسات والتجانس في الأفكار وبالجملة فانهم ينشأون على ما من شأنه نحو الانانية في الانسان، وقد سرت الحكومات التي جاءت بعد الامبراطورية الأولى على اختلاف أشكالها في ذلك النهج وهو الذي نبني عليه اليوم سياسة البلاد فلم ينقص عدد الموظفين ولم يضعف جمع السلطة في اليد العليا بل زاد ذلك من أول هذا القرن ونشأ عنه اتساع نطاق التعليم السطحي كما انتشر نظام الداخلية في المدارس

ذلك هو النظام الذي يتربى عليه السواد الأعظم من الفرنسيين رجاء الفوز في الامتحان الذي يفتح لهم باب الوظائف في الحكومة، غير أن نجاحهم ليس على قدر أملهم فكلهم أمل وليس الكل موظفين، ويصبح الذين سدت أبواب الحكومة في وجوههم مضطرين إلى طلب

العيش من باب آخر ، وهنا يجب النظر فيما اذا كان نظام المدارس الحالى وافياً بالعرض المقصود من تربية الرجال على مبادئ الارتزاق من غير الحكومة أم لا كما انه صار وافياً بتربية الموظفين ، وهذه مسألة كبرى ينبغى الالتفات اليها

ومن المعلوم انه لا يتيسر للانسان أن يحصل معيشته إلا اذا كان ذا ارادة وهمة وكان متموداً على الاعتماد على نفسه ، والنظام الذى شرحناه لا يساعد على تربية هذه الكلمات بل انه يضعفها ويميتها ويعود العقل على انتظار المراكز المجهزة من قبل حيث لا يكافه التقدم فيها إلا أن يكون صبوراً لا أن يكون صاحب عمل. اذ الترقى فى الجيش وفى مصالح الحكومة انما يحصل بالاقدمية والاستصناع وكل الذى يجب على الطالب أن يعمله هو الدخول فى الخدمة ، ومتى استقر فى وظيفته يترك نفسه فينتقل بحكم العادة من وظيفة الى أخرى ، ومن كان هذا شأنه قل أن يكون شجاع النفس ذا قلب يميل الى التعب حباً فى الحياة وينبغى أيضاً لمن يطلب الرزق بنفسه أن يكون شاباً لان الشبوية تسهل للانسان اجتياز العقبات التى تصادفه بالطبع فى بداية العمل ايّاً كان . ثم هى لازمة على كل حال لمن يريد أن يتعلم صنعة من الصنائع ، وطالب التوظف فى الحكومة مضطر الى البقاء بغير كسب حتى يبلغ الحادية والعشرين أو الخامسة والعشرين وربما كانت الثلاثين وأكثر منها ، فاذا ضاع أمله فى الاستخدام أمسى وقدسدت أمامه ابواب حرف كثيرة ولات حين اعتناقها بفقد وسائلها ثم الحرف فى الغالب صعبة المثال قليلة النفع فى أوائلها ولا تنسى ان الطمع يشتد فى الانسان كلما

تقدم في العمر ، وكلما زاد الطمع صعب نوال المطلوب ، وهكذا يفوت الوقت وتتماقب الأعوام وتزداد الصعوبات والمرء واقف بين الاقدام والاحجام وليست الشبوية بكافية وحدها بل لابد معها من أن يكون في الشباب استعداد وميل للصناعة التي يطلبها وان يكون على معلومات تليق بها اذ لا يصير المرء من أرباب الزراعة أو الصناعة أو التجارة دفعة واحدة بل كلها أعمال تقتضى التدريب ولا تنال إلا بالعمل واقتفاء أثر الآباء والأجداد

ونظام مدارسنا لا يهيىء إلى مثل تلك الاعمال بل انه يبعد المتعلمين عنها لانه يفرس فيهم الاعتقاد بأفضلية الوظائف في الحكومة ، وكثير ممن لا حياة لهم الا بالزراعة أو الصناعة أو التجارة يندهشون عند ما يسمعون أبناءهم يوم يخرجون من المدرسة يقولون انا لا نريد أن نحذو حذو آبائنا ، وما للدهشة موجب فان المدرسة قد بغضت اليهم صنائع آبائهم حتى صار الناس لا يلومون الشباب على قرارهم من المهن والصنائع الجارية مع كونها أشرف الاعمال وأنفعها ، ومن يرجعون منهم اليها بعد خذلانهم في الامتحان لا يعملون فيها الا عن قهر واضطرار على غير استعداد ولا ميل ، فهم يدخلونها وشروط النجاح غير متوفرة لديهم

ومع ما تقدم فان نظام المدارس عندنا يهيىء المتخرجين منها الى عمليين آخرين غير التوظف في الحكومة وهما الاستخدام في المصالح الحرة واعتناق الحرف الادبية ، فاما كونه يهيىء الى الاستخدام في المصالح الحرة فظاهر لما بين مصالح الحكومة والمصالح الحرة من الشبه فان هذه لا تطلب من مستخدميها استقلالاً في العمل ولا قوة في الإرادة ولا اجتهاداً أكثر مما

تلك ، وهي مثلها في ضمان المعيشة ، والتقدم فيها محقق بطبيعة نظامها وان كان بطيئاً ، فان لم ينجح في الامتحان يركض نحو تلك المصالح حتى كثر عدد الطلاب وتعذر عليها أن تستخدمهم جميعاً ، وكذلك كثر الميل إلى الاحتراف بالحرف الادبية لان نظام المدارس من شأنه أن يوجد عند الطلبة معلومات عامة لكثرة عدد المواد التي يدرسونها فيخرج الطالب منها وهو على اعتقاد تام بأنه عالم بكل شئ ، لانه مرّ على كل شئ ، وفي وسعه أن يتكلم عنه أو يكتب فيه فيصير رجلاً أديباً من أى صنف كان ، على أنه مضطر للالتجاء إلى تلك الحرفة فان المدرسة لم تحسن تربيته أو أنها جعلته غير صالح لان يكون ذا صنعة مستقلة غيرها ، ومما هو مشاهد للعيان أن نظام التعليم عندنا يربى أذهان الذين يحترفون بتلك المهنة على كيفية مخصوصة وهي ضعفهم في البحث فلا يكاد الواحد منهم يجيد النظر في مسألة إلا قليلاً ، لكنهم من ذوى الاقتدار التام في التخيلات والحكم بالاستقراء الناقص مما يقرب إلى الخطأ أكثر منه إلى الصواب ومن أحسن ما يستدل به على ذلك مطالعة (جريدة المطبوعات) التي تنشر كل يوم ما يؤلف من الكتب الادبية في فرنسا إذ يتبين أن المؤلفات التي تقتضى وقتاً وعناء ثقل يوماً فيوماً ، والذي يؤلف منها هو في الغالب ثقل من كتب متعددة على شكل كتب دائرة العلوم لا مؤلفات شخصية وضعها صاحبها بعد اطالة الفكر وامعان النظر ، بل تلك رسائل مطولة سهلة التناول ، والنرض منها جمع عدة مسائل بكيفية تسهل الوقوف عليها ولم يعد يوجد في فرنسا من مؤلفي الكتب الشخصية وقراءها إلا عدد يسير ، ومن هنا جاء أن ملزمي طبع الكتب يجمعون عن

طبعها اذ زادت عن مجلد واحد أو ما يقرب منه ، وليلاحظ أن هذا الضعف وعدم القدرة على درس المسائل كما ينبغي ليس ناشئا من طبيعة الامة الفرنسية بل دليل الفرق بين مؤلفات القرنين السابقين وأول القرن الحالى وبين المؤلفات التي ظهرت منذ أربعين سنة ، بل مرجع هذا الضعف صيرورة التعليم سطحيا في المدارس لعل الامتحان ، ومتى تعود الفكر على الاخذ بظواهر الاشياء ، وأن لا يطالع الانسان الا في كتب صغيرة ، وأن يكون سريع الفهم لا قويم الحكم ، وأن يكثر من الاحاطة بعدد كبير من المسائل في أقرب وقت تشبهاً بوضعها من غير تأمل استحاله عليه أن يجيد البحث لصيرورته غير قادر عليه ، ويزداد هذا الضعف بمقدار زمن ذلك التعليم السطحي ، وأشدّه عند طلبة المدارس العالية فهم يفضلون غيرهم بقوة الذاكرة وسرعة الخاطر وسهولة فهم المراد وهي الملكات التي عنى بتربيتها فيهم وكان سبباً لنجاحهم في الامتحان ، إلا أن عجزهم يظهر إذا طلب منهم أن يعملوا عملاً من وظائف تلك الملكات التي ارتفعت صورة وانحطت حقيقة والخلاصة أن وظيفة المدارس عندنا في هذه الايام قد انحصرت في تربية الموظفين ولم تعد صالحة لغيرها وتمدت الشقة بينها وبين ما يجب لتربية رجال حقيقيين

الفصل الثاني

﴿ وفيما اذا كان نظام التعليم في المدارس الالمانية يربى رجالا ﴾

من نكد الطالع انه لا يدوم لنا موضع رجاء ، كأنما روح خبيثة سلطت على كل عمل نرجو الفلاح منه ، وقد حان الحين على المدارس مضى علينا زمن لم ندخر ثميناً إلا بذلناه في سبيلها حتى بلغ اعتناؤنا بها درجة العبادة ، والسبب في هذا الاهتمام انه لما انتصر علينا الالمانيون ظننا ان علة انتصارهم تقدم مدارسهم فاكثرتنا من مواد التعليم وزدنا عدد المدارس وبذلنا النفيس حتى أصبحت أما كن التعليم قصوراً عالية وعم الاهتمام جميع أفراد الأمة ثم صيرنا التعليم مجانياً ثم اجبارياً على جميع الناس ، فدخل المدرسة ابن الفلاح وابن الحضري ومقتنا كل من ارتاب في نفعها ، وكانت الافكار متجهة الى تقليد الالمانيين في كل شئ ، فأخذنا عنهم نظامهم العسكري وجارينا في أساليب التعليم وطرق التربية وعلم أصول اللغات الذي اشتهروا فيه بتعميقهم وسفسطتهم اعتقاداً منا بانه لا تقوم لنا قائمة إلا اذا تعلم أطفالنا متون اللثة اللاتينية ، هكذا كان رأى المدرسين وفي أثرهم جميع الفرنسيين ولم يمض زمن طويل حتى انقلب هذا الاعتقاد وقال أهلوهم انهم كانوا في رأيهم مخطين وأجمعوا في البلدين على عدم فائدته كما كانوا على استحسانه من قبل جميعين

أما عندنا فبدأ المتأملون يهمسون برأيهم فلما وضع الأمر جهروا بان

المدارس لم تأت بالفائدة التي كانت تنتظر منها، وان الاكثار من مواد التعليم قد أوجب ضمف المعلومات، وان عدد الناجحين في الامتحان يميل كل يوم الى النقصان، واستشهدوا بالوقائع والارقام، وقال المتطرحون ان توسيع نطاق المدارس كان سبباً في كثرة من لاصناعة لهم ومن لاقدرة فيهم على العمل، وان في ذلك خطراً عظيماً، وصدرت هذه الاقوال في مبدأ الامر عن قوم لا علاقة لهم بجماعة المعلمين ورجال الحكومة فلم يلتفت أحد اليها وظنها الناس تحاملاً على المعلمين، وما كان إلا قليل حتى قام رجال التعليم في فرنسا. ومنهم الرؤساء العظام كوزراء المعارف ورفعوا أصواتهم بتلك الشكوى وصاح بعضهم في صحن مدرسة السربون^(١) انه لا بد من ادخال الاصلاح على نظام التعليم، وان الحال يقتضى التمجيل بلا مهل، ولولا ان الالمانيين كانوا يرضجون في برلين عاصمة بلادهم بمثل هذه الشكوى لظن الناس ان صراخنا من قبيل ما عرفنا به من حب التغيير وسرعة الانتقال بين حدى التفريط والافراط، وناهيك ان صاحب الشكوى الالمانية هو الامبراطور نفسه، وكانت النتيجة أن اتفق البلدان على الجهر بان نظام المدرسة لم يأت بما كان ينتظر منه بعد ان كانا يطنطنان بانه لا فضل فوق فضله ولا فائدة القراء نذكر لهم خطاب امبراطور المانيا^(٢) لعرفوا السبب في شكواه ويقف على الذي يريد من المدارس في بلاده وطريقة التعليم التي يميل اليها ويتبينوا ان كان في الامكان تحقيق أمانه

(١) هي اكبر مدرسة جامعة وفيها مركز الجمعية الكبرى للتعليم (٢) هو خطاب لقاء الامبراطور غليوم الثانى على جمعية المعارف الالمانية منذ سنتين

خص الامبراطور القسم الاول من خطبه بشرح هذه الجملة « ان المدارس لم تعطنا ما كنا نرجوه منها » ومن رأيه ان المدرسة لم تنجح في التعليم نفسه أى في إيجاد المعارف في الازهان ، « قال ما كنت في احتياج لاصدار الامر الذى تفضل حضرة الوزير بذكره لولا ان المدارس لم تصل الى الدرجة اللائقة بها ، وليعلم عنى أنى ما قصدت بالشدة واحداً من الناس ، ولكن فكرى موجه الى نظام التعليم نفسه وأقول ان المدرسة لم تأت بما كنا ننتظره منها ، وسببه الخطأ في أمور كثيرة ثم أخذ يندد بالتعليم بالمواد التى يجرى فيها والطريقة المتبعة وبدأ بفن تعلم اللغات الذى كانوا يبنون عليه . أما لا كثيرة معتقدين انه سيصير علماً يكون من أكبر الاسباب فى تضلع الطلبة من علوم الأدب فقال « ان الامر المهم الذى يجب الالتفات اليه هو ان مدرسى اللغة وجهوا جلي اهتمامهم إلى مادة التعليم وإلى التعليم نفسه منذ سنة ١٨٧٠ لكنهم لم يلتفتوا إلى تربية الاخلاق والنفوس على ما يحتاج اليه فى هذه الاوقات وانك يا حضرة المتشار هنزيتير وأسالك العفو فيما أقول » من علماء اللغات ذوى الخيال ، غير انى أرى الامر وصل الى حد لا يجوز أن يتعداه

ويرى القارىء من ذلك ان الامبراطور شديد على النظام اشتداده على موضوع التعليم وهو اللغة اللاتينية التى اعتبرت الى الآن أساساً لكل تعليم فان الالمانيين يفتخرون بعلماء تلك اللغة منهم افتخارهم بعلماء اللغات الاخرى وقد آن أو انصرافهم عن هذا الخيال قال ملكهم « يكثر الناس أيها السادة من الاعتراض فيقولون ان اللاتينية لازمة لتعميد المرء على مطالعة اللغات

الاجنبية الى غير ذلك من الاقوال ، على اني أيها السادة كنت أيضاً أتعلم اللاتينية وأعرف كيف كان يكتب التلميذ درسه فيها ، كان الواحد منا ينال الدرجة الرابعة في درسه الالماني وهي الدرجة المتوسطة في الغالب وينال الدرجة الثانية في اللغة اللاتينية وهي درجة عال ، ولو كان الامر بيدي لعاقبته بدل المدح والثناء ، إذ من الواضح انه ليس هو الذي كتب درسه اللاتيني بنفسه بل انه لم يوجد واحد في الاثنى عشر كتب درسه بغير معين ومع ذلك كانت كلها ملحوظة بعين القبول والرضا ، هكذا كان يتعلم الشبان تلك اللغة على انه لما كنا في المدرسة الابتدائية ما كان الواحد منا ينال الدرجة المتوسطة في كتابته على (مينابرزهم) أو على (ليسنج) ^(١) إلا بالمشقة والعناء لهذا أقول تباً للدرس اللاتيني انه يضايقتنا ويضيع علينا وقتنا »

ثم انتقل الى الكلام على خيبة التعليم من جهة العملية أعني من جهة تكوين الرجال وأعدادهم للنجاح ، وهو أهم قسم في خطابه ، وعلى كل حال فانه توسع فيه كثيراً وكان ناظر المعارف شرح في خطابه الافتتاحي فكرة الامبراطور وبمحت فيما اذا كان ينبغي للأمة الالمانية « ان تبقى أمة تفكر وتصورات تبحث عن راحتها في مخيلتها مع ما حصل من التغيير في حالة البروسيا وألمانيا » وقال بان ذلك لم يعد في الامكان « اذ قد اتجهت انظار الأمة الى الخارج بل ومالت الى الاستعمار » وهو قول واضح لا ابهام فيه يدل على ان الغرض مساعدة انتشار الامة الالمانية واعدادها إلى مشاركة الأمم الاوروبية في الاستيلاء على العالم ، لذلك أشار الوزير الى وجوب

(١) اثنان من رجال الادب الالمانيين ولد الاخير سنة ١٧٢٩ وتوفي سنة ١٧٨١

العدول عن طريقة التعايم في المدارس العالية المتبعة الآن، واشتد الامبراطور في الكلام على كيفية التعليم فقال «ألاحظ أولاً أن الفرض من كلامي توجيه الافكار خاصة إلى طريقة التعليم والتربية التي يجب علينا اتباعها في تهذيب شبيبتنا حتي تكون مطابقة للضرورات الحالية التي أوجدنا فيها مراكزنا بين الامم وقادرة على احتمال متاعب التضاحم في الحياة» هاتق نطق الامبراطور بما كان مكنونا يريد اعداد الالمانيين إلى التضاحم في الحياة وجعلهم رجال عمل قادرين على التحصيل ومقاومة مزاحمهم من الامم الاجنبية في البلاد الخارجية، وقد أخفقت مساعي المدارس في هذا الموضوع لانه لا يخرج منها الا قوم لا حرفة لهم ولا أهلية فيهم أو أنهم لا يقدررون على غير الاشتغال بتحرير الجرائد، ومنهم من أنهك الدرس قواه فصار أعشى وأمسى ضعيف القلب فآثر العزم في أي عمل يحتاج اليه، ذلك ما صرح به الامبراطور في كلامه قال مبتدئاً بتكليف التلامذة في التعليم فوق طاقتهم مما أضعف أبدانهم وخط من قوة الارادة فيهم ما يأتي «وإذا رجعنا إلى أوقات التعليم رأينا من الضروري تغيير ساعات العمل الذي يكلف به التلميذ في بيته اذ يذكر حضرة المستشار (هينزيتير) أن شكوى العائلات وعدم رضاهم عن الطريقة المتبعة الآن موجودان منذ كنت أنا بمدرسة (كاستيل) الابتدائية وأن تلك الشكوى بلغت مسامع الحكومة فأمرت بتحقيقها وتبين منها أنه كان يجب على كل تلميذ أن يقدم لناظر مدرسته في كل صباح شهادة بمقدار الساعات التي قضاها في تحضير دروس اليوم الثاني بمنزله أما أنا فكنت أشتغل سبع ساعات كما يشهد به حضرة المستشار يضاف اليها

ست ساعات في المدرسة وساعتان في الاكل والباقي من اليوم معلوم «
وهو في الحقيقة تكليف شديد لم ينجح الامبراطور من اضراجه إلا باستعمال
طرق لا تيسر لجميع الناس كما قال « ولولا أنى كنت أركب جوادى
وأناطق حرراً في غير الاوقات لما عرفت شيئاً من أحوال الدنيا »

نعم ركوب الخيل يخفف ضرر الافراط في الدرس ولكنه لا يكفي
لمعرفة أحوال الدنيا، ومهما كان في قوله من مواضع الانتقاد فإنه أصاب
منشأ الضرر وحث على وجوب ملاقاته فقال « وأرى من الواجب مداواة
هذا الداء، فقد بلغ السيل الزبى أيها السادة ولا قبل لنا على ترك الحال كما هي
إذ جاوزنا الحد الذى ينبغى لنا الوقوف عنده وأتمت المدارس بما فوق طاقة
البشر وتخرج منها من المتنورين ما زاد على المطلوب زيادة لا تحتملها الأمة
ولا تطيقها الافراد » هذا كلام يخالف رأى الذين يزنون عظمة الأمم وقوتها
بقدر عدد المتنورين من رجالها، قال الامبراطور « وقد أصاب البرنس
بسمارك في قوله ان لنا من حائزى الشهادات صعا ليك، لان السواد الاعظم
ممن رشحهم الجوع وعلى الخصوص حضرات أرباب الجرائد من متخرجى
المدارس الذين لم يفلحوا » أما قوله « ممن رشحهم الجوع » نجاف وأما قوله
« لم ينجحوا » فصواب من بعض الوجوه قال . « وفي هذا من الخطر ما لا يخفى
لان هذا الافراط الذى بلغ حده قد جعل بلادنا شبيهة بأرض غصت
بالمياه فلم تعد تحتل السقاية من جديد، لذلك لن أسمح من الآن بزيادة
عدد المدارس العالية إلا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة أما الآن
فعمدنا منها عدد يكفيننا) وهذا القول أيضاً يخالف رأى الذين يزنون

عظمة الأمم وقوتها بقدر عدد مدارسنا، ومما هو جدير بالنظر أن الذي يقيم هذه القيامة على المدارس ليس متبرراً ولا جهوداً لا يخرج من غابات جرمانيا، بل هو ثمرة من ثمار أكبر تقدم وصلت إليه المدارس في الدنيا وناشئ في البلاد الألمانية التي اشتهرت بالاجتهاد والتمكن من العلوم والتعمق فيها ردد الامبراطور الكلام في آخر خطابه على مضار طريقة التعليم الحالية بأجسام التلامذة فقال: « وما الذي نرجوه من رجل لا يرى الأشياء بعينه فقد قلَّ الابصار بين تلامذة المدارس حتى بلغ الاعشون منهم أربعمائة وسبعين في كل مائة، ومع أن غرف التدريس في مدرسة كاسيل مذ كنت فيها كانت تقيه الهواء اجابة لرغبة والدتي ولم يزد عددنا على واحد وعشرين تلميذاً كان منا ثمانية عشر يلبسون العيون الصناعية (نظارات) وقد تولاني الفرع من ذلك وأؤكد لكم أن كثيراً من العائلات قدّمت عرائض لا تحصى شاكية من تلك الحال وراجية توجيه أنظاري إليها، ولما كان أمر ذلك راجعاً إلى لاني أبو الوطن فن الواجب على أن أعلن للناس بان تلك الحالة لن تدوم أيها السادة لا ينبغي أن ينظر الناس الى الدنيا بعيون من الزجاج بل بأعينهم الطبيعية، وأنا أعتقدكم بأنى سأوجه الافكار نحو ما ذكر » والذي يتلخص من ذلك كله أن المدارس لم تنجح في التعليم العملي كما

حبطت مساعيها من الجهة العلمية

ثم أنها لم تأت بالمراد أيضاً من جهة ثالثة وهي الجهة السياسييه وهي أهم الجهات التي تلام على النقص فيها، إذ لا يخفى أنه كان ينتظر من المدارس توجيه أفكار الشبان الى الخطه السياسييه المطلوبة، وهذا الامل هو الذي

مال بالأحزاب عموماً والحكومات خصوصاً الى رئاسة المدارس والقبض على زمام التعليم فيها لا اعتقاد الكل يقيناً انها أنجح الوسائل في الوصول الى الغرض المقصود فلا يختلف في ذلك اثنان ، تلك هي العلة في اشتداد الخصاص بين الأحزاب على المدارس وطرق التعليم فيها وما يجب تعليمه حتى صارت في البلدين فرنسا والمانيا من أهم الوسائل التي تستعمل للفوز في الانتخابات ، وقد كثر اختلاف الأحزاب على قوانينها حتى سنت كل بلد قانوناً مخصوصاً تحرت فيه حكومتها تأييد النظام الذي يوافق مصالحها فأصبحت في يد الحكومة قلبها كيف تشاء ولعب الامبراطور بالمدارس الألمانية كما لعبنا بالمدارس الفرنسية من غير معارض ولا منازع

ومن المستغربات بعد هذا أن يقول الامبراطور نفسه اليوم ان المدارس لم تأت بما كان ينتظره منها سياسياً وهو أعلم من غيره بما يقول . ولقد بدأ رجال السياسة عندنا يقولون مثل ذلك القول لان عدداً غير قليل من الاغلبية وهو الاكثر فطنة وذكاء يجاهرون بانهم لم يستفيدوا من المدارس ما كانوا يرجون ويشيرون بالمدول عنها ويلاحظون بان عدد الذين نفروا منهم بسبب القوانين التي سنوها لها أكثر من الذين استمالوهم بواسطتها . ثم أفصح الامبراطور عن الذي كان يرجوه من المدارس سياسياً فقال « ولوأتت المدارس بالفائدة المقصودة منها لتاومت أحزاب الجمهورية ، أقول هذا عن خبر وعلم لاني كنت في المدارس وعالم بما يجري فيها » وقوله هذا يطابق قول الفئة القليلة في مجلس النواب الفرنسية بالتمام أيام كان الامر بيدها في البلاد ويطابق أيضاً قول الاغلبية الحاضرة لانها كانت ترى وجوب

الاستظهار على الحزبين الملوكي والديني بواسطة المدارس وهذه المطابقة تدل على ان الافكار واحدة في الجهتين وصيغ القول متحدة والفرض واحد هو اتخاذ المدارس سداً للتلطط السياسي ، ولترجع الى خطاب الامبراطور لتبين حقيقة مراده قال « كان من الواجب على المدارس أن تلتفت الى المطلوب منها كما ينبغي فتنشر في الأمة تعليماً يجعل الشبان الذين من سنى أى الذين قاربوا الثلاثين على صفات تسهل لهم أن يهيئوا من أنفسهم ما أنا محتاج اليه من المعدات والوسائل في خدمة الدولة فأتمكن من الاشراف على حركة البلاد في وقت قريب » والحق يقال ان الملك لم يسلك في خطابه سبيل الابهام بل قوله واضح صريح ، يريد أن تعدله المدارس عمالاً وأعوأناً يتمكن بهم من الاستيلاء على زمام الحركة في بلاده ، هذا هو رأيه في التعليم ، وهذا هو الشأن الذي يريد أن يكون للمدارس ، وليس لنا أن نبحت فيما اذا كان رأيه مقبولاً عند المدرسين والعائلات في تلك البلاد ، ثم أشار الى أن المدارس لم تقم بالواجب فقال « ولم تأت المدارس بما ذكر وليس من زمن نبحت فيه مدارسنا في جميع أدوار حياتنا الوطنية وساعدت على تقدمنا إلا سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ففي ذلك الحين كانت المدارس البروسيانة والمكاتب مودع فكر الوحدة الالمانية ثم سرى هذا الفكر منها في جميع الناس وشخص الكل الى غرض واحد وهو إعادة الامبراطورية الالمانية واسترداد بلاد الازراس واللورين غير ان تلك الحركة بطلت من سنة ١٨٧١ لما أعيدت الامبراطورية وولنا ما كنا نرجوه فوقفنا عنده وكان من اللازم علينا الآن أن نعلم الشبان طريق المحافظة على ما

كسبنا، ولكننا لم نعمل شيئاً بل أخذت الافكار منذ حين تتحول عن هذا المبدأ، أقول هذا لاني في مركز يمكنني من النظر فيه وقد اشتغلت به وعلمت انه ناشئ، عن التربية» ثم بحث الامبراطور عن السبب في ذلك وقال انه ناشئ من طرق التعليم ومواده وشدد التنكير كما تقدم ذكره على أحزاب اللغات وبالاخص اللغة اللاتينية فوجه قوارص الكلام الى المدارس الذين يقولون بأن وظيفة المدرسة انما هي تدريب العقول وأردف تعنيفه بقوله « وليس من الممكن أن يستمر العمل على هذا المنوال » ولو التفتنا الى ان الامبراطور أمير البروسيا في ساد على قومه بقوة الصلاح وان أمة البروسيا لم تتوصل الى ابتلاع المانيا كلها وتنظيم القوة العسكرية التي بيدها الامر في (برلين) بواسطة ذلك التدريب العقلي وانه لا يكفيها وحده في حفظ ما نالته حكمتنا بأن الامبراطور مصيب في قوله وسلمنا له اعتباره تدريب العقول آلة ضعيفة في الحكم والسيادة وجاريناه في أن المدارس لم تعطه ما كان يرجوه منها سياسياً كما خابت من الجهتين العملية والعملية

وعلى هذا يكون الاخفاق في المدارس حاصلًا من جميع الوجوه ولا بد من اصلاح هذه الحال فالامبراطور مصمم على ذلك ومن الواجب ان تنثى جميع الارادات أمام ارادته لانه الملك

فاما رأيه في اصلاح التعليم من الجهة العملية فيسبب يرجع إلى ابطال اللغة اللاتينية من جميع المدارس إلا لخصوصية وهي التي لا يميل الى الاكثار منها لقوله « لن أسمح من الآن بزيادة عدد المدارس العالية الا اذا قام الدليل على ضرورة تلك الزيادة أما الآن فعندنا منها عدد يكفيننا » والمدارس

الخصوصية هي التي يتعلم فيها أبناء الطبقة العالية في الامة أو المدرسون ،
ورغبته في إبطال اللغة اللاتينية صريحة لا تقبل التأويل كما دل عليه بقوله
« تباً للدرس اللاتيني انه يضايقتنا ويضع علينا وقتنا ومن الواجب أن نبحث
للتعليم عن أساس غير هذا الاساس الذي عاش عدة قرون لانه انما كان يفيد
في تعليم القسس والرهبان أيام القرون الوسطى مع قليل من اللغة اليونانية »
وليس من غرضنا أن نطيل القول في اللغة اللاتينية وكونها لازمة في
المدارس أم لا وفي استحسان الطريقة المتبعة في تعليمها أو تقييدها وكونها
لا تنتج فائدة كبرى وانهم أفرطوا فيها إلى حد يستغرق من الزمن ما يزيد
على الحد الذي لا ينبغي ، ونكتفي هنا بان نلاحظ للقراء ان الاصلاح الذي
يقصده الامبراطور سلمي مرجعه حذف شيء موجود في المدارس الآن
وأما رأيه في الاصلاح من جهة العملية فعلى خلاف ماتقدم وهو الذي
وجه اليه كل اهتمامه لانه يريد تربية الشبان على المبادئ التي تمكنهم من
احتمال متاعب التزام في الحياة وتساعد على انتشار الأمة الألمانية في أنحاء
المسكونه وتعينها على أن تسبق في ذلك الأمم المنتشرة في الدنيا وبالجملة
فانه يريد تربية العقل على العمل واجتهاد حتى يكون المتخرج من المدارس
عالماً بما يجري في الوجود ، وقد تقدم ان الامبراطور آسف لكونه لم يصل
إلى معرفة ذلك إلا وهو راكب جواده

أما الطريقة التي يراها لازمة للوصول الى غايته فما لا يخطر على بال
أحد ومثله في رأيه مثل رجل يحاول تعليم الطفل المشى فيشد ساقه شداً
متيناً أو كالذي يريد أن يطلع تلميذه على مشاهد الكون كلها فيحبسه في

مكان ضيق مسدود المنافذ بحيث لا تبصر عيناه من خارجه شيئاً ، فلا فرق بين هذين المعلمين في تعليمهما وبين الامبراطور فيما يريد من النظام لمدارسه وهو من المستغربات ، لكن حتى أكون صادقاً فيما أقول أذكر للقراء نص عبارته في هذا المطلب قال « يجب أن تكون اللغة الألمانية هي الاساس لجميع التعاليم الاخرى ومتى نجح التلامذة في امتحانها التحريزي كان ذلك دليلاً على ذكائهم ومقدار استعدادهم ، أما تعلم اللغة اللاتينية فانه يضيع علينا من الوقت ما نحن محتاجون اليه من اللغة الألمانية »

وليلاحظ ان الامبراطور لا يريد بهذا تعليم الالمانيين لغتهم الالمانية فقط بل هو يريد أن لا يتعلم الالمانيون شيئاً إلا ما كان ألمانياً حتى لا يدخل بينهم شيء أجنبي من أى نوع كان ، قال « ولقد يفرحني ان لو استعملنا كلمة المانية للدلالة على مداولاتنا هذه بشأن المدارس بدل الكلمة الفرنسية التي نستعملها الآن فلنقتصر على اللفظ الالمانى الذى يدل عليها » ولقد يحمل هذا العداء حتى في الالفاظ على شدة وطنية الامبراطور

ثم انه أفصح عن غرضه من المدارس بقوله « اني أريد أن يعرف الالمانيون تاريخ بلدنا وخطتها وقصصها معرفة حقيقية اذ يجب علينا أن نبتدىء بمعرفة الدار التي نسكنها » والدار التي يعينها ليست البلاد الالمانية المعروفة منذ القدم بل هي الدار التي شادها ملوك البروسيا وضموا اليها طوعاً أو كرهاً جميع الامة الالمانية ، وعليه فالتاريخ الذي يشير اليه هو تاريخ الزمن الذي نهضت فيه الأمة البروسيانية فدخلت تحت سلطتها رويداً رويداً جميع البلاد الالمانية حتى يتيسر للشبان الذين يتلقونه أن يتربوا منذ

نعومة أظفارهم على محبة النظام الحالي والاعجاب به ، هذا هو مراد الامبراطور كما صرح به في قوله « لما كنت في المدرسة ما كان التلامذة يذكرون (المنتخب الكبير) إلا كالجبال ولم يكن لحرب السبع سنين ذكر في درس التاريخ كما أهمل حرب سنة ١٨١٣ إلى سنة ١٨١٥ مع أن معرفته لازمة لكل شاب الماني ، ولولا الدروس الخصوصية خارج المدرسة لما عرفت من ذلك شيئاً » إلى أن قال « مع أن في تعليم ذلك أهمية عظيمة ولا موجب للتضليل على شباننا بتوجيه الملام على حكومتنا والاعجاب بما عند الاجنبي

هذا غاية في الصراحة فليحرزه السامعون يريد الامبراطور أن لا تشتغل أفكار أمته بأجنبي عنها فلا نعرف ما يجري في البلاد الاخرى وان تصير معجبة بالحوادث التي اوجدت وحدة المانيا اذ هي الامر المهم ، وبهذا التصديق على الافكار ينقطع التنديد بالحكومة وتغير أفكار الشبان في الزمن الحاضر إلى أحسن منها كما يشاء الامبراطور ، ولا شبهة في أن أفكارهم تتغير إذا لم يتعلموا من التاريخ إلا ما يختص بشجاعة البروسيا لان في ذلك ابعاداً لهم عن الاشتغال بالمانيا القديمة وماضيها الطويل ولكي لا تبقى شبهة في مراد الامبراطور من التربية العملية قال « أيها السادة اني في حاجة إلى الجند فلا بد لي من نسل قوى قادر على خدمة البلاد ولهذا ينبغي إدخال نظام المدارس الحربية في المدارس العالية » ولعمري أن هذه التربية لا تجعل الشبيبة الالمانية قادرة على احتمال الحياة الحقيقية وكسب عيشها اليومي حيث لا موجب للقتال ولا محل للنزال بل الغرض الارتزاق

وما ذلك النظام هو الذي يربي الرجال ويهيئهم الى الاعمال المفيدة ويولد فيهم قوة الارادة التي تناسب حركة الترقى الشديد في عصرنا هذا ، وكيف تكبر عزائمهم وهم لم يتعلموا غير النظام الالمانى حيث يسود النظام العسكري في المدارس ، انما الواجب تثقيف عقولهم وتوسيع نطاق تهذيبهم وتدريبهم على جميع الاعمال النافعة التي تساعد الأمة على نشر سيادتها الاجتماعية لا العسكرية حتى تسبق غيرها من الأمم التي لم تبلغ شأوها في التقدم، ولكنهم يريدون أن يضعوا فوق أعينها عيوننا لا تمكنها من النظر في أحوال الأمم الماضية ولا في حركة الأمم الحاضرة الا ما كان المانيا ، فلا ترى من هذا المشهد العظيم المفيد الا تاريخ البروسيا وهو يسير ولا تعرف للفوز معنى الا ما كان مجد المرفهات وأفواه المدافع لا الذي يكتسب بالجد والمثابرة والهمة والارادة ، وكأني بالامبراطور يريد أن يجعل جميع الأمة الالمانية في حالة بعض فقراء الهند الذين يقضون حياتهم في مشاهدة مادون بطونهم معتقدين أنهم يبالون بذلك تمام السعادة إذ هو يريد أن لا تعرف أمته غير طرف واحد من هذا العالم الشاسع وأن يحجب عنها كل شيء سوى ذلك وانا ترك الفصل في امكان تحقيق هذا الخيال الى الامة الالمانية نفسها غير أنا نستفيد منه لنعرف موضع النقص عندنا وما منا من يجهل اعجابنا بأنفسنا واعتقادنا بأن أمتنا أكبر الأمم وفي مقدمتها حضارة وتمدناً وان كل شيء لدينا أصله الثورة الفرنسية ، ثم ننقل هذا الاعتقاد إلى أبنائنا غير شاعرين باستمرار الزمان في تقدمه من دون اشتراكنا في حركته ثبت اذن ان الاصلاح الذي يشير اليه الامبراطور غقيم الفائدة من

الجهة العلمية قليل النفع من الجهة العملية فنبحث عن فائدته من الجهة السياسية علنا نراه يؤدي الى الغرض المقصود والذهبت أمانى الامبراطور أدراج الرياح خصوصاً اذا لوحظ انه لا يقصد من سعيه كله في الحقيقة ونفس الامر الى المنفعة السياسية أو ما يتصوره كذلك بدليل قوله «ومن الواجب علينا الآن أن نعلم الشبان طريق المحافظة على ما أحرزناه واكننا لم نعمل شيئاً من هذه الجهة بل أنا شاهد منذ حين في الأمة خصوصاً الى الميل عنه»

وعلى هذا يكون غرض الامبراطور من ذلك النظام هو التغلب على هذا الميل الذى يخشاه ولكن أمانيه لا يمكن تحقيقها إلا اذا كانت المدارس كما يريدنا، وهى ليست كذلك لان غاية ما يريد استحدثه هو الزيادة فيما جرت عليه أمته من قبله تحت رعاية أسلافه وبأمرهم، وهم أيضاً كانوا يقصدون الغاية التى يرمى عليها وهى اكبار شأن الدولة البروسيانية واعلاء كلمتها وقد جرب ذلك بنفسه

لذلك ندد رجال المدارس فى برلين على خطابه وأجمعوا على اظهار أسفهم واستيائهم من اللوم الذى وجهه اليهم وقالوا «انهم كانوا يعتبرون على الدوام ان أقدس واجب عليهم هو غرس محبة الوحدة الالمانية فى قلوب تلامذتهم واعدادهم لحفظ النظام الاجتماعى الحاضر ومقاومة أهل الثورة ومن يسمى بالفساد» ومع كون هذه الطريقة لم تجد نفعاً باعتراف الامبراطور نفسه تراه يميل الى تعزيزها والزيادة فيها، وان ينال ما يرجوه منها بل من المحتمل القريب جداً انها تؤدى الى عكس ما يمتنى لأنها تزيد فى ضعف

أهلية الأواسط من الناس وفى عدم قدرتهم على تحصيل عيشهم من الصنائع الحرة ، فتضمف فيهم قوة التزامهم فى الحياة والانتشار فى الخارج ومباراة غيرهم من الأمم التى سبقتهم فى معرفة مقتضى أحوال المجتمع الانسانى ، ومعلوم ان المدارس التى يريد الامبراطور تنظيم طرق التعليم فيها هى التى يدخلها أبناء الأواسط فى المانيا ، أما عدم أهلية تلك الطبقة من الناس فى الأمة الألمانية فقد برهن عليه موسيو (بوانسار) فى الجزء التاسع من مجلة (العلم الاجتماعى) صحيفة ٤٦٨ تحت عنوان (الالمانيون خارج بلادهم وطموح الحكومة الامبراطورية الى الاستعمار) وأبان أن أهل الطبقة المذكورة يفضلون الوظائف العسكرية والادارية والحرف الادبية على الصنائع الحرة المفيدة أى التى تستفيد منها الأمة والافراد كسباً كبيراً ، فاذا زيد أيضاً فى ضعف تلك الطبقة من هذه الجهة زاد الضنك وعظم اشتداد الحال إذ ليس فى قدرة الحكومة الألمانية أن تتكفل بمعيشة جميع الذين يخرجون من مدارسها بمد ان أبعاد ذلك النظام عن وسائل الكسب الحقيقية فتضيق دونهم ثكنات العساكر ومصالح الحكومة مما تشعبت فروعها ، ثم هم يرجعون طبعاً باللوم عليها وينسبون خيبتهم اليها ، تلك سنة الأمم لا يشذ عنها ولا ينفر من حكومتها الا الخائبون ، وحينئذ يزداد النفور ويشتد حرج النفوس الذى تظهر علاماته الآن للامبراطور

وفىما تقدم أكبر برهان على فساد نظام الحكومات التى يتولى الملك فيها النيابة عن الافراد فى جميع الاعمال حتى التى هى من خصائصهم ، وأعظم عمل تختص به الأمة والافراد دون الحكومة هو التربية ، وما من

صرة تولته الحكومة الاسماء العاقبة من جميع الوجوه ، تلك عقيدة سيعلمها
الامبراطور كما عرفها قوم سابقون

هذا وفي يقيني ان الامبراطور يستغرب كثيراً إذا قرأ ما تقدم من
كلامي لما هو عليه أو ما علم عنه من اعتقاده بان النظام الذي يريد ادخاله
في المدارس هو الذي يفتح للأمة الالمانية باب التقدم الذي اتجهت نحوه
الأمم في هذا العصر وأنه هو النظام الذي يليق بمستقبل الايام ولا يحسبني
القارىء مبالغاً فيما أسنده اليه فهذا ختام خطابه قال « نحن في زمن انتقال
الأمم من حالة إلى أخرى وفي استقبال فريد جديد ، وقد كان من
خصوصيات القياسرة أسلافى على الدوام أن يسبقوا إلى معرفة تقلب الزمان
ويتبصروا الحوادث المقبلة وينهضوا فى مقدمة الشكل رغبة فى توجيه حركة
الامة نحو الغرض الجديد ، وانى قد عرفت مسير الافكار الجديدة
وأدركت الغاية التى يرمى اليها هذا القرن المنصرم ، لذلك حوات عزيمتى كما
فعلت أيام اشتغالى بالنظامات العمومية إلى تربية الشبيبة الالمانية على نظام
جديد يفتح أمامها أبواباً لا بد لنا من الدخول منها لنصل الى التقدم المقصود
لأننا إذا لم نفعل ذلك اليوم ألجأتنا الضرورات اليه بعد عشرين عاماً »
ومن المدهشات أن ينطق بهذا اللسان ملك عرفناه يقف بالتعليم فى
المدارس عند معرفة الوقائع الحربية التى انتصر أسلافه فيها ويقضى على التربية
العلمية الحقيقية قضاءه البرم ويجعل جميع الاجيال المستقبلة من أمة كبيرة
غير قادرة على احتمال ذلك التزاحم فى الحياة الذى طنطن بذكره وأظن
فى الكلام عليه

على أنه لا موجب للدهشة لان القائل رجل بروسياى وبلاد البروسيا قسم صغير من المانيا وقد تكاد تكون كأهم المشرق فهي آخر أمة دخلت في عداد الدول الاوروبوية العظمى كما في اصطلاح السياسين ، وما صارت أمة كبيرة إلا بعد جمع الأمم الاخرى فهي أشبه برجل ولد متأخراً عن أقرانه برقع ساعة وليس في إمكانه أن يستعيز عن هذا التأخير ، فالبروسيا متأخرة عن غيرها من أمم الغرب بقرنين كاملين ولا يزال أهل نهر (سيرى) على بعض العوائد التي كانت مألوفة أيام الملك (فيديب) الثاني و (لويز) الرابع عشر كأنهم لم يشعروا بان الارض قد ضمت أجسام أولئك الملوك الفخام من زمن مديد فبادوا وبادت حكومتهم وانطوت سياستهم كما أنهم لا يزالون يعدون ما مضى مستقبلا يرجونه

وحيث أن البحث دائر على المستقبل والتراحم في الحياة ومساعدة الامة الالمانية على الانتشار في الخارج والمنافسه مع الامم التي تستولى على الدنيا فن المفيد أن نعرف الطريقة التي اتخذتها تلك الأمم في تربية أبنائها واعدادهم لهذا الحرب الجميل حتى تكون لها الارجحية في جميع البلاد على غيرها وسيرى القراء أن السبيلين مختلفان

وبينما أنا أكتب هذه السطور إذ دخل على أحد الاصدقاء زائراً وهو رجل له ولد يريد أن يريه تربية تمكنه من التراحم في الحياة وكسب عيشه بنفسه فلا يودله أن يكون موظفاً في إحدى مصالح الحكومة وهو نادر عندنا واخلاصة أنه يريد أن يربي ابنه تربية عملية ارادة صحيحة لا كما يريد الامبراطور ، وهي التريه التي يستحسنها كل انسان ولا يعمل بها

إلا القليل ، وكان لهذه الغاية تحصل على نظمات عدد من المدارس الاجنبية فاعجبه واحد منها وهو الذى قدمه الي ، فلما تصفحته رأيت من الفائدة تلخيصه للقراء مستعيناً في ذلك بما علمته بنفسى عن المدرسة المتعلق بها المدرسة الانكليزية أنشأها صاحبها لتعليم الشبان طرق الارتزاق في غير بلادهم والتمكن من اجراء تلك الاعمال الزراعية التى مهدت للامم الانكليزية السكسونية سبل الاستيلاء على العالم شيئاً فشيئاً وجعلتها تفضل من سواها ، وهى توافق غرض الامبراطور إلا أنها لا تنسج في التعليم على منواله

وأما النظام المذكور فهو رسالة صغيرة يطالع القارى، فى أولها قولين حكيمين أحدهما عن (جون ستيوارت ميل) وهو ، « ما الاشبهه فيه الآن بالنظر إلى أحوال الأمم الحاضرة ان الاستعمار هو أنجح الوسائل فى استعمال الاموال المدخرة فى خزائن الأمم الغنية القديمة ، والثانى عن (فوستر) وهو « تزداد حاجة الناس الى الهجرة كل يوم ولا فرق فى ذلك بين الغنى والفقير » ويتبين منه ان الغرض من المدرسة تميم ما نقص من التعليم فى المدارس الاخرى للشبان الذين يحتاجون إلى تربية خصوصية ، ولا يفتىب عنا ان التربية فى المدارس الانكليزية على العموم هى تربية عملية كما ينبغى ، وان التزامهم فى الحياة الذى قرأناه فى خطاب الامبراطور هو الغاية من تلك التربية ، وان بين رؤساء المدرسة وجميع المستعمرات الانكليزية مراسلات يقفون بواسطتها على ما يحتاج اليه التلامذة فى المستقبل فلا يقدمون على أمر إلا وهم به عالمون ، وقد أفادت تلك التربية كثيراً من متخرجى المدرسة

فساعدتهم على تحصيل رزقهم في البلاد الاخرى ، ثم بين واضع الرسالة موقع المدرسة والحقة برسم بنائها تنميا للفائدة ، وهي موجودة في الريف وكان ذكر ذلك من قبيل تحصيل الحاصل لولا أن جمعية الزراعة العلمية الفرنسية تسكن في وسط مدينة باريس الجميلة ، وبنائها قائم على مرتفع يحيط به البحر وأحد الانهار من جهة ويمتد من الجانب الاخر سهل منزرع ، وهذان شرطان يموّدان التلامذة على الهجرة والاستعمار وتحمل اتعايبها أكثر من جمعهم في المدارس بالمدن الالمانية ، وذلك السهل منقسم إلى أجزاء تسهيلات لتجربة طرق الزراعة وغرس جميع المزروعات على اختلاف أنواعها فهذا قسم العزبة ، ثم قسم الالبان ، فكان تربية الطيور المنزلية ، فالمعامل ، ومخازن المراكب وغيرها ، ولكي يحافظ التلامذة على دينهم بنى لهم معبدان على مقربة من المدرسة

أما موضوع التعليم فيدل على ان المدرسة عملية محضة وانه لا اشتغال لاصحابها بالسياسة بل هم منصرفون الى تسليح التلامذة بجميع المعارف العلمية التي يحتاج اليها ، وان أعظم مكان في المدرسة مخصص لتطبيق العلم على العمل لا كما هو حاصل في جمعيتنا العلمية الزراعية ، وان الغرض من تدريس العلوم هو شرح ما يشتغل به التلامذة من الاعمال ولدى المدرسة عدد من أهل الزراعة والصنائع لتعليم طرق الاستعمار ، وان أهم عمل هو الزراعة ، لذلك يأتي التلامذة بأنفسهم جميع أعمالها وعندهم من آلاتها ما كمل صنعه ، وباستعمالها تعرف قوة كل واحد منهم ، وهناك دوحه تبلغ أربعين ألف متر مربع تزرع فيها الفواكه المختلفة الانواع والخضر باجناسها

ونشاهد فيها التجارب لانماء الزرع بقدر ما يصل اليه الامكان ، ولهم
اعتناء خصوصى بتربية النحل لما فيه من الفوائد فى المستعمرات اذ يخرج منه
العسل والشمع وهما سلعتان نادرتان فى تلك الجهات وقيمتها عالية ، وفى
هذا السهل قسم تفرس فيه أنواع الاشجار ويتعلم التلامذة كيفية تغذيتها
وطرق تربيتها وهو عمل لازم لمن يريد استيطان (كندا) أو (استراليا)
ولهم عناية لا مزيد عليها بتربية الماشية لضرورتها فى أغلب المستعمرات
لانه يبدأ عادة فى الاستعمار بتربية المواشى ، فعندهم سبعون حصاناً ومهراً
من أحسن الأنواع وكلها من الخيل المستعملة فى المستعمرات ثم أنواع من
الاثوار والخنزير والطيور ، ويتعلم التلامذة طبائنها وفائدة كل نوع
منها ويقضون طول السنة فى اختبار أحوالها وتنويع استعمالها مع المكلفين
بخدمتها وفى معمل اللبن خمسون بقرة من أجود نوع ، والعمل على أحسن
طرز تشاهد فيه أنواع طريقة صنع اللبن وما يخرج منه بحسب البلادين
الباردة والحارة وفى المدرسة مدرسون للطب البيطرى حتى لا يحتاج المستعمر
فى غربته الى غيره لتمرير ماشيته ، ويتلو العلم تطبيقه على العمل ، ويقضون
وقتها كل يوم فى ركوب الخيل وان لم يكونوا فى حاجة مثل امبراطور المانيا
الى هذه الرياضة ليقفوا على مجرى الاحوال فى الدنيا ، وانما هم يملكون ان
الخيال أحسن واسطة للمواصلة فى البلاد الجديدة وانها أحسن طريقة لتفقد
الاملاك الواسعة ، كذلك لهم وقت لتعلم فن مساحة الاراضى وأخذ
موازينها وطرق اصلاحها وريها وصرف المياه الفضلة عنها ، ولتمام استقلال كل
واحد تراهم فوق ذلك يتعلمون بمض الصنائع العادية فاتخذت المدرسة معامل

عدة ، هذا للبناءية وطرق الحديد وفيه تصنع آلات الزراعة كلها واصلاح
مافسد منها وتطبيق الخيول ، وذلك معمل التجارة وصنع العربات واصلاحها
وصناعة الخشب وإقامة المساكن والبيوت منه ، وذلك معمل البراذع
والسروج ، والتلامذة يتعلمون كل ذلك كما يتعلمون العوم في البحر والسباحة
في النهر والتجذيف والملاحة وصنع القناطر القائمة واتخاذ الروامص وغير
ذلك ، وفي المدرسة أحد رجال خفر السواحل منوط بحفظ المراكب
وتعليم التلامذة ما يتعلق بها حتى انه يعلمهم كيف يجمعون بين طرفي الحباين
من دون أن يمقدوهما ، ولقد يلذ لي هذا البيان لانه يدل على شدة التفاتهم
إلى ما يحتاجه الانسان عملا واعتنائهم بتعليمه كل شئ ، وتعريفه بانها لاشئ
غير مفيد

ويجب عليهم أن يعرفوا طرفاً من فن الطب على قدر ما يحتاج اليه
في المستشفيات النقالة المعروفة بشركة (صان جان) وجمعية مساعدة العرقي
وكيف يربط العضو المكسور والمرضوض ويرد المخلوع ويوقف التزيف
وتضمند الجروح وتعالج الحروق وغير ذلك من العوارض الاعتيادية حتى
يكونوا على علم بتعريض أنفسهم ومعالجة غيرهم
ولقد توسع صاحب المدرسة في شرح ما بيناه من الاعمال الزراعية
والعملية لكونها الشاغل المهم فيها ولان الغرض منها تربية رجال يعملون
في الخارج لاتعليم أناس يتربعون في مقاعد المصالح ، لذلك جعل الكلام على
القسم العلمي في آخر الكراسة واختصر فيه لانه كما قدمنا عبارة عن شرح
مايشغل به التلامذة من الاعمال ، فلا يطلبون العلم وحده إلا ساعتين اثنتين

في اليوم (وليس في هذا افراط كما ترى) يلقي فيهما ناظر المدرسة ومعلموها دروساً في علم الزراعة وعلم طبقات الارض والمعادن والنباتات وفن الغابات والمساحة والعمارة والطب البيطري وغير ذلك، ثم يتلى عليهم من الكتب الواردة من حكومات المستعمرات ما تمهم معرفته

ويجد المطالع في آخر الكراسة خمساً وعشرين صورة تمثل مباني المدرسة والطلبة يشتغلون فيها بالاعمال التي سردناها، واني لآسف على عدم تمكني من نقلها في هذا الكتاب لان صورة أولئك الطلبة وهم يعملون بتلك المدرسة تلتقي في النفس شعوراً بانهم من أمة ذات همة وإقدام ميالة إلى العمل الحقيقي قد تعودت احتمال المتاعب فلا تخشى العناء، فهي تعمل بجد في عمل جد لا يعتمد الانسان فيه إلا على نفسه بعد الله

ومما يزيد الفائدة من مشاهدة أولئك الشبان انهم ليسوا من الفقراء الذين قد لفظتهم الايام فالتجأوا إلى المهجرة بدافع الفقر، ولكنهم كما جاء في الرسالة نفسها أبناء عائلات غنية أو تقرب من الغنى أعنى من أواسط الناس الذين يريد امبراطور المانيا ادخال الاصلاح بينهم، على ان أجرة التعليم في تلك المدرسة كافية في اثبات ذلك لانها ألفان ومائتان وخمسون فرنك في السنة إلى أن يبلغ الطالب سبع عشرة سنة، وألفان وسبعمائة فرنك إلى عشرين سنة، وثلاثة آلاف ومائة وخمسون فرنك إلى ما زاد عن ذلك، وقد كان في قدرة ذلك الشبان أن يطلبوا الرزق في بلدهم بلا تعب ولا عناء غير انهم لم يرضوا لانفسهم مثل هذا العيش بل فضلوا عليه ما يقتضى الكد واستعدوا الى مغالبة الصعاب فطرحوا بأنفسهم

في المستعمرات ونزحوا الى البلد الاقصى

وللرسالة ملحق يدل على أن أولئك الشبان انما يعتمدون على أنفسهم دون سواها وهي خطب كبار القوم الذين حضروا حفلة توزيع الجوائز في السنة الماضية بتلك المدرسة التي هي من مبتكرات الهمم الشخصية كما هو الشأن في أغلب المنشآت الانكليزية ، وقد جعل أولئك الكبراء هذه المدرسة تحت حمايتهم وأكثرهم من الذين اشتغلوا بالاستعمار أو المشتغلين به إلى الآن، ويحمد القارىء في خطبهم تحذيراً للشبان من الصعوبات التي هم قادمون عليها وتنبهياً لهم الى وجوب مغالبتها بقوتهم الذاتية ومن الغريب ان قولهم هذا لا يثنى من همم أولئك الطلبة بل انه يزيد فيهم روح الغيرة . ذلك لان تصور الصعوبة يثير عزيمة الاقوياء كما يثبط همم الضعفاء، ومن كلام اللورد « كنونسفرد » اليهم ما يأتى « يجب عليكم ان تقسوا على أنفسكم فان أمامكم من المتاعب ما لا بد لكم من التغلب عليه وربما هلك زرعكم وماتت ماشيتكم فلا تنخل عزائمكم أمام المصيبة بل قوموا كما يقوم الشجاع وغالبوا تلك الحوادث واسعوا في تعويض ما خسرتكم ، ذلك حقاً هو التزاحم في الحياة ، وكأني بهذا القول نشيد تترنم به الجموع يوم تقوم الأمة سائرة نحو افتتاح العالم لا كفتوح البروسيا ، وقال السير « جراهام برى » وهو الوكيل العام في مستعمرة فكتوريا « انكم تجدون في جميع أنحاء المسكونة أرضاً يخفق عليها العلم البريطاني ، فلكم أن تسيروا من أقاليم كندا الباردة الى نواحي أفريقيا الحارة أو الى بلاد أستراليا ، وحيثما وجدتم ترون العلم الذى يقاوم الحروب وعواصف الرياح منذ ألف عام ،

واليوم يومكم ، فافقهوا الخطة التي يجب عليكم اتباعها ، وتبينوا ما أردتم من الاعمال قبل الشروع فيها ، واتخذوا الحزم في ذلك سبيلا معروفاً ولا تترددوا في أمركم بل كونوا شجعاناً ذوي إقدام وجد واحتمال ، على أنى لا أظن أن شاباً انكليزياً تقعد به الحاجة وأمامه مستعمرات كثيرة كلها مفتوحة الابواب اليه وممول نجاحه فيها عليه ، لست الآن شاباً مثلكم فقد مضى أربعون عاماً من يوم أن سافرت وما كنت أملك من المزايا ما أنتم تملكون ، كنت غريباً قليل المال لا خبرة لى بالمسائل الفنية ولا صديق في البلاد التي قصدتها ، ومع ذلك قد وصلت الى رتبة الوزير الاول في تلك المستعمرة وترأست ثلاث صرعات على سلطة التشريع فيها »

هذا واذا ذكر القارىء ان ذلك التعليم ليس قاصراً على شبان مدرسة واحدة بل هو عام في الأمة بتمامها ، والغرض منه الاستعداد لذلك التزام في الحياة ، وعلم أن الذي ينتشر في الخارج هو تلك الأمة بتمامها صاحبة تلك التربية القوية الفعالة ، تجلت أمامه الاحوال كما ينبغي ، وعلم لمن المستقبل ولن الدنيا ، واختار لابنائها التربية الانكليزية السكسونية لا التربية الالمانية ان أراد أن يدرأ عنهم طوارئ الايام ، وكيف يتأتى أن يعيى الشباب الالمانى بجانب ذلك الرجل الجبار الذى تربى تلك التربية التي شرحناها وهو إنما تلقى في احدى المدارس الالمانية تعليماً قاصراً على تمجيد الحكومة البروسيانية والجندي البروسيانية فلا يعرف من تخطيط الارض إلا البروسيا ، ولا من التاريخ إلا البروسيا أو تاريخ ملوكها ، ولا يعرف شيئاً من حالة الدنيا الخارجة لا اجتماعها عنها ، ولا كيف تكون مزاولة الاعمال الحرة

ثم التي به نجاة بعد هذا في إحدى الاقاصى كآنى بك أيها القاريء وقد
عرفت أى الرجلين أعدا المستقبل الذى قضت به حالة الدنيا الجديدة على
الأمم القديمة وأيهما يكون ذا الهمة فى الاعمال العظيمة التى لم تعد من
خصائص الملوك بل من لوازم الأمم كما قال امبراطور المانيا
ها قد بينت لك نظامين أحدهما صادر من أقوى ملك ، وينتسب
الثانى الى بعض الافراد ، ولعل الملك العظيم لم يفتن إلى أن أحسن طريق
فى تشجيع الأمة وتحميها على العمل الذاتى انما هو أن ينسحب الملك
لان الهمة الشخصية تبتدىء حيث ينتهى تداخل الحكومات

الباب الثالث

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الانكليزية يربى رجالاً ﴾

لو أردنا تلخيص المسئلة الاجتماعية فى صيغة صغيرة لقلنا ان مرجعها
التربية إذ المراد بحل المسئلة الاجتماعية هو تمويد الشخص على حب
الاحوال الجديدة فى العالم وكلها تطلب أن يصبر المرء قادراً على الارتقا
بنفسه لان وسائل القديمة التى اعتاد الناس على استعمالها صارت غير مفيدة
ولا وافية بالمراد ولاشبهة فى أننا صائرون الى زمن يتم فيه التغير الذى
تبدوا لنا اشاراته سواء كان فيه سعادة لنا أو شقاء وليس الحرج الذى نشعر
به آتياً إلا من التناقص بين وسائل تربيتنا المؤسسة على طريقة تقادم عهدها
وبين ما تقتضيه ظروف الحياة الجديدة ، فانا لانزال نربى رجالاً لا يصاحون

واليوم يومكم ، فافقهوا الخطة التي يجب عليكم اتباعها ، وتبينوا ما أردتم من الاعمال قبل الشروع فيها ، واتخذوا الكم في ذلك سبيلا معروفاً ولا تترددوا في أمركم بل كونوا شجعاناً ذوي إقدام وجد واحتمال ، على أنى لا أظن أن شاباً انكليزياً تقعد به الحاجة وأمامه مستعمرات كثيرة كلها مفتوحة الابواب اليه وممول يملحه فيها عليه ، لست الآن شاباً مثلكم فقد مضى أربعون عاماً من يوم أن سافرت وما كنت أملك من المزايا ما أنتم تملكون ، كنت غريباً قليل المال لا خبرة لى بالمسائل الفنية ولا صديق في البلاد التي قصدتها ، ومع ذلك قد وصلت الى رتبة الوزير الاول في تلك المستعمرة وترأست ثلاث صرعات على سلطة التشريع فيها »

هذا واذا ذكر القارىء ان ذلك التعليم ليس قاصراً على شبان مدرسة واحدة بل هو عام في الأمة بتمامها ، والغرض منه الاستعداد لذلك التزام في الحياة ، وعلم أن الذي ينشر في الخارج هو تلك الأمة بتمامها صاحبة تلك التربية القوية الفعالة ، تجلت أمامه الاحوال كما ينبغي ، وعلم لمن المستقبل ولن الدنيا ، واختار لابنائهم التربية الانكليزية السكسونية لا التربية الالمانية ان أراد أن يدرأ عنهم طوارىء الايام ، وكيف يتأتى أن يعيش الشاب الالمانى بجانب ذلك الرجل الجبار الذي تربى تلك التربية التي شرحتها وهو إنما تلقى في احدى المدارس الالمانية تعليماً قاصراً على تعجيد الحكومة البروسيانية والجندي البروسيانية فلا يعرف من تخطيط الارض إلا البروسيا ، ولا من التاريخ إلا البروسيا أو تاريخ ملوكها ، ولا يعرف شيئاً من حالة الدنيا الخارجة لا يجتاهب عنها ، ولا كيف تكون مزاولة الاعمال الحرة

ثم أتى به فجأة بعد هذا في إحدى الاقصى كأنى بك أيها القاريء وقد عرفت أى الرجلين أعدا المستقبل الذى قضت به حالة الدنيا الجديدة على الأمم القديمة وأيهما يكون ذا الهمة فى الاعمال العظيمة التى لم تعد من خصائص الملوك بل من لوازم الأمم كما قال امبراطور المانيا ها قد بينت لك نظامين أحدهما صادر من أقوى ملك ، وينتسب التلقى الى بعض الافراد ، ولعل الملك العظيم لم يفتن إلى أن أحسن طريق فى تشجيع الأمة وتكريضها على العمل الذاتى انما هو أن ينسحب الملك لان الهمة الشخصية تبدىء حيث ينتهى تداخل الحكومات

الباب الثالث

﴿ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الانكليزية يربى رجالا ﴾
لو أردنا تلخيص المسئلة الاجتماعية فى صيغة صغيرة لقلنا ان مرجعها التربية إذ المراد بحل المسئلة الاجتماعية هو تعويد الشخص على حب الاحوال الجديدة فى العالم وكلها تطلب أن يصير المرء قادراً على الارتزاق بنفسه لان الوسائل القديمة التى اعتاد الناس على استعمالها صارت غير مفيدة ولا وافية بالمراد ولاشبهة فى أننا صائرون الى زمن يتم فيه التغير الذى تبدوا لنا اشاراته سواء كان فيه سعادة لنا أو شقاء وليس الحرج الذى نشعر به آتياً إلا من التناقص بين وسائل تربيتنا المؤسسة على طريقة تقادم عهدها وبين ما تقتضيه ظروف الحياة الجديدة ، فانا لانزال نربى رجالا لا يصلحون

إلا الجمعية قد اتقضى نجها ، ومن الصعب ان نعدل عن تلك التربية ،
ولست أدري ان كان القراء يشعرون بما أقول بالنظر لانفسهم ، غير انى
شاعر به فى نفسى فأحس انى رجلان ، رجل ردى علم الاجتماع ورأى
ما يجب فعله ، ورجل حبس فى دائرة تربيته الاولى ووزح تحت أثقال
ماضية فهو غير قادر على العمل بمقتضى علم الاول وان أتى عملاً فهو صعب
وناقص ، كان رأسى دخلت فى نظام التربية الاستقلالية التى تقوى الهمة
الذاتية وظل جسمى محجوراً عليه فى نظام التربية الاتكالية التى تضغط
عليه ، ومن هنا جاز علينا قول (فيرجل) الشهير « ان من الصعب ان
يتحول الانسان عن تربيته الاولى » ذلك لان الأمم قسمان : فمنها من
ترت على الاتكال وهو عبارة عن ميل أفرادها إلى الاعتماد على الهيئة أو
الحزب من عائلة وعشيرة وقبيلة وحكومة وغيرها لا على أنفسهم ، وأكبر
مثال لتلك الامم هو الشرق ، ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية أى
ان كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجمعية ، وأعظم مثال فيها هى الامم
الانكليزية السكسونية

إلا أن ما صار صعباً علينا وغير ممكن فى السن الذى وصلنا اليه ليس
كذلك بالنظر إلى أبنائنا لانهم لا يزالون كالعود الاخضر يسهل تقويمه
والتعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، واذ قد حكم علينا بالاقامة على شاطئ
النهر وجب أن نمد اليهم يد المساعدة كي يعبروه ، ذلك هو أكبر الاعمال
بالنظر للآباء فى هذه الاوقات فمن لم يفعله فقد أهمل أول واجب عليه ،
ولا بد أن يعاقب على اهماله فى أبنائه ، أما أنا فقد عقدت النية على آدائه

بالنسبة لابنائى ، ولهذا انتهزت فرصة وجودى المرة الاخيرة ببلاد الانكليز واخبرت أحوال التربية هناك من جهتها العملية ، وهأنأأعرض نتيجة اختيارى على اخوانى آباء العائلات الفرنساويين لعلهم يستفيدون منه كما أفادنى

يحتهد الانكليز أكثر منا فى اصلاح تربية شبانهم على الدوام مع أن التربية الانكليزية توافق حالة الحياة الحاضرة أكثر من تربيتنا والنجاح فيها عندهم أكثر من النجاح عندنا ، لذلك ترى فيهم رجالاً أكبر همة وأقدر فى الاعتماد على أنفسهم وهم متقدمون علينا فى التمشى مع تقلبات العصر الجديدة فيشعرون أكثر منا بوجوب الاستعداد لما تقتضيه ، وهي تقتضى على الخصوص تربية شبان قادرين على الارتزاق بأنفسهم مما صعبت متاعب الحياة وتنوعت ظروفها ، ومن أجل هذا كان منهم رجال ذوو عمل وعزيمة لا موظفون أو أديون لا يعرفون من الحياة إلا ما تعلموه فى الكتاب وهو فى الواقع شئ يسير ، أما الثمرة التى يطلبها الانكليز فانها توافق كل الموافقة ظروف التقلبات الاجتماعية فى عصرنا هذا ، وتلك الثمرة هى الرجال

دار الحديث ذات يوم فى (ادمبرج) بينى وبين أحد المعلمين فى مدرسة (دونديه) على التعليم فى انكلترا فقال لى « غداً سيخطب رجلا ملك تستفيد منه فى مدرسة (صوميد ميتنج) وهو مؤسس مدرسة فى داخلية البلاد ومديرها واسمه الدكتور (سسل ريدى) وقد اندهشت فى اليوم الثانى لما تعارفنا ببعضنا ، فمهدى بنظار المدارس والمعلمين عندنا ان لهم زياً مخصوصاً : يتمقون لباسهم ويختارون الالوان الداكنة ، ويفضلون الرداء

الطويل حتى تلوح عليهم علامم الاحتفال والترفع كرجل مقنع بأنه ذو سلطة روحية يريد أن يظهرها، يمشون ببطىء، متهمجين، ويكثرون فى حديثهم من القواعد والجلل التى تليق بتربية عقل الشبان ولهم، وقد بلغت منهم الأنفة منهاها لكنى وجدت الرجل الذى قبض على يدي بشدة على خلاف ذلك بالمره، فهو أشبه برجل يزاول الاعمال الشاقة طويل القامة نحيف الجسم قوى العضلات، تركيب يوافق جميع الاعمال التى تقتضى سرعة الحركة واللين والاقدام، بلباس يوافق تلك الصفات كأنه سائح انجليزى، فقد ارتدى ثوباً (ستره) صغيرة من الجوخ رمادى اللون فى وسطها حزام، ثم سراويل قصيرة، وشراباً طويلاً يتثنى تحت الركبة وحذاء متيناً، وعلى رأسه قلنسوة صغيرة وقد وصفته لأن هيئته تمثل المدرسة التى سأشرح حالها للقراء، فالرجل مثال العمل بالتمام

ولما كان اليوم الموعود وهو يوم السبت حيث الدروس معطلة ركبت مع الدكتور (ريدى) فى احدى العربات المخصصة لنزهة أعضاء تلك المدرسة، وقضى مسافة الطريق ووقتاً كبيراً من النهار يشرح لى حالها ونظامها ويحيدنى على ما كنت أسأل عنه ويسألني عما أريد، ومما قاله لى (أن التليم الحالى لم يعد موافقاً لظروف الحياة المصرية فانه يربى رجالاً هم أليق بالماضى منهم بالزمن الحاضر، واكثر شباننا يقتلون قسماً كبيراً من وقتهم فى درس اللغات المنسثرة ولن يستعملها التزر اليسير منهم فى حياته إلا قليلاً، وعلى العكس من ذلك يكادون أن يمروا كالحيال فى تعلم اللغات المصرية والعلوم الطبيعية ثم يمضون على جهل تام بجميع ما يجب معرفته

في الحياة الحقيقة أريد استعمال الاشياء والوقوف على منفعتها في الهيئة الاجتماعية ، كذلك تحتاج العائنا الى الاصلاح كما يجب اصلاح طرق الشغل فان الافراط في العمل حاصل كلافراط في الدرس ، غير ان الاصلاح صعب لخضوع مدارسنا الى تأثير المدارس الكلية التي تأخذ طلبتها من تلامذتنا، وتلك المدارس الكلية غير متمكنة من نفسها شأن جميع المجتمعات القديمة ، كأن عاملاً خفياً يحوم فوق رؤوس نظارها ومعلميها ولا أراه إلا تمسكهم بالتقاليد القديمة والعوائد السابقة وهي أشد قوة من القوة نفسها) ولما سألته وكيف حينئذيتأتي لمدرستكم أن تغير هذا التعليم أجنبي (أن غرضنا هو الوصول الى تربية جميع الملكات الانسانية على نسبة واحدة إذ يجب أن يصير الطفل رجلاً كاملاً حتى يكون قادراً على الوصول الى الغرض المقصود من الحياة ، لذلك ينبغي أن لا تكون المدرسة وسطاً صناعياً لا يخاط فيه الطالب الحياة إلا بالكتاب ، بل ينبغي أن تكون وسطاً عملياً يقرب بين الطفل وبين طبيعة الاشياء وحقيقتها بقدر الامكان ، فلا يتعلم العلم وحده بل يصطحب العلم بالعمل إذ هما أمران يجب أن يكونا متلازمين في المدرسة كتلازمهما في الخارج حتى اذا خرج الشاب في الحياة لا يخجل له أنه يدخل في عالم جديد لم يتأهب اليه وحتى لا يصبح في حيرة لا يدري أين قبلة الاعمال ، ذلك لان الانسان ليس عقلاً مجرداً عن المادة بل هو عقل يلازمه الجسم ، فيجب أن نعم التربية همته وارادته وقوته المادية ومهارته اليدوية وخفته في حركاته) وكما أوغل الدكتور ريدي في حديثه ازدادت المأماً بالعرض الذي قصده من مدرسته ، غير أنني لم أقف عليه تماماً

لذلك طلبت منه أن يبين لي كيف يشتغل الطلبة في يومهم ساعة فساعة ،
ولما أحرزت جوابه ووعيت بيانه ووضح لي المراد وأدركت حقيقة نظام تلك
المدرسة وسأذكره فيما بعد ، ثم انتهى بنا المسير إلى كنيسة (دو نقرملين)
وخرجنا منها إلى منزل أحد الموسرين التناول الشاي اسمه موسيو (هنري
بيفردج) وهو من قرآء مجلتنا (العلم الاجتماعي) ومن المواظبين على سماع
درسنا منذ ثلاث سنين وقد رغب إلي أن أقيم عنده الى موعد شروعي في
القاء خطبي يوم الاثنين صباحاً ، فسألته إذا كان يعرف شيئاً عن مدرسة
الدكتور (ريدي) فأجبنى أنه زارها وأنه سيرسل ابنه الأول اليها بعد
شهرين وعمره الآن ثلاث عشرة سنة وأنه لم يكتف بزيارتها بل كتب
إلى كثيرين يسألهم رأيهم عن تعليم أبنائهم فيها فأجمعوا على استحسانها
وفوائدها ، ثم قدم إلي رسائلهم واليك نصها

سيدي العزيز ا

مكث ابني سنة ونصفاً في مدرسة (ابوتصولم) وكان عمره خمس
عشرة سنة ، وقد ازداد عقله فيها أكثر مما ناله في المدارس الاخرى
وترعرع جسمه ، وزكت أخلاقه ، وسررت جداً من نتيجة تعلمه ، أما
الدكتور (ريدي) فرجل قوى الاستقلال ، ولد مريضاً ، وعندى ان طريقة
التعليم في تلك المدرسة ومبادئها جيدة ، وكان ابني يحبها ويميل الى أعمالها
وأظن أن جميع التلامذة مثله ، وهي كاملة من الجهة الادبية ، وفي اعتقادي
أنكم لا تجدون أحسن منها لتربية نجلكم
وهذا كتاب آخر

سيدي العزيز

رداً لخطاب حضرتكم المتعلق بمدرسة (ابو تصولم) أعد نفسي سعيداً
باجابتكم على مسألتكم

لنا في (ابو تصولم) ولدان قد حسنت صحتهما جداً فيها ، وجاءنا منهما
خطاب يخبرنا بأن الثلاثة الاشهر الاولى اتقضت بهدوء وأنها ممتعان بالراحة
والهناء ، وقد توفرت فيها شروط الصحة في المعيشة ، ويتعلم التلامذة
كفاية حاجاتهم بأنفسهم ، وأن يكونوا على استقلال تام ، وأرى أن التربية
الأدبية في تلك المدرسة رفيعة ، وأن التلامذة ينتخبون باعتماد و بين المعلمين
والطلبة حرية تامة في المعاملات ، واتفق أن أحدهم أقام عندنا فسحة العيد
فاندھشنا من عدم التكليف بينه وبين أئجالنا ، ولهُؤلاء شغف بأساتذتهم
وقد تقدم نجلنا البكرى تقدماً سريعاً في التعليم أما الثاني فتأخر إلا أنه
ذوتيقظ أكبر من ذي قبل وصار الاثنان أكثر نشاطاً ، ففي المدرسة مجال
فسيح لتربية الانانية الشخصية -

وليس فيها تعليم ديني مخصوص فقطتلى الصلوات في الصباح والمساء
وما خلا ذلك يذهب التلامذة إلى كنيسة الابرشية إذ نحن من مذهب
الجماعة ويرتاح أولادنا بذهابهم إلى معبدهم ، وفي عزمنا أن نرسل نجلنا
الثالث في تلك المدرسة لكنه لا يزال صغيراً لان عمره ثمان سنين ونصف
وهذا خطاب آخر

سيدي العزيز

أجيب حضرتكم بكل ارتياح على سؤالكم على مدرسة (ابو تصولم)

لان ابني منذ سنة وحوالته مرضية وهو يستفيد كثيراً، ولا بد أنكم عرفتم شأن المدرسة من نظامها، وهي لا تهتم بالتعليم المدرسي المشهور، إلا أنها تعنى باللغات العصرية وبكل ما يفيد الشبان في حياتهم، ولها اهتمام عظيم بالصحة وتربية الاخلاق، وأطعمتها جيدة متنوعة تخالف الاطعمة التي تقدم عادة في المدارس، والمبادئ التي ذكرت في النظام يعلمها بغاية الضبط والاحكام رجل امتاز بالعقل والاقدام، ذو ميل خصوصي الى تربية الشبان، أما عدد طلبتهم فخمسون، ولذلك يعنى بكل واحد منهم على حدة، ولم أمكث فيها سوى يومين، غير اني أعجبت كثيراً بما شاهدته من المعيشة الراضية، ولم أجد فيها نقصاً الى عدم تعاليم التوراة المقدسة ولعلك لا ترى ذلك عيباً أما موقعها فصحي قد كملت فيه وسائل الراحة ومدرسوها على جانب من الظرف والعلم الوافر لان الدكتور «ريدي» يختارهم من ذوى الاخلاق الفاضلة والفضائل الكاملة لكي يشواحب الخير في التلامذة وكثير منهم ماهرون في فن الموسيقى اه

فلما قرأت هذه الرسائل وأخذت حظي من محادثة موسيو «بيرفردج»

عولت على اختبار الامر بنفسى واليك ما وصلت اليه

افتتحت مدرسة الدكتور «ريدي» في شهر اكتوبر سنة ١٨٨٩

بمدينة «ابو تصولم» من إقليم «دير بيزير» وهي واقعة في الخلاء ووسط حقل زراعي هو من أعظم وسائل التربية فيها وليس حولها مدن كبيرة ومع كونها قريبة المهد فان أحد المتخرجين منها وهو موسيو «بادلي» أنشأ مدرسة على مثالها في جنوب انكلترا باقليم «صوصكص» في مدينة «بيدال» وبين

يدى الآن مقالة نشرت في « مجلة المجلات » تحت عنوان « تجربتان »
 « أبو تصولم » و « بيدال » وصف فيها صاحبها تين المدرستين وأضاف الى
 الوصف صوراً تمثل ما احتوت عليه وقد توجهت الى مدرسة بيدال مرتين
 وشاهدت بنفسى نظام التعليم وحرارة الاعمال فيها

ليس من شبه بين هاتين المدرستين وبين مدارسنا الكبيرة والكثيرة
 المجردة عن الظاهر بل هما أشبه شيء بيئتين خلويين من بيوت الانكليز
 يشعر فيهما الانسان بالحياة الحقيقية لا الصناعية وعليهما اسماء البيوت العائلية
 لا مظاهر سكنات العسكرية أو ديار السجون يكتنفهم الهواء والضوء والخلاء
 والخضرة لا الرحاب الضيقة المحصورة بين المباني العالية، وهذه الهيئة الخارجية
 تحدث في الانسان شعوراً بان المقام هناك لذيد إذ ليس من موجب يقتضى
 أن تكون المدرسة في بناء خشن ثقيل ، فاذا دخل الانسان في تلك الدار
 طابق شعوره الواقع ففرقة الاكل عائلية صرفة ذات منظر بهيج مقبول
 آيتها لطيفة ومائداتهم مفروشة بالقماش الابيض واثاثها نقي مزخرف وفيها آلة
 طرب « بيانو » وصور وتماثيل وكراسى مما يدل على الاعتناء بالجمع بين النافع
 والمقبول ، ومن يقابل بينها وبين عناصر الطعام القبيحة في مدارسنا يتبين له
 من هذه المقارنة وحدها الفرق بين طريقة التعليم في المدرستين

ومما يزيد هذا الشعور حسناً وقبولاً اشتراك المعلمين وناظر المدرسة
 وزوجته وبناته مع الطلبة على المائدة كأنهم جميعاً عائلة واحدة وبهذه
 الوسطة لا يشعر الطفل أنه انزعج من الحياة الحقيقية لانه لم ينتقل الى عالم
 صناعى جديد بل خرج من منزل الى منزل مثله بلا تغيير ، وصحيح ما جاء

في كراسة نظامها من أنها « منزل كامل لا مكان يقتصر فيه على التعليم »
 وإذا قد عرفت الظرف فلنشرح المظروف وأرى أنه ينبغي الابتداء بذكر
 ساعات العمل في اليوم ثم نرجع بعد ذلك إلى التفصيل

دقيقة ساعة

قيام من النوم « وفي الشتاء الساعة السابعة » وفتور خفيف	٦	١٥
رياضة جسمية واستعمال السلاح	٦	٣٥
الدرس الاول	٦	٤٥
صلاة	٧	٣٥
فتور وهو غذاء كامل من بيض ولحم وغيره يعقبه اصلاح أما كن النوم وكل تلميذ يعد سريريه بنفسه	٧	٤٥
الدرس الثاني	٨	٣٥
طعام خفيف فان كان الوقت صحوماً اشتغل التلامذة بالرياضة الجسمانية في الخلاء عارين عن الملابس بطناً وظهرأ	١٠	٤٥
الدرس الثالث	١١	١٥
الحان أوعوم في النهار بحسب الفصول	١٢	٤٥
طعام الغذاء	١	
تمرين بآلات الطرب	١	٣٥
ألعاب وأشغال في البستان والزراعة أو رياضة بالمشى على القدم أو الدراجة	١	٤٥
اشتغال في المصانع والمعامل	٤	

دقيقة	ساعة	
	٦	تناول الشاي
٣٠	٦	غناء ومذاكرة روايات مضحكة وموسيقى ورقص وغير ذلك
٣٠	٨	طعام العشاء ثم الصلاة
	٩	نوم

وأول شيء يلاحظه القاريء في هذا البيان تنوع الاعمال في ساعات النهار، ويؤخذ منه أن ادارة المدرسة تختشى تكليف الطلبة فوق جهدهم، ورغبتها في تربية جميع الملكات على السواء، لذلك يقترن التعليم العلمي بالتعليم اليدوي والتعليم الصناعي، وينقسم بين الاعمال كما يأتي :

دقيقة ساعة

٥	أشغال عقلية
٣٠	٤ تمرينات جسمية وأشغال يدوية
٣٠	٢ أشغال صناعية ورياضات عادية
	٩ نوم

٣ أكل وخلو عن العمل

فالمجموع أربع وعشرون ساعة

وليس في يوم الاحد عمل ما بل يقضيه الطلبة كما يشاؤون وبالجملة فان اليوم ينقسم الى ثلاثة أقسام : الصباح وعمله عقلي وبعد الظهر وعمله يدوي في الفيط أو المصانع والمساء وعمله الفنون والموسيقى والرياضات العادية ولنبحث في كيفية استعمال كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة لتقف على نتائجها

أما التعليم العقلي فداره على القواعد الآتية (تقريب المسميات من أسماؤها بحيث يتعود الفكر على الانتقال من المادة الى معقولها وتربية الطلبة على استعمال ماتعلموه والرغبة في التعلم لفائدة أنفسهم من دون تحريض عليه بمكافأة أو امتياز) ومما اشتهر في إنجلترا وفي الولايات المتحدة بأمريكا ان طريقة التعليم التي بحث فيها التلميذ على العمل بالمكافأة والتميز معيبة لانها تجعل الفيرة أساس التقدم بدل تأسيسه على محبة الواجب وهي طريقة تولد في الانسان احدى الرذائل ، والواجب في تربية الاطفال وجعلهم رجالا أن يعاملوا معاملة الرجال ، فيستفهم المربي بمخاطبة وجدانهم على قدر الامكان وقد أخبرني الدكتور (ريدى) أن هذه الطريقة لا تضعف من رغبة الاطفال في العمل بل تقويها لانها ليست متعلقة بمكافأة أو امتياز بل راجعة إلى العمل نفسه إذ يجب أن لا يفهم الطفل أن المكافأة أو الامتياز هو الغرض النهائي من التربية وأن الحياء مقاصرة أو ارضاء لشهوة للتفاخر والاعجاب

واني أخشى أن يندهش الفرنسيون من مطالعة ما تقدم لان طريقة التعليم عندنا مناقضة لتلك الطريقة على خط مستقيم ، غير أن الطريقة التي شرحناها مقول بها من كثير من معلمى الانكليز الذين وصلوا في تربية الرجال الى درجة عالية ، والامريكانيون على هذا الرأى أيضاً كما أخبرني به موسيو (بوليرو) في خطاب أرسله الىّ جاء فيه أن مدير مدرسة القديس (بول) في مدينة (مينيزونا) كتب اليه ضمن رسالة ما يأتي (انا لانتعطى جوائز لتلاميذنا ولا نطلب منهم أن يكتبوا مقالات أبد

نعم قد يتفق أنهم يبحثون جميعاً في موضوع واحد غير اني عند ما ألقى عليهم نتيجة عملهم أجعل كلامي بحيث لا يتبين واحد منهم من هو أحسنهم عملاً بل أقول له ان عمك هذه المرة أحسن من عمك في يوم كذا أو أقل منه لأنني أعتقد أنه لا يليق أن يرى الطفل نفسه أرق من غيره بل ينبغي أن يعرف انه يتقدم عما كان عليه هو منذ أسبوع (ولهم في تعليم اللغات العصرية اعتناء عظيم وطريقة تخالف ما جرى عليه غيرهم ، وليس هن المدهشات أن أقول اننا نتعلم اللغات ولكننا لانعرفها ، فن البديهي أن طريقة التعليم عندنا سيئة ويظهر لي ان طريقة موسيو (ريدى) اضمن للوصول إلى الغرض المقصود ، فيبدأ في التعليم باللغة الانكليزية مدى السنتين الاوليتين أى من العاشرة الى الحادية عشرة ، ثم يختار الكلام السنتين الثانيةين بالفرنساوية ، ثم تستعمل اللغة الالمانية سنتين ثالثتين ، ولا تقرأ اللغة اللاتينية إلا بعد ذلك ، وكذلك اللغة اليونانية لمن أرادها من الطلبة ومن الواضح أن هذا التعليم بتلك اللغات المختلطة لا ينتج الثمرة المقصودة إلا اذا كانت الطريقة المستعملة عملية ترجع بالنظر الى اللغات الحية الى التكلم أولاً وحفظ النحو ثانية على قدر اللازم في الاستعمال ؛ وهى طريقة جهلها مدرسو اللغات غالباً مع انها طبيعية لان الطفل يبدأ بتقليد أبويه في الكلام من غير عائد ولا التفات ويتمكن من استعماله وهو شيء غير يسير ، فلي أربعة أطفال سن أكبرهم تسع سنين ، وكلهم يتعلمون الالمانية على هذه الطريقة بواسطة الكلام مع احدى المزييات ، وأراهم يتقدمون فيها تقدماً سريعاً فانهم بعد أربعة أشهر صاروا يتكلمون بتلك اللغة في العايم ، ومن

المجيب أنه صاروا يستعملونها في خصامهم وهم اليوم يتعلمون نحوها بواسطة كما يقرأون النحو الفرنسي بالغة الفرنسية، وقد اتيت بهذا المثال الحاضر بين يدي لا برهن على طريقة التعليم في المدرسة الجديدة ان كان هناك احتياج للدليل، ولكي لا ينسى التلاميذ اللغة التي تعلموها في اشتغالهم بغيرها وجب أن يتكلموها ساعات معدودة في النهار، كذلك هم يعملون علم الحساب فبعد أن يقرأوا القواعد يطبقونها على العمل كأن يكفوا بصنع شيء يحتاج الى التنسيب بين أجزائه، ومن ذلك اشتغالهم بالمساحة وتعطى اليهم مصاريف العزبة والبستان والمصنع والالعاب وأدوات الكتابة والمعمل الكماوى والرسم والمأكل وحطب التدفئة ليحسبونها ويفصلوا كل شيء عن الآخر، ومن الظاهر أن هذه الطريقة تجعل الدرس مقبولا إذ تتبين فائدته لكل طالب، فيتعلمون من الارقام كيف يديرون حركة المنزل، ويتولون إدارة المصنع أو المتجر... وهكذا يصيرون رجالا عاملين متصفين بما تقتضيه معيشة الاجتماع

ويبنى تعليم العلوم الطبيعية على النظر الذاتي وهو سهل لان المدرسة قائمة في الخلاء فلا يتعب الطلبة في جميع العناصر من جماد ونبات وحيوان ويتعلمون كيف يعيش الحيوان كما يتعرفون عاداته ويفرقون بين أجزائه الخارجية قبل ان يعرفوا أعضاء الداخلية وهيكله الخفي. ويعرفون شكل النبات وتركيبه قبل معرفة أقسامه وانواعه، واسماء النجوم ومظاهرها قبل قوانين حركاتها، ويتوصلون الى ذلك كله بالرياضات التي قدمنا ذكرها وبهذه الوسطة يصير العلم طبيعياً عندهم فيقفون عليه كما ينبغي ويقبلون

عليه اقبالا ويدخل أذهانهم بسهولة ثم يرسم فيها ارتساماً، ويخرج الطالب من الدرس ميالاً الى الاكثار من معلوماته حتى بعد خروجه من المدرسة لان فائدته ظاهرة لديه لا كالميل الذي يشعر به المتعلم على طريقتنا اذ يتولاه الملل غالباً

وتقرب طريقة تعليم التاريخ من الطريقة المتبعة عندنا في تعليم العلم الاجتماعي، فيجهد المعلم في بيان الفائدة منه بتقريب العلة من معلوماتها وبيان مداولات الوقائع لا في تمهئة الذاكرة بالحوادث والتواريخ كما يجتهد في بيان النسب بين طبيعة البلاد وسياستها وتقدم تجارتها، ويبدأ بتعليم التاريخ الانجليزي ثم بمقتطفات من التاريخ العام، فيتعلم الطلبة من تاريخ اليونان اصول الامم الحاضرة، ومن تاريخ الرومان مثال حكومة عظمت فيها السلطة وكانت من أكبر المساعدات على انتشار الامة في الخارج، ثم التعليم واحد لجميع الطلبة حتى يبلغوا الخامسة عشرة وبعد ذلك يختلف لكل واحد بحسب العمل الذي يتوخاه بعد اتمام درسه، وهم يريدون أن يكونوا مدرسين أو من أرباب الحرف الادبية أو موظفين أو الزراع أو الصناع أو التجار أو المستعمرين وكل واحد يجتهد في العلم الذي يوافق ارادته، وفي ذلك من التسهيل واللين في التعليم ما تعظم فائدته مما لا يضطر معه جميع المتعلمين الى قراءة درس واحد لا يفيدهم أجمعين، وهنا يقال أن التعليم مقصود لمنفعة الطلبة لا أن الطلبة خاضعون للتعليم

وخلاصة القول يدور محور التعليم على الجمع بين العلم والعمل والفرص منه تحصيل المعارف النافعة في الحياة

ولتلقى الدروس التي بينها ثلاثة أوقات كلها في الصباح وما بعد الظهر من النهار مخصص إلى الاعمال اليدوية والرياضات الجسمية ، هكذا يربي الجسم بعد العقل ، ولاشك في أن الآباء من فرنسا وبين يندهشون كثيراً من القسم الأخير لان تربية الجسم عندنا في غاية الاهمال فقد رأيت أخيراً تلميذاً عمره تسع سنين من طلبة مدرسة « ساينسلاس » الخارجين يشتغل طول النهار فيها ثم يذهب الى البيت منكباً في المساء على درسه الى الساعة التاسعة أو العاشرة ، وهو تكايف مضر بالصحة وغير مفيد في تحصيل العلم ، وسببه وهم البعض بأن التلميذ يحصل من العلوم على قدر الزمن الذي يشتغل فيه

ويقضى الطلبة من الساعة الاولى والدقيقة الخامسة والاربعين الى الساعة السادسة بعد الظهر مشغولين في البستان والزراعة والمصانع والرياضة بالمشي على القدم أو الدراجة ، والغرض من ذلك كما هو مذكور في الكراسة « اعمال التربية الجسمية والاحاطة بالاشغال الصناعية وفائدتها وتشجيع العزيمة على المشروعات وتقدير العمل الذي تمت مباشرة ليكون كل واحد عارفاً بما يأتيه بنفسه أو ما يكاف بتلاحظته من الاعمال ، ولما كان فتور العزيمة عن العمل اللازم في الحياة ناشئاً في الغالب من ضعف الجسم وجب أن يتريض التلاميذ في كل يوم على الاعمال الجسمانية والاشغال اليدوية فانها تزيد في تقوية الهمة وانعاش الجسم والتخفيف من تأثيره مما هو لازم للافراط في الدرس وعدم الحركة »

وقد لاحظوا في ذلك اختيار الاعمال ذات الفائدة العلمية حتى يكون

الطالب غير بعيد عن شواغل الحياة الحقيقية فكاد ان يكون الطلبة هم الذين بنوا مدرستهم ونظموها وهم الذين صنعوا القسم الاكبر من الاشياء التي يتمتعون بها فيها كما فعل « روبانسون » في جزيرته

كان البستان أيام افتتاح المدرسة مملوءاً من الحشائش الرديئة ، والعزبة مفعمة بالاتفاض ، فأصلح الطلبة كل شيء ، ثم احدثوا الطرق ، ونظموا المصارف ، وطلوا الحواجز بالقطران ، ودهنوا الاخشاب والمحلات بالالوان واتخذوا ميداناً فسيحاً للالعاب ، وصنعوا كثيراً من أثاث البيت بما تعلموه في المصانع من أنواع النجارة ، واتفق أن رجلاً من رجال العزبة مرض ثلاثة أيام فقام الطلبة بأعماله وملاحظة الماشية ، ومال بعضهم الى اقتناء جواد فاشتروه من السوق وعلمهم المتقدمون عنهم ركوبه وقيادته

ويزداد العمل مدة الصيف في البستان والعزبة كما تتغير الالعاب ، ولا يلعب التلامذة بأخذ صور الاشياء بواسطة الآلة « الفوتوغرافية » أو بالرياضة على الدراجة إلا في أوقات الفراغ ، وقد شاهدت من صنعهم مائدة ودولاباً وآلة للنزول في جوف الماء وبيتاً للبط وآخر للحمام ومظلة كبيرة من الخشب « عنبر » ومركين تامتين وثلاثة غير تامة وغير ذلك

وبينما أنا أكتب هذه السطور ورد على كتاب من موسيو « بيبردج » يخبرني بأنه ذهب بابنه الى المدرسة ويحكى ما رآه فيها فاقطفت من كتابه ما يأتي « لما وصلت إلى المدرسة وجدت عدداً من الاطفال مشتغلين بطلاء آلة لعب صنعوها بأنفسهم في السنة الماضية ، وقد شرعت المدرسة في اقامة قنطرة على النهر المجاور لها وعرضه من ثلاثين متراً الى أربعين قواعماً من

البناء حتى تصير متينة وسيقوم التلامذة بجميع تلك الاعمال وشاهدت وادياً صغيراً مغروساً بالاشجار يمتد من أرض المزارع الى مباني المدرسة الموجودة على مرتفع عظيم يعلو عن النهر بمائة قدم تقريباً، وفي وسط ذلك الوادى غدير صغير من الماء قد اتخذ التلامذة فيه حياضاً صغيرة جمعوا بينها بطرق ضيقة وقاموا بجميع ما استوجبه من الاعمال ولم يستعينوا ببناء إلا في حالة الضرورة المطلقة، وعولت المدرسة على توسيع بنائها حتى يسع مائة تلميذ وهو أكبر عدد يرى الدكتور «ريدى» امكان قبوله ليتمكن من ارادته كما ينبغي، وقد شرع التلامذة تمهيداً لذلك في مقياس الارض وتخطيط البناء، ويوجد على مقربة من المدرسة معمل كيمياوي ومصنع للنجارة يشتغل فيهما الطلبة تحت إدارة موسيو «هيرنومان» الذى رأيتموه في «ادنبورج» بأعمال متنوعة لأنفسهم والمدرسة، ومن بينهم فى الثلاثة أشهر القابلة أن تعلموا التلامذة صناعة الخشب على طريقة «لويد» التى شاهدتموها مدة وجودكم هنا، وليس فى داخل المكان شئ من الزخارف التافهة غير أساس النرف قد استجمع موجبات الراحة كلها ثم انى شاهدت على وجوه الطلبة وهم يتناولون طعام الضحى علائم الهناء والعيشة الراضية فاجتمعوا حول ست موائد صغيرة يرأس كل واحدة منها أحد المعلمين وأنشدوا دعاء الطعام بهمة واشتياق ورأيت بينهم وبين معلمهم حرية تامة واطمئناناً كاملاً ومن عادة هؤلاء أن يمشوا مع الطلبة وقت التريض ويعاملوهم كأنهم أخوة أكبر سنًا لا باعتبار أنفسهم قوماً ممتازين وهم يتحرون على الدوام استعمال الالفاظ المألوفة عندهم وقد ينطقون أحياناً

بما يألفه الطلبة عادة من كلمات العامة ولا فرق بينهم وبينهم الارداء يلبسونه علامة على انهم من العلماء ، وللدكتور « ريدى » شغف بتعويد التلامذة على الاشغال الخارجية لذلك ينتدبهم في مهمات جسيمة كأن يرسلهم الى البيوت المالية ليأتوا له بالنقود منها وغير ذلك وظاهر أن غرض موسيو « ريدى » من هذه الاعمال الجارية والاشغال اليدوية ليس قاصراً على تعليم الطلبة ، مالا يكتسبونه بالدرس والمطالعة بل يتناول تربية أجسامهم وتقوم صحتهم واعدادهم الى التغاب على متاعب الحياة ، وله اعتناء في الوقوف بنفسه على ما يحصلونه من ذلك كله فن كلامه ما يأتي « لقد أردنا ان نقف على تقدم الاطفال وترعرع أجسامهم حتى نعرف جودة غذائهم وموافقة أحوال معيشتهم لصحتهم ، لذلك تقارن بين تقدم جسم كل واحد منهم مدة وجوده في المدرسة ومدة وجوده في المساحة ونوانا رأينا تقدمه في المدة الثانية أعظم منه في الاولى لتبيننا أن حالة المعيشة عندنا سيئة ، نعم أن الموازين التي نزنهم بها لاتدل على مقدار ما اكتسبوه من الخفة وسهولة الحركة غير أنه يهمننا أن لا يكون كسبهم من هذه الجهة مضعفاً لأجسامهم وقد دلتنا تجاربنا على أن النتيجة حسنة » ويلى هذا بيانان احدهما في الوزن والثاني في الطول يعلم منهما القارىء ما كسبه التلميذ في المدين ويرى أن مدة المدرسة راجحة على زمن الاجازة ولا غرابة في هذا فان نوع المعيشة في المدرسة من أحسن ما يطلب لتربية الاجسام قال موسيو « ريدى » « وتدل هذه الارقام من أول الامر على أن مدرستنا تعتبر من جهة تنفيذها وملبسها وحالة معيشتها معمل يتخرج منه رجال أشداء أقوياء ، فالامراض

عندنا قليلة حتى دوار الرأس والركام إذ من طريقتنا تعليم الشبان ان الرجل ينبغي أن يكون في صحة تامة وان الامراض انما تنشأ عن الخطأ والجهل والافراط في الشغل وعدم ترتيبه أو من الفساد . ولذلك نجتهد كثيراً في تعويدهم على حب النظافة والتمسك بالعوائد الصحية « ولكل طالب أثناء ماء بجانب سريره ، وقد ذكرت هذه الجزئية لا قابل بين تلك المدرسة وبين مدارسنا حيث لا يستعمل الماء إلا بالتقتير والتدقيق الكلي كأنه من جملة الزخارف ، كذلك نحن نتقصد في الهواء كما نتقصد في الماء ، أما في « أبو تصولم » و « بيدال » فان الطلبة ينامون في غرفة فتحت منافذها حتى في الشتاء

إلى هنا بينما كيف يقضى التلامذة وقتهم من الصباح إلى الساعة السادسة بعد الظهر وهو وقت تناول الشاي وبقي ثلاث ساعات حتى يأتي موعد النوم وهذا عملهم فيها

قال « بونالد » في تعريف الانسان « الانسان عقل تخدمه الاعضاء » وقد علمت كيف انهم في تلك المدرسة استخدموا الصباح لتربية القسم الاول وما بعد الظهر لتربية الثاني ، إلا أن الرجل يزيد على هذا التعريف بكونه مدنياً بالطبع لا محيىص له عن الاجتماع ، فينبغي أن تكون تربيته موافقة له ، والاجتماع يطلب من المرء أن يكون مهذب الاخلاق حتى يكون أنيس العشرة مقبول المسامرة بين أمثاله وقد خصصت تلك المدرسة الساعات للثلاثة الباقية لهذه التربية قال موسيو « ريدى » « من غرضنا أن نعود الشبان على ماينفي عنهم الخجل وسوء الحركة ويدعوهم إلى الارتياح

من الاجتماع باكبر منهم سنًا ، لذلك يجتمعون كل مساء في غرفة واحدة مع سيدات المدرسة والرائين ، وقد نظمت تلك الغرفة على مثال منتسق تستريح له النفوس وانتخب اناؤها والصور والتماثيل التي فيها لهذا الغرض » فاذا اقبلت الساعة السادسة تحولت المدرسة إلى بهو يتسامر فيه الحاضرون ويلعبون بآلات الطرب وأهمها الموسيقى ويترنمون بالاناشيد ويمثلون المضحكات ويقيمون المراقص والملاهي ، جاء في الكراسة « ان الموسيقى من أم اشتغالاتنا فلنأفي كل أسبوع ليلة موسيقية وفي كل ليلة ألعاب على البيانو ولذلك تأثير عظيم في التلامذة ولهم أيضاً كثير من آلات الطرب الاخرى وآلات الرسم والتصوير » وقد بنى التلامذة ملهى لتشخيص الروايات لانهم لا ينظرون إلى هذه الألعاب كأنها رياضات بسيطة بل يمدونها من أعظم وسائل التربية ، ولهم ليلة في كل أسبوع يقرؤون فيها مؤلفات « شكسبير » ، وقد تألفت جمعيتان منهم للمناقشة في المسائل المختلف عليها ، ولهم جريدة تسمى « مجلة المدرسة » ينشرون فيها أخبارها وحوادثها مصحوبة بصور وفيها قسم للادبيات ، ويقول صاحب الكراسة ان الغرض منها تربية الملكات الادبية والفنية وتمثيل المدرسة في أذهان التلامذة كأنها عالم تام صغير ، ومما يزيد في نمو الملكات الفنية دار للتحف شرع في تأسيسها وقد وجد فيها نسخ من صور أكابر المصورين وتماثيل وأثاث جميلة وغير ذلك ، ثم ينتهي اليوم بالصلاة كما بدأ إلا أن المدرسة ليست تابعة لمذهب مخصوص من مذاهب « البروتستانت » فهم فيها غير مقيدين بطريقة دون أخرى ولا هم بما يسمونه « الاعتراف » ويقتصرون في صلاتهم في المعبد

وقبل الطعام على تلاوة بعض آيات التوراة ونشيد بعض الاخوان والاستغاثه
ببعض التضمرات الادبية الدينية العمومية

وللتلامذة من يوم الاحد فسحة يعبد كل واحد منهم في الكنائس
القريبة من المدرسة على حسب قواعد مذهبه اخاص ويذهب الكاثوليك
منهم لسماع القداس في كنيسة قريبة

واليك ما جاء في الكراسة مختصاً بالدين « للدين شأن خطير في الحياة
فوجب أن تكون ممزوجة به ، غير أنا لانعامه التلامذة كأنه جزء منها بل
باعتباره كلاً منتظماً ينتشر في الذات كلها وان اختلفت المذاهب وتشعبت
الطرق ، فيجتمعون ربع ساعة في الصباح ، ومثل ذلك في المساء ليشتغلوا
بالدين ويتوجهوا إلى ربهم باشارات ظاهرة »

تلك هي المدرسة وذاك هو نظامها ، وهي تجربة أراها مفيدة للغاية
لأنها تدل على ميل الافكار إلى اختيار طريقة في التعليم توافق مقتضيات
الهيئة الاجتماعية في العصر الحاضرة وهي تخالف كل المخالفة جميع الطرق
المألوفة في غيرها لما هي عليه من التعليم العملي وافراغ جهدها في تربية الرجل
من جميع الجهات والوصول بملكاته إلى الممكن من التقدم وإنماء قدرته
وعزيمته وهيمته إلى الحد المستطاع ، وفي هذا ميل إلى التربية الاستقلالية
التي تنتشر الآن في جميع أنحاء المسكونة

يجب في العالم الجديد تربية جديدة يشب المرء فيها معتمداً على نفسه
لا على الجمعية أو حزب من الاحزاب فينظر في عمله إلى المستقبل ليكون هو
قبلة حياته التي تشخص اليها ويهمل الماضي فلا يربط أعماله بما كان يقتضيه

وبينما كنت ذات يوم أحادث صديقاً لي بهذه المدرسة قال لي « انها لتجربة مفيدة غير اني أرى فيها عيباً هو ان نظامها داخلي » والداخلية كما هي عندنا في البلاد الفرنسية نظام مضر في الحقيقة بالتلامذة جسماً وعقلاً لانها تجعل المدرسة ثكنة تحشد المئات من الاطفال في أماكن ضيقة وفي نظام اشتدت مقتضياته وذلك أدعى الى اضعاف الهمم وأولى بتربية العساكر والموظفين منه بتربية عزيمة الافراد واطلاق الصراح لما فيهم من القوى وما فطروا عليه من الاقتدار، لكن من الخطأ الواضح عدم التمييز بين هذه الحال وبين التي شرحناها فلا جامعة بينهما إلا في الاسم، ومن الواجب من التحرز من الالفاظ لانها تطلق غالباً على مسميات لا يشبه بينها فعدد الطلبة في تلك المدرسة محدود لا يزيد اليوم على الخمسين ولن يزيد في المستقبل على المائة كما صرح به الدكتور « ريدي » لعله ان الزيادة عن ذلك تعيق سير التربية، ثم انهم لا يخرجون من عائلاتهم إلا ليدخلوا في عائلة أخرى وهي عائلة ناظر مدرستهم التي تقاسمهم الحياة في المأكل والمقام، فحياتهم في الواقع حياة عائلية على مثال أوسع، ثم انقطاعهم عن عائلاتهم أقل منه عندنا لان اجازاتهم أكثر من اجازاتنا ومدتها أطول : يسامحون سبع أسابيع في الصيف وأربعة في الميلاد وثلاثة في الربيع وبذلك يقيم التلامذة بين عائلاتهم ثلاثة أشهر ونصفاً في السنة على مرات متعددة ويظنون ذاكرين عوائدها وتقاليدها

لكل نوع من أنواع الجمعيات تأثير خاص في طريقة التربية وهو الذي تنتزع منه الأمة نظام مدارسها

فمنها الجمعيات الاتكالية العائلية وتمتاز بانضمام عدد من تلك العائلات الى بعضها في منزل واحد ، وهو المثال الذي تأخرت فيه أغلب الامم الاسيوية وأمم الشرق الاوروبوى ، هناك لا يعتمد الاطفال على أنفسهم في كسب حياتهم بل اعتمادهم على جمعيتهم العائلية حيث يبقون فيها لتقوم بحاجاتهم أو يرجعون اليها ان أدركتهم الخيبة في طريقهم ، ومن كان هذا شأنه ضعف شعوره بالحاجة الى التعليم الشخصى فيهبط ذلك التعليم الى أسفل الدرجات وربما اقتصر فيه على معارف العائلة مستعينة بنصائح أحد رجال الدين ، ومن المعروف ان شأن المدارس في تلك الجمعية غير خطير ففيها مثال التربية المحصورة في العائلة والموكول أمرها الى العائلة

ومن الجمعيات الاتكالية الحكومية ، ومميزها قيام الحكومة مقام العائلة التي انعدمت فتتحصر آمال الشبيبة في وظائفها الادارية ، والمسكوية وهذا شأن أغلب الامم الغربية الاوروبوية وأخصها فرنسا والمانيا ، وينبغى للطلبة في نوال تلك الوظائف أن يفوزوا في امتحان تزداد صعوبته كل يوم تخلصاً من تكاثر الطالبين ، وإذ ذلك تحول المدارس وجهتها الى طريقة جديدة في التعليم فتكلف الطلبة ما لا طاقة لهم على احتماله وتطلب من الذاكرة حفظ المعقولات من غير نفقة ، فما الغرض من التعليم ، تربية رجال قادرين على احتمال متاعب الحياة بل المراد إعداد الطلبة للمحاضرة في الامتحان ، وأعظم المدارس نجاحاً في ذلك هي التي اختارت نظام الداخلية لانها تضحى كل فائدة إلا ما قصد به الامتحان كأنها حياة المرء تنتهى بالامتحان فيجتهدون في توصيله اليه بتكليفه ما لا قدرة له عليه ، ومن

فائدتهم أنه يوجد في المدرسة الواحدة خمسمائة تلميذ أو ألف أو أكثر من ذلك لان المعلمين لا يعتنون بكل واحد على انفراده كي يصير رجلاً كاملاً يقوم مقام رب عائلة ، وعليه ليس للاختلاط فائدة وليس أحسن المعلمين في تلك الأحوال أكثرهم علماً أو أكثرهم وقاراً أو أبعدهم نظراً بل أحذقهم في حشو رؤوس التلامذة بكثير من المواد في أقرب وقت ممكن وأكثرهم خبرة بطرق النجاح في الامتحان وأدوارهم بطرق الممتحن وأخلاقهم والنوع الثالث هو الجمعيات الاستقلالية ومثالها الامم الاسكنديناوية والانجليز السكسونية ، وتختلف مدارس هذا النوع عن مدارس النوعين السابقين ، هنالك لا يعتمد المرء على العائلة لانحلها ولا على الحكومة لقلّة وظائفها وعدم انحصارها في يد واحدة بل كل اعتماده على نفسه وهمته وإقدامه

ومن هنا وجب أن يكون الغرض من التعليم تربية تلك الملكات كلها حتى يكون مفيداً للرجال في أعمالهم وأن تكون المدرسة قريبة الشبه في نظامها من الحياة الخارجية على قدر الامكان ، وهي لاتصل الى تلك الدرجة إلا اذا كانت صغيرة وعدد تلاميذها غير كبير وأولى في المدينة أن ينام الطلبة في بيوتهم ليلاً وفي الريف أن يقيموا في المدارس على الدوام ، وينبغي في هذه الحالة الاخيرة ان تكون حالة المعيشة فيها شبيهة بمعيشة العائلة كي لا ينفصل الطفل عن عاداته في بيت أبيه

ومن هنا يتبين انه لا يكفي تقسيم المدارس بحسب كونها داخلية أو خارجية بل تلاحظ أنواع كل من القسمين فلكل نوع نظام مخصوص

ومميشة ممتازة ونتائج على حدتها

ويؤخذ مما قدمناه ان السبب في عدم إمكاننا اصلاح مدارسنا على النحو الذى شرحناه هو حالتنا الاجتماعية أى أخلاقنا التى تدفع الشبان نحو الامتحان والوظائف التى تؤدى اليها ، وقد يظن البعض أن نظام تلك المدرسة لا يفيدنا إلا من قبيل العلم به وهو خطأ لاننا نعلم انه لما كان عدد التلامذة قليلا كان أمل النجاح فى الامتحان مع الاجتهاد كبيراً ، ولكن الاحوال تبدلت وتراجم الشبان على الوظائف وجرت الطبقات الوضعية من الأمة على منال الطبقات الوسطى حتى صار لكل وظيفة مائة طالب فلا يجد الطالب بعد الامتحان باباً يدخل منه على الوظائف بل سوراً منيعاً بعيد المنال وليس من الحكمة حمل الشباب على مناطق هذا السور ، لذلك أخذ المتأملون يخففون من احتقارهم للمهن الحرة غير انها يجب لها صفات لا تنتجها تربيئتنا الحالية كما هى من ثمرات تلك المدرسة التى بينا نظامها

الفصل الرابع

﴿ كيف ينبغي أن نربي أولادنا ﴾

اعتدنا معشر الفرنسيين فى ايجاد مرتزق لابنائنا على امهارهم بشيء من المال نجمعه بالاقتصاد ثم نتبع ذلك بالبحث لهم عن زوج أو زوجة متناسب فى الثروة ، وبعد ذلك نجهد فى إنالهم إحدى الوظائف العمومية

متى تيسر ، وقد قامت العقبات هذه الايام في سبيل النجاح بهذه الوساطة لانخفاض فائدة النقود فبعد ان كانت خمسة في المائة صارت أربعة ثم ثلاثة وصار من المتعذر جمع المال اللازم للابناء ، وقد كانت هذه الصعوبة خافية عنا الى هذا اليوم لوفرة المال عندنا فانك تسمع الناس من كل جانب يقولون ان فرنسا بلدة غنية لديها كثير من الاموال وهو صحيح بدليل ان أكبر سوق للنقود يوجد فيها غير انه لسوء الحظ ليست وفرة المال من عمل الأمة خاصة بل سببه أحوال عرضية لا تدوم طويلا وتلك الاحوال في الحقيقة من أمارات الانحطاط لا من علامات التقدم والرخاء.

فن تلك الاسباب الاقتصادية في النسل إذ لا شبهة في أن عدد الفرنسيين يقل سنة عن سنة فقد قل التعداد الاخير على ان الوفيات تزيد على المواليد وهي حالة نادرة إلا أنها اليوم خاصة بفرنسا حتى جعلتها في مؤخر الأمم ومن هنا أي من قلة عدد الذرية يكثر المال لان الرجل الذي يصرف ستة آلاف فرنك في السنة لتربية ستة من الاولاد لا يصرف إلا ألفاً في تربية ولد واحد ويقتصد خمسة آلاف في كل السنة ، وللفرنساويين ميل شديد الى هذا الاقتصاد لذلك تراهم أكثر مالا من الأمم التي يكثر فيها عدد أفراد العائلات ، وهذا من الاسباب التي جعلت في فرنسا أكبر سوق للنقود

ثبت اذاً أن لقلة الاولاد دخلاً في وفرة المال ، وهناك سبب آخر هو تباعد الفرنسيين عن المهن الجارية وهربهم من الزراعة والصناعة والتجارة فلا يميل اليها الا القليل والكثير يفضل عليها الوظائف الادارية

لهذا اجتمع الاطفال كلهم حول مدارس الحكومة حيث يضيع مستقبلهم في جوانبها ، فكل من كسب درهما أو درهمين من الزراعة أو الصناعة أو التجارة يسمى ويصبح مفكراً في الخروج من مهنته وفي تربية ابنه ليكون ضابطاً في الجيش أو موظفاً في الحكومة أو من الكتاب وأهل الأدب وعليه فالفرنساوى لا يدير ما جمع من المال بنفسه بل يدخره حتى يرمى به في أسواق البيع والشراء المالية «البورصة» وهكذا كان هرب فرنساويين من الحرف والصنائع موجباً لزيادة المال المخزون ، إلا أن هذه الاسباب التى تدعو الآن الى وفرة المال تؤدى أخيراً الى النقص فيه سنة بعد الاخرى وتنتهى بضياعه فى زمن يتخيلون أنه بعيد ، فكما أن نقص الاطفال يزيد فى الاموال فانه من جهة أخرى يضعف القدرة على الاعمال فان كان للرجل ستة اولاد لزمه أن يشتغل كثيراً وكثرة شغله تزيد فى ثروة الامة ، فان لم يكن له إلا ولد واحد قل عمله وضعف تأثيره فى انماء الثروة العمومية ، وكذلك اذا خرج الطفل من عائلة كبيرة للعدد قل أمه فى ثروة أبويه وعول فى رزقه على نفسه فيزداد إقدامه على العمل وتكبر فيه الهمة بخلاف ما لو خرج من عائلة هو وحيدها فانه يجعل كل اعتماده عليها ولا يعول على نفسه إلا قليلاً ، وزاد على هذا أن تفورنا من الصنائع ذات المكاسب وأن سهل لنا أن نلقى بجميع ما اقتصدنا من المال فى الاسواق المالية يبعدنا عن منابع ذلك الاقتصاد إذ لا مصدر للثروة العمومية إلا الزراعة والصناعة والتجارة وقد نسينا أن غيرها من المهن والحرف دخيل ليس بالاصيل وأن مرجعها كلها إلى تلك المنابع الثلاثة

وربما قال بعضهم أن تلك الحالة تدوم لنا بدوامنا فنحجب بان ذلك غير مأمون وعلى كل حال فننحقق أنها لا تدوم لاطفالنا ، ألا ترى أن كثيراً من أولئك الشبان التعمساء لا ينجحون اليوم في الامتحان لكثرة عدد الطالبين مع ازدياد عدد الوظائف الى حد الافراط فهم أشبه بالظمان يرى السراب فيظنه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، وليت شعري ماذا يفعلون بعد ذلك كما لست أدري ما الذي في امكانهم أن يفعلوه

وما الذي أهلتهم اليه تربيتهن في العائلات والمكاتب والمدارس غير الحرف الادبية والمصالح العمومية والوظائف الحربية ، كم قالوا لهم أنها أشرف الصنائع وانه لا يليق بهم سواها لا فرق في ذلك بين عائلات الطبقة الوسطى وعائلات الدرجة السفلى حتى صار كل الناس يذكرون ذلك في التصور والحوائيت والمدن والارياف وأصبح كل شاب يحلم بالوظائف في الحكومة وأمسى على باب بعض الوظائف آلاف من الطالبين كما تشهد به التقارير الرسمية وظل أولئك التعمساء يتقبلون على جر الانتظار وقد غصت بهم رحاب المصالح وملاًوا جيوبهم من رسائل التوجيه وجعلوا يندبون حالهم وينتجون ولا يجمعون عن أمر إلا استعملوه اللهم الارجو عنهم الى أنفسهم وطلبهم الرزق بملهم مما ربما كان أوفر حالا وأعظم ثمرة ومما هو بلا شك أدعى الى الاستقلال وأولى بحفظ الكرامة ، وما عدو لهم عن ذلك الا من خوف الخيبة لذلك فضلوا التردد على الوظائف مما صغرت وأن ردوا ، وطال عليهم أمل الانتظار وظنوها حالة يحسدون عليها فطالب الاستخدام يلتحق بالمستخدمين في رأى هذه البلاد التي سادت فيها

الوظائف والأسفاه وان ذابت صرارته من الانتظار على مقاعد الحجاب وصفر المطلوب وعز النوال ، كذلك هم يعدلون لكونهم لا يقدرون على تلك الصنائع المستقلة لان تربيتنا الفرنسية كما بلغت الممكن من تخرج الموظفين قد وصلت الى العدم في تربية الرجال المستقلين ممن لهم همة وقدرة على مغالبة متاعب الحياة ، فلا يليق شباننا لغير تلك الوظائف التي يكونون فيها تابعين ويفرحون لكونهم يتناولون بلا عناء في آخر كل شهر راتباً معدوداً ويعرف كل واحد منهم مصيره قبل دخوله في الوظيفة وانه اذا بلغ من العمر كذا صار وكيلا لرئيس واذا بلغ كذا صار رئيساً لأحد الاقلام ثم اذا بلغ كذا تقاعد وأخذ المعاش ، ولا يجهل من تلك الأزمان الا زمن الموت ، وظاهر انه لا يمكن حصر دائرة الحياة في حدود أشد ضيقاً من هذه الحالة ويستخلص مما تقدم انه ينبغي لنا التنويع في تربية أبنائنا اذا أردنا أن يكونوا قادرين على حياتهم في الازمان التي استهلت مستعدين لمقاومة سوء الحال الاجتماعي الذي قد فتحت أبوابه

الخرج الاجتماعي اليوم عام ولا بد معه من وضع مسألة التربية موضع النظر والتفكير ، والحقيقة التي يجب أن نتخذها قاعدة للبحث فيها هي ان طريقة التربية المستعملة الآن لم تعد صالحة في الغرض المقصود منها وانه لا بد من العدول عنها لانه لا نجاح فيها ، ألا ترى ان الرجل يأتي كل شيء ، يمتقده مفيداً لابنائهم ولا يهمل شيئاً مما أفاده هو ومع ذلك لا يصل ابنه الى ما وصل اليه حتى أصبح الآباء المجدون ذو الافكار ممن حسنت تربيتهم واستقامت عشرتهم يتساءلون وهم حيارى كيف يربون أبنائهم

ويعملون لهم ممرزقاً ، هذا خذلان لا نتخلص منه ومهواة لا تتحرز منها إلا بالعلم الاجتماعي ، تقول ذلك لان الخذلان موجود فالناس تحمر وجوههم من هذه الحال ثم يفضبون ثم يرون الجو مظلماً ويقولون ان روحاً خبيثة انتشرت في العالم وان الناس جنبوا فتركوا المبادئ الصحيحة ثم يشتد الغضب فيصخبون ولكنهم يقولون على ما كانوا عليه ممتقدين انه هو الذي يجب الرجوع اليه فيخيبون خيبة كاملة

أما العلم الاجتماعي فهو أكبر اعتدالا وأصدق مقالا يختبر الحوادث ويقارنها ببعضها ويميز أشكالها ويعلم الناس ان العالم منتقل من حال الى حال أحسن منه غير موقف بل دائم ، وهذا الانتقال يفصل الدهر الى قسمين ماض ومستقبل وهو الذي يريهم أسباب الحرج الحاضر ووجهته وغايته وانه حرج لا يشابه غيره من بعض الوجوه

فن تلك الاسباب تثير طرق الكسب والمواصلات على الدوام أعني تغير طرق المعيشة لان العامل كان في الماضي يعمل في مصنع صغير أو في بيته أو بيت المصنوع له وكان المقلون على سلمه قليلين لا يخرجون عن أهل قريته وكان صنعه في الغالب يدوياً أو بآلات صغيرة وكان طرق العمل واحدة يتلقاها الخلف عن السلف وكان الحديد في الصنع معدوماً أو نادراً ولم يكن من مسابقة الا بين المتجاورين لان طرق المواصلات كانت قاصرة لا تساعد على تسفير المصنوعات الى البلاد القاصية وجلب غيرها منها وكانت المنافسة ضعيفة لما ألفوه في ذلك الزمن من وضع المنظمات التي لا تجعل للتزاحم محلا حيث تقررت طرق العمل وتحدد عدد

المعلمين والمتعلمين وغير ذلك ، وبالجملة كانت الافكار متجهة الى المحافظه على طرق المعيشة المألوفة ، ومن أجل هذا كانت التربية موافقة لمقتضيات الزمان تعلم الشبان ما تعلمه آباؤهم وتهيئهم الى ما عرفه الماضى من الاعمال وبقيت كذلك تنتج النتائج الحسنة زمنًا طويلا ، أما الآن فقد تميرت الازمان وتبدلت أحوال الاجتماع الانسانى وصار العامل يشتغل فى مصانع كبيرة بآلات ضخمة ويبيع سلعه فى طرفى المسكونة وكل يوم يزداد عدد الطلاب وطرق العمل تتغير فى كل حين تبعاً لتقدم العلوم ، وقام الجديد مقام التقليد والاتباع واشتدت المزاومة ووجب على الصناع تقادياً من شرها أن يبحثوا دائماً عن طرق تمكنهم من اكثار سلعهم أو تحسينها أو تخفيض أثمانها ، وتحولت المعيشة من هدو واستقرار الى حركة وتجديد واختراع ، ومن أهم ما تجب ملاحظته انه ليس فى وسعنا اختيار احدى الحالتين لان الحالة الجديدة صارت ضربة لا مفر منها

ومعلوم ان تغير طرق المعيشة يستلزم تغيير حالة العالم بأجمعه ، ومن هنا تولدت المسئلة المعروفة الآن بالمسئلة الاجتماعية وهى عبارة عن البحث فى وسائل الحياة .

والسبب فى ظهور هذه الحالة الجديدة ظهور العلوم الطبيعية التى لم يقف العلماء عند منتهائها بل هى لا تزال فى مبادئها كما يراه ويشهده كل انسان ، فمن ذلك الحين انحدر المجتمع الانسانى فى طريق تبدل أحواله المادية انحداراً لا يقاوم وانحلت الجامعة بين الحاضر والماضى لما اعتاد هذا من البقاء على حالته الاولى ولما اضطر اليه ذاك من ايجاد الوسائل التى تمكنه

من استخدام تلك التقلبات في فائدته ورفع مضارها عنه والفرق بين
الزمنين كالفرق بين الجندي الذي يحارب من داخل الحصن والجندي الذي
يحارب في البيداء وهو فرق جسيم كلي ، وليس بصحيح انه نتيجة ميل
الناس الى الشر في هذه الازمان وجبن طباعهم كما هو رأى من لم يتدبر
الحوادث ويتفقه الاحوال بل هذه حالة مادية جديدة في العالم قضت بها
القدرة الالهية بما هدت اليه من العلوم الطبيعية التي من خصائصها التقدم
والترقى ، وما على المرء إلا أن يكون بحال تطابق هذا التقدم فان في ذلك
مصلحته بل ان هذا صار من واجبه

فلنا ان العلم الاجتماعي يوضح أسباب الانحطاط كما انه يبين للغاية التي
يسوق الناس اليها وهي واضحة

يسوق الانحطاط الناس الى حالة جديدة غير التي هم فيها ، فان يتأني
لامرء ، أن يعيش محصوراً في دائرة محدودة ولا أن يعتمد في معيشته على
غيره ممن تعود الآن على مساعدتهم ولا على الاسترسال مع العوائد التي
الفها بين قومه لان الوسط الذي يعيش فيه مائل أيضاً الى التمزق والانحلال
بتأثير ذلك التغيير المستمر في حاجاته المادية كما أشرنا اليه ، والرجل اذا تربى
في وسط مخصوص حتى صار يعتمد عليه في جميع أموره لا يستطيع البقاء ،
اذا فسد ذلك الوسط بل انه يتغير بتغيره ومن هنا وجب أن يكون
الغرض من التربية تعويد الانسان على الاعتماد على نفسه في حياته فلا
يحتاج في طلب الرزق لغيره ، وأن يكون قادراً على أن يدور مع الزمان
كيف يدور ، وهي الآن لا تنتج إلا التمسك بالوسط الذي نشأ فيه

والاستعانة بعائلته وطلب المساعدة من معاشريه والاتكال على بعض الصنائع العرضية كالمتوظف في مصالح الحكومة أو الاحتراف بالاعمال الهيئة التي لا تكلفه جداً ولا كدّاً

وبالجملة لا فائدة اليوم من التربية اذا اقتصر على تعليم المرء أن يعيش في وسط مخصوص كالعائلة أو أهل المدينة أو السياسة ، وانما هي تفيد اذا علمته ان تكون ذاته الوسط الذي يتكل عليه فيتمكن من استعمال قواه في جميع الاحوال كما خلقه الله

وهذه التربية مخالفة لما جرت عليه الأمة الفرنسية من أول هذا القرن الى يومنا هذا ، فترى الآباء اذا تكلموا عن أبنائهم يكررون هذه الكلمات « ما عليهم إلا أن يعملوا عملنا - كفى بالمرء أهله وأصحابه أن يتقدم ويترقى في الحياة - يلزم لاولادنا أن ينالوا وظيفة في الحكومة كأن يعينوا في المحاكم أو الجيش أو الادارة لان الرزق هناك معروف مأمون فلا نخشى عليهم من المحن فيها - لنا من الثروة ما يدرأ الخيرة عن أبنائنا فسنترك لهم كفايتهم متى عينوا في وظيفة بمرتب مضمون وتزوجوا بمن يأتهم بمهر جزيل » ومثل ذلك من الافكار التي نعرفها كلنا وربما وردت على ألسنتنا غير انها لم يعد لها في ابلخارج معنى صحيح ولن تكفي العائلة ولا تنفع الاصحاب والوظائف والمهر عامة الناس لانفسهم ولا اولادهم ، وليس للانسان إلا ماسعى وأن يكون قادراً بنفسه على كفاية نفسه مستعداً بذاته على اقتحام مصاعب العيش ومغالبة صروف الحياة ، وهنا الصعوبة كل الصعوبة لان الناس لم يتعمدوا ذلك ويجهلون أى طريق فيه يسلكون ، على ان الفائدة

عظيمة فلا ينبغي افلاتها اذ التربية الجديدة التي يستصعبها الناس تربي الرجل على فضيلة الاعتماد على نفسه وتخلق فيه من الشجاعة ما يساعده على مقاومة تقلبات العصر الحاضرة ، والفرق بيننا من حيث اعتمادنا على أهلنا وأصدقائنا وبين الأمم التي تربت افرادها على القيام بشؤون أنفسهم بجدهم وعلمهم كلفرق بيننا من حيث قوة التغلب وقابلية الاستظهار وبين تلك القبائل المتوحشة التي تدخل في ديننا تبعاً لدخول رؤسائهم فيه

تلك هي أسباب الانحطاط في التربية وغيرها ، وهذه وجهته وغايته ولا بد لنا من تخطي هذه العقبة طائمين أو مكرهين ، ولا بد من العمل على تقيص ما نحن فيه الآن

في التجارب هاد يرشد الى الطريقة المثلى لنوال الغرض الذي ندعو اليه ، فيها أمان من التخبط والزوال ، ومعلوم انه لا تجازب عندنا لان كل شيء في بلدنا يجري على تقيص المطلوب ، وجب اذن أن نستدير تجارب غيرنا من الامم التي اجتازت هذه العقبة ، وصارت تربي شباناً قادرين على العمل بأنفسهم من دون احتياج الى أهلهم أو أصدقائهم أو حكومتهم ، وتلك الأمم موجودة لا ينكرها إلا الذين ليس لهم أعين يبصرون بها وهي التي أصبحت تغير على الدنيا وتستخرج مجهولاتها وتستعمرها وتقصى عناصرها الدنيا القديمة في تقدمها وتأتي هذه المعجزات كلها بقوة الهمة الشخصية وسلطان رجال لا يمتدنون في عملهم إلا على أنفسهم ، ولنا في المقابلة بين مافعله رجل التربية الجديدة في أمريكا الشمالية ومافعله رجل التربية القديمة التي لا تزال تريبتها من سوء حظنا في أمريكا الجنوبية ما يكفي للاقناع بصحة قولنا

الفرق عظيم كما بين الابيض والاسود فأهل الشمال قد بلغوا في الزراعة منهاها وحازوا من الصناعة والتجارة أقصى المراتب ، وفي الجنوب أمة أقعدتها الخمول واستولى عليها الارتخاء وفقرت عزائمها داخل المدن وفي مصالح الحكومة وفي الاشتغال بالثورة السياسية ، في الشمال ترى المستقبل مشرفاً وفي الجنوب ترى الماضي مولياً ، نعم قد تولى ذلك الماضي وأصبح رجال الشمال الأشداء الاقوياء يهبطون إلى أمريكا الجنوبية التي ساء بختها وجعلوا يضعون أيديهم على أعظم مواقع الزراعة التي أماتها الكسل الاندلسي أو البرتغالي فأصبحوا قابضين على السكك الحديدية والبيوتات المالية ومعامل الصناعة الكبرى ومحال التجارة العظمى

كنت أتحدث في هذا أيام المعرض العمومي في باريس مع رئيس قسم جمهورية « ارجنتين » فخرني بغارة الانكليز وأخيه « اليانكي » وكان محزوناً يتأسف ويشدد النكير على غيره شأن الضعيف على الدوام لان القول أسهل من حمل النفس على الجد حتى تساوى الاقوياء ، على ان أولئك الذين ينافسونهم لم يعودوا على غير هذا الاجتهاد والدأب المستمر فهم أمم لا يخاف فتيانهم عيشة التراحم والتنافس ، وما حفظت تلك الأمم قوتها الادبية والدينية إلا بتمسكها بأنبييها واعتمادها على نفسها ، نعم ليس الذين متيناً فيهم كما هو في الكنييسة مثلاً غير أنهم أقل عداء للدين بكثير منا معشر الفرنسيين ، والسر في ذلك شعور كل فرد منهم بأن تبعه عمله راجعة اليه دون سواه

وليس هذا بفريب لان المرء في الجمعيات القديمة كان يعتمد على وسطه

ويتبعه قوة وضعفاً وسعة وضيقاً أكثر مما كان يعتمد على نفسه وهمته وارادته الخاصة، وذلك الوسط اما ان يكون العائلة أو الداخلية في المدارس او الفرقة العسكرية (الآتى) أو المصلحة التي هو موظف فيها أو السياسة وهكذا، وكانت اللحم التي تربط بها حياته في الافكار والمعتقدات والتقاليد السياسية والعوائد الاجتماعية والدينية خارجة على ذاته لا مستمدة منها، فهو يفكر أو يعمل على هذا النحو أو على ذلك لانه رأى الوسط الذى عاش فيه يفكر هكذا ويعمل هكذا، ومتى انقرط عقد نظام هذا الوسط ذهب كل فرد على أم رأسه لا يدري أين يضع قدميه لانه انما كان يقوم بذلك الوسط، ولقد كان الوسط في الهيئة القديمة قوياً متيناً مقوماً لجميع الافراد وان ضعفت منهم العزائم وانحلت الارادة، وكان بين الوسط وأفراده تفاعل هذا يقوي ذلك فكان المجموع متمكناً في وجوده كالبنت العتيق لا يزال قائماً لارتكازه على المنازل التي تجاوره، غير أنه لا يلبث ان يلبى داعى السقوط إذا هدمت تلك المنازل، وعليه ينبغي الحذر منها

هذا هو الذى كان من أمر وسطنا الاجتماعى القديم فانك ترى اليوم بقاياهم بعد ان تهدم منشورة في جميع الارحاء، وما كنا مستعدين لنخرج منه ونستعيز بغيره عنه، لذلك ضل رشدنا وبقينا نطلب المعونة من الملاجىء التي تعودنا الحياة تحت حمايتها كالعائلة والطائفة والحكومة الجمهورية في نظر قوم أو الملوكية المقيدة في نظر آخرين ومن الكنيسة ومن كل شيء إلا من أنفسنا وقد ملأنا الفضاء بالعويل بدل ان ننظر الى

الامم التي لا تعتمد على غير همة الافراد الذاتية فتقلدها وتحذو حذوها كما يفعل الرجال

واذا أردت الوقوف على معاملة تلك الامم لابنائها فاليك البيان :

أولا لا يعتبر الرجل فيها ان الابناء ملك له وجزء من ماله متمم لذاته كأن الاب يعيش في بنيه بعد وفاته بل ينظرون اليهم بصفتهم أفراداً مصيرهم الى الاستقلال عنهم ، ولذلك لا هم للآباء الا تعجيل هذا الاطلاق المحتم على النحو الاكمل ولا مرجع لابوتهم إلا هذا ، فلا يحملهم حبههم لانفسهم على ابتلاع ابنائهم وإلصاقهم بجانبهم وتعويدهم ما اعتادوا واتخاذهم حاشية يتلذذون بالنظر اليها ويرتاحون لطاعتها وقلة متاعها ، اما نحن ففي ميلنا لابنائنا جزء عظيم من حب الذات وان كانوا مستورا بستر جميل فاني رأيت وكلنا رأى كثيراً من الناس رغبوا عن الزواج بعد ما رغبوا فيه لان الزوجين لا بد أن يقيما في مدينة غير التي يسكنها الوالدان وما ظنك بما لو وجب ان يقيما في بلاد اجنبية ، والسبب في هذا شدة حب الوالدين ولعمري لست أدرى ان كان يراد بهذا الحب منفعة الآباء أو مصلحة الابناء

ثانياً من عادة أولئك القوم أن يعاملوا ابنائهم منذ نعومة الاظفار كأنهم رجال كل واحد منهم قائم بذاته مستقل عمل سواه ، وبهذه الواسطة يصير كل واحد منهم رجلاً كبيراً وذاتاً حقيقية إذ لكل امرئ من دهره ما تعودا أما نحن فنعامل ابنائنا كالأطفال وهم صغار وهم كبار وبعد ان يصيروا رجالا لاننا تعودنا ان نعتبرهم أطفالاً لعلنا انهم أطفالنا

ثالثاً يلاحظ الآباء في التربية حاجات الامة المستقبلية في الحياة غير

ملتفتين الى ما اقتضاه الماضي ودرج عليه الجيل المتقدم ، فلا ينصبون انفسهم امام أبنائهم مثالا يمشون عليه ولا يشخصون الوسط الذي عاشوا فيه ليتبعوا خطواتهم فيه ، أما نحن فنجرى في التربية على نسق أشرف السنين الأخيرة من القرن الماضي حيث كانوا في أول القرن الحالى يربون أولادهم على تقاليد الزمن القديم وعلى ما كان لهم فيه من الميزة الممتازة والثروة التي فرت من بين أيديهم والبلاط الملوكي الذي كانوا يرحون في جوانبه وآثار ليس فيها اليوم فائدة لكونها عفت وأصبحت خيالا

رابعاً لتلك الأم عناية كلية بصحة الأبناء وتربية قوتهم الجسمية الى الحد الممكن انما لهمتهم المادية لا كما تفعل نحن من الاقتصار على الاعتناء بالصحة ثم نضحىها في الدرس والمطالعة ونهكها بالامتحانات ولوازمها والاقامة في المدن وما يتبعها ، وهم لا يطلبون تلك القوة بالافراط في الرياضة البدنية أو اجهاد الجسم بما يؤدي في الحقيقة الى ضعفه أو التفتن في الحركات الجمنستيقية وانما هم من ذوى الخدق في معرفة لوازم الاجسام

على اننا اليوم نحاول طرق ادخال الرياضة الجسمية الانكليزية في مدارسنا لنعتاض بها على الجنس المضر عندنا وليس هو الا اثرًا من آثار التفتن الجديد في التربية لا فائدة فيه وليس من حاجة صحيحة اليه ولكننا نحافظ دواماً على الوسط الذي يمدق بنا أنى وجدنا ، ولا نجهد ان قومنا لم ينجحوا على الدوام في استعمال الرياضة الانكليزية عندنا لانهم يضيفون اليها كما هي عادتهم في كل شىء ، كثيراً من الاخلاعة والاعجاب كما لا نجهد انهم ينظرون اليها كأنها وظيفة ادارية يشددون في تنظيمها وترتيب أوقاتها

وأعمالها وأن كثيراً من التلامذة يميلون اليها هرباً من الدرس والمطالعة ،
غير ان هذا المثال الناقص يدل على أصله ، ومما لا شك فيه ان تلك الالعب
تلائم نمو الجسم كما ينبغي وتساعد كثيراً على تعويد النفس السكون فيصير
صاحبها متمكناً من ذاته وهذا شرط لا بد منه لمن طاب النجاح
خامساً يدود الآباء أبناءهم في تلك الامة منذ الصغر على الاشتغال
بالأعمال المادية فلا يخافون ان يتركوهم وحدهم يروحون ويندون ويكفونهم
ببعض الاعمال أو ببعض المأموريات التي تليق بسنهم ويقصدون أحياناً
انها تكون فوق ذلك ، وهي عادة يستغرب منها الفرنسيون اذا ذهبوا الى
بلاد انكلترا أو الولايات المتحدة كما يستغرب الانكليز من استغرابنا اذا
يرون ان الامر الذي يدهشنا طبعي وهو في اعتبارهم أحد عوامل التربية
والتعليم وأن الغرض منه أولاً وبالذات تكوين الرجال لا مجرد المتورين
والموظفين ، ولولا أنني أخشى من أن خجل القراء عندنا لخبرتهم انهم لا
يفرقون في هذه التربية بين البنين والبنات الا قليلاً فالذواعي واحدة بالنظر
الى الفريقين ، ومع ذلك فان تقليدنا في هذا الباب من غير أن يستمد الوسط
لقبوله يضر اكثرهم مما يفيد فهو عندهم أكثر فائدة وأقل ضرراً مما هو
عندنا ، والمقام لا يحتمل أن أوفى البيان حقه في هذا الموضوع فربما جر
الايضاح الى اكثر مما يراد

سادساً يعلم الآباء عادة أبناءهم صنعة يدوية لان تلك الامم لا تحقر
تلك الصنائع ذلك الاحتقار العظيم الذي نجده من نفوسنا بل انهم
تخلصوا منذ زمن طويل من هذا الوهم الذي اضر بنا اكثر من مائة كسرة

في مواقف القتال فلا يمتقدون بان من الصنائع ما هو شريف ومنها ما هو
وضيع بل يرون كما هو الاصح ان الناس رجلان كفو، وغير كفو،
وانهم عامل وكسول، هكذا يصير ابن (اللورد) زراعاً أو صاحب مصنع
أو تاجراً ولا ينقص مثقال ذرة من شرفه ومنزله لان الامر عام في
أمته، أجل هناك صنعة يحقرونها ويمدونها أدنى من البقية ألا وهي صناعة
الموظف والمشتغل بالسياسة وهم ينتقدونها من الجهتين الاولى انها صناعة
لا يربح صاحبها كثيراً إلا في الوظائف الكبرى، الثانية أنها تفقد الرجل
حريته، ومن هنا يرى القارىء ان التربية الانكليزية السكسونية تميل قبل كل
شيء بالانسان الى الحرية والاستقلال لذلك قلت تلك الصناعة في بلادهم وهي
في بلاد انكلترا موكولة في الغالب الى الذين من أصل (سائي) أو ايرلندي
أو ايقوسى أو من بلال الغال ويشغلها الارلنديون والالمانيون أصلاً في
الولايات المتحدة وقد قرر صديق موسيو (بول روسيه) هذه الحقيقة
بأجلى بيان في كتابه (الحياة الامريكية) الذى ألفه بعد زيارته للولايات
المتحدة لاستطلاع أحوالها على طريقتنا

ولشدة الميل الى تعليم الاطفال صناعة يدوية تجدهم يتعلمون الكثير
منها بالتدرب والاستعمال وذلك لا يتأتى عندنا بغير المدارس، مثاله ان
الرجل عندهم يصير مهندساً بالشغل في المصانع لا بالدرس في المدرسة
وليسن النظريات لديهم الا متممة للعمل في جميع الصناعات والحرف، ونحن
على العكس من ذلك نحتقر بالعلم العمل، ودليله ان جميعه تقدم الزراعة
عندنا تقيم في مدينة باريس وهي مع ذلك لا يتخرج منها إلا موظفو

نظارة الزراعة وان من المنتميات أن تنتقل أيضاً مدرسة البحرية في تلك المدينة

سابقاً يسبق الآباء أبناءهم على الدوام في معرفة جميع البدنيات النافعة شأن الأمة التي تهتم دائماً بالمستقبل وتهمل الماضي وتلتفت الى الصنائع الجارية التي يتقدم التفنن فيها كل يوم لا الى الوظائف الادارية التي لا تغير فيها ولا تبديل وتبنى آمالها في النجاح على قوتها الذاتية لا على الوسط باواعة وهذا هو الاستعداد الذي ولد في الانكليزى السكسونى اشتغاله المستديم بملاحظة الوقائع المادية بعد تحقيقها تحقيقاً صحيحياً، وقد يرتبها كما ينبغي وانما غرضه أن يجتمع اليه منها ما عساه يحتاج اليه في كل شأن من شؤونه، وهذا هو الذى يطلبه من قراءة جرائده التي تشبه جرائدنا كما يشبه النهار الليل. لأن الغرض من جرائدنا تسلية النفس كما يقولون والجديدة منها تتوخى اثاره النزعات السياسية وهي طريقة أخرى للتسلية والنتيجة واحدة هي قتل الوقت بلا جدوى، أما جرائدنا فنحن نقصد الافادة مع الاختصار والاجادة، وهي قليلة الخوض في النظريات والاكتشاف من العموميات، وكلها محشوة وقائع تحكي وقائع وتخر عن وقائع ولو لم يكن لدينا من المعلومات ما عليه الصحافة في الأمتين لكنى

ذلك موضعاً للفرق بينهما

إذا علمت هذا علمت من غير دهشة الى محادثة الرجل لابنه تدور عندهم على الامور الحقيقية النافعة فلا يقضون وقتهم في ذكر من يتحرى الجديد في لباسه وزيه واعادة ما ملئت به المجالس الباريسية وتكرار حوادث

الزمن القديم زمن الهناء والصفاء، بل حديثهم التزاحم في الحياة وقدرة كل فرد على كفاية حاجاته لنفسه

ثامناً لا يستعمل أولئك الآباء سلطتهم على أبنائهم في الظاهر الا قليلاً بل يدخرونها للاحوال العظيمة الاستثنائية، ذلك لانهم يعتبرونهم مستقلين عنهم كأنهم رجال كما قدمنا ولا يتأني أن يربي الرجل مقهوراً على الدوام تحت سلطة غيره ولو كانت السلطة أبوية، وعليه فانهم يرون أن التربية الحقيقية الثمرة هي التي تكون بالتدريب والتدرج، لذلك تراهم يستعملون الايمان والنصح أكثر مما يستعملون القسر والامر مظهرين في ايمانهم ونصحهم انهم مجردين عن المنفعة ولا يجعلون امرتهم باعناً الى العمل بمقتضاها بل يتركون الولد يفكر فيهما ويتدبرهما حتى يعتقد انهما صواب فيجري عليهما

تاسماً وهو أهم الوسائل وأنجحها وقد اخترناه ختاماً علم الابناء بأن الآباء لا يتحملون نفقتهم بعد تربيتهم، أما الفرنسيون فكل يسأل صاحبه ماذا تريد أن يكون ولدك فيجيبه سأجعله قاضياً أو موظفاً ادارياً وهكذا وما هذا الا لاعتقاده أنه يكون والداً حقيراً اذا لم يتدبر مستقبل ابنه ويهتم باستنطاق الحرفة التي يجتري بها على حسب ما يراه صواباً نافعاً ثم يبالغ في حنوه فيتجرد عن قسم من ماله ليمهر أولاده، لكن الآباء من الانكليز والامريكان لا يملون ابناءهم بل على كل جيل ان يحصل حاجات نفسه بنفسه، وعلى العكس منهم يجب على كل جيل سابق عندنا ان يوجد أسباب الرزق الذي يليه واليك ما يترتب على ذلك من النتائج

زيد من الناس ثلاثة اولاد أو أربعة أو خمسة فيجب عليه أن يهيئ
ثلاثة أموال أو أربعة أو خمسة بخلاف ثروته الخصوصية قبل أن يبلغ
الاولاد رشدهم أعني في مدى عشرين سنة حتى لا يهزأ به الناس ولا
يسقط الابناء عن درجتهم في الهيئته الاجتماعية والا لما وجد سبيلا لزواجهم
فانهم لا يتزوجون إلا بأموالهم ، وهو في عمله هذا يشبه أهل الليمانات
الذين يعملون في الاشغال الشاقة أو كمن يقدم الذنب قبل الرأس ، وليس من
يجهل أن الآباء الفرنسيين قد أهملوا الرأس والذنب معا وعد الواحد منهم
نفسه من السعداء بولد واحد أو اثنين

كنت أقرأ أخيراً رسائل فرنكلان فوجدته في خطاب لو الله يتكلم
عن أحد اولاده وكونه غير متمم بتحصيل ما يقوم برزقه معتمداً على ثروة
أبيه فقال « سأزيل عنه هذا الخيال وسيعلم من حالي وما أنفقه كل يوم
انني لن اترك له شيئاً لكن الرجل منا يرتعد إذا رأى انه لن يترك ما يرثه
عنه الابناء وينضب رحمة واشفاقاً ونسى ان الاب الانكليزي
السكسوني الذي لا يترك شيئاً لاولاده يعطيهم في الحقيقة أكثر مما يعطي
الوالد الفرنسي لاولاده ، يعطيهم ما نهتم به نحن ولا نصل الى
تحقيقه ، يعطيهم همة في العمل وقدرة على طلب الرزق وعزيمة يلقى بها
زمانه ثابت الجأش وهو مالو وجدناه لاشتريناه بأغلى الأثمان ومالا
يفيد المال الذي نجمه بالكسب والنصب الا لاطفائه واماتته في نفوس
أبنائنا لاننا في الحقيقة نجاهد في سبيل الاقتصاد ونعيش كالصالحين وتتخذ
العقم شعاراً لكي نسهل على اولادنا ان لا يعملوا شيئاً ولا يسيلا يعملوا الا

القليل ما استطاعوا ونظن بهذا أننا جعلناهم على المستقبل آمنين ، غير أننا إذا التفتنا إلى ما حولنا رأينا أن تسعة أعشار الذين يتقدمون على غيرهم ويحوزون نصب السبق في كل شىء ، وينجحون النجاح الحقيق فيما يراولون من الأعمال يخرجون من صفوف الواصلين بأنفسهم ، أولئك الذين غالبوا الزمان فقلوبه وناجزوا كل صعب حتى استظفروا عليه وانسابوا بهمتهم في المجتمع الانساني فنالوا فيه مكانا عليا ، واذكر أبناء العائلات (وما سماوا كذلك) الا لاعتمادهم على عائلاتهم وأموال عائلاتهم اكثر من اعتمادهم على أنفسهم وركنوا الى مهر زوجاتهم اكثر من ركونهم الى عملهم) ترهم يسقطون كل يوم الى أسفل الدرجات لانهم أقل من غيرهم في كل شىء مع أنهم تربوا (تربية جميلة) كما يقال ، وقد فقدوا في هذه البلاد ما كان لهم من النفوذ كله وفرت من بين أيديهم زعامتهم فأصبحت الملوكية لاحياةها وأمست لارجاء في اعادتها ثم انهم صاروا غير قادرين على نوال المنزلة واكتساب الجاه بكدهم وعملهم فباتوا يرجون البقاء من عدم وجود شريك لهم في الميراث ومن المال الذى تقدمه اليهم زوجاتهم

أما الشبان الذين تربوا تلك التربية التى شرحناها فهم اقوياء الاجسام متعودون على مزاوله الاعمال الحقيقية وممارسة الاشياء المادية ، تربوا على اعتبارهم رجالا وتمرنوا على الاعتماد على أنفسهم ، يرون الحياة كحرب ونزال (وهو موافق لما جاء به الدين المسيحى كل الموافقة) لذلك يقتحمون متاعها بشيبة متجددة وعزم أكيد بل انهم يحبون تلك المتاع ويشعرون بالحاجة اليها ويستظفرون عليها ولديهم من وسائل مقاومتها ما يجعلهم

يرتاحون لملاقاتها ويترقون في مجاهدتها

وعلى القارىء أن يقارن بين الاثنين ويحكم على نتيجة التريتين، أمانا فقد كشفت له القناع عن العوامل التي تحرك تلك الامة التي تغار اليوم على جميع الشعوب القديمة وتهدد وجودها، أغارت تلك الامة على الدنيا باجمعها ومعجزتها هي تلك الغارة نفسها مع أنه لم يكن لها من سلطة الحكومات إلا النزر القليل إلا أن لديها من القوة الاجتماعية أعظمها والقوة الاجتماعية أشد بأساً واكبر فعلا من الحكومات المنظمة والجنود المحتشدة

ما عدونا وما الخطر الذي نخاف منه وما البلاء الذي نخشاه بآية لنا من جانب نهر (الرين) الثاني كما يظن قومنا لان المغالاة في تجنيد العساكر وتقدم مذاهب الاشتراكيين والفوضويين تكفينا مؤونة ذلك العدو وليس الصبح ببعيد

أما العدو والخطر والبلاء آتية من الجانب الآخر من بحر المانش والجانب الثاني من المحيط الاطلنطيقي فهي توجد حيث يوجد الانكليزي السكسوني على اختلاف مسمياته وصفاته، ذلك الرجل الذي يحقره الناس لانه لا يفد عليهم كالاماني بجيشه الجرار وسلاحه المصقول بل يأتهم بمفرده غير مستصحب الا لمحربه لسكنهم جهلوا قيمة ذات المحراث وقيمة ذلك الرجل ومتى علموا ذلك عرفوا من أين يأتهم الخطر ووقفوا على السبيل الذي يسلكوه للخلاص منه

الباب الثاني

﴿ التربية الفرنسية والانكليزية السكسونية ﴾

﴿ في حياتهما الخصوصية ﴾

آثار الفرق الذي يبناه في التريتين تظهر أولاً في الحياة الخصوصية والغرض من هذا القسم ايراد بعض الامثلة التي اخترناها في فرنسا وانكلترا أما التربية التي ينشأ عليها بناؤنا فانها تؤدي الى فتور همتنا وضعف قوتنا الاجتماعية وهما سببان من اسباب انحطاطنا بالنظر الى انكناثر اختلافها عندهم فانها هي والوسط الذي يعيشون فيه يؤديان الى انماء القدرة على مغالبة الحياة الى الدرجة القصوى في الامة بتمامها

الفصل الأول

﴿ في ان طريقة التربية عندنا تقلل المواليد في فرنسا ﴾

ليس الغرض هنا أن نثبت نقص المواليد في فرنسا فان ذلك امر اثبتته الاحصائيات كلها واشتغل علماء الاخلاق والاقتصاديون والسياسيون

واتفقوا في اثباته ، إلا انهم لم يتفقوا في بيان سببه وكل ينحو نحوه من غير مرشد يهديه ولا طريقة منتظمة ، وبيان السبب هو الغرض الذي تتوخاه مستعنين فيه بنور العلم الاجتماعي

فلنا أن نقص المواليد في فرنسا أمر ثابت لا يحتاج الى دليل ويكفي لصحة قولنا ايراد بعض الارقام كانت حالة المواليد لكل عشرة آلاف نسمة في مدى أكثر من قرن كما يأتي :

مواليد

سنين

من الى

٣٨٠	١٧٨٠	١٧٧٠
٣٢٥	١٨١٠	١٨٠١
٣١٦	١٨٢٠	١٨١١
٣٠٩	١٨٣٠	١٨٢١
٢٨٩	١٨٤٠	١٨٣١
٢٧٤	١٨٥٠	١٨٤١
٢٦٧	١٨٦٠	١٨٥١
٢٦٤	١٨٦٨	١٨٦١
٢٤٥	١٨٨٠	١٨٦٩
٢٢٠	١٨٩٦	١٨٨١

ويرى من هذا أن نسبة المواليد بين سنة ١٢٧٠ وسنة ١٨٩٦ سقطت من ٣٨٠ الى ٢٢٠ في كل عشرة آلاف نسمة وهي أكثر من الثلث وقد كان عدد المواليد في فرنسا سنة ١٨٨١ ٩٣٧٠٥٧ ولم يبلغ في سنة ١٨٩٠ الا ٨٣٨٠٥٧ فالنقص هو ١٠٠٠٠٠٠. ويلاحظ أن هذا العدد أقل من عدد الوفيات بمقدار ٣٨٤٤٦ وأن انتصار الموت على الحياة كما ترى حاصل في زمن السلم اعني أن هذه هي حركة المواليد والوفيات الاعتيادية في فرنسا وهي تزداد عاماً فعاماً

فنقص عدد المواليد في سنة ١٨٩٠ عن سنة عدد

٤٢٥٢٠	١٨٨٩
٤٤٥٨٠	١٨٨٨
٦١٢٧٥	١٨٨٧
٧٤٧٧٩	١٨٨٦
٨٦٤٩٩	١٨٨٥
٩٩٦٩٩	١٨٨٤
٩٩٨٨٥	١٨٨٣

وكذلك ينقص الزواج سنة فسنة إلا أن نقصه غير محسوس
كنقص المواليد

كان عدد الزواج في سنة عدد

٢٨٩٥٥٥	١٨٨٤
٢٨٣١٧٠	١٨٨٥
٢٨٣٢٠٨	١٨٨٦
٢٧٧٠٦٠	١٨٨٧
٢٧٦٨٤٨	١٨٨٨
٢٧٢٩٣٤	١٨٨٩
٢٦٩٣٣٢	١٨٩٠

فيكون النقص في السنة الاخيرة قد بلغ ٢٠٢٢٣ في مدى الست سنين التي قبلها أي سنة ١٨٨٦ وكانت النسبة على الدوام بالناقص وان لم تختلف سنة ١٨٨٤ الا ببعض الآحاد وعلى عكس ذلك نجد عدد الوفيات في ازدياد

قد بلغ في سنة وفاة

٨٢٨٨٢٨	١٨٨١
٨٣٣٥٣٩	١٨٨٢
٨٤١١٤١	١٨٨٣
٨٥٨٧٨١	١٨٨٤
٨٦٠٢٢٢	١٨٨٦
٨٧٦٥٠٥	١٨٩٠

وعليه زاد عدد الوفيات سنة ١٨٩٠ بمقدار ٤٧٦١٧ كما كان عليه سنة ١٨٨١
وبمقدار ٣٥٣٦٤ عن سنة ١٨٨٣ مع أن عدد المواليد كان نقص بمقدار
١٠٠٠٠٠ في تلك السنة فتكون النتيجة وجود ١٣٥٠٠٠٠ خلو في الأمة
وإذا قابلنا بين حركة المواليد في فرنسا وبينها في البلاد الأخرى نجد
ما يأتي :

تضاعف عدد سكان النرويج في ٥١ عاماً وعدد سكان استريا في ٦٢
وانكلترا في ٦٣ والدانيمرك في ٧٣ والسويد في ٨٩ والمانيا في ٩٨ وفرنسا
في ٣٣٤

ولم تأت ببيان الإحصائيات الأجنبية لعدم اتفاق سنها ولكنها تنطق
كلها بان فرنسا متأخرة في مواليدها تأخراً عظيماً عن جميع الأمم
ثبت أن ضعف النسل أمر حقيقي في فرنسا فنبعث إذن عن علته
ولن ينفعنا الإحصاء في هذا البحث إلا يسيراً فقد أخذ منه الأرقام
والتوسطات والعموميات ولكنه لا يكفي في بيان ناموس تلك الحركة
وقد ذهب الباحثون في بيان تلك العلة مذاهب شتى فذكر حضرة
المرkez (نادياك في رسالة ضعف المواليد في فرنسا) سبعة عشر سبباً جاء
بعضها مكرراً وإذا أمعنا النظر فيها رأيناها تفرق إلى قسمين

الاول الاسباب الباطلة

الثاني الاسباب الثانوية أي التي يرجع منها إلى سبب أولى
وسنبعث في هذين القسمين بحثاً نظرياً مع المقارنة ثم نجتهد في استنباط
السبب الحقيقي بعد ذلك

﴿ الأسباب الباطلة ﴾

منها ضعف قوة التناسل الطبيعية في الامه الفرنسية ، قال موسيو (نادياك) « وليست قوة التناسل الطبيعية واحدة في جميع الامم فالمناخ والاحوال الاجتماعية والاقتصادية ومعدن الاقليم دخل حقيقى فيها وأن كان لايزال غير معين تماماً ، وقوة التناسل عظيمة عند الصينيات ولكنها ضعيفة عندنساء (البيرينية) ويمكن أن يقال أن الامم اللاتينية وأخصها الامه الفرنسية أضعف تناسلا من الامم السلافية والانكليزية السكسونية وعليه فلا شك في أن درجتنا أخط من غيرنا بالنظر الى قوة التناسل »

ومن المحقق أن قوة التناسل أشد عند بعض الامم منها عند البعض الآخر ومن السهل الوقوف على أسباب هذا التفاوت بالبحث في الاحوال الطبيعية والاجتماعية لكل واحدة منها لكن لانسلم بأن ضعف التناسل في فرنسا أمر لازم لطبيعة الامه إذ لو صح ذلك لتعذر بيان السبب في نموها العظيم الي قيام الثورة فقد انتشرت في (كندا) وفي (لوزيان) وفي (الهند) و (سان دومينج) و (جزيرة فرنسا) و (بوربونيا) و (ايطاليا) وغيرها ولا يزال فرعها الموجود في (كندا) يزداد وينمو بقوة عظيمة حتى انه أصبح يزاحم العنصر الانكليزى السكسونى نفسه ، والدليل عليه أن سكان (كندا) يتضاعفون عدداً في كل ثمان وعشرين سنة مرة مع أن سكان فرنسا لا يتضاعفون إلا في كل ثلثمائة وأربع وثلاثين سنة مرة واحدة وظاهر أن ذلك الفرق لا يرجع الى سبب طبيعى في الامه بل لا بد له

من سبب خارجي لم يوجد الا من زمن غير بعيد
ومما تجب ملاحظته أيضاً أن التناسل لا يزال نامياً في بعض الاقاليم
الفرنساوية كإقليم (بروتون) قال موسيو. (نادياك) « بلغت زيادة المواليد
على الوفيات من سنة ١٨٨٠ الى سنة ١٨٨٣ في الاقاليم البروتونية الخمس
٧٤٩٩٠ وهي تساوى زيادة المواليد في فرنسا كلها على التقريب ولو كان
التناسل في جميع الاقاليم بمقدار هذه النسبة لما حسدنا جيراننا اذ كنا
نساويهم في عدد المواليد ان لم نزد عليهم »

وكذلك عدد المواليد لا يتغير في الاقاليم التي يكثر الفعل فيها كما
سنبينه فيما بعد أما في غيرها فانه يتقص سنة بعد سنة من مبدأ هذا القرن
بدون أن يحدث تغير في النوع يمكن اتخاذه سبباً في هذا النقص المستمر
وعلى ما تقدم يكون الاستدلال في نقص عدد المواليد بطبيعة النوع
باطلا لان الاستقراء يكذبه

والاستقراء يبطل أيضاً الدليل في هذا النقص الذي اترعوه من
المسكرات. نعم لاشبهة في أن المشروبات الروحية قد تغيرت منذ خمسين
عاماً الى اردأ الاحوال لاستعمال التقطير في تحضيرها بدل التخمير ولكثرة
استعمال العرقى والمستكاعما كانا عليه اذ المقدار الذي يشرب منهما في
فرنسا سنة ١٧٨٨ لم يزد على ٣٧٠٠٠٠ هكتولتر وقد بلغ في سنة ١٨٨٢
١٧٦٦٠٠٠ هكتولتر

غير أنه من المحقق أيضاً أن استعمال تلك المشروبات لم يبلغ في البلاد
الفرنساوية مقدار ما بلغه في غيرها وخصوصاً في جهة الشمال من أوروبا

مع ان عدد المواليد في تلك الجهة لا يزال نامياً حتى في فرنسا نفسها فأكثر البلاد استعمالاً لتلك المشروبات هو اقليم « بروتانيا » الذي كثر نسله وعلى العكس من ذلك في الجنوب حيث لا يستعمل المشروب الا قليلاً ترى بعض الأقاليم يزيد فيها عدد الوفيات على عدد المواليد مثل اقليم « الفار » وحينئذ يلزم التسليم بأن تأثير المشروبات الروحية على عدد الاهالى غير محسوس في فرنسا

قالوا ان من أسباب نقص المواليد ثقل الخدمة العسكرية . ولكننا نشاهد ان الخدمة العسكرية عامة أيضاً وواجبة على كل فرد في البلاد الألمانية وعدد المواليد في تلك البلاد غير متأثر بهذا السبب نعم ان الوفيات في الجيش أكثر منها في غيره لكن ذلك لا يؤثر في النتيجة العمومية للامة

قالوا ان من أسباب ذلك أيضاً ثقل الضرائب على الناس . ولا شبهة في ان الضرائب الفرنسية باهظة جداً فالذى كان يدفع أيام الامبراطورية الثانية ٥٩ فرنكاً في السنة صار يدفع سنة ١٨٧٢ (٨٥) فرنكاً وهو الآن يؤدي ١٠٩ فرنكات وقد زادت الضرائب العقارية بين سنة ١٨٢٠ الى يومنا هذا من ٢٤٣.٠٠٠ فرنك الى ٣٥٧.٠٠٠ و زادت الضرائب الشخصية والتي تجب على المنقولات من ٢٧.٠٠٠ الى ١٢٠.٠٠٠ كما زادت عوائد الأبواب والشبابيك من ٢٩.٠٠٠ الى ٤١.٠٠٠ وبلغت عوائد الباطنط « الخرف والصنائع » ١٦٣.٠٠٠ بمقدان كانت فقط ٤٠.٠٠٠ فقط

الا انه لو كانت زيادة الضرائب من الاسباب المؤثرة حقيقة على عدد

السكان وجب أن يكون عدد المواليد تابعاً لفقراً الأقاليم وثروتها فتقل في التي رزحت تحت أثقال الضرائب وتكثر في التي وجدت من ثروتها ما يسهل عليها احتمالها . لكننا نرى الحال بالعكس فليس لأغنياء بلاد « نورمانديه » و « بيكارديه » الا ولد أو ولدان مع ما جمعه من الثروة الطائلة قبل انحطاط الزراعة عندهم من ان المواليد أكثر من ذلك في الأقاليم الفقيرة مثل إقليم « بروتانيا » و « ارديش » و « لوزير » و « أفرون » و « هوتوار » و « كوريز » وغيرها وقد تصفحت خريطة المواليد في فرنسا سنة ١٨٨١ فوجدت ان أقل البلاد مواليداً أكثرها غناء، وعلى هذا يستقط دليل ثقل الضرائب الى هنا تبين ان تلك الاسباب كلها لا تأثير لها على المواليد أو انها لا تؤثر فيها الا قليلا . وهناك أسباب أخرى نراها أشد فعلاً مما تقدم

﴿ الأسباب الثانوية ﴾

لهذه الاسباب بعض التأثير على ضعف المواليد عندنا وهي ليست عرضية اذ لا يسلم ان حادثاً يحدث في بلد معين وفي زمان معين من دون أن يكون له سبب أدى اليه من أحوال تلك البلد في ذلك الزمن . فاذا تكرر وقوعه لزم أن يكون ناشئاً عن سبب عام عظيم كما اننا اذا رأينا رجلاً قد تكرر منه الخطاء وكثرت غلطاته حكمنا بأن في عقله نقصاً أو في ارادته عيباً هو الذي يحمله على ارتكاب تلك الأعمال الناقصة . وسنبين لك ان جميع الاسباب التي نسبوا اليها ضعف المواليد في فرنسا لا يصح الارتكان عليها الا اذا رجعت هي الاخرى الى سبب أعظم . ومن تلك الاسباب ما يأتي :

أولاً قال موسيو « نادياك » « ان لارادة الرجل دخلا في ضعف المواليد في فرنسا » وفي الواقع لو أراد الفرنسيون أن يكون لهم من الذرية ما لغيرهم من الامم لحصلوا مرادم الا أن السر هو في معرفة السبب الذي يحملهم على عدم الارادة ومن هنا يتبين ان مقاله موسيو « نادياك » لا يفيد شيئاً في موضوعنا

ثانياً قالوا ان من الأسباب كثيرة تجزئة الملكية . وهنا تفصيل يلزمنا بيناه فان كان مرادم بكثرة تجزئة الملكية ان حالة الاجتماع في الأمة استلزمت من ذاتها تقسيم المقارات الى أجزاء صغيرة تنتقل من الرجل الى غيره بحسب ما يمرض له من الاحتياجات التي هو حرق في تقديرها قلنا بأن هذا لا يستلزم البتة ضعف المواليد في بلد ذلك شأنه أكثر من بلد تكون فيه الملكية كبيرة الاجزاء . اذ يشاهد ان عدد المواليد في « انكلترا » لا يزيد على عددها في بلاد « النرويج » و « لونيورج » التابعة الى « هانوفر » وأقاليم « سويسره » وغيرها مع ان الاملاك في الاولى عظيمة غير مجزأة الا قليلا وهي في الثانية مقسمة أقساماً صغيرة جداً . واذا أرادوا بكثرة التجزئة استمرار تقسيم الاراضي الى أجزاء صغيرة معها كانت مساحتها تقسماً قهريا ففي قولهم نظر سنأتي عليه ونكتفي الآن أن نلاحظ ان مرادم هذا حاصل في البلاد الفرنسيه ومع ذلك فعدد المواليد ضعيف في الاقاليم ذات الاملاك الواسعة مثل « نورمانديا » و « بيكارديا » كما هو ضعيف في الاقاليم ذات الاملاك الصغيرة مثل إقليم « شمبانيا »

ثالثاً ابتعاد الفرنسيين عن الزواج وانحطاط عزائمهم لما الفوه من حب

الزخارف والحاجات الصناعية والملاذ المحترقة وغير ذلك . ومن المشاهد حقيقة ان عدد الزواج يقل آناً فآناً فاذا نظرنا الى الاشخاص الذين يصح الاقتران بينهم في جميع الامم كانت فرنسا الحادية عشرة في الرتبة من بينهم اذ يتقدم عليها « الانكليز » و « البروسيانيون » و « الهولنديون » و « النمساويون » وغيرهم . واضعف العزائم المستمر دخل في هذا الانحطاط غير ان الذي يحوجنا هو معرفة السبب الذي حمل الفرنسيين من مبدأ هذا القرن على الابتعاد عن الزواج والموجب لتنشيط العزائم بينهم أكثر من غيرهم رابعاً الميل الى الاستئثار بأكثر ما يمكن من اللذائذ . وهو مسلم لكن بقي علينا أن نعرف السبب في انصباب الفرنسيين على اللذائذ فجأة انصباباً لاحد له وكيف ان ذلك الميل بعينه لم يوجد عند الانكليزي أو الالماني أو الروسي وغيرهم اذ ليس من المعقول أن لا يكون أولئك القوم ممن يميلون بالطبع الى الزيادة في لذائذهم فوجب أن يكون هناك سبب منعمهم عن الاقلال من النسل طلباً للذائذهم وان ذلك السبب غير موجود في البلاد الفرنسية

خامساً زيادة السعة في المعيشة وموجبات الراحة . نظرأ الارتفاع الاجور ذلك أيضاً أمر عام وحينئذ لا يمكن الاعتماد عليه في تحليل حالة فرنسا الخصوصية وقد اعترف بذلك موسيو « نادياك » حيث قال « زادت بسطة العيش في كل مكان زيادة كبرى فنرى في الارياف كما نشاهد في المدن ان الاجور قد ارتفعت كثيراً وتحسن الملابس والمطعم وضارت المساكن أقرب الى الصحة وأوفى بحاجات المائلات . وتقدم الناس في معرفة لوازم

حفظ الصحة وعندى أن لهذه الاحوال تأثيراً حسناً على النسل ولكننا لا ندري ما السبب في أنها أدت في البلاد الفرنسية الى عكس ما ذكر «
كذلك نحن نبحث معه عن تلك العلة

سادساً زيادة الحضارة أعنى كثرة المدن المترفة حيث يقل النسل .
ومن المعلوم أن أهل الزراعة يقلون وأهل المدن يكثرون في سنة ١٨٤٦
كان عدد أهالى بلاد الريف يبلغ ثلاثة أرباع سكان فرنسا وهو اليوم لا يكاد
يبلغ خمسا وستين في المائة ولا يزال آخذاً في النقصان . ويمكن تقدير
زيادة عدد سكان المدن بنحو خمس عدد الاهالى أجمعين . وحيث أن ذلك أمر
ثابت وان لم يكن كذلك فهو عام لزم القول بأن تلك العلة السادسة لا تثبت
شيئا اذ يشاهد أن زيادة سكان المدن عظيمة جداً فيقطنها من التسعة خمسة
والاربعة يسكنون الارياف . كذلك زاد عدد سكان المدن في المانيا من
أربعة عشر الى خمسة عشر في المائة فكان في برلين منذ قرنين سبعة عشر
الف واربعمائة نسمة وصار فيها اليوم مليون وثلاثمائة وستة عشر الف ومائتان
واثنتان وثمانون نسمة وهكذا الحال في ايطاليا واسبانيا وأوستوريا وغيرها
ومع ذلك لم ينقص النسل في تلك البلاد كما هو حاصل في فرنسا وعليه
وجب أن يكون هناك سبب خاص بها

سابعاً تكليف التلامذة فوق طاقتهم في المدارس اذ لم يبلغ هذا التكليف
في أى بلد من البلاد مبلغه في الامة الفرنسية يزداد عليه استمرار اقامة
الطلبة بداخل المدارس الابتدائية زمنا طويلا مما يدعو الى ضعف الشخص
في نفسه وفي نسله . وقد يظهر أن ذلك السبب قوى التأثير لكنه

لا يؤثر الا على طبقة المتنورين ولا بد لنا على كل حال من البحث عن اكلة ذلك الميل لانه ليس ناشئا عن طبيعة الاقليم الفرنسي

ثبت اذن أن الاسباب التي بينها لا تنتج المعلول بذاتها وأنه لا بد فيها من سبب أكبر وأعم . ومهما كان ذلك السبب الذي نبحت عنه فهو لا بد أن يكون مؤثراً في العائلة مباشرة تأثيراً قويا اذ العائلة هي مرجع التناسل في الامة ولا بد أن تكون العائلات في البلاد الفرنسية على حالة صعبة مؤثرة عليها من هذه الجهة خصوصاً اذا لوحظ أن العائلة تميل على الدوام الى اخلود فالرجل يجب أن يستمر وجوده بواسطة ابناؤه واذا لم يكن هناك من الموانع ما يثنيه عن تلك الرغبة فانه ينساب اليها فيكثر نسله ويفرح بمولدهم والسبب في ذلك أن الاطفال يمدون في تلك الحال من موجبات القوة ووسائل الارتزاق لا كلا على آباءهم . وما فرحهم آت الامن سهولة تعيش الابناء وعدم الحيرة في تربيتهم طوعا لحركة الهيئة الاجتماعية التي يولدون فيها كما يشاهد ذلك عند الامم التي لم تتفرق عائلاتها بعد اذ ترى الآباء يرتكون في تربية أبنائهم على المجموع . ومن هناك الشرق كثير النسل حتى لقد ظهر شعور الشرقيين بتلك الحالة في أمثلتهم العامة كقولهم « ان الله يبارك في العائلات كثيرة العدد » وكقولهم « ما أعس المرأة العقيم » وما يؤيده أن كثرة النسل لا توجد كما كانت في الاصل عند الفرنسيين الا في الجهات التي بقيت فيها العائلات مجتمعة على نفسها وهي قليلة كاقليم بروتانيا والبيريبي والاقليم الجبلية الوسطى

وعلى خلاف ما تقدم نرى النسل ناميا عند الامم الاستقلالية لان

مصير الاطفال مكفول بما لكل واحد منهم من الهمة الذاتية التي بلغت
 منهاها ولما ربي عليه الشبان من القدرة على تحصيل عيشهم بنفسهم فلا
 يتكلف الآباء ايجاد مرتزق لابنائهم ولا يجمعون لهم مالا يمر ونهم به
 غير ان كثرة أعضاء العائلة الواحدة يزيد في ثقل العبء على الآباء
 زيادة ليس لهم طاقة بهامهما أزدوا قفلا ملجأ لهم الا الهرب من تلك الزيادة
 وهذا هو السبب في ان معظم الفرنسيين لا يחסدون الذين كثر أبناؤهم
 بل هم يرثون لحالمهم . ولهذا أيضا كان كل ما يتمناه الواحد منهم هو أن
 لا يكون له الا ولد وابنة أو ولد واحد حتى يقال كما اصطلحوا عليه « ولد
 وحيد » وليس لا ولئك الآباء أن يعتمدوا في تحصيل مرتزق أبنائهم على
 العائلة لأنها قد انحلت أو على همة الابناء أنفسهم لان التربية قد أضاعتها ورجع
 الابناء الى آباءهم يطلبون العيش منهم وأصبح هؤلاء لا يقدررون على ذلك الا
 اذا أمهروا أبناءهم وهم مضطرون في ذلك الى ايجاد ثروة متعددة بقدر
 ما لديهم من الابناء قبل أن يتزوج كل واحد منهم أي في مدة تختلف من ثمانى
 عشرة الى ثلاثين سنة

وإذا تزوج الواحد منهم وجاء له بعد سنة مولود تراه لا ينظر اليه
 نظراً من يفرح بشعره الاصفر وتسمه اللطيف بل الذى يفكر فيه الوالد
 عند ما يقع نظره عليه هو وجوب تحصيل المهر له فاذا مضى ثمانية عشر
 شهراً أو سنتان وجاءه مولود ثان كان ذلك عنده عبارة عن وجوب تحصيل
 مهر ثان . ثم يرى انه لا بد من تحصيل المهرين في مدى خمس وعشرين
 سنة ويحس من نفسه ان العبء صار ثقيلاً وانه لا طاقة للزيادة فيه .

لذلك لا يرى ملجأ إلا العمل على ما يوقف النسل

تلك هي العلة في قلة عدد أبناء الفرنسيين فالعادة التي تأصلت بحكم طبيعة الاجتماع فيهم تكافهم عملاً يستحيل عليهم القيام به فيصيرون كالذين يشتغلون في الليمان وهم غير قادرين على أبطال العادة فيركنون إلى أبطال النسل. وهناك سبب آخر يدعوهم إلى الافلال منه ذلك ان حالة معيشتهم تنقص بمقدار كل مهر يأخذه أحد الأبناء وانه بقدر ما لهم من الشرف والاعتبار يجب عليهم أن يكثروا من قيمة المهور والناس يقدرونها من قبل فيقولون ان فلانا خصص كذا مهراً لابنه أو لابنته وحينئذ لا بد للأباء من ثروة خصوصية ينتهبون منها عند الحاجة كلما كان لهم ولد يستحق الزواج

وقد جاء الاحصاء مؤيداً لتأثير المهر على النسل تأثيراً حقيقياً فأقل الناس نسلاً أكثرهم مالا وأكثرهم تبصرة أي الذين يلاحظون وجوب أمهار أبنائهم في المستقبل. وأكثر الناس نسلاً أقلهم مالا وأبعدهم عن التبصر وهم الفعلة أي الذين يتركون النسل ينمو كما يتركون رزقه على الله

هكذا نشاهد في إقليم الشمال حيث تكثر المعامل ويكثر الفعلة ان المواليد تزيد على الوفيات بكثير فتبلغ الأولى في السنة « ٥١١٩٧ » ولا تبلغ الثانية الا « ٣٥٠٨٩ » وبمعكس ذلك يزيد عدد الوفيات على عدد المواليد في الاقاليم الغنية ففي إقليم « أور » يبلغ عدد المواليد « ٦١٤٢ » وعدد الوفيات « ٨١٢٨ » وفي إقليم « وان » تبلغ عدد المواليد « ٨٨٥١ » والوفيات « ٩٠٦٨ » وفي إقليم « أورن » تبلغ المواليد « ٦٨٥١ » والوفيات « ٨٥٣٤ » وهكذا ومن هنا ينساق التأمل إلى استخلاص تلك النتيجة الغريبة وهي ان

مدار النسل مع قلته في فرنسا على قليل التبصر وعديبي الكفاءة . ولست أدري ما الذي يدخره المستقبل لفرنسا وهذه حالة للتنازل فيها ولبيين حينئذ ان هذه الحالة التي اختصت بها العائلة هي العلة الاولى في الاسباب التي سبق بيانها فارادة الآباء في الاقلال من الابناء معاولة باستحالة تحصيل مهر لكل واحد منهم اذا كثروا . ومن هنا كان الزواج حملا ثقيل على الناس فهم يجتهدون في الهرب منه ومتى خلس الواحد منهم من واجب القيام بشؤون عائلة كبيرة وعلم أنه لا يتحمل الا القليل من الاتقال كامها وولد أو وولدين مال بالطبع الى تحصيل قسم أكبر من اللذائذ الشخصية اذ مثل الآباء الذين لا أبناء لهم أو الذين ليس لهم منهم الا العدد القليل كمثل الاعازب الذين تمكن منهم حب الذات لذلك تراهم غير مندفعين الى الاقتصاد ولا ميالين الى حرمان أنفسهم مما يشتهون فليس عندهم عائلة كبيرة يجب عليهم أن يقوموا بشؤونها

ومما يستوقف النظر أن حالتنا الاجتماعية تنتج معيشتين مختلفتين: فهنا آباء أكثر عدد أبناءهم فضايق الرزق في وجههم وعاشوا عيشة الحرمان وهناك آباء قل عدد أبناءهم فعاشوا في رغد وهناء يتوسعون في معيشتهم ويحصلون جميع لذائذهم كأنهم ليسوا بمتزوجين . ومن جهة أخرى ترى الابناء قد تدعوا الاعتماد على المهر أكثر من اعتمادهم على أنفسهم فالواعن طلب عيشهم بخدمه سواء كان في فرنسا أو في البلاد الأجنبية وفضلوا الانكباب على التوظف في الحكومة ورأت هذه أنه لا بد لها من دفع تلك الغارة عنها فاكثرت من أنواع الامتحانات ولكنها لم تنجح بل تكاثر العدد

ورأى كل واحد من الطالبين أنه لا بد له من الانهماك على الدروس فاضطرت المدارس الى تكليف التلامذة فوق طاقتهم
 واختلاصة ان جميع الاسباب التي دل عليها الاقتصاديون راجعة إلى سبب واحد أولى وهو حالة العائلة التي وجدت بحكم طبيعة الاجتماع الفرنسية

بقى علينا ان نعرف ان كانت قلة النسل في فرنسا مفيدة أو مضرّة أما الاقتصاديون فقير متفقين في هذا الموضوع أيضاً فذهب موسيو « موريس بلوك » في جريدة « الدنيا » وفي مجلة « العالمين الجديدة » الى أن زيادة النسل زيادة سريعة من موجبات ضعف الأمم لأن الفقر من لوازمها. ووافقه موسيو « دي موليناري » في جريدة « الاقتصاديين » التي هو مديرها

ولكن الاستقرار لا يؤدي الى هذه النتيجة اذ ليس من المسلم أولاً ان قلة النسل تفيد الأمة الفرنسية. نعم لو كنا محاطين بسور كسور الصين فلا يتخلل أمتنا عنصر أجنبي من أي نوع كان لأصبحنا في معيشة راضية في بلاد قل عدد سكانها اذ قلة العدد تسهل لكل فرد مصادر العيش وتجعله يستفيد مما تجمل الأمة أكثر مما لو كانت كثيرة العدد. غير أن الأحوال لا تجري كذلك والنقص في النسل يستعاض على الدوام بتهافت القصاد من الأجانب فالوافدون على البلاد الفرنسية كثيرون من جميع مجاورها البلجيكين والالمانين والسويسريين والباسكيين^(١) والاندلسيين

(١) هم سكان أطراف جبال البيرينية الغربية

ولا يزال عددهم يزداد يوماً عن يوم فكان عدد الاجانب في فرنسا سنة ١٨٥١ (٣٦٩٠٠٠) نسمة وبلغ سنة ١٨٦١ (٤٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٢ (٧٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٦ (٨٠١٠٠٠) وسنة ١٨٨١ (١٠٠١٠٠) فتكون النسبة واحداً من الأجانب في كل ثلاثة وسبعين فرنساوياً

قال موسيو « فوفيل » « ان كثرة ورود الاجانب في فرنسا أمر خطير اذ لولا هم لما تغير عدد الفرنسيين » وفرنسا هي البلد الذي قل عدد المهاجرين منه وكثر عدد المهاجرين اليه والذين يقولون بمنفعة قلة النسل يعلمون هذا ولكنهم لا يتطرون منه بل يفرحون به ويقولون أنه موجب للاقتصاد في فرنسا لانها بواسطة الغريب تجد عمالاً لم تتكلف تربيتهم . قال موسيو « مولينالى » « لو فرضنا أن الامة الفرنسية اضطرت الى تربية ذلك المليون من العمال الذين يأتونها من الخارج لكفوها من النفقات مالا جزيلاً اذ الحصول على مليون رجل كلهم في سن العشرين لا يتأتى الا من مليون وثلاثمائة ألف نسمة ومتوسط النفقات لتربية مليون من الشبان ثلاث مليارات وخمسمائة مليون . وعليه ففرنسا تقتصد مثل ذلك المبلغ باستعمالها العمال الاجانب وهذا المال يساعد كثيراً على امتداد ثروتها العامة والخاصة ولا يشك أحد في أنه لو جاءنا من البلاد الاجنبية مليون من الثيران لنسد به نقص ماشيتنا لكانت فائدتها منها متساوية لما صرفته البلاد التي أرسلتها اليها في تربيتها »

ولا نخال هذا القول صحيحاً اللهم الا اذا كان الرجل ثوراً ولكنه لما كان انساناً لزم عليه ان قلة أبنائنا وعدم تربيتهم كما يترتب أبناء العائلات

كثيرة العدد وعدم تعودهم من صغرهم على الاعتماد على أنفسهم في تحصيل عيشتهم واهمالهم جانب المهر الذي يأخذونه من آبائهم أو الذي تأتيمهم به نساؤهم وعدم اعتقادهم بان النجاح انما هو لمن قويت فيه القدرة على العمل وكان ذا عزيمة واقدم لا يؤدي الى تربية الرجال عندنا ولزم عليه ان أبناءنا بتعودهم على ما ألفوه من التربية التي تجعلهم يعيشون في حجبهم أمهاتهم ويأكلون من حيث لا يعرفون اذا احتكوا بأولئك الاطفال الذين نشأوا بين عائلات كثيرة العدد وتربوا على نظام شديد من حيث العمل والاجتهاد يخسرون على الدوام ويتقهقرون خجلين . ألا ترى ان تجارنا ومهندسينا يفضلون العمال الالمانيون أو السويسريين والصناع البلجيكيين أو التليانيين على أمثالهم من الفرنسيين اذ يجدونهم أشد اطاعة وأكثر عملاً وأكبر اقتصاداً وأقل طمعاً . والواقع أن أولئك الاجانب يقتصدن من أجور لا تقي بمحاجات الفرنسيين ولولا معونتهم لنا لما زادت قيمة متاجرنا الضعف ولا شتد عجزنا عن مقاومة المنافسة الاجنبية . والصناع الاجانب هم الذين عليهم مدار صناعتنا وزراعتنا بما أتوه من سلامة العقل وقوة الجسم غير أنهم لا ينقدوننا من هذا الانحطاط الا برفع الايمان اذ وجودهم بيننا يضعف من قوة ارادتنا ويقلل من همتنا وينقص من انتشارنا ويثبط همتنا في الاستعمار ويذهب بنفوذنا في العالم بل هو يؤثر أيضاً على جنسيتنا لما يعترها من التغير طبعاً لاختلاطهم بنا

الفصل الثاني

﴿ في ان طريقة التربية عندنا مضره بثروة الامة الفرنسية ﴾

يقول الناس في كل مكان ان هذا الجيل جيل المال ومنهم من يفرح بذلك ومنهم من يحزن له والواقع ان الاعمال المالية وصلت في زمننا هذا الى حد يكاد العقل لا يتصوره وليس هذا أمراً غريباً اذ ليس شئ في الوجود مسبباً عن الصدفة بل سببه اكتشاف مناجم الفحم فهو الذي أوجد في المال تلك القوة العظيمة التي امتاز بها في زمننا هذا . فبواسطة الفحم تمكنت الامم من اجراء أعمال كثيرة تقتضى من المال ما يفوق ثروة أغنى العائلات مما لا يمكن القيام به لغير الشركات . وأول تلك الاعمال هو استغلال المناجم عينها لأن الفحم لا يوجد في الارض مختلطاً بغيره كما توجد المعادن الاخرى بل هو طبقات متكاثفة فوق بعضها تكاد أن لا تنتهي ولهذا فانه يقتضى في استخراجها عمالا كثيرين وعملا عظيماً . ثم الاكثار من الاشتغال في المناجم ذو فائدة عظيمة لأن الفحم لازم في كثير من الصناعات فيبعمه سهل ومأمون ومثل هذا العمل العظيم يقتضى من النفقات ما لا يمكن جمعه الا بواسطة الشركات . ولم تقتصر منفعة الفحم على كونه صار محلاً لتجارة كبيرة من حيث هو بل انه غير حالة الصناعة تغييراً كلياً فيه أصبح الدكان الصغيرة معملاً كبيراً لأن قوته عظيمة يتحصل الانسان بواسطتها على اضعاف

ما كان يعلمه بدونها . وزيادة الاتساع تستدعي زيادة العمال ثم ان
أكثر المصنوعات تستلزم مالا كثيرا لا يتأتى جمعه في كثير من الاحوال
الا بواسطة الشركات

ومن فوائده أيضا تغيير طرق النقل والتسفير فيه امتدت السكك
الحديدية وجرت سفحن التجارة في عرض البحار وهذه الاعمال أيضا تطلب
من الاموال مالا بد في جمعه من الشركات . والفحجم هو السبب في تأليف
شركات المساهمة الكبيرة التي تشتغل بتنوير المدن بالغاز واستعمال الكهرباء
وفتح قنال السويس وغير ذلك وهو الذي حمل الدول على اجراء الاعمال العظيمة
ذات المنفعة العامة وكلما زادت قوة الفحجم عظم اتساع تلك الاعمال حتى
أصبحت أموال الخزائن لا تنفي بالمطلوب وعمدت الحكومات الى الاقتراض
فتألف لا قراضها شركات أكبر من التي سبق القول عنها

هكذا عظم سلطان المال الى حد لم يكن في الحسبان حتى أصبح ذا
ثمرة ذاتية أي من دون أن يأتي صاحبه عملا من الاعمال وتغير الاستثناء
الى قاعدة كلية فبعد ان كان الغنى هو الذي له رأس مال يأتيه بالربح اشترك
معه في ذلك الحقير الذي يقتصد المال اليسير بالسكد الكثير . ومن تأمل
في هذا التغيير الذي أحدثه الفحجم وحده علم أنه تغيير لازم جاء من طبيعة
الحال . ومقتضى الحال أشد قوة من هم الرجال ومن طلب مقاومة هذا
التيار فقد ضل رشده اذ لا بد له الخذلان

وليست الاسباب التي جعلت الناس يتهافتون على اقتناء السندات

المالية الا أسبابا جوهرية جاءت من مقتضى الاحوال كالتى ذكرناها

فأول مزية في تلك السندات سهولة حيازتها وهي سهولة الحيازة لكونها يتجزأ الى مالا نهائية له وقابليتها للتجزؤ تسهل لأحققر الناس اكتسابها وربحها لا يقتضى كلفة ولا عناء فكل الناس من صغير وكبير يميل اليها ثم الربح الذى يأتى منها يأتى بانتظام فى أوقات مقررة وذلك لا يتأتى لمن يزاوّل الزراعة مثلاً أو الصناعة أو التجارة وظاهر انه لا موجب للإنسان يدعوّه الى ترك هذه المزايا

وثانيتها المالك السندات أمل في زيادة قيمتها أو تسديد ما عليه منها بطرق مقيدة أو فى نوال ربح كبير ومن أصابه حظ مما ذكر فقد اغتنى وهو نائم والكثير يعتمد على ما يرجو كسبه من هذا السبيل فأصحاب السندات والسهم الذين حصلوا ثروة طائلة كثيرون وما من احد الا ويغبط مساهمى شركة « انزان » التى اشتهرت بوفرة ارباحها ومساهمى شركة قنال السويس وشركة الغاز فى باريس وغيرها فقد أتت تلك الشركات وأمثالها بالارباح التى لا تعد فى زمن يسير لأنها تكونت فى زمن كثرت فيه حاجة الناس اليها وقل المتنافسون معها وأقبل الناس عليها ولا يزالون مقبلين اقبال الظمان على الماء . نعم من الناس من يخسرون فيها الا ان الخسارة غير ظاهرة بجانب الكسب الوفير

وثالثتها سهولة شراء هذه السندات فى الاسواق المالية « البورصة » وبيعها وما يتخلل ذلك فى كل وقت من هبوط الاسعار وارتفاعها يحمل كثيراً من الناس على الاشتغال بها رجاء الربح فى المضاربات فضلاً عما يجدونه فى ذلك من اكتفاء العناء فى حفظ أموالهم والزيادة فيها الى

الحد الأقصى

هذه هي الأسباب التي تدعو الى اقتناء الأوراق المالية بوجه الاجمال وهي حركة أوجبت تغيراً عظيماً في الأفكار من حيث العمل ورفعت شأن النقود الى المقام الاسمي وفتحت أمام كل طالب باباً للكسب فسيحاً وارتقت بالماليين الى ذروة الهيئته الاجتماعية فأصبحوا ملوك العصر وقياسرة الزمان غير أن لكل شيء في الوجود ضداً والدهر قلب وهنا يصدق تشبيه السعد بعجلة تدور فمأ أكثر تقلبات الثروة المنقولة لانها على الدوام تحت رحمة تغير الأسواق وتغير الاسواق على الدوام تحت رحمة السياسة والمضاربات ولسنا في حاجة الى سرد ما تحدثه الاسواق المالية كل يوم من التخريب والتدمير لأن علمه حاصل لكل واحد منا وانما الذي نريد توجيه الافكار اليه هو ان الخسارة المالية قد تشتد في بعض الاحيان فتصيب انساناً كثيرين حتى تكون داهية كبرى وتشبه البناء اذا تداعى . هنالك يصيح القوم بأصوات الفزع وينطق كل واحد بما تمليه عليه منافعه فيتسابقون في تعنيف الماليين ورميهم بمر الملام وسم الكلام وقد يكون اللائم نفسه مستحقاً للزجر والتعنيف . ومن الغريب ان كل مساهم يستعد لاقتضاء الارباح ولكنه يكره تحمل الخسارة والواقع ان كليهما نتيجة لازمة لطبيعة العمل الواحد فالأوراق المالية تبيع وتخسر أي تمر القلب كما يثمر الكرم عنبا وشجرة التفاح تفاحاً . والذي يجب الاهتمام به والبحث عنه هو معرفة ما اذا كان في الامكان ملافاة الضرر الذي ينجم عن تقلب الاسواق المالية والتفادي من سلطة الماليين . ومن المشاهد ان ذلك في الامكان بل ان

بعض الأمم قد اتخذت من الوسائل ما اتقت به تلك المحن
ويبانه ان انتشار الاوراق المالية لم يؤثر في جميع البلدان بدرجة واحدة
اذ من المشاهد ان البلاد التي أصابها الضرر ليست هي التي كثر فيها الاخذ
والعطاء بتلك الاوراق ومن البلاد ما تتحمل من المضاربات مالو حصل في
غيرها لا ضرر بها كثيراً ويمكننا أن نشبه الحالة المالية بكرم العنب وهو يقاوم
فعل الدودة في أمريكا أكثر منه في فرنسا

ولو أحصينا الكتب والرسائل التي نشرت حديثاً في البلاد الفرنسية
لتنبه الامة الى ماهو محقق بها من الاخطار بفعل اليهود وتأثير المضاربات
لملأت خزائن بنامها . الا أن العقل ليس هو الذي أملى تلك المؤلفات كما
ان التؤدة لم ترافق الكتاب في تأليفها وانما الداعي اليها هو الشهوة والهوى
وقد تخطى أكثرها الحد الذي ينبى وتلك أفسد الوسائل في الوصول الى
الغرض المطلوب . ثم ان الذين كتبوا كلهم لم ينظروا الا الى ظاهر المسئلة
نجاءت أدواؤهم التي أشاروا بها غير مفيدة أو متعمدة الاستعمال . ومع هذا
فان تلك القيامة تدل على أمر صحيح لاشك فيه وهو الحرج الذي استولى
على الامة الفرنسية في هذه الأيام

وليس منشأ هذا الضيق ان الفرنسيين تهافتوا على استعمال الأوراق
المالية أكثر من غيرهم اذ الحال واحد في انكلترا والبلاد الاسكندنافية
وألمانيا والولايات المتحدة وانما السبب اختلاف طرق الاستعمال
فأما الأمم التي تمكنت من مفادات الضرر الذي ينجم عادة من
الاشتغال بالاوراق المالية فانها اتخذت سبيلاً واحداً ذلك انهم لم يضعوا جميع

أموالهم في تلك الأوراق بل فرقوا بين رأس المال وما اقتصدوه من غلته واشتغلوا في الأوراق بالثاني دون الأول . أما الفرنسيون فقد فرطوا في الكل وأسلموا إلى الأسواق المالية أصل الثروة وما اقتصدوه وهذا هو السبب في قولهم عادة ان فرنسا هي البلد الذي كثرت فيه وفرة المال وهو قول صحيح لميل الفرنسي إلى جعل ثروته كلها منقولة والكثير منهم يود ان لو جمع ثروته كلها في دفتر جيبه

وهذا هو السبب أيضا في ان أغلب القروض التي تحصل يقع الاكتاب فيها بفرنسا فهي أكبر سوق للاموال وهي أحسن بلديستفيد منها المالى لو كان من الماهرين وترى اليوم الاموال الفرنسية تجري إلى الخارج في جداول مختلفة ولكنها لا ترجع اليها الا قليلا فكم صناعات النقود الفرنسية في تركيا و « هوندوراس » و « فنزويلا » ومعادن بلاد الاندلس وجمهورية « ارجنتين » و « البيرو » وغيرها . والمال الفرنسي هو الذى كان له الحظ الاوفر في ذنك العاملين العظميين الذى لانظير لهما في زمننا هذا أريد فتح قنال السويس وخليج بناما لكن كونهما فتحا بمال الفرنسيين لا يستلزم بقاءهما في حيازتهم فاما قنال السويس فقد صار ملكا لانكلترا ومن المحتمل جدا أن يصير بناما ملكا للامريكان ومعناه استيلاء العنصر الانكليزى السكسونى على كل شىء فالفرنسيون يزرعون وغيرهم من الامم يحصدون والفرنسيون يتعرضون الى الاخطار حتى اذا وجبت الفائدة جناها غيرهم وهم اليه ينظرون

ثبت اذن أن فرنسا هي البلد الذى صارت الثروة فيه منقولة أكثر من غيرها

والسبب في هذا اهمال الفرنسيين على تمدادى الايام منابع الثروة العمومية الثلاثة وهى الزراعة والصناعة والتجارة . ولسنا في حاجة الى اعادة ماسطره الغير من اصرار ملوكنا وأخصهم لوزر الرابع عشر على حمل الشرفاء على ترك أراضيهم وجلبهم الى دائرة الحشم والمية وان الطبقة العليا تناست شينافشينًا سكنى الارياف واعمال الفلاحة واختارت الاقامة في المدن الكبيرة وصارت فرنسا اليوم هى البلد الذى تطول فيه غيبة كبار الاغنياء عن أملا كههم وتحولهم عن الاشتغال باستغلال أراضيهم وأصبحت الاموال التى كانت ينفى استعمالها في الزراعة وتحسين طرقها معطلة لاتفيد الزراعة وكان من الممكن استعمالها في الصناعة أو التجارة الا أنهم ماعتبران عند كل ملتصق بتلك الطبقة من الاعمال الدينئة جريا على ذلك الوهم المتأصل في الافكار من قديم حتى أن المشتغلين بهما لا يفكرون الا في الكسب باسرع ما يمكن ولا غرض لهم من جمع الاموال الطائلة الا التقاعد عن صناعتهم أو تجارتهم وادخال أبنائهم في المهن التى تطلعت اليها الطبقة التى اتفقوا اليوم على تسميتها بالعليا وهى الوظائف الادارية . فنتهى أمل كل فرنساوى أن يلتحق بوظيفة في الادارة أو الجيش وهى الطريقة التى يكون الواحد منهم بها مكرما محترما وهى التى تؤهله الى أن يتزوج بامرأة من الاغنياء وتجعله مقبولا بين القوم الممتازين . اذن فالفرنساوى أما موظف أو مترشح للتوظيف وله من ذلك راتب يقبضه وهو يقتصد من راتبه ما زاد على حاجته ولا شك انه لا يميل الى استعمال ما اقتصد في الزراعة أو الصناعة أو التجارة

للأسباب التي قدمناها وهي الخط من قدره على انه يجهل سبيلها بالمره .
وعليه فلم يبق لاستغلال ذلك المال الاثراء الاوراق المالية فهو الباب
الوحيد الذي يمكن الدخول منه واليه يميل كل ذي مال لا يريد أن يشتغل
لاستغلاله وانماه أو غير قادر على ذلك . وهناك سبب آخر في كثرة
التقود المتوفرة لدى العائلات الفرنسية وهو قلة الابناء كما قلنا فالمال الذي
تنفقه الامم الاخرى في تربية أبنائها الكثيرين يقتصده الفرنسيون ويبقى
هكذا تحت طلب الشركات المالية فاصرارهم على تقليل النسل يوجب
ضعف قوتهم الاجتماعية في المستقبل ولكنه يدعو الى زيادة الاموال حالا
في خزائهم ولا شك في أنه لو حصل هبوط في أسعار تلك الاوراق المالية التي
جمعت أموال الكثير من الفرنسيين كلها لكانت مصيبة كبرى وخسروا
خسارة لا عوض لها

وليس هذا حال الامم الانكليزية السكسونية فلا يزال كبراًؤها
وعامتها مشغولين بالزراعة وللوردات الانكليز أملاك واسعة يسكنون بينها
وهم يدبرونها بأنفسهم ومن عمد الى الاستعانة بالغير في استغلال أراضيهم
فانه يحفظ على الدوام قسماً يباشره بنفسه ومن أجل ذلك تراهم واقفين على
أحوال الزراعة ومهتمين بشؤونها ومستعدين لاستعمال أموالهم فيها . ولا يكاد
الفرنساوي يقدر المال الذي ينفقه أحد أغنياء الانكليز في تحسين طرقها
والتفنن في أساليبها « راجع كتاب تدبير الزراعة عند الانكليز لموسيو لافارج »
واستعمال الاموال في الزراعة هو أكبر باعث على اعتبار ذوى الحثيات في
تلك البلاد « راجع مذكرات على انكلترا لموسيو تاين » ومن الانكليز

عائلات كثيرة تهاجر الى أمريكا واوستراليا وزيلنده الجديدة وكلها تشغل
بالزراعة ولها أملاك كبيرة فيها لان الزراعة وحياسة الاراضى هما أقصى أمانها
وبذلك سهل على كثير من شبان الانكليز أن يرتزقوا في البلاد الاجنبية
ومتى اتجهت الهمم الى هذا السبيل لم يبق الا يسير من المال لشراء
الاوراق المالية

وعلى الضد منهم لا يهاجر من فرنسا و بين الا التزر القليل ومن
تكلف الرحيل عن وطنه فانما يقصد برحاته أن يكون موظفًا في البلاد التي
يقصدها الانادراً وهم بذلك يعيقون تقدم الاستعمار أكثر مما يساعدون عليه
هذا ولم يقتصر الانكليزى السكسونى على الزراعة بل هو يهتم أيضا
بالصناعة والتجارة حتى الكبراء منهم والاصراء وأبناء اللوردات الذين
يذهبون لغير بلدهم طلبا لحياسة الاراضى وزرعها ينشئون في وطنهم معامل
للصناعة أو يتجرون ولا يخطر ببالهم فيما يعملون أنهم خرجوا عن تقاليد آبائهم
كما أن هذا الخاطر لا يجول بفكر أحد من أمتهم . وهذا هو السبب
الوحيد في اتساع نطاق الصناعة والتجارة في انكلترا والولايات المتحدة
بدرجة تكاد تبلغ حد الاعجاز ومعلوم أن ذلك يقتضى مالا كثيرا فلم يبق
للاوراق المالية الا يسير

ومما يزيد أولئك القوم رغبة في الزراعة والصناعة والتجارة عدم اعتبار
الوظائف عندهم كما هي عند فرنسا و بين فلا ترى في انكلترا مثلا من
الموظفين الا مالا بد منه ومن هنا طلب الناس رزقهم من الحرف النافعة
الاخرى وهم في مأمن من المخاوف لما هو مقرر في شرائعهم من أن تركة

الرجل لا تقسم بين جميع ورثته فالرجل يعمل ويجمع الاموال وله الخيار في تأسيس الاعمال لبقية على الدوام بعد مماته

ومن المسلم أن الذي يجعل مدار ثروته عمله الذاتي وكسبه الشخصي لا يكون عرضة للاخطار كذاي يتكلم على تقلبات الاوراق المالية لأن الاول لا يشتري تلك الاوراق الا من فضلة ماله ويشتريها وهو غير جازم بالكسب منها كمن يدخل بيت القمار فيرمى فيه ببعض دراهمات من نفقة زهته فان اصاب ربما فيها وان اضاع ما أنفق فالضرر محتمل ورأس المال محفوظ مصون

ألف موسيو « روزيه » كتابا سماه « عيشة الامريكان » تلذ قراءته خصوصا الفصل الثالث عشر الذي عنوانه « كيف يستغل الامريكي ماله » فقد ورد فيه ما يأتي « رأيت في نيويورك وفي بوستون رجالا يشتغلون في الحرف الأدبية ومع ذلك يضعون في الزراعة أو غيرها قسما من أموالهم وهم علم بالجهات التي يضعون نفودهم فيها ولكن لا يتألف من ذلك شركات كبيرة بل جمعيات صغيرة خصوصية ومن مهمهم أن يقفوا على كيفية الاستغلال وطرقه ولذلك لا يقسمون أموالهم ليضعوا كل قسم في جهة مخصوصة كما يفعل بعض الفرنسيين احتفاظا عليها بل يجمعونها كلها في جهة واحدة وكلهم حراس عليها . ومن هنا تجد الجرائد الامريكية مشحونة بالاخبار العملية أي المختصة بالزراعة والصناعة والتجارة ولا ينشر أسعار الاوراق المالية الا القليل منها لان الكثير من قرائها لا يلتفتون اليها وهو معقول اذ لو كان عندهم مال لما استغلوه فيها بل جهات الاستغلال عندهم هي الهمم

والعمل فيتخذ الواحد منهم مصنعا يشتغل بإدارته أو يقصد التجارة ولكنه لا يرضى أن ينام على أوراق مالية يشتريها من أجل ذلك تجدد التعامل في الاسواق المالية عندهم يحصل على الدوام بالنقد فوراً فكل بيع أو شراء تدفع قيمته بتحاويل يقبضها المحول اليه في اليوم الثاني ومن اشترى ورقاً لزمه أن يأخذه من مكان ابتياعه وذلك من أكبر البواعث على الاقلال من أعمال تلك الاسواق فلا يقدم على العمل فيها الا من كان المال حاضرأ في يده ولا يجد من يتغنى الكسب بالدين اليه سبيلاً

وعلى هذا يمكننا أن نقول بان هبوط الاسعار عند الامم الانكليزية لا يضرها كما لو حصل عند الفرنسيين اذ الاولى أقل من الثانية في استعمال الاوراق المالية

ان الانصباب على تلك الاوراق في البلاد الفرنسية هو الذي جعلها كعبة القصاد من ذوى الاموال وما اليهود الا بزرة لا تنبت الا في أرض تناسبها والا لا تشر زرعه في انكلترا والبلاد الاسكندنافية والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها ولكنها لم يهبط إلى تلك النواحي لان المال فيها غير موجود في الاسواق ولأن كل من كان له نصيب منه فيها يستغله بنفسه في أرضه أو صناعته أو تجارته . فحيث لا تجد اليهودى مالا يقتنضه وحيثما يجد قوما يعرف كل واحد منهم طريق الدفاع عما اقتنى تراه ينسحب من نفسه أو انه يفقد ما في بزوره من الفساد

الفصل الثالث

﴿ في ان التربية الانكليزية السكسونية تساعد على التزاحم في الحياة ﴾
« النوع والاخلاق »

جاءني في شهر مايو سنة ١٨٩٢ دعوتان الى بلاد الانكليز : الاولى من جمعية تقدم العلوم البريطانية لمناسبة احتفالها بالمؤتمر الثاني والستين لها من ٤ الى ١٠ اغسطس سنة ١٨٩٢ بمدينة ايدنبورج وقيل لي في ورقة الدعوة « ان لجنة الادارة ترجوان تشرفوا بيقائكم ضيفاً عليها مدة اقامتكم في هذه المدينة وكونوا على يقين من انها لن تهمل شيئاً من شأنه أن يجعلكم المقام حلواً مرضياً » فلما قرأتها أحسست اني غير قادر على عدم الاجابة والثانية من الاستاذ « جيديس » مؤسس جمعية علميه يقال لها « جمعية الصيف » في المدينة ذاتها وكان يطلب مني أن ألقى بعض الدروس في العلم الاجتماعى على أصحابه

وفي اليوم الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٩٢ قصدت مدينة ايدنبورج فراقني مرآها وهكذا صرت أتردد عليها أربع سنوات متواليات وشاهدت تلك الجمعية الصيفية فاذا بها مدرسة علوم وفنون غريبة في بابها وهي في الواقع حقيقة بالانكليز وينبغي أن يعرفها القراء لذلك نذكر طرفاً من موضوعها

اشتملت الافكار بنشر التعليم في البلاد الانكليزية حتى انتهى
القائمون به الى تأسيس دروس متعددة في انحاء البلاد على الخصوص حول
كل مدرسة من المدارس الكلية وتدوم تلك الدروس في الغالب شهراً واحداً
زمن العطلة الصيفية ويجتمع اليها الطلبة من رجال ونساء رغبة في توسيع
معلوماتهم وكل طالب أو طالبة يدفع جملاً معلوماً . وقد نجح هذا المشروع
جداً في تلك البلاد لكثرة الذين يميلون الى زيادة التحصيل علماً بان العلم
أكبر مساعداً للانسان في حياته فاذا جاء الصيف وحان زمان تلك الدروس
رأيت الناس يكتبون فيها مئات مئات في انكلترا والوفا الوفا في الولايات
المتحدة

ولقد تولاني الاندهاش أول مرة جلست فيها لالقاء الدرس في مدينة
ايدنبورج لما رأيت أن عدد الطلاب يبلغ الستين الى السبعين اذا ما كان
يخطر بالبال أنهم يملكون هذا المقدار في درس يلقى باللغة الفرنسية وليسوا
كلهم من طبقة واحدة بل من طبقات وأجناس مختلفة مما يفيد التأمل في
أحوال التربية وأحوال الاجتماع . فمنهم بعض ذوى الاملاك العظام
وفيهم الكثير من المدرسين والكتاب ومدير جمعية البحث في أحوال
الامم بلنדרه وعدد من طلبة المدارس وفيهم من الشبان الذين يتلقون دروسنا
في العلم الاجتماعي بباريس وقد أصابوا بمجئهم الى ايدنبورج ومنهم بعض
الفتيات وبعض المشتغلين بالثريية والتعليم والاعمال الخيرية من رجال ونساء
وبعض المعلمين والمعلمات وهؤلاء أكثرهم بالطبيعة عدداً . واتفق اني قلت
لاحدى المعلمات أن زميلاتهما في فرنسا لا تردن ضياع زمن العطلة المدرسية

عليهن في تلقي دروس جديدة وعلى الخصوص بمقابل يدفعنه فبانت على وجهها علامة الاستغراب وأجابت أن استعمال زمن العطلة في الاستفادة أمر طبيعي . والواقع أن عدد الطالبين والطالبات لتلك الدروس بجوار كليات « اكسفورد » و « كمبريدج » وغيرهما قد يبلغ الستائة كلهم يدفعون المقرر المفروض

وليس لهذا الانصباب سبب غير رغبة كل واحد في التحصيل ليكون له بذلك قيمة ذاتية تعظم وتترقى على الدوام وقد بينا في مجلة « العلم الاجتماعي » كيف أن تلك الرغبة تنمو بالتربية ثم زرت عزبة في ضواحي ايدنبورج فشاهدت أن الليل واحد عند أهل الزراعة كما هو عند غيرهم ولما نزلنا الى المحطة وجدنا صاحب العزبة في انتظارنا واذا به رجل لا يمكن التفريق بينه وبين أحد أصحاب البيوت المالية أو احد السياسيين أو أحد أغنياء الناس بحال من الاحوال لانه قد جمع شمائل الظرفاء من كل وجه فلباسه حسن التفصيل كأنه خرج من يد خياط شهير ولهذا التحدى في البيان كما لغيره مما يلي فائدة تظهر للقراء فيما بعد

أما العزبة فكائنة على مسافة كيلو متر واحد من المحطة ومقام صاحبها ملاصق للمحقاتها يصل الزائر اليه في طريق منتظر تحفه الازهار من الجانبين وفي المدخل باقة منها ومنظر البيت من الخارج منظر دار لطيفة من تلك الدور الانكليزية ولما دخلنا وجدنا الدهليز مفروشاً بالنسج وكذلك السلم والطرق حتى انتهينا الى قاعة الاستقبال حيث كانت سيدة البيت في

انظارنا فقا بلتنا بلا تخمش كما تقابل السيدات المتعودات على الاجتماع واستمر الحديث بيننا بلا فتور وأخذنا حظنا من كل موضوع وقد أقيمتها تعرف اللغة الفرنسية مما يدل على انها أخذت نصيبها من التربية ثم قدم الشاى على أحسن ترتيب وشاهدت الخادمة ليست بتلك المرأة السميننة المتخمشة في هيئتها البطيئة في حركتها اللابسة لباس الريف المنتقلة فجأة من علف الماشية الى خدمة الظرفاء بل هي خادمة تدل أعمالها على علمها بواجباتها وقد اتسحت بفوطة بيضاء محبوكة الاطراف مكوية باتقان وعلى رأسها تلك الطاقة الحسنة التي تتقلدها الخادومات الانكليزيات في بيوت الكبراء . ولا شك في ان ذلك كله يدل على ان الرجل يعيش عيشة هناء ورخاء اذ لا يتأتى أن يكون قد أعد كل ما رأينا لاستقبالنا ولم يكن كذلك من قبل . ولقد أثر عند هذا المنظر تأثيرا جملى على الدوام أفكر فيه وأقارن بين ذلك الحال وما شاهدت في غير تلك البلاد من نظائره بالمقارنة تتبين الاشياء . وكأني بالقراء وقد أدركوا اننى لما رأيت صاحب ذلك المكان الانكليزى وتفقدت مقامه وخبرت نوع معيشته تذكرت أمثاله من أهل الزراعة الفرنسيين ومعلوم ان أحسن أهل الزراعة عندنا هم سكان الشمال فهم الذين نرى من بينهم المتعلم المتثور أو الحائز للشهادة الثانوية والذي أحب الترفه وجمع في بيته كثيراً من موجبات الراحة واتخذ له قاعة مخصوصة يستقبل الزوار فيها وتردى رداء الحضر لارداء الصناع . ولاحت عليه امارات رب المال الذي يديره بنفسه وعاش في سعة وطاب طعامه ولذ شرابه . غير ان كل الناس ايسوا كهؤلاء ولست أقصد أهل الجنوب أو الوسط أو سكان « بروتانيا »

من لافرق في المعيشة للمادية بينهم وبين الاجراء بل اترك هؤلاء لا تكلم عن أهل «نورمانديه» التي هي من الاقاليم الموسرة وأنا الآن أتذكر واحدا منهم زرتة مراراً وله من الاطيان مائه وخمسون هيكتو مترأى كالذى يملكه صاحبنا الانكليزى وهو من الاغنياء بدليل انه جعل لابنه - ذلك الولد الوحيد - مهرا قدره مائة ألف فرنك وفي قدرته أن يعيش العيشة الراضية ولكنه لا يعيل اليها بل هو لا يدركها . تراه لا لبسا لباس العملة وهو القميص الازرق القصير الذى يلبس من فوق الا في أيام الاسواق والموالد فانه يلبس رداءه رثاً من جميع الوجوه ليس فيه محل للنظافة أبداً وامراته على مثاله تذهب بنفسها لتغسل الثياب من حنفية عمومية ولا فرق بينها في لباسها وحركاتها وحديثها وبين بنات العزبة كلهن وبيتهن من الداخل يشبه الساكنين فيه فكلمهم يقضى حياته في قاعة كبيرة لها باب مطل على حوش العزبة وحيطانها مبيضة بالجير تلطبخا وهي عارية عن كل زخرفة وزينة وفيها من الاثاث كله مائدة كبيرة عبارة عن ألواح سطحت فوق أعمدة تحملها وعليها يأكل الاسياد والخدم بلا فرش ولا غطاء وحوها مقاعد من خشب تناسبها وهي اربعة كراسى كل واحد على شكل مخصوص مصنوعة من البردى صنعا رديئاً ثم كانوا الطبخ وماجور تغسل فيه الآنية هذا كل اثاث تلك القاعة ولم اختره من المستثنيات بل ذلك هو الحال الغالب عند الفرنسيين أجمعين وربما شاهد ذلك كل واحد من القراء مائة مرة الا انها حالة لا تسمثر منها نفوسنا لاننا نراها عادية طبيعية ونفهم ان الفلاح لا يمكنه يعيش الا هكذا لان الزراعة من لوازمها فقد موجبات

الراحة والنظافة

ولعل القراء يحسبون ان الزارع الانكليزي الذي زرته بعد استثناء كذلك كان ظني بادىء الأمر ولكنى اعتقدت العكس لما دخلت بيوت الفعلة الذين يعملون فى أرضه . ولا حاجة بى أن أشرح كيف يعيش الفعلة عندنا فالواحد منهم اما أن ينام فى الجرن على القش أو الحشيش أو فى الحوش على أردأ سرير أو أن له أودة حقيرة يأوى إليها . ولما أذن لى صاحب العزبة بزيارة مساكن عماله رأيت على بعد مائة متر من منزله خمسة بيوت أوستة تمتد على الطريق وهى ذات مناظر تعجب النواظر يتقدم كل بيت منها بستان صغير كله أزهار وله طرق فى غاية الانتظام ومن الخلف بستان آخر تزرع فيه أنواع الخضر . وعند وصولنا الى تلك المنازل رأينا فتاة عليها سياء الاواسط من الناس جالسة امام أحدها وأمامها رضيع عليه الملابس البيضاء المتقنة فى عربة لطيفة فى حالة جيدة ذات أربع عجلات من النوع الذى يقال له انكليزي وهو رفيع الثمن كما هو معلوم وكان معى حضرة زميلى فى مجلة العلم الاجتماعى موسيو « يوانسار » فسأل صاحبنا ان كانت تلك السيدة من نساء المدينة أقبلت تريض فى هذا المكان فأجابنا والعجب يأخذ منا كل ماخذ كما لا يخفى انها زوجة ذلك الشغال الذى يسكن البيت الواقفون نحن أمامه ثم سألهما سيد المكان ان كانت تسمح لنا بزيارة بيتها فأجابت بالارتياح وأدخلتنا فوجدنا أمام البيت ممسحة للارجل وفى الدهليز بساطاً من الحبال لهذا الغرض بعينه ووجود الدهليز فى المنازل من موجبات نظافتها وراحة سكانها فلا يدخل الانسان فى الغرف من الخلاء مباشرة ثم الدهليز

يوجب حماية من في البيت من البرد أكثر مما لم يكن موجوداً وعلى اليمين قاعة صغيرة جعلت لتسليح آنية الطبخ والملابس ووجودها يوجب نظافة أودة الاكل والطبخ لعزل النسييل في مكان مخصوص وأودة الاكل هي أيضاً أودة المطبخ وهي كبيرة يبلغ مربعها أربعة أمتار في أربعة تقريباً وفيها من الاثاث ما تراتح النفس لوجوده وكانون الطبخ يفتب نصفه في الحائط ولا يظهر منه الا نصفه وتلك عادة مألوفة كثيراً عندهم وهو في غاية النظافة نحاسه براق ولا عجب من هذه النظافة لأن طبابخ الانكليزاً أكثر مهارة في نظافة الآنية منهم في طهي الاطعمة فهن ينظفن على الدوام ويستعملن نشارة الرصاص وماء النحاس في تنظيف المطبخ كما يستعملن الطباشير في نظافة الحيطان والحجر حتى يجيل للانسان ان الطباخة الانكليزية تجثو على ركبتهز زمناً أطول من الذي تقف فيه على قدميها. ويوجد في تلك الاودة قطعة من الاثاث الخشبي ذي الصنع الجميل أشبه بكرسي كبير عليها أنواع عدة من المصنوعات الدقيقة مرتبة ترتيباً جميلاً وهذا وحده يكفي لبيان مقدار اعتناء عائلة ذلك الفاعل بمنزلها ولا يعين عن الذهن اننا نصف بيت فاعل من فعلة الزراعة. ثم دخلنا أودة النوم فاذا فيها سرير من الحديد له أكر من النحاس لماعة من النظافة وبجانبه صندوق ذو أدراج « كومودينه » وفي مقابله مجلس « كنبه » ثم مائدة النظافة « تواليت » عليها احقاق من الورق وزجاجة المياه المختلفة الالوان مصفوفة على أكمل نظام وهذا يدل على ميل أولئك البسطاء الى الاشياء الجميلة وحسن الترتيب وتنظيم المأوى لكل الناس من هذه الطبقة مثل هذا الاهتمام لأنه يوجد على مقربة

من العزبة معدن فحم وقد شاهدت اغلب بيوت الفحامين على هذا المثال من بستان صغير أمام المسكن ومدخل نظيف وستارات بيض أو ذات ألوان جميلة مختلفة فوق النوافذ وغير ذلك ومع هذا فقد شاهدت بعض محلات الفعلة محفوفة بمنازل قذرة مهملة وكل ما يرى في الداخل يدل على هيئة رديئة والأطفال يروحون وينفدون حفاة الأقدام بملابس رثة خشنة وقد سألت مدير المصنع عن هذا التفاوت فقال لي « ان الفعلة الأيرلنديين لا يهتمون بنظافة البيوت وموجبات الراحة فيها لذلك يمطون المساكن العتيقة اجرة زهيدة كافيه لحاجتهم اما البيوت الجديدة فقد بنيت للفعلة الأيرلنديين الذين يمتنون بها ويزينونها بما يصل اليه المكان» وقد أكد لي ذلك صاحب العزبة وانه يستعمل الأيرلنديين في زمن الحصاد على الخصوص ويعطيهم منازل يسكنونها كيف كانت لان السكنى لا تهمهم ومن هنا يتبين الفرق بين النشأة الاستقلالية التي هي نشأة الانكليز السكسونيين وبين النشأة الانتكالية التي هي نشأة الأيرلنديين فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما الى نظام المعيشة وحسن الترتيب في المسكن وهو فرق محسوس تأكدت منه في زيارتي بمد أيام قلائل لاحد صناعات الآلات المخانكية ببلدة « ينكويك »

ذهبنا في الساعة الخامسة بعد الظهر لتناول الشاي عند ذلك الصانع فوجدناه يسكن بيتا هو ملكه وهو طبقتان ارضية وعلوية وقدم لنا الشاي في اودة معدة للاكل والاستقبال معا وفيها مجلس « كنية » وآلة موسيقى « بيانو » وبساط يستر اغلبها وفوقه بساط اصفر منه واقل ثمنًا لحمايته مما يدل على

ان سيدة البيت ذات اعتناء به وبنظافته أما الشاى فقد تناولناه على مائدة صرلعة فى آنية تكاد أن تكون من الزخارف فقطاء المائدة من نسيج التيل الدقيق والا كواب من الخرف الجميل وخمسة أطباق أو ستة ملاءى بأنواع الافطرة وعيش مقعد مدهون بالزبدة . ولما شربت أول مرة طلب منى أن اثنى فرضيت واذا بهم غسلوا كوبرى قبل أن يصبوا الشاى فيها من جديد وأودعوا الماء صحفة موجودة فوق المائدة لهذا الغرض بعينه . ولا أظن أنى مخطىء اذا قلت أن الفرنساويين يكتفون غالباً بأن يصبوا الشاى مرة ثانية لضيغهم من غير زيادة احتفاء واحتفال . وعلى كل حال فهذا هو الذى أعلمه عن بلدى ومن جاورنى . والخلاصة أن ذلك العامل البسيط يتأنى فى تناول الشاى وتقديمه تأنىقاً لو أدخل فى كثير من بيوتنا لهد تقدما

ثم سألت صاحب المزبة عن أجرة الرجل عنده فأجبنى خمسة وتسعون فرنكا فى كل شهر ومسكن وبستان للخضر تبلغ مساحته « اكرين » ونصيب من البطاطس كبير وهذا هو الايراد الذى يتمكن به أولئك الفعلة من تحصيل العيش بالكيفية التى شرحنها لان نساءهم لا يشتغلن فى الخارج الا قليلا ولم يقم دليل على أن النظافة وحسن نظام المنزل تقتضى من النفقات أكثر من اختلال الحال والوساخة والاضطجاع على المكاسل فى القهاوى والحانات

وليلاحظ أيضا أن العامل الانكليزى لا يقتصد الا قليلا بخلاف رفيقه الفرنساوى فالاول ينفق ما يكسب كله تقريبا واعتماده فى تحصيل عيش أوسع انما هو على ما يرجوه من زيادة الراتب باتقاله من درجة الى

أرفع منها لاعلى ما يدخره من أجره اليومي . وله في الواقع فراسة وحقق في الارتقاء فلا يضيع فرصة الترقى متى سنحت وهذا هو السبب في أنه لا يحجم عن التغرب ولا يخاف الهجرة عن بلده اذا رأى الضرورة القائمة كما يدل عليه عدد الذين يهاجرون الى جميع الاقطار من الانكليز السكسونيين وهم بمستقبله ليس الا في ادخار بعض الشيء لارملته بمد وفاته لذلك يميل الانكليز الى التأمين على الحياة كثيراً وهذا هو السر في انتشار شركات التأمين المذكورة في انكلترا واولايات المتحدة انتشاراً كبيراً وفيما تقدم برهان جديد على ما لاصحاب هذه النشأة من الاستعداد للتقدم والترقى

وأهم منه أن الرجل في هذه البلاد مهما صغر وكان حقيراً يعيش عيشة أحسن من معيشة أهل القارة الاوروباوية وفي راحة من حيث نظام البيت أوفى وفي كرامة كما يقول الانكليز أوفر وبالجملة فانه لا ينقص عامل هذه البلاد في الريف أو الحضر الايسر جداً ليصبح في الظاهر بل ويجوز أن يصبح في الحقيقة أيضاً من ذوى الحثيات الذين عرفوا النعمة منذ نعومة الاظفار فبدور التنعم مغروسة عنده وخالته في الظاهر تدل على ميله اليه وطعمه فيه لأنه يفضل أن ينفق ليعيش في سعة على أن يقتر ويعيش شقياً أما عندنا فالفضيلة الكبرى هي التوفير والادخار ولا تقدم لنا الا بالتقتير والحرمان لذلك يرضى الرجل منا بما يعافه الانكليزي فرتبات موظفي الحكومة عندنا من كل الطبقات أدنى من مرتبات الانكليز ومع ذلك فكثير من الموظفين الفرنسيين يدخرون جانباً من مرتبهم الزهيد . لكن

الرجل من الانكليز سعى في الاتفاق على نفسه حتى يحصل أكبر حظ
ميسور من العيش والرغد ثم يستغل مافاض عنده بنفسه
ولقد ظهرت فينا آثار تعودنا على التوفير والمعيشة مضيقة فلا نزال
نحافظ على تلك العوائد ولو بلغ الواحد منا مبلغاً من الثروة والمال ذلك لان
العادة لا تزول فنكتفي ببيت له من النظام اليسير ونرضى بالزينة العرضية
القليلة اللهم ان لم نفضل معيشة أهل « نورمانديه » الذين لا يبتغون الخروج
من تعاستهم مهما كسبوا

ان في طبقات العملة منا استعداداً لتحصيل المال بالاقصاد والتوفير
ولكنهم لا استعداد فيهم الى الارتقاء من حيث الأحوال الاجتماعية أى
انهم لا يذوقون حلاوة عيشة السعة الراضية ولا يدركون لذة نظام المنزل
وكمال موجبات الراحة فيه

بعد الفراغ من قراءة الدرس ذات يوم ركبت مع بعضهم عربية وقصدنا
زيارة عائلة تسكن في ضواحي ايدنبورج حيث أعد لنا طعام الظهر وكنت
ميالا كثيراً لزيارة تلك العائلة لأنها من قراء مجلة العلم الاجتماعى اذ وجدت
فرصة أقف بها على تأثير تعاليمنا في أذهان الانكليز. فلما قربنا من المنزل
وجدناه مشيداً على مرتفع عظيم وقد جمع من الزخرف وحسن الترتيب شيئاً
كثيراً والعائلة تتألف من زوجين في ريعان الشباب ووالد الزوج وثلاثة أولاد
فيما أظن وكلهم يسكنون السنة بأكلها في الخلاء على مسافة ستة كيلومترات
من ايدنبورج. وقد شاهدت في الطريق مساكن كثيرة قيل لى انها مسكونة
على الدوام وسكن الخلاء على الدوام حتى في الشتاء عادة من عادات الانكليز

فقد اخبرتني فتاة على وشك الزواج انها تستسكن الضاحية وان كانت اشغال زوجها تستدعيه كل يوم الى المدينة . ومما يدهشنا نحن الفرنسيين قولها انها ترى ذلك ألد وأهنأ اذ يخلص الانسان من جميع القيود ويجد معدنات الراحة ولو ازم الرغد كاملة . وفي ظني ان الاستقلال ورغد المعيشة هما القطب الذي ترمى اليه أفكار الانكليز وتتجه نحوه أعمالهم كلها في هذه الدنيا لذلك تراهم يرتاحون في العزلة والاقتصار على ما قل من الاصحاب وفي ذلك للأمة من القوة ما لا يخفى . ولما دوننا من المنزل قولنا بحفاوة واكرام اثرا عندي أى تأخير كانى كنت لهم صديقا عرفوا مبادئه ووافقوه . والواقع ان العلم الاجتماعى لا يدخل أمتاخ الانكليز كما يعلق بأذهان الفرنسيين والفرق بين الامتين في ادراكه يرجع الى ان الفرنسيين يقرأه لبحث فيه عن طريقة تنتظم بها أحوال المجتمع الانسانى بأمله وأما الانكليزى فانه يستهديه طريقة يسير هو عليها بين الناس وميل كل أمة يناسب نشأتها . فنحن أهل النشأة الاتكالية نصبو الى الافكار العمومية والانكليز أهل النشأة الاستقلالية يميلون الى الامور العملية المفيدة . هكذا فهم أهل الدار التى نحن فيها العالم الاجتماعى والتمسوا منه بابا للمعيشة وهم من ارباب الاملاك الواسعة أجروها لاخرين الى زمن ينتهى هذا العام وقد عولوا على عدم تجديد الايجار وان يتخذوا أرضهم مقاما لان الرجل يريد ان يدير أملاكه بنفسه . وحتى يأتى الاجل المعلوم تراه مشتغلا بالاستعداد وأخذ الاهبة بمزاولة العمل فيبقى يومه طول النهار فى عزبة صديق يجاوره حيث يشاهد أعمال الزراعة ويتعرف طرقها والكتاب فى يده والتطبيق بين يديه

على الطريقة الانكليزية التي هي المثلى . وقد شاهدت ان الانكليز حتى الذين يشتغلون بالتجارة والصناعة ويقضون نهارها في المدن أكثر استعداد للزراعة من صناعتنا وتجارنا فهم أقرب اليها منا ويستسهلون الدخول فيها عنا فقد أخبرني أحد الاصدقاء موسيو « بياش » وكان يرافقني انه زار أحد مستأجرى العزب فعلم انه كان وكيلاً لأحد البيوت المالية في ناحية وأصاب البيت جأحة فاقفل أبوابه وتحلى عنه ذلك الوكيل فاستأجر أرضاً فسيحة وأقام في فلاحتها . واني لأخالي أجد كثيراً من أمثال هذا الرجل في البلاد الفرنسية

وقد بحثت عن علة استعداد الانكليز الى الزراعة فوجدتها التربية التي تكاد ان تكون ريفية لكثرة ما يوجد من الجنائن في مساكنهم يضاف الى ذلك ما هو لازم لنشأتهم الاستقلالية من الشغف بمعرفة الاشياء التي تقع تحت نظرهم أكثر من حبهم في معرفة الناس فيشبهون على تعرف تلك الكائنات وتسهل عليهم عيشة الريف لمطابقتها أيضاً لرغبتهم في تحصيل رزقهم بأنفسهم فلا يبلغ الواحد منهم أبان الشباب الا وقد مارس غرس الاشجار وزرع البقول وتربية بعض الحيوانات المنزلية . كل ذلك يدركه الكثير من شبان الانكليز بمحض الفطرة من غير تعب ولا عناء وهذه معلومات لا يحصلها عندنا الا الفلاحون ومن أقاموا على ادارة أموالهم بأنفسهم . وقد شاهدت أحد زملائنا موسيو « بيرو » آثار هذه التربية بادية حتى في مدارس المدن بالولايات المتحدة الامريكية عند ما ذهب اليها لفرص يتعلق بإبحاثنا الاجتماعية فرأى ان الاهتمام بالمعالم الطبيعية خصوصاً

ما يتعلق منها بالنباتات والحيوانات هناك أكثر منه عندنا وانهم لا يقتصرون على تعليمها في الدرس بل يقرون العلم بالعمل والمشاهدات. وكثيراً ما تدور أبحاثهم على موضوع حي بين يديهم والمدارس يطلب من تلامذته أن يأتوه في الدرس القابل بفرع من شجرة أو ورقة ليلقي عليهم الدرس بمشاهدتها حتى يكون ادراكهم للشيء، حاصلًا بواسطة ذلك الشيء، المأخوذ من مكانه الطبيعي. وظاهر أن هذه طريقة أثبتت في التعليم وأبقى للعلم في الأذهان فيسأل التلميذ عن المكان الذي تنال منه الشيء، والأرض التي كان موجوداً بها وعماداً كان لاحظ نموه وأمعن النظر في شكله وهيئته وغير ذلك

ومن المعلوم أن هذا التعليم غير ميسور إلا إذا سكن التلامذة أو بعضهم في الخلاء أو كانوا به متصلين كأن يكون في مدارسهم أو على مقربة منها بساتين يأخذون منها ما يحتاجون إليه في دروسهم

لاحظ « تانين » في الانكليز هذا الاستعداد لمزاولة أعمال الزراعة والميل إلى المعيشة في الأرياف واذكر عنه أنه كتب في بعض مؤلفاته أن الزراعة من المسائل التي تجرى المسامحة فيها في البيوت بين المجتمعين من أهل وزوار حيث يدور البحث على طرق إصلاح الأراضى ويسرى الحديث إلى الجزئيات والاستشهاد بالأمثلة وكل واحد من الناس يميل إلى هذا الحديث وللنساء فيه حظ الرجال

وعليه فلا يستغرب أن زوجة صاحبنا الذي أشرنا إليه تكون مستعدة بكمال الرضاء إلى مصاحبته في سكنى أراضية التي يريد أن يتولى إدارتها بنفسه وقد حدثتني في هذا الموضوع ملياً فرأيت منها العزيمة صادقة وإنها عولت

على ما عزمت بروية بعد ان احاطت باطرافه وتبينت وجهي الضرر والنفع منه . ولو ان في زوجها ترددا لوجدتها مساعداً لهتمته ومعيناً له في مهمته . ولا شك في ان معونة المرأة للرجل مما يشد أزره ويزيده قوة واقدماء . واني أعرف كثيراً من أصدقائي في فرنسا يودون أن يتولوا ادارة أظيانهم بأنفسهم لقلة المستأجرين ولكنهم لا يستطيعون ذلك لآباء نسائهم مرافقهم فالمرأة الفرنسية أبعد عن معيشة الريف من الرجال ويشق عليها أكثر منه أن تتخلي عن صاحباتها وزياراتها والاجتماعات التي اعتادتها وربما كانت هي حجر العثرة الوحيد في طريق تقدم زراعتنا وصناعتنا وتجارتنا بما ارتكز في ذهنها من الوهم بان تلك حرف دينية لذلك يتزوج الرجل أحسن زواج أي اغني امرأة «وبين الاول والثاني فرق بعيد» إذا كان في الجيش أو موظفاً في الحكومة ويقال ان للرؤساء الروحانيين تأثيراً على النساء ولكني أود أن لا يكون ذلك كذلك حفظاً لشرفهم واستبقاء لحسن السمعة عنهم لم يكن عندي درس يوم السبت والاحد لانهما يوماً عطلة في انكلترا فمن ظهر السبت تقف حركة الأعمال وتقفل المعامل والحوانيت الى صبيحة يوم الاثنين . ورب سفسطائي يجول بخاطره ان الانكليز هم أكثر الامم عملاً واقلهم عملاً والواقع انه لانظير الانكليزي في قدرته على العمل ولا في قدرته على الاستراحة منه لانه يعمل أكثر مما يمكن في اقل مما يمكن من الزمن ليستريح مما يمكن وقد شاهدت في لندره ان بعض المخازن لا تفتح قبل الساعة التاسعة صباحاً ثم هي تقفل في المساء مبكراً أكثر من عندنا وكذلك شأن المصالح ودوائر الاعمال . والخلاصة ان يوم العمل الصحيح

أقصر عند الانكليز منه عندنا . ومن هنا سهل على الانكليزي ان يذهب كل يوم الى بيته في ضواحي المدينة وان يعود في الصباح لانه لا يسكن حيث يشتغل كما قدمت الا نادراً . وقد أكد لي بعضهم ان كثيراً من أرباب الحوانيت في ايدنبورج يسكنون الخلاء ، ويقطعون كل يوم صباح مساء مسافة كبيرة . أما عندنا فالأكثر يسكنون خلف محال تجارتهم أو فوقها لذلك سهل عليهم ان يفتحوا أبواب أشغالهم مبكرين ويقفلوها متأخرين ثم ان كثيراً منهم لا يعطون يوم الاحد وما من أحد يستريح يوم السبت بعد الظهر أبداً . ولو اقتصر التأمل على هذه الحال لقال ان الفرنسي أكثر عملاً من الانكليزي غير انه لا ينبغي الوقوف عند عدد ساعات العمل بل الواجب زنتها وزنة عمل الانكليزي أكبر بكثير فهو يعمل كثيراً في وقت يسير ولا يكاد يستريح هنيهة يتناول فيها شيئاً من الطعام وسط النهار وقد يتناوله وهو على قدميه من دون ان يتخلى عن العمل

انهزت فرصة الفراغ صبيحة يوم السبت وذهبت لزيارة أحد مناجم الفحم على مقربة من مدينة « هاوتردين » وهناك تعرفت بان عم مدير المنجم وهو شاب انكليزي يشتغل بتجارة الاغنام في زيلانده الجديد ويأتي في كل سنتين مرة ليقضى شهرين في انكلترة وهو راض عن حالته في تلك البلاد وقد اختارها مقاما أبديا وقال لي « هناك الحياة الحقيقية » فسألته عن موجب اعجابه بها فقال « الاستقلال » وهو برهان جديد على ان محبة الاستقلال هي التي تحرك الانكليزي وتدفعه الى العمل في جميع الاحوال ومما قلبنا أحوالهم وبحثنا في عوائدهم . وأخلاقهم وسبرنا غور مقاصدهم

وصرامهم لانهتد الى نتيجة غير انهم يحبون الاستقلال . سألته عن أنجح الطرق للمعيشة في تلك البلاد فقال « ان يتدىء الانسان كعامل بسيط يرعى الاغنام » هكذا بدأ ذلك الشاب ولا تنس ان عائلته من خيار العائلات الوسطى غير ان الانكليزي لا يحتقر من الصنائع الا ما قل كسبها لكن رعاية الاغنام كثيرة الفوائد لأنها أحسن وسيلة تمكن صاحبها من معرفة أحوال البلاد التي نزل بها ومن الوقوف على جميع ما يلزم للتجار بالأغنام وأكبر صعوبة على النفس فيها وجود الانسان مع قوم خشنت طباعهم غير مثقفين . قال صاحبنا (ولكن اذا كان الرجل ممن حسنت تربية لا يلبث ان يصير محل احترام أولئك القوم على ان من السهل اجتناب ردائلهم بالسكنى بعيداً عنهم) فاذا تم الاختبار وكل العلم بمجالات الصنعة التي اختارها أقدم على شراء قطيع من الغنم أما اذا أراد القادم في تلك البلاد ان يبدأ بالتجارة مباشرة فانه يصبح العوبة في أيدي السماسرة فيقع في ارض قليلة الانتاج وماشية معدومة التنتاج . وفي ظني ان شبابنا لا يرضون أن يبدأوا في العمل على هذا المثال على انه المثال الأقوم وبه ينجح الكثير من شبان الانكليز السكسونيين

وجهت العناية الى زيارة كثير من المنازل الخلوية فكنت أذهب اليها كل يوم بعد الظهر وأول ما تأثرت به كون تلك العائلات قد اتخذت الريف مقاما أصليا يدل عليه ما يشاهده الزائر لتلك المنازل من كثرة الصور التي تمثل أفراد العائلة والمقتنيات الفنية الثمينة وقد يحتوى بعض هاتيك القصور على مدخرات تتفاخر بها المدان الكبيرة لو كانت في دار تحفها ومع ذلك

اتصل بي أن بعض تلك العائلات أصبحت في حالة عسر اضطررتها الى بيع أرضها ومنها صاحبة قصر وبستان كنت أزورها وهي من أشرف ايقوسيا الاقدمين من سلالة « السلتيين » ومن الاستقصاء علمت انها تقابلت في أدوار الحياة كتقلبات الشرفاء في فرنسا بمعنى انها ابتعدت عن مزاوله الاعمال وما حفظت مقامها بين اترابها الا بانتقال ثروتها من الارشد الى الارشد وكثيراً ما كان التوارث يحصل بطريق الايضاء مما يشبه الوقف ومع هذه الحيطة قد اخنى الزمان على الكثير من تلك العائلات وأمست يحدق بها الزوال والاندثار

ولا غرابة في هذا فان طبقة أشرف الانجليز ليست في الحقيقة من نتائج الاجتماع الانجليزى السكسونى لان الجمعيات الاستقلالية لاتلد مثل الطبقة المذكورة فلا يجد الباحث في أحوال الامم طبقة ممتازة يتوارث شرفها من الخلف الى السلف في البلاد التى نشأ فيها رجل الاستقلال بعيداً عن المؤثرات الاجنبية أى على حالته الاصلية . هكذا الحال في بلاد «نرويج» وفى بعض جهات السكسون المسماة «بلين» حيث يشاهد الزارع السكسونى على ما كان عليه منذ القدم بدون أن يختلط به غيره . كذلك لاتجد أثراً لطبقة الاشراف الوراثة في البلاد الجديدة التى يسود فيها الآن العنصر الانجليزى السكسونى فلا أثر لها في الولايات المتحدة ولا في أستراليا ولا في زيلانده الجديدة وغيرها . ولا غرابة في هذا لان طبيعة ذلك الجنس لاتقتضى ذلك الوجود . والذى يميز النشأة الاستقلالية عن غيرها من المجتمعات الإنسانية هو قيام كل ولد مستقلاً بنفسه على ما أودع في شخصه

من القوة والاقتدار من دون معونة الذي تربى في حجورهم وهي الحالة التي يعبر عنها الانجليز بقولهم « مساعدة المرء لنفسه » و « التزاحم في الحياة » ومن المحقق ان طبقة اشراف الانجليز وما يتبعها من حقوق الارشدية والايضاء بانتقال الملكية من الوالد الى الولد آتية من مبدأ يخالف ما تقدم فهي اثر من آثار الجمعيات الاتكالية القائمة على قاعدة مساعدة العائلة لابنها مما ينزل بهمة الى الحد الأدنى ويكفيه مؤنة مساعدته لنفسه ومزاحمته في الحياة . فارشاد العائلة الشريفة في بلاد الانجليز ينشأ كما ينشأ أهل جمعية الاتكال

دخلت طبقة الاشراف الوراثية بلاد انكاترة مع « النورماند » الذين وفدوا عليها بقيادة غليوم الفاتح ونحن نعلم ان الفاتحين من النورماند هم من أم الاتكال تجمعوا من كل الجهات طمعا في الغنائم وأخصهم من فاسدى الطباع ومن لاخلاق لهم ولا أرض يطمثون فيها . والتاريخ يدلنا دلالة واضحة على كيفية احتشاد تلك الجنود وبين لنا يانا كافيًا كيف نزلوا الى بلاد الانكليز وانهم انفرطوا بين أهلها وقاسموهم أرضهم فاخصصوا باحسنها ولكنهم لم يطمثوا اليها كاطمثنان السكسونيين أو المهاجرين من أهل الامم الاستقلالية . واستمر السكسونى المغلوب يزرع الارض لمنفعة النورماند والنزاع القائم بين الفريقين انما هو نزاع بين جمعيتين من نشأتين مختلفتين كل الاختلاف

وبقدر ابتعاد النورماند عن الاطمثنان الى الارض ومزاولة أعمالها تمسكوا كل التمسك بما يرجع الى نشأتهم الاتكالية وهو الشرف الوراثي

الذي ينتقل من الوالد الى الولد وأقاموا على ما أوجدوا من ذلك الى يومنا هذا فأضروا كثيراً مدى قرون عدة بالعنصر الانجليزي السكسوني أو الاستقلالى فى انجلترا . وليس من مطلبى أن أبين فى هذا الكتاب كيف انتهى الخال باجتياز الانجليزي تلك العقبات وتغلبه على هاتيك العوائق التى قيدته أزماناً طويلاً وصيرورته صاحب المقام الأول بما أودع فيه من القدرة على المقاومة والاحتمال والحياة التى تفوق حياة غالبية كثير أولئك اشاهدان من نتائج نصره حصر السلطة الملوكية فى أضيق دوائرها فمن المعلوم أن الانجليز انتهوا بتأسيس نظامهم على أن تحكم الامة نفسها بنفسها وذلك من خصوصيات النشأة الاستقلالية . وكان وصولهم الى هذه الغاية فى الزمن الذى استولت فيه النشأة الاتكالية على أزمة الامة الفرنسية فأفضى أمرها الى سيطرة لوزير الرابع عشر واستبداده المطلق فى حكومتها

غير أن الانجليز لم يتخلصوا من جميع آثار النورماند فيهم بل بقى لهم منها طبقة الاشراف الوراثية واكتفوا فى ابادتها بأن قتلوا من شأنها وجعلوها كالملوكية اسمية لافعلية مع بعض الامتيازات السياسية كوجود قسم من أفرادها فى مجلس اللوردات ولم يناضلوا على هذا الامتياز لأنهم وجدوا مزايه راجحة على مضاره حتى الآن . وبيانه ان الانجليزي وأعنى به القسم السائد من الانجليزي ذا النشأة الاستقلالية ميال بالطبع الى الصنائع والحرف لما قدمناه من احتياج الشبان الى تحصيل مرتزقهم بأنفسهم من دون التفات الى ثروة آبائهم أو انتظار مهور نسايتهم وبما أودع فيهم منذ طفوليتهم من محبة العمل والاقدام عليه سدا لتلك الحاجة التى يعرفونها ومن وقف على

حقيقة هذا الميل وضحت له الفائدة التي يراها الانجليز في طبقة الاشراف التي وجدت بينهم بالقهر عنهم : يرون فيها وسيلة سهلة ترضى به نفوسهم وتروق في نظر الغير لأداء وظيفة لا بد منها وهي السياسة التي هم لا يميلون اليها ميلا خصوصيا . ومن المحقق أن طبقة الاشراف أوجدت لهم مجموع رجال سياسيين من أرفع السواس مقاماً وزد على ذلك ان دوام مصادمة التربية الاستقلالية التي هي أصل في السكسوني للشرقاء خفف من ثقل وطأهم كثيراً وعلى الأخص منذ قرن من الزمان

أثرت النشأة الاستقلالية في الاشراف من جهتين

الاولى انها انتشلت الولد الثاني من البطالة وأبعدته عن خدمة البلاط وحوالته عن وظائف الحكومة والجيش وهذه الوظائف هي التي كانت عندنا الملجأ الوحيد لاولئك الابناء وأدت بهم شيئا فشيئا الى الاضمحلال وفقد القدرة على العمل هم والارشدون سواء فانحدر ذلك الولد مع تيار الحياة الجديدة حيث يقوم الرجل فيها بأمر نفسه مما هو خاص بالنشأة الاستقلالية . لذلك اذا انقرض نسل الارشد ووقع المال الى أجدأ ولتلك الابناء الثواني رأته يدخل في صف الشرقاء وقد تربى تربية متينة واكتسب خبرة وهمة لم تكن لغيره ممن لم يعيش معيشته ولم يعرف شيئا من الحرف التي ترجع الى الزراعة والصناعة والتجارة فهم يجددون حياة تلك الطبقة آناً فآناً ولولاهم لانحلت وأصبحت عفاء . ومن موجبات حياتها أيضا ما يضاف اليها من الرجال السكسوني الاصل الذي ترفع الحكومة رتبتهم وتنعم عليهم بالقاب اللوردات وما يماثلها

الثانية أنها ما زالت بالاطراف كما فعلت بالملوكية حتى انتزعت من نفوسهم كل طموح الى العبث بحرية الافراد واستقلالهم . ذلك لأن رجل الاستقلال لا يهتم بالسياسة اهتمام رجل الاتكال بها ولا أن يعيش منها متله ولكنه شديد الحرص على استقلاله وخلصه من كل قيد يعيقه في عمله الذاتي لاحتياجه اليه في تحصيل مرتزقه فلا يطيق ما يعيق زراعته أو يعطل صناعته أو يضر بتجارته ولا يقبل أن تضايقه الحكومة باستبدادها ولا أن تثقل عليه ضرائبها ونتيجة تلك الحال ميله الدائم الى جعل الحكومة قاصرة على وظيفتها الضرورية وهي حفظ الامن العام اللازم لكل واحد في عمله . أما نتيجة حال الامم الاتكالية فهي بضد ذلك . الاخلال بالامن العام بقدر الامكان والناس يماون لذلك جهدهم رجاء ما يسرون في نفوسهم اذا تغلب حزبهم من نيل الوظائف ذات الرواتب الوافرة لهم أولاً بنائهم اذ الثابت في الازدهان ان أحسن العيش ما كان ثمنه من أموال الامة التي تجمعها الحكومة في خزائنها وليس لما أحدثنا من القلاقل وما أضر مناه من نار الثورات والفتن المتعددة التي لا يزال أهل أمريكا الجنوبية يستخدمونها في

كل يوم سبب غير ما تقدم

هكذا كان تعود الامة الانجليزية على حكومة نفسها بنفسها مقلدا لامتيازات الشرفاء منهم وهم الذين كان يخشى من ثقل وطأتهم وصيرورتهم ممقوتين بسببها

ومع أن طبقة الاشراف الوراثية طارئة على انجلترا فانها أضرت برجلها الاصلى وغيرت منه كثيراً واذا قابلنا بين منافعها وأضرارها وجدنا الثانية

هي الراجعة

مدار النشأة الاستقلالية على أن الرجل لا قيمة له الا بنفسه وقدرته على العمل وهيمته ومنابرته ولا فرق بين الناس وبعضهم الا بما كان راجعاً الى تلك الصفات ودخول طبقة رفيعة المقام بمقتضى الوراثه والتناسل قد اوجد بجانب هذا الاصل فكراً آخر اتكاليا مادته ان الرجل ليس شيئاً بنفسه بل قيمته تأتيه من عائلته وعشيرته وحزبه الذي ينتمى اليه وظاهر ان هذا تغيير عظيم كما اشرت اليه لأنه يغير مثال الامة في أصله ونحن أهل القارة لانتميز كثيراً من هذا الفكر لاننا ريننا كلنا في فكرة الاتكال على اختلاف في قوة تأثيرها عند كل فرد بذاته ولذلك نرى تقسيم الناس الى طبقات بحسب النسل والعشائر أمراً طبيعياً . الا أن الامر ليس واحداً في انكسار الاسماء عند مجموع الامة حيث النشأة الاستقلالية ثابتة الدعائم في الازدهان وكثيراً ما شاهدت هذا الشعور عندهم وهو ظاهر في كتاب ألفه مسيو (شاكرى) وسماه (كتاب المستشرقين) في التنديد على الذين يحبون الشرف ويميلون اليه . والمستشرق هو الذي يعجب بالامراء ويقدم فيما يفعلون وما يقنونون ويتخذ كل وسيلة للتحكك فيهم . والاتصاق بهم ولا ينظر في أحوال الناس ويحكم على أعمالهم برأيه ونظره بل بما يراه أولئك الامراء الذين جعلوا لهم حياة على حدة . قال المؤلف « لقد يستغرب الانسان من انتشار اللوردية والاهمية التي صارت لها في هذه البلاد وكيف يصح في بلدنا التي يقال لها حرة أن تعبد رتبة الآباء (اللوردية) حتى لم يبق فينا واحد لم ينخدع بخيلائها ولم ينبطح على بطنه اجلالاً لها وتعظيماً

وفي ظني ان تأثير الشرفاء على المستشرقين كان تأثيراً عظيماً فبقاء هؤلاء وانتشارهم فضل من فضائل الاشراف التي نحمدكم عليها « وليلاحظ أن الكاتب كان يقول ذلك سنة ١٨٤٨ أيام كان صوت الاشراف ربيعاً وقولهم مسموعاً ثم أخذ المؤلف يذكر فلاناً وفلاناً ممن غرتهم الظواهر فاستشرفوا وجعل يصفهم بصفات يهرب العاقل منها

واعلم بأن الاستشراف منتشر في فرنسا كانتشاره في إنجلترا فامنا الامن يجب الاشراف ويصبو الى الشرف غير ان الفرق بيننا وبينهم ان حالتنا طبيعية ترجع الى نشأتنا الاتكالية بخلافها عند الإنجليز فانها عرضية دخيلة في بلادهم مناقضة لنشأة العنصر السائد فيها ولذلك يرجى حصول التغيير متى قويت النشأة الاصلية وتغلبت على الدحلاء وهذا هو مايجرى اليوم في تلك البلاد اذ من المحقق أن تأثير الشرفاء يضمف يوماً ما وهو الآن أقل بكثير منه في زمن « شاكيري » على قربه منا ويخال ان مركزهم أصبح متزعزعا بديل انحطاط سلطة مجلس اللوردات شيئاً فشيئاً حتى انتهى الناس فبحثوا جهاراً في وجوب الغائه ومما لاشك فيه ان الغاءه لا يحدث تغييراً البتة في نظام الامة الانجليزية لانه من الاصل أمر زائد في ذلك النظام

على أن إنجلترا لن تعدم بفقد اللوردات وجود طبقة رفيعة لان العنصر الاستقلالي يلد هذه الطبقة وان كان التكوين مختلفاً وتلك الطبقة موجودة فعلا في بلاد الانجليز ومنتشرة بين أهلها وهي طبقة المهذبين . والفرق بين المهذب وبين اللورد أو الشريف ان منزلة الاول ليست وراثية بل هي

ذاتية كسبية ولا دخل للحكومة في اقرارها وانما الناس يعرفونها لمن أصبح
جديراً بها ويقال اليوم عندهم فلان مهذب أو غير مهذب يراد بذلك ان له
من حميد الصفات وجميل الاخلاق مجموعا يمسر التعريف عنه وربما جمعها
الانكليز في كلمة «الكرامة» أو «الوقار». والمهذب موجود في جميع الحرف
وجميع الصناعات ماعلا منها وما اتضع كما أن الناس لا يطلقون هذا اللقب على
رجل كريم الحسب اذا بدا من أطواره مالا ينطبق على موجبات الكرامة
والوقار. فالمهذب هو مثال أعلى طبقات السكسوني كما ان اللورد أو الامير
مثال أعلى طبقات النورماند

وهناك سبب آخر يساعد انكترا على التخلص من شر الاستشراف
ذلك ان الرجل عندنا يصبح في صف العظماء معدودا من الامراء متى
احترف ببعض الحرف وابتعد عن البعض الآخر فنحن كالهنود في تعدد
الطبقات والمراتب. نقول ان من الحرف الشريفة والوضيعة والاولى هي
الجنديّة ووظائف الحكومة والاشتغال بالآداب كالكتاب. والثانية هي
الصناعة والتجارة وزد عليها الزراعة لأنها تركب بالفعل واختص بمزاوتها
المستأجرون والمساقون والوكلاء والنظار. ولسنا نشاهد شابا من أهل الحسب
يسعى في الاستعمار بأى جهة كانت. هكذا قوى عندنا التفريق بين طبقات
الامة لتشريفنا بعض الصناعات وتحقيرنا البعض وليس الاستشراف النتيجة
ذلك التمييز. لكن لا وجود لهذا التمييز عند الانكليز السكسونيين أو انه
ينمحي شيئا فشيئا. ففي الولايات المتحدة حيث يوجد العنصر الاستقلالي
خالصا من العوائق التي تكتنفه في انكترا لا يشعر الانسان بوجود فرق

بين صنعة وأخرى ومحس بان اعتبار كل انسان راجع الى قيمته الذاتية وحمته وثباته واقدامه . والحال سائر الى هذه الغاية بعينها في انكلترا وكله نتيجة اتساع نطاق الصنائع والحرف الجارية بتأسيس المعامل الكبيرة وتسهيل طرق النقل بعد اكتشاف الفحم واستعماله . وهذه النهضة الجديدة التي دوخت الجمعيات الاتكالية شدت عزائم الجمعيات الاستقلالية لاستعدادها لقبولها فبعد ان ازوت انكلترا وقتاً طويلاً بما طرأ عليها من تقاليد فاتحى النور ماند ونظاماتهم قامت اليوم تنشط من قيودها وتمالك قواها وترجع شيئاً فشيئاً الى نظامها الانكليزي السكسوني ونشأتها الاستقلالية ولن يعمق نهوضها هذا عائق من بعد . واذا أردت أن تقف على نهاية تلك النهضة فانظر الى البلاد الامريكية وأعني بها الولايات المتحدة حيث العنصر الانكليزي يرجع الى نشأته الخالصة ويسترد ما لاصله من القوة والصفاء مستعينا بما هيء له من فسيح الافطار التي يبسط فيها همته وبما أتيج له من عدم وجود طبقة أشراف وراثية في أمته كالتى أوجدها التغلب في البلاد الانكليزية

الفصل الرابع

﴿ في أن طريقة الميشة المنزلية تساعد على نجاح ﴾

﴿ الانكليز السكسونيين ﴾

أ كبر العقبات في سبيل ترقية الافراد والهيئة الاجتماعية هي معرفة

الغاية التي يجب أن تقصد والوسيلة التي تؤدي إليها فلا فائدة في معرفة الغاية ان جهل سبيلها وكثيراً ما جاءت النتائج على عكس المراد للجهل بالطريق الواجب اتخاذها أولعندم العلم به كما ينبغي . وفي بيان مبدأ هذا الطريق والدلالة على أول مرحلة منه هدى للقراء الى الطريق المستقيم

لقد كان من أكبر همي كلما أقمت في بلاد الانكليز ان أبحث في انتقال الرجل من حال الى حال آخر وكان موضع البحث ملائماً له كل الملائمة لأنه لا يوجد فوق البسيطة بلد اجتمعت فيه اشكال رجل الاستقلال مع اشكال رجل الاتكال مثل انكثرافهمي بجمع اشكال من الناس كبير . وقد يوجد هذا الاجتماع في الولايات المتحدة الا أن البحث فيها أصعب بكثير لأن الاشكال الموجودة في تلك البلاد غير مقيمة في الوسط الذي نشأت فيه أصلاً فسكان أمريكا ليف جمع اليها من كافة البلاد الاوروبية بحيث يتعذر الآن بيان بلد كل فريق منهم ثم انتقال أولئك القوم من حال الى حال حاصل في بلاد جديدة ولا يزالون سائرين الى نشأة اجتماعية قد استولت عليهم فصاروا فيها كالمعلقين بين أصلهم القديم ووطنهم الجديد

أما النازلون في البلاد الانكليزية فانهم قصدوها من زمن بعيد فترى عنصر « السلت النورماند » وعنصر الانكليز السكسونيين مستقرين في حالة طبيعية تسهل على الباحث ما يريد من النظر في أحوالهم اذ يجد جميع اشكال الاجناس حاضرة من السلت الهجانديين في ايقوسيا وارلنده الذين لم يدخلهم دخيل الى السكسوني الحقيقي الساكن في الجنوب أو الوسط . وبين هذا وذاك اشكال متوسطة شتى . ومن أكبر الفوائد ان يتسنى تقسيم

بين صنعة وأخرى ويحس بان اعتبار كل انسان راجع الى قيمته الذاتية
 وهمته وثباته واقدامه . والحال سائر الى هذه الغاية بعينها في انكلترا وكله
 نتيجة اتساع نطاق الصنائع والحرف الجارية بتأسيس المعامل الكبيرة
 وتسهيل طرق النقل بعد اكتشاف الفحم واستعماله . وهذه النهضة الجديدة
 التي دوخت الجمعيات الاتكالية شدت عزائم الجمعيات الاستقلالية لاستعدادها
 قبولها فبعد ان ازوت انكلترا وقتاً طويلاً بما طرأ عليها من تقاليد قاتحة
 النور ماند ونظاماتهم قامت اليوم تنشط من قيودها وتمالك قواها وترجع
 شيئاً فشيئاً الى نظامها الانكليزي السكسوني ونشأتها الاستقلالية ولن يعمق
 نهوضها هذا عائق من بعد . واذا أردت أن تقف على نهاية تلك النهضة
 فانظر الى البلاد الامريكية وأعني بها الولايات المتحدة حيث العنصر
 الانكليزي يرجع الى نشأته الخالصة ويسترد ما لاصله من القوة والصفاء
 مستعينا بما هيء له من فسيح الافطار التي يبسط فيها همته وبما أتيج له
 من عدم وجود طبقة أشراف وراثية في أمته كالتى أوجدها التغلب في البلاد
 الانكليزية

الفصل الرابع

﴿ في أن طريقة العيشة المنزلية تساعد على نجاح ﴾

﴿ الانكليز السكسونيين ﴾

أ كبر العقبات في سبيل ترقية الافراد والهيئة الاجتماعية هي معرفة

الغاية التي يجب أن تقصد والوسيلة التي تؤدي إليها فلا فائدة في معرفة الغاية ان جهل سبيلها وكثيراً ما جاءت النتائج على عكس المراد للجهل بالطريق الواجب اتخاذها أولعدهم العلم به كما ينبغي . وفي بيان مبدأ هذا الطريق والدلالة على أول مرحلة منه هدى للقراء الى الطريق المستقيم

لقد كان من أكبر همي كلما أقمت في بلاد الانكليز ان أبحث في انتقال الرجل من حال الى حال آخر وكان موضع البحث ملائماً له كل الملائمة لأنه لا يوجد فوق البسيطة بلد اجتمعت فيه اشكال رجل الاستقلال مع اشكال رجل الاتكال مثل انكثرافهي بجمع اشكال من الناس كبير . وقد يوجد هذا الاجتماع في الولايات المتحدة الا أن البحث فيها أصعب بكثير لأن الاشكال الموجودة في تلك البلاد غير مقيمة في الوسط الذي نشأت فيه أصلاً فسكان أمريكا ليف جمع اليها من كافة البلاد الاوروبية بحيث يتعذر الآن بيان بلد كل فريق منهم ثم انتقال أولئك القوم من حال الى حال حاصل في بلاد جديدة ولا يزالون سائرين الى نشأة اجتماعية قد استولت عليهم فصاروا فيها كالمعلقين بين أصلهم القديم ووطنهم الجديد

أما النازلون في البلاد الانكليزية فانهم قصدوها من زمن بعيد فترى عنصر « السلت النورماند » وعنصر الانكليز السكسونيين مستقرين في حالة طبيعية تسهل على الباحث ما يريد من النظر في أحوالهم اذ يجد جميع اشكال الاجناس حاضرة من السلت الهجاندين في ايقوسيا وارلنده الذين لم يدخلهم دخيل الى السكسوني الحقيقي الساكن في الجنوب أو الوسط . وبين هذا وذاك اشكال متوسطة شتى . ومن أكبر الفوائد ان يتسنى تقسيم

جميع تلك الاشكال الى فرق ، تمازجة عن بعضها ليقف الانسان على كيفية انتقال الساتى الاتكالى من حالته الاولى حتى صار سكسونيا استقلاليا . وبريطانيا العظمى أشبه ببودقة عظيمة تتحلل فيها على الدوام عناصر هيئتها الاجتماعية فيستحيل الساتى الى سكسونى خاضعا فى استحالته الى سنة ما تراحم عنصران من عناصر الاجتماع الا تغلب القوى منهما وحمل الضعيف على التشبه به ولا مشاحة فى أن أقوى العنصرين هنا هو السكسونى ، ثبت اذن أن انكلاترا هى أحسن بلد يجهد فيها الباحث أول مرحلة من مراحل تحول الاشكال نحو الاستقلال ويقف على مبدأ انتقال الساتى الى سكسونى بوجه خاص وعلى أول خطوة بخطوها الاتكالى نحو الاستقلال بوجه عام حتى يبلغ أرق درجاته ويصل الى آخر شكل من اشكاله

ولست أخشى الزلل اذا قلت ان أول درجات ذلك الانتقال هى كيفية الاقامة فى المسكن

جال بخاطرى هذا الرأى أول مرة عندما كنت فى ايدنبورج وانتهزت الفرصة لزيارة منجم الفحم والعزبة القريبة من تلك المدينة كما أشرت اليه فى الفصل السابق وقد بينت هناك الفرق الظاهر بين مساكن الفعلة الايقوسيين من « اللولاند » ومساكن السلتيين أو الارلنديين . فالاولى نظيفة فى غاية الاعتناء والثانية قدرة فى غاية الاهمال . وهذا الفرق هو الذى وجه فكرتى الى أهمية المسكن من حيث انتقال الرجل من حال الى حال وهو هنا فى الواقع أول خطوة فى هذا السبيل لان الفعلة الايقوسيين من « اللولاند » هم فى الاصل من أهل النشأة الاتكالية وأول شىء يمتازون به

عن الاتكاليين الارلنديين أو الهجلنديين هو اهتمامهم الزائد بتحسين مسكنهم
فهم من أولئك الاستقلاليين الذين لا يزالون في مبدأ انتقالهم ولكنهم
صاروا في حالة لا بد معها من صيرورتهم استقلاليين كاملين أو ما يقرب
من ذلك وكيفية سكنهم هي التي تميزهم عن غيرهم ومن هنا استنتجت
ان الانتقال في حالة المسكن هو أول شخوص المرء نحو الانتقال الى حالة
الاستقلال

دل كثير من الاقتصاديين وعلماء الاجتماع وعجبي الانسانية على أهمية
المسكن وفي مقدمتهم موسيو « لابلې » فانه كشف القناع عن تلك الأهمية
واستدل عليها بوقائع شتى . وكثيراً ما ذكر الباحثون من جملة أسباب تقدم
الانسان وارتقاء العائلة والهيئة الاجتماعية استقرار المسكن وكونه ملكاً
لساكنه وانتقاله كما هو من الوالد لبنيه والواقع ان هذه المزايا الثلاث من
أهم النظمات وقد تدل على درجة الأمة التي توفرت فيها من التقدم والترقي
الا انها لا تؤثر بشيء في انتقال الاتكالي الى استقلالي وأكبر برهان على
ذلك اننا نجد عند النشأتين على ما بينهما من الاختلاف مساكن مملوكة
لاهلها مستقرة بتوارثها اختلف عن السلف ووجود تلك المزايا عند الامتين
يدل على انها غير مؤثرة في تكوين النشأة الاجتماعية . وقد يتفق أن الاعتناء
بها يكون أشد عند بعض الامم الاتكالية منه عند بعض الامم الاستقلالية
فما لا شبهة فيه انه لا شيء في الوجود أثبت من مساكن فلاحى الروس
أو البلغاريين أو الصربيين فالمسكن الواحد ينتقل من الرجل لابنه ومن
العائلة الى التي خلفها عدة قرون وأجيال والمساكن في فرنسا أكثر استقراراً

في إقليم «أوفرنيا» و«وسيفين» و«بيرينيه» و«الب» و«بروتانيا» ومعلوم أن أهل تلك الاقليم هم أشد الناس محافظة على النشأة الانكليزية وربما كانوا أكثر من غيرهم اهتماماً بامتلاك المساكن والاعتناء بها واستبقائها خلفهم وليبان الفرق بين النشأتين من حيث المسكن يجب التمييز بين نظر كل واحدة منهما اليه . فالانكليزية تنظر الى المسكن من حيث هو وجود مادي والاستقلالية تنظر اليه من حيث هو أمر معنوي وهو تمييز لم يسبق لاحد الالتفات اليه وبدونه لا يمكن الوقوف على كيفية اعتبار المسكن عند كل واحدة من الهيئتين

يراد بالبيت عند الامم الانكليزية مجموع الاثاث والبناء والارض والناس من أهل وأحباب وجيران فالفكر متعلق على الدوام بالاشياء والناس والتعلق شديد لان من خصائص أهل الانكليزية ان يعتمدوا على الاشياء والناس أكثر من اعتمادهم على انفسهم ومن أقوال أهل «أوفرنيا» و«بيرنيه» «يجب أن يكون للبيت دخان» وهم في سبيل استبقاء دخانه يسترخصون كل ثمن فيرضى الاولاد الثواني بأقل من نصيبهم الشرعي ويعيش الاعمام والعمات غير متزوجين كي يتركوا للوارث الذي أوصى اليه المتوفى من السعة ما يمكنه من حفظ الفيض والدار وقد يكون لهم من ذلك ملجأ يستفيدون منه أحياناً . والخلاصة أن نظرهم الى البيت نظر الى المكان المخصوص . وهذا هو السر في صعوبة تركه والابتعاد عنه كان أصحابه قد التصقوا بارضه والتحقوا بحيطانه . وهو أيضاً السر في حب أهل الريف لبيت أجدادهم ودار أهلهم ورجبتهم الشديدة في صيانتها وتركها ارتالمن يأتي بعدهم . هذا

هو نظرم الى البيت من الجهات الثلاث استقراره وملكيته وتوارثه فهم يتعلقون به تعلق النبات المتسلق بالجدار العتيق وكأنهم مثله يرتكنون على ذلك الوجود المادى . ومع هذا فان أقوام النشأة الاتكالية يسكنون ذلك البيت الموروث الذى خلفه لهم الاجداد والآباء على أبسط ما يكون من الاحوال وما من شىء يستوقف التأمل مندهشاً في تلك البيوت أكثر من استقرارها وعدم الاستقرار فيها وأعنى بذلك كيفية سكنها التى تكاد أن تكون على الفطرة الاولى

اذا دخلت بيت ريفى من الروس أو البلغار أو أهل « اوفرنيا » أو « البرينيه » أو « بروتانيا » أو « بروقانص » وسألته عن أصله أجابك فى الغالب أن عائلته تسكنه جيلاً بعد جيل من قرون ماضية وعلمت من هذا أن البيت مستقر أى استقرار ورأيت به يحبه حباً لا مزيد عليه . ثم اذا نظرت الى كيف يسكنه رأيت به أشبه بعائلة ما كادت تفرغ من حط رحالها اذ يقع بصرك على أثاث قد أهمل شأنه وعلى مطبخ قذر ومخدع وسخ قل فيهما الضوء وقد تكون الغرفة الواحدة مطبخاً ومأكلاً ومناماً للعائلة كلها وقد يلاصقها الاصطبل فلا يفصل بينهما الا حاجز من الخشب تنبعث من خلاله الروائح الكريهة . هكذا تجد أولئك الذين أحبوا بيتهم ذلك الحب كأنهم لا يحبون أن يحسنوا سكنها . أولئك قوم لا يحبون البيت من حيث هو ولسكنهم يتعلقون به من حيث اعتمادهم عليه أو طلباً للسمعة أو تظاهراً وتفاخراً فيتباهون بكونهم من سلالة تلك العائلة التى تقادم عهد سكنها فى البلاد وظلت تملك العين الواحدة السنين الطوال ولها قرابة مع عائلة كذا

التي استقرت منذ القدم حيث تقيم . أولئك قوم لا يقتنون صندوقاً (دولاباً) لطيفاً يملأونه بأنواع الملابس الالامفاخرة وبيان أنهم في هنا، أمام محاورهم والاجانب عن بلدهم . هذا هو شغلهم الشاغل لآتحسين مسكنهم وتنظيم اقامتهم فيه والخلاصة أن الرجل الاتكالى يعيش خارج بيته أكثر مما يعيش فيه ويحبه للتظاهر لانفسه . ويكثر هذا الميل في العائلات المتوسطة التي تسكن المدن العظيمة وان كان روح الاستقرار في البيوت لم يعد له أثر فيها . وبيوت باريس الالاماشد كلها على نسق واحد كبيرة كثيرة الطبقات متعددة المساكن كالقصور العاليات اذ رأيتها من الخارج تتركب من خمس طبقات أو ست وواجهتها فسيحة ذات سبع نوافذاً وثمان حسبت العائلات التي تسكنها عرفت كيف تنعم ببيتها وانها بذلت النفيس حبا في المعيشة الداخلية معيشة العائلة . فاذا دخلت اليها والدخول مباح لكل وارد وجدت المساكن متعددة وكل عائلة تسكن طبقة منها وقد تأوى الطبقة الواحدة عائلات رضع بعضها على بعض . ثم اذا دخلت أحد المساكن رأيت أولاً قاعة الاستقبال وغرفة الطعام مزينتين زينة حسنة فسيحتين بالنسبة الى البقية ومطلتين على الطريق أما بقية الغرف ففي الجهة الخلفية وهي ضيقة جداً تطل على حوش كأنه في الغالب بئر لضيقه قليلة الضوء ولا يدخلها الهواء وتلك الغرف هي مقر العائلة ومخادع السكان . أما الغرف الامامية فانها اتخذت للزهر وللتباهي لا يدخلها الا الاجانب لأنها انما أعدت « للاستقبال » وعدم الاعتناء بالبيت عند أهل هذه النشأة عام بين الاواسط وأهل الارياف والاجراء

الأُنْ : الاهتمام بذلك هو أول شيء يلتفت اليه أهل النشأة الاستقلالية ذلك لأن الرجل منهم لا يعتمد على العائلة أو العشيقة أو العلاقات قلت أو كثرت وان شئت قل انه لا اعتماد له على وسط صناعي بل اعتماده على نفسه فهو يسكن البيت لنفسه وهو مقيم لانزبل ولا يعطى الحياة الخارجية الا يسيراً وكل الذى فى مكانه موجه الى حياته الداخلية فاليست عنده حصن استقلاله ويسميه اسماً لا يمكن التعبير عنه بغير لنته وقد أودعه روحه ووجوده وهو (هوم) بمعنى مأوى أو ملجأ ولهذا الاسم عند الانكليزى السكسونى معنى أكبر وابعد عن المادة من الاسم الفرنساوى (فوييه) أى بيت فهو يدل خصوصاً على الاقامة الداخلية والنظام الذى يستريح له الساكن كل يوم مما اختص به ذلك العنصر لافرق بين الاجير والريفى ومن فوفه من الطبقات الوسطى .

ولست أقصد الحكم على هذا التصور عندهم بل أريد أن أقف على حقيقته وأن أئينها للقراء كما هى لأن الامم أمتان مختلفتان تمشى كل واحدة منهما فى طريق يخالف سبيل الاخرى ومبدأ الخلف سكنى المنازل فن المفيد جداً تمام العلم بأول ما اختلفوا فيه

ويتجلى الفرق بينهما من حيث اعتبار المسكن بأمرين
الاول ان أهمية المسكن عندهم الاستقلال أقل منها عندهم الاتكال فالمسكن الغالب عند الاولى عبارة عن بيت صغير لا يحتوى من الغرف الا على ما يفي بسكنى عائلة عادية باولادها . ويتبع البيت فى الغالب بستان يختلف فى سمته على حسب درجة الساكن من الفنى وباعتبار سكنى الريف

أو المدينة . وهذه المساكن منشورة في جميع جهات الارياف الانكليزية ثم هي تكثر متقاربة في ضواحي المدن الكبيرة لأن الانكليزي المدني يميل كثيراً الى السكنى خارج الاسوار وهي المثال الغالب في داخل المدينة نفسها لأنها توافق ما يطلبه ذلك الجنس في البيت الذي يأوى اليه وهذا هو السبب في عظم المدن الانكليزية بالنظر الى عدد سكانها

وبخلاف ذلك نجد المسكن الغالب عند أمة الاتكال هو البيت العظيم ذو الغرف الفسيحة فليست هي مساكن اتخذ كل واحد منها لتأوى اليه عائلة على انفرادها بل دار كبيرة تسكنها عائلات عدة تقيم مع بعضها في عيشة واحدة . هكذا المساكن في ايطاليا ويوجد في مدننا الريفية كثير من تلك الدور الفسيحة التي أصبحت فيها العائلات بعد نقص عددها كالتأمة في انزواها وتلك هي القصور الفخيمة المشيدة في الارياف ولم من عائلات أدركها الفقر لكثرة انفاقها في حفظ تلك المباني اللهم الا التي فطنت الى الاقتصاد منها على ناحية تقيم فيها وتترك الباقي . ومن مقارنة هذه الدور العظيمة والقصور الشاحخة بتلك المنازل الانكليزية السكسونية تتبين لك احدى جهات الفرق العظيم بين النشأتين

الثاني ان العائلات الاستقلالية تنتقل من مسكن الى مسكن بسهولة أكثر من العائلات الاتكالية . قلت ان أهل الاتكال أشد التصاقاً بالمساكن الوراثية من غيرها فهي أبقى في المسكن اواحد لا استمدادها منه قسماً كبيراً من قوتها بل ربما كان جل اعتمادها على ذلك البناء المادى أما الاستقلالى فلا شيء أسهل عليه من الانتقال ومتى سنحت له الفرصة أسرع

لانتهازها لينتقل من حال الى أحسن منه وبدل مسكنه وقد يترك طرفامن الدنيا ليأوى الى الطرف الثاني لأن أنظاره متجهة على الدوام الى المستقبل لا الى الماضى ولأن اعتماده على نفسه لاعلى تقاليد أبويه ورسوم الاجداد وهذا الحال الذى نشأ فيه بحكم طبيعة أمته هو الذى جعله ينتكر ذلك الملجأ المختصر لأن الرجل أشد تعلقا ببيت كبير منه ببيت صغير فهو زبه لأسيره ولا هم له بالاحجار ولا تمسكه الاحجار . رب معترض يقول انها حال لا استقرار للمسكن فيها لكن هذا نظر الى ظواهر الامور فالاستقلالى مستقر فى مسكنه كالاتكالى سواء بسواء وانما الفرق فى الكيفيات ولتبينه يجب الالتفات الى ما قدمناه من التمييز بين المسكن الخارجى والاقامة الداخلية فالاستقرار عند الاتكالى راجع الى المسكن الخارجى وهو يرجع عند الاستقلالى الى الاقامة الداخلية وكأن الاول جندى لم يكد ينزل بمسكنه العتيق وكأن الاستقلالى وابطض منذ القدم والى ماشاء الله فى مسكنه الوقتى فهو يقيم حق الاقامة ولو الى بضعة أيام حتى فى الفندق - وقد اشهر أن الانكليز كانوا سبباً فى تحسين الفنادق الاوروية - ولو لم يكن مقيماً الا سويماً معدودة ولو فى السكة الحديدية ولذلك أعرف عنه انه رجل لا يعتمد مضايقة نفسه فى شىء والاستقرار عنده عبارة عن راحته وموجباتها وليس من ينكر ان موجبات الراحة ركن من أركان السكنى له من الاهمية ماللا سوار والجدران وانها تؤثر على الانسان وحياته اليومية وانها تفعل فى وجوده الذاتى ووجوده فى أمتة أكثر من غيرها

نتج من هذا ان الاستقرار فى المسكن مادى ومعنوى والثانى أهم

وهو البحث الذي بقى علينا أن نبينه

أما كون الثاني أهم فذلك حاصل بالضرورة لان تحسين السكنى واتقان نظامها أول حركة يشاهدها الانسان في الذين شخصنوا الى الانتقال من حالة الانتكال الى حالة الاستقلال غير انه لما كان سبب ذلك غامضاً لا يبدو لأول نظرة وجب علينا أن نوضحه

انى أرى لسكيفية السكنى المذكورة ثلاث نتائج في الاجتماع وان تلك النتائج تؤدي الى تحويل الافراد وجعلهم استقلاليين
الأولى طريقة السكن المذكورة تقوى في الانسان شعوره بمرته واستقلاله

تخيل أيها القارىء ما استطعت مساكن الارانديين الرديئة التي وصفناها لك أو منازل الفعلة في مدننا وريفنا مما لا يقل عن تلك رداة وقبحا وليحضرك بعض أولئك السكان الذين عرفتهم تمام المعرفة ثم فكر في قوم شبوا منذ طفوليتهم في ذلك الوسط وعاشوا دائماً في ذلك البيت الذى هو عبارة عن حجر متوحش دخله شيء من التحسين لاشك انك تقتنع بانه وسط لا يقوى عند من تربى فيه حاسة العزة والاستقلال . قالوا ليس المرء بطليسانه ونحن نرى ان للتليسان شأناً فوق ما يظنون فكم من رجل لا قيمة له الا بلباسه الذى يرتديه . هذا شعار قاضى يحكم بين الناس وذاك زى الجندي وآخر وسام كذا وتلك الشارات كذا ولها كلها تأثير كبير في عقول الناس وقد تحمل الكثيرين على النظر الى أنفسهم بعين الرفة والاعتبار فينبغي أن لا يهمل ما تحدثه الظواهر من التأثير

وأهم تلك الظواهر تأثيراً هو البيت لأنه يستولى على الانسان وهو في عيشته الذاتية وحياته الشخصية ولأنه ثابت مستمر في كل يوم ولا شبهة في ان العامل الذي زرت مسكنه في «هوتردين» والصانع الميخانيكي الذي تناولت عنده الشاي في «بنكويك» كانا شاعرين بتأثير مساكنهما عليهما مباشرة وبما فيهما من النظام وحسن الترتيب وكانا بذلك يريان نفسيهما أرقى وارفع من غيرهما وكانا ييزان تمام التمييز ما هما فيه من رفعة النفس والاستقلال وكان الواحد منهما اذا دخل بيته يحس من نفسه أنه انسان شاعر بكرامته كما يقول الانكليز. والرجل اذا عرف من نفسه الكرامة يكون ميالاً الى الزيادة فيها لأنه يكون قد اجتاز العقبة الأولى في سبيل الارتقاء وهي الخطوة الأولى

الثانية طريقة السكنى المذكورة تهيء المرء الى العمل وتقويه على الكد والاجتهاد

ان الامم التي اعتادت على المعيشة البسيطة والسكنى الساذجة تكتفى بالقليل ولا تلد الا افراداً يقفون عند الكسب اليسير فاطماعتهم محدودة وبالقليل يقنعون. وترى الواحد منهم يمشى راضياً متى حصل ما يخرج به عن درجة الخمول والانزواء لكن ليس الحال كذلك عند الامم الأخرى فالعيشة الانيقة والسكن المنظم يقتضيان الكد ويساعدان عليه خصوصاً اذا كان الرجل يعمل لينال الفائدة العاجلة المحسوسة. ولقد يحضرتني ذلك الصانع الميخانيكي في «بنكويك» وهو يطلب اقتناء اثاث قاعة طعامه أو آلة طربه «بيانو» أو بساطه الكبير الذي تحلت به غرفة استقباله فراه

يزيد في همته تحت تأثير ما توجهت اليه رغبته ويتفنن في أساليب العمل بما يسهل لاستزادة راتبه . ومالوف العملة الذين يحضرون دروس جمعية توسيع نطاق التعليم في انكلترا والولايات المتحدة بثمن يدفعونه من كسبهم الا أمثلة حية تدل على ذلك الميل نحو السكد والعمل فهم لا يجمعون أمام ذلك الاشتغال الزائد على ماعم فيه لطمعهم في نوال حال أحسن وعيشة أرضى رب قائل يقول ان روح الاقتصاد الذي امتاز به الكثير من عمالنا هو أيضا من موجبات الحث على العمل والاجتهاد وهو مسلم الا أنه باعث أقل عزيمة وأصغر تأثيراً لأن الرجل الذي يدخر لاولاده يعمل لاجل بعيد ولنيره وذلك الغير لا يجني ثمرة العمل الا بعد وفاة صاحبه ولا يقدم على ذلك الا من بلغت الشجاعة من نفسه حد الاستقلال وتلك فضيلة قلما توجد بين الناس فان أدخر الرجل لنفسه كي يشتغل مادخر أدركه الملل سريعاً خصوصاً اذا كان من العمال بما يتصوره من جسامه ما يجب ادخاره حتى يزيد في ايراده زيادة محسوسة فكم من الايام ينبغي له أن يعمل ليكفر مائة من الفرنكات على أن ذلك المبلغ لا يفيد من الربح الا ثلاثة فرنكات في السنة وهي نتيجة تظهر أمام عينيه صغيرة بعيدة الامد ويراها لا تساوي المتاعب التي تبذل في سبيلها . أنظر الى المنظمات التي تخترع كل يوم لانماء حركة الاقتصاد عند الفعلة وتأمل كيف أن الربح منها يسير وانظر الى الفاعل الانكليزي السكسوني نره يدخر في تنظيم بيته وتوفير موجبات الراحة فيه مالا أكثر كثيراً من دون أن يستعين بالحكومة أو يكون له من احتفائها به باعث أو مشجع . لا تقل ان ذلك مال مصروف لامدخر

لانه وان صرف فليس بضائع سدى وانما هو يستغل بربح جزيل لا يقدر بثلاثة في المائة بل بمائة في المائة لكونه يستعمل في زيادة القوة على العمل .
 ألا ترى أن ذلك الصانع الذي اشترى اثاث غرفة الطعام أو آلة الطرب أو البساط يتمتع بما اقتنى من ساعته وكل يوم . ثم قرب بين تمتع رجلين اقتصد أحدهما مائة من الفرنكات ولا يربح الا ثلاثة في كل عام واقتصد الآخر مثلها فاقتنى بها مائات نفسه اليه ليجعل بيته محبوبا لديه وليتمتع به في كل حين . ذلك فرق عظيم . ذلك فوز يشجعه الى كد جديد ليسكن بيتا أوسع وللراحة ادعى أو ليزيد في نظام مسكنه وتجميله وهو كلما حسن في مسكنه دب وراء تحسين جديد أرفع ذوقا وأحكم صنعا وأصبح يتأثق في الرغائب وهي تزداد في كل حين ولا سبيل له في ارضائها الا بعمله فيعمل بجد يترقى . ولما كانت القدرة على الجد المتناهي من خصائص رجل الاستقلال وهي التي تميزه عن رجل الاتكال كان هذا الذي شرحنا حاله يتقدم نحو النشأة الاستقلالية وثبت أن طريقة السكنى هي أول بادرة من بوادر الترقى المذكور

الثالثة طريقة السكنى المذكورة تهيء الرجل الى أن يصير مهنبا انى استلقت القراء بنوع خاص الى هذه النتيجة الثالثة لأنها أهم في تمييز النشأة الاستقلالية والتفريق بينها وبين النشأة الاتكالية ولم يبدأ بذكرها لأن تقريرها كان متوقفاً على ما تقدم من الكلام في ملجأ الانكليز السكسونى

من لوازم النشأة الاتكالية وجود طبقات في الامة تمتاز كل واحدة

منها على البقية امتياز تاماً. ومن الصعب أن ينتقل الانسان في تلك الامم من مرتبة وضيعة الى ارفع منها فلا يسهل على الاجير أن يصل الى درجة الاواسط واذا وصل اليها بما كسب من المال فإنه يبقى أجيراً في ازيائه وعادته واذواقه وكيفية معيشة فهو لا يترفع بالسهولة ولا يترقق بالسهولة. والسر في هذا ان ارتقاه مسبب عن اقتصاده وقد بينت فيما سبق علة هذا الاقتصاد وزد عليه أن الاقتصاد لا يتأتى الا لمن يعيش في مسكنه عيشة ضيقة يحرم فيها نفسه من كل شيء فيقتصد من مسكنه ويقتر في ملبسه ويقلل من أثاث بيته وينقص من مصرف رياضة والذي يحرز الثروة عاجلاً هو الذي يقتصد كثيراً أي يعيش حقيراً ومتى وصل الى الثروة رأيته استمر على العيشة حقيراً لان العادة صارت حاجة بل أقول صارت مطلباً

رأيت في الاقاليم رجلاً يمثل هؤلاء القوم بدأ منذ أربعين عاماً بصنعة يباع متحوط وكان يبيع السياط وما يتعلق بالسروجية على عربة يدينتقل بها من قرية الى أخرى فلما اجتمع في يده مبلغ من المال اشترى مسبكا صغيراً يدار بقوة الماء وجعل يصنع بنفسه اللجم والمشابك وجميع الانواع التي تصنع من الحديد أو ماشابه للسروج. وقد عرفته في آخر حياته فوجدت عنده أربعين صانعاً واشترى من الاطيان ما يبلغ مائة هيكتولتر وثلاثة بيوت أو أربعة في القرى المجاورة لمسكنه وصار لديه مال عظيم لادارة حركة المسبك. وقد توفي قريباً وتبعته زوجته ولم يتركها عقباً وقدرن ثروته بأربعمائة أو خمسمائة الف فرنك قسمت بين أبناء اخوته. وعاش هذا

الرجل الى آخر يوم من حياته كالأجراء (تلك طريقة منبلى في استعمال الثروة والمال) فبقى على لهجتهم في الكلام وازيائهم وهيتهم وكان في الاصل ذا لهجة عامية، وزى وضع وهيتة رثة ولا أقول أكثر مما ذكر . شاهده مراراً يردد بنفسه بعض المصنوعات في مسبكه كأجير بسيط استخدم ليدير آلة من الآلات . وعليه فقد بلغ هذا الرجل ما بلغ من الثروة والغنى ولكنه لم يرتق في طبقات الاجتماع . وما سبب عدم ارتقائه الا أنه لم يتعود في بيت أبيه منذ الصغر على هيئة حسنة ولم يعرف نظام المعيشة وموجبات الراحة في السكنى وما يتبع ذلك من لطف الشرائع وظرف الأزياء

يوجد بين الاهالى في فرنسا قوم لهم استعداد كبير للتجارة وهم أهل (أوفرينا) كما أن لهم تفنناً عظيماً في الاقتصاد ولست أتعرض لبيان السبب في هذا الاستعداد ولكنى أكتفى بالدلالة عليه . والرجل منهم قد يبلغ درجة معتبرة من الثروة ولكنه لا يخرج عن حالة التاجر الصغير ولا يتخلى عن عاداته وما ألف بل يبقى على عادات فلاحي بلده وهى لا تستحسن من حيث الهيئة أو النظافة أو الأزياء . وكل من زار تلك البلاد يعلم ما تقول وأنه ليس في الوجود أقرب الى الطبيعة من مساكن فلاحي (أوفرينا) ولا أقدر منها ولا أزال أذكر ما قاسيته مع موسيو (روسيه) من الصعوبات في تناول الطعام بعض مررات بتلك البلاد وما كان يقوم بنفوسنا من الاشمزاز مما هو طبيعي عند رجل ذاق للتمدن طعاما واننا ما تغلبنا على أنفسنا الا بشدة رغبتنا في استطلاع أحوال أولئك القوم ومعرفة كيف يعيشون

نشأة الناس في تلك البيوت هي التي تعطل صفاتهم في التجارة وتعوقهم عن الارتقاء أديا بين الذين يخالطونهم مع ما هم عليه من القناعة والتعود على الاقتصاد والتوفير . وهذه الحال ظاهرة في وصف البياع الشراء الاو فرني في باريس « راجع كتاب الصناع في الدنيون جزء رابع صحيفة ٣١١ و ٣١٢ » حيث جاء فيه « تنقسم تلك الفئة الى قسمين أهل أوفرنا وأهل نورمانديه وكلاهما قنوع ميال الى الاقتصاد يهرب من مخالطة العملة الباريسيين خشية من كثرة انفاقهم « مأجل » ويشترى الاو فرني للملابس البالية وبالاخص القبعات والاحذية التي لم تعد صالحة للاستعمال ولكنه غير ماهر في ذلك كزاحه لذلك يتخوف منه على الدوام اذا اجتمع الاثنان في بيت لمساومة مبيع ما فترى الناس يركنون الى النورماندى بما امتاز به على رفيقه من الموادعة والاذب وهو أحسن منه لباسا وأعذب منه لسانا وبمهارة يتغلب على صاحبه في جميع الاحوال على التقريب ومن أجل ذلك يترك الاو فرني مع ما اخص به من الثبات والمقاومة الاتجار في الملابس المتيقة على كثرة ربحه منها الى مزاحه النورماندى ليشغل في الخرق البالية والحدائد المتيقة والعظام وجلود الارانب »

ويعرف القارىء مما تقدم كيف أن التربية الخشنة الناتجة عن حالة سكنى البيت تمنع الاو فرني من الارتقاء حتى في تجارة لا تقتضى تربية عالية . ولا شك في أنهم لو حسنوا سكنهم لاستفادوا مما يصرفون في هذا السبيل ربما جزيلاً وذلك الربح هو الذى يستفيد منه الانكليزى السكسونى من تنظيم ملجأه

ولترجع الى عمال ضواحي ايدنبورج فهم تربوا ويربون اولادهم في ملجأ يعودهم على شىء من التحسين في السكنى وان كان بيتا صغيراً كما يعودهم على لباس مخصوص ولهجة مخصوصة وشماثل مخصوصة فيصرون بذلك مترفين ومستعدين لأن يترفوا ان لم يكونوا كذلك من قبل فاذا سنحت لهم فرصة ارتقاء - وقدرتهم على العمل مما يخلقها - رأيتهم ينتهزونها ويجدون من حلهم الشخصى ما يجعلهم جديرين بها اذ ليس فيهم ما يمنع من نوال ذاك الارتقاء . والخلاصة ان نظام البيت عندهم حتى بيوت الاجراء يحمل الافراد قابلين لأن يصيروا من طبقة المهذبن فلا يظهر عليهم في المراتب التى يرتقون اليها انهم ليسوا من أهلها

هذا وانى أجد من نفسى دافعا الى القول بأن النشأة الاستقلالية لاتلد طبقة دينثة ورائية كما هو الحال عند أهل النشأة الاتكالية اذ المشاهدة ظاهرة الوضوح والوقائع التى تحضر الذاكرة تؤدى الى تلك النتيجة وتبرزها فى صورة قاعدة عمومية ومن أجل هذا أصبح أهل النشأة الاولى فى مقدمة المتقدمين نحو حل المسألة الاجتماعية وعلى الخصوص مسألة الاجراء وانى أكتفى بإيراد ثلاثة مشاهدات للدلالة على قابلية تلك الامم للترقى

الاولى قلة عدد الخدام من الانكليز السكسونيين . فعالب الخدم فى انكلترا وفى الولايات المتحدة اما سلتيون أصلاً أو جرمانيون أو لاتينيون ولا تجد خدما من الجنس الانكليزى السكسونى الا من نوع مخصوص كالزبيات اللاتى هن طبقة أرقى من الخدم الاعتياديين وكالخدومات موقتاً وهن بنات الفعلة اللاتى يخدمن وقتاً محدوداً ليتعلمن بين قوم أرفع منهن رتبة

كيفية ادارة البيت قبل أن يتزوجن

الثانية وجود تلك الآلاف المؤلفة من الفعلة الذين مارسوا العمل بأيديهم وارتقوا بكدمهم الى أرفع المقامات من غير أن يكونوا فيها خارجين عن صفها بل لافرق بينهم وبين المهذيين من أهل الطبقة التي وصلوا اليها وهذا أمر معروف ومشهور وقد تكلمنا عنه في مجلة العلم الاجتماعى عند ذكر رؤساء أحزاب الفعلة الذين أصلهم منهم فاصبحوا اليوم متربعين في مجلس النواب « مجلة كتوبر سنة ١٨٩٣ وديسمبر سنة ١٨٩٤ ويوليو ونوفبر سنة ١٨٩٥ »

كان موسيو كليفند رئيس جمهورية الولايات المتحدة صبياً عند أحد البقالين بوظيفة ساع يقضى الطلبات من الخارج وكان يكس المكان ويكسر الخشب ويوقد النار : وكان اللورد جلاسكو حكمدار بلاد زيلندا الجديدة صبي نوتى في أحد المراكب منذ كان عمره ثلاث عشرة سنة كذلك كان فرنكلان الذى طار صيته في الآفاق فاعلا . وليس في ارتقائهم من ذلك الحضيض الى هذا النعيم ما يستوجب العجب ولكن الذى يندعش له الانسان هو كثرة عدد الواصلين وان أصلهم الصغير لم يترك فيهم أثراً من الآثار التى نشاهدها في قومنا الذين يرتقون . قلت ان هذه مشاهدة غريبة وأنا أحيى كل انسان يعملها بغير طريقة الانكليزى السكسونى الاجير فى السكى

الثالثة وهى مهمة فى بابها من المعلوم انه يوجد من قطارات السكك الحديدية ببلاد الانكليز عدد كبير ليس فيه عربات للدرجة الثانية لأن

الناس أهملوها ومن جهة ثانية أرى الاحصائيات تدل على أن عدد مسافري الدرجة الاولى في تلك البلاد أقل من مثله في أوروبا وبينما أنا أكتب هذه السطور علمت أن إحدى شركات السكك الحديدية الانكليزية عرضت الغاء الدرجة الاولى وأن اللجنة التي تشكلت للنظر في طلبها وافقت عليه محتجة بقلة عدد مسافريها واستدلوا على رأيهم بأن الدوق « كامبرلان » صهر الملكة يسافر دائما في الدرجة الثالثة ولا يجوز أن يكون السبب في ذلك محبة الاقتصاد إذ المعروف عن الانكليز والامريكانين انهم يتوسعون في عيشتهم. وعلى العكس من ذلك نجد عدد السواح من الفرنسيين في الدرجة الاولى كبيرا مع أن ثروتهم أقل وميلهم الى الاقتصاد أشد. وجب اذن أن نبحث عن علة أخرى ولا أراها الا كيفية معيشة الطبقة الاخيرة من أمة الانكليز السكسونيين وهيئتهم وزبيهم. فنحن نتأفف من السفر مع رجل ذي هيئة رثة وعوائد منحطة خشنة ولكن هذا التأفف ضعيف عند الانكليز السكسونيين لارتقاء الطبقة السفلى بينهم ارتقاء محسوسا ومن أقطع الادلة على ذلك ان شركات السكك الحديدية وصلت في تحسين ادارة أحوالها الى ايجاد تذاكر مشتركة للقاصدين انكثرا تبيع للمسافر أن يركب الدرجة الثانية مادام سائرا في البلاد الفرنسية فاذا بدأ السير في البلاد الانكليزية انتقل الى الدرجة الثالثة. وليلاحظ ان الانكليز باستعمالهم الدرجة الثالثة لم ينسوا موجبات راحتهم ومن أجل ذلك قد جعلت الشركات التي تلاحظ رغبات الناس عربات الدرجة الثالثة اكمل نظاما وأتم ترتيبا من عربات الدرجة الثانية عندنا وربما صارت درجتنا الاولى زخرفا وحسنا في بعض

الفروع أما الاعتناء بها فيفوق الاعتناء بغيرها
 وحينئذ يمكننا أن نستخلص مما تقدم أن حسن السكنى واستيفاء
 موجبات الراحة في البيوت مما يجعل الطبقات النازلة في الامة أهلا لبلوغ
 أعلى المراتب بحيث لا يرى انهم دخلاء فيها بما يلوح عليهم من الشوائب والازياء
 وذلك يؤدي على الدوام الى محو الطبقة السافلة الوراثة في الامة التي هي داء
 الامم الاتكالية العظيمة

ليست المسئلة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما أن مسئلة
 الحياة لا تقوم بكثرة تناول الادواء والمقاير . اذ ليست المساعدة أو العقاير
 من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا ما أدت الى الاستغناء عن
 تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسئلة الاجتماعية الا جعل الافراد
 بحيث يستطيع كل واحد منهم أن يقوم باود نفسه وأن يرتقى بجده وعمله
 لأن سلامة الاجتماع كالسلامة الاخروية كما قدمنا تقوم بكل واحد على
 حده وعلى كل واحد أن يسعى اليها . وقولى هذا لا يروق في أعين الذين
 اتخذوا السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الامة وضعف
 مدارك الطبقات النازلة وكانت فائدتهم في بقاء الناس دائما على حالة
 يشبهون فيها القصر حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء . غير أن العلم
 لا يلتفت الى مثل تلك الملاحظات بل انه يجملها ويسلك الطريق الذي تدل
 المشاهدات عليه

علمنا أن قابليه الترفى تنمو أولا بتحسين المسكن عند أجناس الامم
 الاتكالية اذا اختلطت بالامم الاستقلالية وظاهر ان هذا الاختلاط مفقود

عندنا الا انه ليس من المستحيل أن يستعاض عنه بمعرفة حقائق الاحوال كما ينبغي . فالمعارف توصلنا الى أن نعمل بغير اختلاط مانقله بلا تأمل بل لمجرد الاحتكاك نخبه العملة الايقوسيين أو الارلنديين في انكسار ومانقله كذلك نخبة المهاجرين من أوروبا القديمة الى الولايات المتحدة بأمریکا

على الطبقات الوسطى منا أن تبدأ بهذا الترقى بنفسها لنفسها فهي الآن تجرد نفسها كثيراً وتنفق المال الجزيل لتعيش خارج البيت ولتكثر من علاقاتها مع المتطرفين والاصحاب العاديين وتكره الاقامة في الارياف كرهاً شديداً لأن العلاقات والمعيشة الخارجة عن البيت هناك أصعب وتعنى في بيتها بفرش القسم المخصص للاستقبال بالاثاث الفاخر والزخارف وتعد من الفضلات تنظيم القسم المخصص لمعيشة العائلة نفسها وتوفير موجبات الراحة فيه . وهي بذلك تجعل البيت ثقيلاً عليها وعلى أبنائها فلا تخصص لهم غرفة يشعرون باجتماعهم فيها انهم في بيتهم حقيقة ويتعلمون من صغرهم طرفاً من الاستقلال . ألا ان الاطفال هم ضحايا البيوت في فرنسا . والواقع أن بيوتنا أعدت الأجنب لا لأنفسنا وهذا هو الذي يجب تغييره ليرجع المرء الى المعيشة الخصوصية فيقيم فيها كمن يحتل حصناً منيعاً ويجعلها بحيث تميل اليها النفس ميلاً كلياً ففي الحياة الشخصية قوة عظيمة لكنها مجهولة ولا سبيل الى الارتقاء لقوم لا يعرفون حقيقة ما ذكر

لكن اذا تيسر لطبقتنا الوسطى أن تخطو هذه الخطوة وذلك ممكن اذا أرادت وليس على كل واحد من أفرادها الا أن يقدم على العمل لنفسه فالأمر متعذر على طبقة العملة لاستحالة انها تعمل بنور العلم وحده ولأن

الغاية المقصودة بميدة عنها بعداً عظيماً ولأنه لا مساعد لها من الاحتكاك لعدم وجوده فهي محتاجة لمن يعينها

هنا أوجه الخطاب على الاخص الى الذين جعلوا من همهم السعى في ايجاد الوسائل لاعانة المحتاجين وهم في الغالب يساعدون العامل ويتكفون حمايته وجب ذلك أو لم يجب ولا يحصلون من اتعابهم الا فوائد قليلة فضلاً عما يلحق بالعملة من أضعاف قابليتهم الى الارتقاء بأنفسهم . وكل مساعدة لا يكون الغرض منها جعل المساعدة نفسها فضلة أى اعداد الناس لمساعدة أنفسهم بأنفسهم قد تصير مصيبة عظمى واللازم هو مساعدة تلك الطبقة على الارتقاء بنفسها باعانتها على تحسين مساكنها وتنظيم المعيشة الشخصية أنى الأخط الآن بكمال العناية مشروعاً بدأ بتنفيذه أحد أصدقائى .

ذلك أنه يوجد على مقربة من أملاكه معمل صغير يشتغل فيه نيف وخمسون عاملاً تتألف منهم عشرون عائلة ساكنة بجوار ذلك المعمل فى بيوت أعطيت لهم بأجرة سنوية ما بين خمسين فرنكاً وستين وهى فى الواقع لا تساوى أكثر من هذه القيمة لأنها عبارة عن عيش أو أكواخ أبوابها وشبابيكها لا تقفل متى فتحت مما يجعل سكانها لا تطلق فى زمن الشتاء وهى على الدوام تقصى الناظر إليها بماعلاها من الاوساخ التى تفوق الوصف ولا أذكر شيئاً عن أثارها فانه دون ما يتصور العقل بساطة وعلى حال لا يمكن نعتها أبداً ومن تمام الشقاء أن قسماً من تلك العائلات ينهك فى المسكرات كما يحصل ذلك غالباً . تلك هى المادة التى اشتغل صاحبى بالمعمل فيها وظاهر انها من أحسن الموضوعات فى بحثنا وأنها تجعل المعمل من أهم

ما يلتفت اليه ولجأورة صاحبنا لاؤلئك القوم وتفرغه الناشء عن الإقامة في الريف سهل الاجتماع بينه وبينهم وبدأ الاختلاط اذ جاءوه يطلبون منه دواء لأبنائهم أو لبعض المرضى فتمكنت زوجته بذلك من الدخول في تلك المساكن حيث قوبلت بالشكر والامتنان وعادت متشعرة من تعاسة ما هم فيه وعلى الخصوص من اهمال الاطفال وعدم الاعتناء الكلى بما احتاجوا اليه من الاوليات كالنظافة ومراعاة الصحة وكان من أول احتفائها بهم ان وزعت عليهم الملابس على شرط الاعتناء بها وأن ينظف الاطفال وتمشط شعورهم في كل يوم. ثم جعلت لهم في أزمان معلومة طعاماً خفيفاً وقت العصر يجتمع حوله أبناء العملة كلهم واشترطت أن لا يحضره الا من حسنت هيئته وبذلك ازداد الاجتماع بين الفريقين وتم تنفيذ هذا القسم من مشروع صاحبنا على ما ينبغي وكانت هذه أول خطوة نحو الغرض المقصود ولم تكن حالة ماحول المساكن بأحسن مما شرعنا عنها فاذا أمطرت السماء رذاذاً اخترقت المياه الطريق فصار وحلاً وهو مرمي الاقدار على الدوام وأؤكد أنه كان يحتوي على كل صنف من أوساخ أخس الأذميين. ولم يمض شهر الا وقد أصحح الطريق وفرش بالحجارة وارتفع عن مستوى الارض واتخذ علي جانبيه قناتان لتصريف المياه وزرع صاحبنا في مدخله أمام المساكن صنفاً من الاشجار النظرة ذات الازهار فكانت تلك الاشجار أشبه بدرس في الاشياء لدلالته على أنه يجب الاعتناء أيضاً بما حول المساكن كالاكتناء بها ودلالته أشد فعلاً في النفوس من القاء النصح والارشاد. ويظهر أن أولئك المساكن ادر كوا هذه الحاجة فتمهد كثيرون منهم بسقيا

الاشجار والاعتناء بها . نعم ذلك شيء يسير الا أنه جعل فيهم همة وهياهم عملا يرتاحون اليه وهي فائدة كبرى . بقى الهجوم على أحجار الوحوش التي يأوى اليها أولئك التعساء لجعلها بيوتاً محترمة وترتيبها بحيث تنمى في النفس قيمة الانسان وتنبه بكرامة المسكن الذي يتمكن صاحبه من الارتياح به والراحة فيه حتى تنبعث الهمة الى ترتيبه وتجميله وهنأعمل الصعوبة كما لا يخفى .

ولحسن الحظ حدث أن مدير المعمل تغير بمدير جديد ومن رأى هذا الاخير اصلاح تلك المساكن وستكون هذه فرصة مناسبة تتيح لصاحبنا أن يجعل أولئك السكان على تحسين مساكنهم . وقد وعد بأنه يراقب ذلك ويتبع حالة العملة المذكورين في التغيير والترقي ويساعدهم عليه جهده ويسطر النتيجة التي يصل اليها . ولا يتيسر للانسان أن يقف على مجرى الاحوال كما ينبغي الا اذا انحصرت في دائرة صغيرة تسهل مشاهدتها

ربما يخاطر بالبال أن أكبر عائق في ترقى العملة من حالتهم الى أحسن منها قلة ذات بدم الا أن المشاهدات لا تؤيد هذا الظن لأنه يوجد بين العائلات التي تشتغل في ذلك المعمل واحدة يرى انها أشد هم بؤساً فسكنها اسحق المساكن وأبناؤها الستة أتمسهم حالا وهي مفلسة على الدوام لا تفتأ تطلب من المدير مقدماً جزءاً من أجرها وقد أثقلتها الديون وحجز على قسم من استحقاقها . ومما يدل على ماهي فيه من الشدة ان المرأة اشتغلت يوماً في بيت صاحبنا في نظير فرنكين فطلبتهما قبل أن تغادر البيت وقالت انها لا تملك فلساً واحداً تفتت به وزوجها وأولادها . فخاطبة مثل هؤلاء القوم في تحسين مساكنهم تظهر بادية بدء كأنها سخرية واستهزاء اذ هم

لا يكادون يحصلون قوت يومهم
 لكن أنظر اذن الى الراتب الشهرى الذى تأخذه تلك العائلة كما هو
 ثابت فى دفتر المعمل

فرنك

٩٠

أجرة الرجل

٦٠

« المرأة »

٧٠

« الولد البكر وعمره ١٩ سنة »

٣٠

« البنت البكرية وعمرها ١٨ سنة »

المجموع ٢٥٠

فيؤخذ من هذا أن تلك العائلة التى تتألف من ثمانية أشخاص أربعة منهم
 قادرون على العمل تعيش تعيشة فى بلاد الريف بأجرة قدرها ثلاثة آلاف من
 الفرنكات فى السنة وهى لا تدفع مع ذلك الا خمسين فرنكا أجرة مسكنها
 وهو منزل وبستان يمكنها أن تزرع الخضر فيه . ومما يستغرب له الانسان فى
 فقر تلك العائلة المدقع انها لم تخل يوماً واحداً عن العمل ومضى عليها خمس
 عشرة سنة تقريباً وهى فى خدمة ذلك المعمل نعم زاد حملها بكثرة أولادها
 الا أن أجرها زاد أيضاً على هذه النسبة

ولبيان العلة الحقيقية فى حالة تلك العائلة ينبغى أن نسلم بأن تلك المسألة
 الاجتماعية ليست منحصرة فى أجور الفعلة كما يذهب اليه السواد الاعظم
 بل راجعة أيضاً الى سير الافراد وأخلاقهم . وربما عنيت بهذا الموضوع
 يوماً ما . اذ لو كان الامر دائراً على الاجرة لزال الاشكال وانجلي المعنى بما

نراه من حال تلك العائلة لكنه ليس كذلك وإنما السبب في تعاسة أولئك القوة وانتشابه غالب الفقر فيهم هو سوء سيرهم وانكافهم على المسكرات اذ هي منتشرة بينهم أكثر مما يظن وفي ميزانية الفعلة خروق تذهب منها الاجور كما هي في ميزانية الاواسط من الناس

يعيش الرجل الوسط معيشة ضيقة ليمكن من ارضاء شهواته فيما يتعلق بملبسه واعداد بيته للاستقبال أو ليدخر المال لبنية والفاعل يعيش مقترأ ليتأتى له الصرف في أمور غير مفيدة أو هزئية أو ممقوتة والذي يموزهما معاً إنما هو حسن السير والنظام لاقلة المال . وأعظم طرق استعمال المال فائدة هو اتخاذ مسكن مقبول توفرت فيه أسباب الراحة على قدر الامكان وكل الذي قدمناه راجع الى بيان ذلك . والصرف في هذا السبيل هو في الواقع استغلال بربح عظيم لأنه فضلا عن كونه يثني صاحبه عن الصرف في أمور كثيرة لافائدة منها فهو ينمي فيه شعوره بمكانته وباستقلاله وميله الى العمل واستعداده الى الارتقاء

كل من توفرت فيه هذه الصفات الاساسية يكون قد توصل بالنظر لذاته الى حل المسئلة الاجتماعية وصار مال كالفنسه مستقلا عن الآخري



الباب الثالث

﴿ الفرنسيساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية ﴾

يوجد بين الفرنسيساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية من الفرق ماشاهدناه بينهما فى المدرسة وفى المعيشة الخصوصية وقد خصصنا الابحاث الآتية لبيان ذلك وأظن اننا نكون حينئذ قد أتينا على ذكر أهم الاسباب التى تجعل الانكليزى السكسونى فى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية أرقى من غيره ارتقاءً يمكنه من النصر فى التزاحم فى الحياة وتكون أيضاً بينا السبيل الذى يجب علينا أن نسير فيه لى تقاوم انتشار ذلك الجنس الذى يهدد العالم بأسره

الفصل الأول

« أهل السياسة فى فرنسا وفى انكلترا »

إذا أخذنا بالظواهر رأينا المجالس النظامية التشريعية واحدة عند جميع الأمم الا اختلافاً يسيراً فالنتفرج الذى يشاهد مجالس النواب فى المانيا وانكلترا وايطاليا وفرنسا يتأثر تأثراً واحداً تقريباً وإذا حكم بمقتضى هذا الشعور قضى بأن حكومات تلك البلاد متشابهة وان نظام مجالسها النيابية يكاد أن يكون

واحداً وان الخلف ناشئ، على الخصوص من جهة تكوين الاحزاب وعدد رجال كل واحد منها

(هذا مظهر ولكن بقي ما استتر) كما يقول (باستيا) وما استتره هو الذي يهمننا كشف القناع منه

ان الذي احتجب عن الابصار لأنه ليس مما يدرك بالاعين عادة هو طبقات الهيئة الاجتماعية التي ينتخب منها النائبون عن الأمم ونسبة عدد المنتخبين من كل طبقة وطائفة الى الآخرين . ولا شك في أن هذا البحث يؤدي الى معلومات مهمة في موضوعنا فن البديهي أن صناعة الرجل التي احترف بها تأثيراً في أفكاره وقابليته لهذا العمل دون ذلك وفي كيفية نظره في الامور والاحوال . ولكل طبقة من الزراعة والتجار وأهل الصناعة والاطباء والمحامين والجند والموظفين نشأة خاصة بها وكلهم لا يرون الشيء الواحد من الجهة الواحدة وكلهم لا ينوبون عن المنافع بعينها . ثم أن تلك المنافع ليست متساوية من حيث ضرورتها في الامة بل بعضها أهم من البعض وعلى كل حال فانها ليست معتبرة بدرجة واحدة عند الناس وقد تختلف بل ربما تعارضت

نتج من هذا أن عناصر النياية الملية تتغير تغيراً عظيماً تبعاً لحالة الامة وباعتبار أن أهل هذه الطائفة أهم من أهل تلك وأرفع قدراً أو أشد بأساً . وينتج من ذلك أيضاً أن المجالس النيايية لا تبقى على حال واحد في أعمالها ونظرها في مصالح الامة بل تتغير نزعاتها وتختلف آراؤها تبعاً لرأي الفريق الذي يسود على البقية من أعضائها

ولنبين ما نقول ببيان كيفية تشكيل مجلس النواب عندنا
ولا ينبغي عن ذهن القراء اني ما وصلت الى معرفة عناصر ذلك
المجلس الا بعد الجهد والعناء اذ لم يسبقني أحد لذلك البيان فأجأتني ضرورة
البحث الى النظر في ماضى كل نائب على حدته ومعرفة ما امتاز به عن اخوانه
وتقسيمهم جميعاً بحسب صنائعهم وحر فهم
وقبل أن نورد ذلك التقسيم نلاحظ اننا لم نجد حرفه تدخل فيها ثلاثة
وأربعين عضواً لأننا لم نهتد لهم على طائفة معينة يمكن الحاقهم بها ففهم
سته من العملة ربما صح الحاقهم في صف أرباب الصحف ومنهم من تعذر
الوصول الى معرفة حالهم على أن هذا النقص الجزئى لا يؤثر بشيء في
التقسيم العام كذلك لم يتغير ذلك التقسيم في المجلس الجديد الذي انتخب
أعضاؤه بعد نشر هذا المبحث الا يسيراً بل ان النواب من أرباب الحرف
الادبية زادوا فبلغوا ٢٨٦ بعد أن كانوا ٢٧٠ نائباً



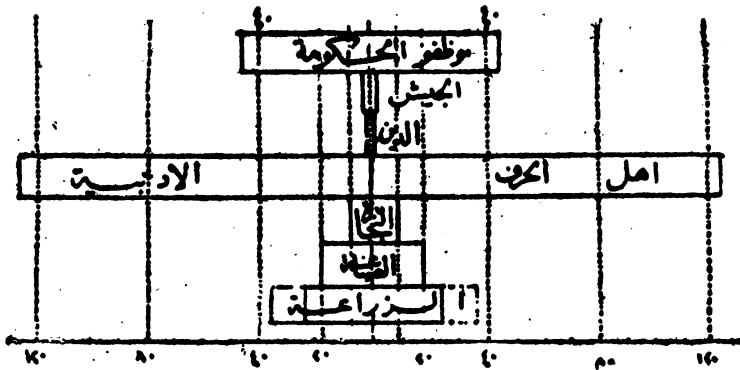
جدول تقسيم مجلس النواب الفرنسي

مهنة	اجال		الاجمالي	الاجال
	الاجال	الاجمالي		
ملاك اطيان	٧٥	٢٥	١٧	٠٨
زراعون		٥٠	٣٧	١٣
صناع	٤١	٤١	١٤	٢٧
تجار		١٧	٠٣	١٤
ارباب بيوت مالية (بنوكه)	٢٢	٠٥	٠٣	٠٢
اعضاء جمعية المعارف		١٢	٠٠	١٢
اطباء		٥٠	٠٣	٤٧
صيدليون		٠٣	٠٠	٠٣
مهندسون ملكيون		٠٧	٠٢	٠٥
ارباب جرائد	٢٧٠	٥٩	٠٥	٥٤
مدرسون في علم الحقوق		٠٦	٠١	٠٥
موتقون		١٣٩	١٧	٠٣
وكلاء الدطاوى		٠٩	٠٠	٠٩
محامون	٢	١٠٧	٢٦	٨١
روحانيون		٠٢	٠١	٠١
ضباط بريون		٠٣	٠٢	٠١
ضباط بحريون	٦	٠٣	٠٣	٠٠
قضاة		٢٣	١١	١٢
موظفون	٩٥	٧٢	٣٣	٣٩
بدون حرفة	٤٣	٤٣	٢١	٢٢

ولترجم عن هذا التقسيم بشكل مادي ليتمكن القارىء من الاحاطة بحقيقة النيابة المليية تماماً وتنجلي النسبة بين الطوائف والطبقات وقد وضعنا الجدول الآتى لذلك وقسمناه بخطوط عمودية جعلناها تقطاً والارقام التى فيها تدل على عدد النواب

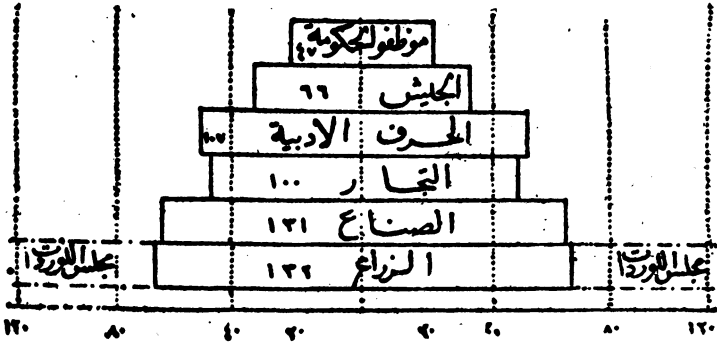
والذى يستلفت النظر أولاً فى هذا الجدول هو عدم انتظامه الناشئ من فقد التناسب فقداناً تاماً بين الاعداد الدالة على الطوائف وثنائياً هو أن نصيب الحرف العامة وهي الزراعة والصناعة والتجارة من ذلك العدد قليل وان الحظ الاوفر فى النيابة عن الامة لارباب الحرف الادبية وموظفي الحكومة وتبين أهمية هذين الامرين أكثر من ذلك اذا قورن بين تشكيل مجلس نوابنا ومجلس نواب انكلترا وقد وضعنا جدولاً ثانياً لبياناه ولو انا أدخلنا فى هذا الجدول أعضاء مجلس اللوردات لزداد عدد النواب من أهل الزراعة كثيراً لأن هذا المجلس مؤلف كله من هذه الطبقة الا قليلاً. أما مجلس السناتو « الاعيان » فى فرنسا فانه لا يختلف كثيراً فى تشكيله عن مجلس نوابها وقد كتب موسيو « تاين » كلاماً مفيداً جداً أثبت فيه أن الانكليز يرون النيابة الطبيعية عنهم راجعة الى أهل الزراعة فنالوا الى انتخابهم « راجع كتاب مذكرات على انكلترا صحيفة ٢١٦ الى ٢٢٤ »

تشكيل مجلس النواب في فرنسا



وبهذا الجدول يمكننا أن ننظر الى جميع الحرف التي يتألف منها مجلس نوابنا نظرة واحدة ولنفرد الكلام على كل حرفه منها يرى المطلع على هذا الشكل الذي يشبه الهرم إنني وضعت الزراعة والصناعة والتجارة في أسفله لأنها الأساس الاول فهي التي يحصل المرء بواسطتها عيشه اليومي وهي التي تقوم بها جميع الاعمال الاخرى وهي التي اذا اعتلت أصبح جسم الأمة سقيما وان بادت باد معها كما ينعدم الجسم الانساني لقلة الغذاء

تشكيل مجلس النواب في انكلترة



وقد يتصور الانسان أن أمة تعيش بدون مجامين وأصوليين ووكلاء دعاوي وأطباء وموظفين ولكنه لا يعلم أن تعيش أمة بغير زراع ينتجون لها مادة غذائها الأولى وصناع يصنعون حاجاتها التي لا بد منها في الحياة وتجار يوزعون هذا وذلك في الأماكن المحتاجة اليهما

وجدولنا يدل على أن النيابة عن الحرف الثلاث الأولى قليلة جداً وهذا أمن لا يخلو من الخطر بذاته ويظهر لنا الخطر عظيماً اذا أمعنا النظر في كل حرفة على حدها

أما الزراعة فيجب أن تكون هي الأساس الذي يبنى عليه ماعدها لأنها أشد لزوماً في الأمة من الصناعة والتجارة لا مجرد انها هي القائمة بأمر

الحياة مباشرة بل لكونها أيضاً من جميع الحرف وأثبتها قدمها وثباتها من ثبات الارض التي هي محلها ولا يمتريها التغير الفجائي الكلي كما يمتري الصناعة والتجارة فالزراعة مستقرة إلى حد أنها صارت طبيعية في الأمم لذلك قيل في الزراع هكذا وجدنا آباءنا واستقرارها يجعلها الأس المتين في الأمة لأنها تجذب قسماً منها وتجعله ملتصقاً بالبلاد متمسكاً بتقاليدها وقلماً تجد النظام والدوام عند غير الزراعين . وقد تبين أن هذا العنصر الذي به حياة الأمة لا يوجد في مقدمة النيابة المليية عندنا على نسبة ماله من الأهمية الاجتماعية فما عدد الزراع في مجلس النواب الا اثنان وسبعون وهو قليل جداً بجانب المائتين والسبعين من أهل الحرف الأدبية وهذا المدد على قلته يجب تنقيصه اذا لوحظ اني أدخلت فيه أصحاب الاراضي الذين لا يحترفون بحرفة ما وليسوا كلهم مشتغلين بالزراعة أو مهتمين لها بأكثر من مداليد لتناول الايراد أو الصياح من سوء الحال والكساد

ومن أولئك النواب اثنان وعشرون لا يصدق عليهم من الزراعة الا تسميتهم بالزراع لأنهم يسكنون في باريس طول السنة ولا يقيمون في الريف الا يسيراً ويرتبطون في جواب من يسألهم عن حركة الزراعة وأحسن الطرق فيها ومقدار ما ينتجه (الهكتار) والفرق بين منفعة السماد المعتاد والسماد الكيماوي وطريقة صنعه وهكذا . ولهذا رأيت من الواجب تمييزهم بعلامة مخصوصة حتى يكون التقسيم مطابقاً للواقع فدلت على نسبتهم بخط من النقط

اذن لا يوجد في مجلس النواب من أهل الزراعة الحقيقيين الا خمسون

عضواً ومع ذلك لست على يقين من أنهم يستحقون هذا الاسم جميعاً والاولى أن لاندقق البحث فيهم

وليس من الطبيعي أن تكون تلك المهنة على ما قد علمت من الاهمية لما يرتبط بها من المنافع العمومية ولكثرة عدد المحترفين بها وأن يكون هذا عدد النائين عنها ولا بد لهذا التباين في النسبة من مؤثر قوى قديم العهد نشأ عنه عندنا هذا الأثر الذي لا يشاهد مثله في الأمم الاخرى ولا أراه الا هرب كبار أصحاب الاطيان من الزراعة وهجرهم الريف بسكنى المدن وقد بدأ بهذه الهجرة منذ قرنين العدد العديد من الاشراف أصحاب الاراضى الواسعة وتكاثفوا بين جدران مدينة « فرساي » حيث أصبحوا احاشية للملك وتباعاً في معيته واتبعهم في ذلك أواسط أرباب الاملاك من أهل الريف ليس من بلد أهملت فيها الزراعة واحتقر الاحتراف بها مثل ما أهملت واحتقرت في فرنسا حتى أن الرجل لا يرضى أن يكون ابنه زراعاً الا اذا رآه لا يلبق للاحتراف بنيرها وأصبحت معيشة المرء في أرضه أشد وقعاً على النفوس من أتعس المنافي وقد يفضل الفرنسي وظيفته في « برسلونيت » على المعيشة في أرضه التي يملكها وأرادت الجرائد الجمهورية سنة ١٨٧٩ أن تحط من منزلة بعض أعضاء الجمعية المالية العمومية فاكتفت بأن وصفتهم بأنهم « ريفيون »

أصبح التباعد عن الزراعة وما يتعلق بها أمراً عادياً عندنا حتى أن قساً من قسس باريس قال ذات يوم لأحد أصدقائي وكان من سكان ولايته (كيف تكلف نفسك أن تعيش في الريف وفي امكانك مع ما أنت فيه من

سعة المال أن تعيش عيشة راضية في باريس

إذا كانت هذه الافكار مما تقرر في الاذهان حتى عند أعظم الرجال كمالا ووقاراً لم يمد من المستغرب أن تفقد النسبة بين أهل الزراعة وبين عدد النائبين عنهم في مجلس النواب ولا أن ينوب عنهم من كان أقلهم جدارة واستعداداً. ولا حق لأرباب الأملاك الواسعة أن يلوموا الا أنفسهم على سقوط اعتبارهم عند المنتخبين الذين يفضلون عليهم غيرهم من الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى والمحامين كما سنبينه

لست أنسى حادثة شهدتها في مجلس «لابلي» وهي أنه جاءه في اليوم الثاني للانتخابات العمومية رجل من أصحاب الاملاك الواسعة في إقليم «صانتر» وشكا اليه من أن الانتخاب لم يصبه وكان يتألم كثيراً من ذلك لأنه وأباه من قبله وجده كانوا نوابا عن أهل ناحيتهم وصار يصخب ويفوق سهام الملام على المنتخبين ويندب فساد الافكار وانتشار مبادئ الثروة الى غير ذلك من الافعال فقاطعه «لابلي» سائلاً (سيدي الكونت أين كان يسكن جدكم قال في أرضه وكان لا يأتي باريس الا نادراً قال وأين كان يقيم والدكم قال لما تزوج أبي اتخذ مقامه الحقيقي في باريس وأين تقيمون قال وأنا كذلك فقال له «لابلي» وقد أخذ في كلامه ما كان يعرف عنه من انتهاز مخاطبه أحيانا اذن لاحق لك في شكواك من المنتخبين. هب انهم أقاموا على الولاء لك بعد ولائهم لأبيك الى يومنا هذا مع انك تركت الإقامة بينهم والاهتمام بمصالحهم وصرف المال الذي تأخذه من بلدهم فيها لكنهم سئموا طول المدى فاختروا لهم رجلاً أقل صفاته انهم يرونه في كل

يوم وانهم يرجعون اليه كلما مستهم الحاجة لطاب المعونة واحتاجوا الى المشورة وقد أخذ ذلك الرجل مكانك لانك نخلت عنه منذ جيلين) ولا أذكر اننى رأيت ذلك النائب الذى استولى اليأس عليه عند «لابلى» صرة أخرى

هذا مثل الكثير من اتراب صاحبنا وربما صار يوما مثل ارباب الاملاك العظيمة فى الاقاليم الغربية الذين لا يزال الاهالى يرسلونهم الى مجلس النواب والسبب فى أنهم لم يتركوا الى الآن طول الزمن الذى قضاه أبائهم بين أولئك الاهالى

وأما الصناعة والتجارة اللتان عليهم مدر العمران بعد الزراعة فنصيبها فى مجلس النواب أقل من نصيبها لأننا نجد فيه الا واحد أو اربعم صانعا واثنين وعشرين تاجرا مع ان عدد أهل الصناعة والتجارة عظيم والمنافع التى هى بين ايديهم ذات اهمية كبرى ولا بد من سبب أدى الى ضعف النيابة عنه. وهنا لا يمكن اتهامهم بانهم تركوا حرفهم كما فعل أهل الزراعة لان الصناعة والتجارة تطلبان مباشرة أصحابهما كل يوم مع العناية والاهتمام وإذا ابتعدوا أو فترت همتهم ولو قليلا تقهقروا لساعتهم بتغلب المتسابقين وافضى بهم الحال إلى الافلاس. ولكن هذه الضرورة التى تلجئهم إلى مباشرة أعمالهم ولا تمكنهم من اغفالها يوما واحدا هى التى لا تتفق مع نظام المجالس النيابية عندنا لان السلطة فى بلادنا مجموعة فى يد الحكومة المالية فاليها يرجع الفصل فى جميع المنافع عظيمها وحقيرها وكلها يجب عرضها على المجالس النيابية لتبدي رأيها فيها ولذلك تستغرق جلسات هذه المجالس أكثر أيام

السنة بتمامها . ومما يطيل أوقات الاجتماع ما اعتادوا عليه أثناء انعقاد الجلسات من كثرة المقاطعة وحشو المباحث بالأمور التافهة والانتقال منها إلى الشخصيات والجنوح إلى السفسطة والصبيانيات ، ولذلك أسباب سنأتى على ذكرها فيما بعد كل هذا يستغرق وقتاً طويلاً ويستلزم ادامة الجلسات الا قليلا . وليس في استطاعة أهل الصناعة والتجار أن يتركوا أعمالهم هذا الزمن كله لذلك تراهم يفضلون العزلة عن الانتخابات ولا يترشحون إلى النيابة . ومما يزيدهم رغبة في العزلة حالة الترشح التي صارت بحيث لا تروق في عين أهل الجد والكمال الذين تعودوا الأخذ والعطاء في الأمور المهمة إذ ينبغي لمن يترشح لعضوية المجالس أن يمرض نفسه للمطاعن الفادحة التي يوجهها إليه سوء النية وللشتائم والسباب التي ترميه بها الجرائد المضادة لمذهبه . كذلك ينبغي أن يحضر الاجتماعات العمومية وليس الهدوء وسلامة الذوق من مميزاتهما . وليس في الاستطاعة مقاومة تلك الانحياز المأجبة الا اذا كان الرجل متعوداً على الكلام عارفاً بطرق التمليق والاكثر من الوعود حتى ما عزى الوفاء به عالمياً بأساليب التفتيق وحرص الجمل الطنائة التي لا معنى فيها وتلك حال لا يحسنها من تفرغ لأعمال الصناعة والتجارة الكبرى فانها أعمال لا تؤهل صاحبها إلى مثل ذلك ولا تجعله يرغب فيه . أما أهل الصناعة والتجارة الذين يقتحمون أخطار الانتخاب فهم واحد من اثنين . فأما رجل أمن على مكسبه وصار بذلك قليل الاهتمام بحركة صناعته أو تجارته فخرج عن مجرى الأحرار فيها وأما رجل خاب في صناعته أو تجارته فلم يبق لديه ما يخاف عليه أن تركها

تلك هي الاسباب التي لأجلها أصبحت الحرف الملية الحقيقية أعنى
الزراعة والصناعة والتجارة وليس لها من التواب الا القليل ونوابها هم في
الواقع أبعد أهلها عنها

بقي علينا أن نعرف من النائب عنا

يرى القارىء فوق تلك الحرف الثلاث تجسما هائلا حيث ينبعح الشكل
ويتمدد تمداً كبيراً فيكاد عدد أهل الحرف الادبية يبلغ نصف عدد النواب
كلهم لأنهم مائتان وسبعون نائباً أعنى ضعف أعضاء الزراعة والصناعة
والتجارة . والعنصر الغالب فيهم هم الاطباء وأرباب الجرائد والموثقون
وعلى الخصوص المحامون . ولندخل بين ذلك الجمع لنقف على حقيقة تركيبه
يبلغ الاطباء والصيدليون ثلاثة وخمسين عضواً فعددهم كعدد أهل
الزراعة تقريباً ويزيد على عدد أهل الصناعة والتجارة معاً وليس ذلك لأن
صناعة الطب توجد في الانسان استعداداً مخصوصاً لمداد واة الهيئة الاجتماعية
من أمراضها فانا مهما اجتهدنا لا نرى ارتباطاً بين الطب الباطني في الامراض
والوقوف على حقيقة ما تشكو الأمة من الآلام . كذلك لا توجد نسبة
بين سعادة الأمة وعدد الاطباء فيها كالنسبة الموجودة بين تلك السعادة
وبين عدد الزراع والصناع والتجار . ولا نحسب الاطباء أيضاً يتأثرون
باختلال سياسة الأمة وشبوب نيران الثورة الاجتماعية أكثر من غيرهم
ولو كان الأمر كذلك لظنناهم أشد الناس اقداماً على سد الخلل ومنع الخطر
لكننا نرى الأمر بعكس هذا فبينما الصناعات الثلاث الاولى تصبح كاسدة
بل تقف حركتها بما يطرأ على السياسة من الاختلال نشاهد صناعة الطب

غير متأثرة أبداً لأنها إنما تتعلق بسوء حال الاجسام والامراض الطبيعية في الانسان لا يحسن حال الاجتماع. ومما يدهشنا أن يكون عدد الاطباء كثيراً الى هذا الحد في مجلس النواب مع ما تحتاجه تلك الصناعة من استمرار مزاولتها والعمل فيها واذا غاب الطبيب تركته الزبائن لأن المريض لا يقوى على الاضطراب ومن هنا جاء أن أغلب الاطباء في مجلس النواب ليس لهم زبائن أما الذين كثر عملهم ففائدتهم في الاحتفاظ على زبائنهم ولا يفضلون عليهم اقتحام مخاطر الانتخاب وطلب النيابة من مواطنيهم ولا يبيمون مرتزقاً مونا كثيراً الربح بحالة قل كسبها وبמידان تدوم. اذن ليس أولئك النواب نجبة بنى حرقهم وعليه فليسوا بعصدي قوي للنيابة المللية ولكي تقف على سبب انتخاب هذا العدد العظيم منهم ينبغي أن نعرف الأمرين الآتين

الاول ان أولئك النواب هم في الغالب من حزب الشمال فن الثلاثة وخمسين طبيباً وصيدلياً خمسون من الحزب المذكور وثلاثة فقط من حزب اليمين. ولا شك في أن صناعة الطب ليست هي التي غرست فيهم تلك الاميال حتى ضاعت النسبة كما ترى لأننا اذا رجعنا الى مجموع الاطباء كلهم لا نرى فيهم هذا الميل الى هذا الحد وسببه ظاهر لأن صناعتهم ورغبتهم في تكثير عدد زبائنهم تجعلهم لا يشتغلون بالسياسة الا قليلاً. ولقد نسلم أن هذا التقدر لا يصدق على أطباء من النواب الذين ليسوا هم من خلاصة أهل الفن ولا بمن كثرت زبائنهم ولكننا لانسلم بأن تأخرهم في صناعتهم حاج خواطرهم وألقوا الاثم على الهيئة الاجتماعية فقالوا الى

المتطرفين في السياسة انتقاماً منها اذا اننا لانرى سبباً يمنعهم في هذه الحالة من الانحياز لحزب اليمين الذي يلتقى مع حزب الشمال في محاربة نظام الهيئة الاجتماعية الحالية مع ان لهم في الانحياز اليه مزية تمكنهم من اهتمام الحكومة بانها السبب في اخفاقهم. والذي يؤيد ان هذا الدليل لاقيمته له هو تساوى عدد المحامين الذين لا يجدون ما يشغلهم من القضايا في حزب الشمال وحزب اليمين تقريباً اذا لوحظت النسبة بين جميع الاحزاب في المجلس.

الامر الثاني ان اغلب هؤلاء الاطباء يحصل انتخابهم من جهات الارياف والسر في هذا ان اصحاب الاملاك الواسعة لا يقيمون غالباً في الارياف كما قدمنا وان عددهم قليل أيضاً في مجلس النواب فلما اختلفوا عن عين الاهالى قلت معرفتهم بهم وضاع ميلهم اليهم وهم ذلك مصيبون ورأوا أنهم لا يستحقون ان يقوموا بالنيابة عنهم اذ لم يمد لهم بينهم من المآثر غير جمع المال منهم لينفقوه في المدن التي يسكنون فيها. وأرباب الاملاك الواسعة هم في الغالب من المحافظين فالنواب من أهل الزراعة في المجلس خمسة وسبعون فيهم أربعة وخمسون من حزب اليمين وواحد وعشرون من حزب الشمال وبتركهم الريف يضيع نفوذهم بين أهله وينتقل بالطبيعة الى اعدائهم في السياسة الذين هم من حزب الشمال فينتخبون بدلا منهم. ولا يوجد في الارياف من يصح له ان يقوم مقام أولئك الملاك النابيين الا اطباء والمحامون والموثقون فلهذه الطوائف الثلاث نفوذ طبيعي بين الناس عظيم لكثرة من يخاطبون والافضاء اليهم باسرار العائلات وما يقومون به

من الخدم أما بالارشاد مجاناً وأما باقراض الاموال . ثم هم نخبة النبلاء في الارياف بعد الملاك فلا غرابة حينئذ إذا أصابهم الانتخاب وجلسوا في مجالس النواب

تلك مشاهدة صحيحة وهي الصحيحة وحدها بديل انك إذا راجعت عدد الاعضاء من كل طائفة في كل حزب في مجلس النواب رأيت الموثقين ووكلاء الدعاوى يكثرون حيث يكثر الاطباء فالموثقون سبعة عشر منهم أربعة عشر في الشمال وثلاثة في اليمين ووكلاء الدعاوى تسعة كلهم في الشمال . . . ثبت إذن ان أهل تلك الحرف لم يدخلوا مجلس النواب الا لهروب أصحاب الاملاك . أما البلاد التي حفظ كبار الملاك فيها نفوذهم ومكانتهم فلا يزال أطباؤها وموثقوها ووكلاء دعاويها يقومون بخدمتهم للمرضى والارامل والايتم وكل الناس هادىء مسرور

ولست أذكر شيئاً عن المهندسين الملكيين لانهم سبعة نواب وهو عدد يسير سببه ان حرفهم لا تمكنهم بطبيعتها كالحرف السابقة من اجتذاب القلوب واستمالة الاهالى

وأما أرباب الصحف فكثيرون إذ أراهم تسعة وخمسين كمدد أهل الزراعة على التقريب واكثر جداً من أهل الصناعة والتجارة ولا أظن أن أحداً يدعى أنهم لازمون في الامة لزوم الزراعة وانهم أشد لزوماً من أرباب الصناعة وأهل التجارة معاً . وزد عليه ان أرباب الصحف لا يهتمهم صلاح الحال في البلاد وهدو الافكار واستتباب النظام العام كالتجارة والصناعات والتجار فحياة الجريدة من الحوادث تزداد أعدادها أيام الاضطراب ولذلك

تنشر بأحرف كبيرة أشد الاخبار اقلافاً للراحة العمومية وتقل تلك الاعداد متى ساد السكون على الناس الا أن الجرائد لاتقدم سبيلاً للرواج فتختلق الحوادث وتمظم ماصغر منها وتوقظ اللاهى وتحض على تهيج الافكار لأنها فى حاجة اليه . . أنظر كيف يزداد عدد الجرائد فى أزمنة الاضطراب وكل من لم يطمس الله على بصيرته يقول أن تقدم الزراعة وارتقاء الصناعة ورواج التجارة انما يقوم بقتل الصحف وموت الجرائد

يقال أن أرباب الجرائد قد استعدوا للبحث فى المسائل السياسية لأنهم يخوضون فيها كل يوم . نعم أسلم انهم مستعدون للكلام فى كل موضوع الا أنهم يتكلمون كما تتكلم الجرائد . وصاحب الجريدة مضطر بطبيعة حرفته الى التفكير عاجلاً والحكم على الاشياء عاجلاً والكتابة عاجلاً فما لاحته له بارقة ففكر الا كتب فيها من حينها إذ ليس عنده زمن ليعن النظر فيها وكبار أهل الجرائد يعرفون ذلك ويشكون منه أما الآخرون فلا يخطر لهم هذا على البال بل يمتقدون فى أنفسهم ماشاء الله أن يمتقدوا ويقولون غير هازلين أنهم أرباب زعامة فى الامة وأهل سيادة على الافكار

صاحب الجريدة محتاج الى تغليظ صوته ليرسم الناس ويحول الافكار اليه ضرورة قضت بها مهنته واستلزمته حياة جريدته فهو يبالغ بطبيعة الحال كما إننا نأكل أو ننام . ان قال فى رجل انه نذل أو وغد فعناه ليس بأكثر من أنه وياه فى الرأى مختلفان وليس لكلامه غاية يقصدها ولكن هكذا اقتضت لهجة الجريدة فوجب الصراخ حتى يسمع الناس كما يقع فى الموالد والاسواق حيث الوسيلة فى الفات القوم كثرة الجلبة على الأبواب وذلك

هو ما يسمى بالمظاهرة

أظن يا صاح أن تلك الخلال هي التي ينبغي للأمة أن تطلبها من أولئك السياسيين وأنت تعلم أن البحث في منافع الأمة العامة وحكومة البلاد لا يتأتى الا لقوم اتصفوا بالحكمة وبعد النظر وسلامة الحكم والمسائلة وحسن الذوق ومعرفة الاعمال المفيدة؛ لأنكر أن بعض أهل الجرائد يعرفون ذلك إلا انها صفات ليست هي الغالبة في تلك الطائفة بالبلاد الفرنسية ولذلك نشاهد أن النواب من أرباب الجرائد لم يساعدوا على ايجاد الهدوفى المناقشة واستعمال الحكمة في مباحث المجالس النيابية وما كثر عددهم في سراى البوروبوت الا لأن الصحف في تصرفهم والصحف هي رسل الانتخاب

أرباب الصحف ليسوا على نسبة واحدة في الاحزاب فعددهم تسمة وخمسون منهم أربعة وخمسون في الشمال وخمسة في اليمين وسبب هذا الاختلاف ان حزب الشمال يعتمد على الفعلة وحزب اليمين يعتمد على الفلاحين وأولئك يقرأون الجرائد أكثر من هؤلاء وبهذه الواسطة اشتد تقرب أرباب الجرائد الجمهورية من جميع المنتخبين في المدن أكثر من تقرب اخوانهم المحافظين الى أهل الريف. ولو أن أهل الريف قرأوا الجرائد لتضاعف عدد المحامين في مجلس النواب. وبينما السبب في اغارة الاطباء والموثقين ووكلاء الدعاوى على المجالس النيابية هو تمتع كبار الملاك حتى فقد أهل الريف رؤسهم الطبيعيين نرى السبب في اغارة أرباب الصحف آتياً من أهل الصناعة الذين تركوا الفعلة بغير قائد فأصبحوا عرضة لنواية

الجرائد ولا حامي يحميهم ولا دافع يردّها عنهم فالرؤساء هم المستولون في الحالين

أكثر النواب من أرباب الحرف الأديية هم أهل القانون والذين بلغوا مائة وتسعة وثلاثين عضواً غير القضاة وأمثالهم ممن هم في عدد الموظفين لأنهم وإن اتحدوا معهم في الصناعة لكن سبق وجودهم في خدمة الحكومة جعلنا نفردهم قسماً مخصوصاً وهو قسم الموظفين . وقد ذكرت بين أهل القانون مدرسى الحقوق الستة لمجرد البيان فقط ثم اشتركت معهم الموثقين ووكلاء دعاوى وقد سبق الكلام عليهم . بقى عندنا العدد الأكبر وهم المحامون . يبلغ عدد المحامين مائة نائب وسبعة وأربعين أولئك الذين توجد أسماءهم في جدول المحامين الرسمي ولا يزالون يشتغلون بحرفهم أما عدد حائزي الشهادة في علم الحقوق فيزيد في المجلس على ثلاثمائة ولستنا نعلم أمة من الأمم الماضية أو الحاضرة نشأ فيها متعلمو علم الحقوق بكثرة كما هو حاصل عندنا في القرن التاسع عشر فهم غارة حقيقية بل طوفان وهم أصحاب الكلمة الحقيقيون في مجلس النواب وفي فرنسا كلها وقد وضعوا أيدهم تمام الوضع على سير المجالس النيابية مما لم يسبقهم به أهل حرفة أخرى

كيف لا يكثر عددهم والمحاماة فن يسهل تركه كما يسهل الرجوع إليه وليس في تركه ضرر برأس مال فعدة المحامي مكتبه ومكتبه في الغالب قسم من مسكنه والنيابة طريقة من طرق الظهور لأنها تتيح للمحامي فرصة بيان فصاحته ونشر بلاغته وفي سراى البوربون منبراً رفيعاً من منابر المحاكم . هناك يتكلم الواحد من علو عظيم ويسمع صوته من بعيد . اذن في وظيفة النيابة

مزية للمحامى تعطيه زبائن ان لم يكن لهم أحد منهم « وقد حصل » أو تكثر عددهم . ثم ان ضرورة الكلام في الاندية العمومية والمجتمعات التي يحجم عندها كثير من أهل الزراعة هي من الامور المقبولة عند المحامى فالكلام صنعتته ومن هنا كان له على المتسابقين معه مزية كبرى

غير ان المحاماة لتهيء الانسان الى ادارة مصالح البلاد كما تسهل له الدخول في مجلس النواب لانها لا تتأثر باعتلال الاحوال العمومية كما هو الحال في الزراعة والصناعة والتجارة بل الظاهر انها تستفيد من ذلك الاعتلال لان قوامها الدعاوي وهذه تكثر كلما كسدت الاعمال فتتولد القضايا السياسية في أزمئة الاضطراب وتتولد القضايا بين الاقارب متى فسد نظام العائلة وعلى هذا فسوء حال المحامى في قضاياها لا يدل على سوء مجرى الاحوال السياسية بل بالعكس

يقال انهم تعودوا على المباحث القانونية واختبروا القوانين فأصبحوا قادرين على التشريع وصحيح أنهم يعرفون بمقتضى مهنتهم قوانيننا واحداً بعد واحد ووافقون على المذاهب التي ذهبت في تفسيرها وهم بذلك يفيدون النيابة المليية الا انهم لسوء الحظ ميالون الى تغليب الجانب النظرى الذى هو ميدانهم على الجانب العملي والمنافع الحية التي ليست بين أيديهم

قضوا حياتهم بين النصوص فكان منهم ان حسبوا لها تأثيراً لا مرد له والتأثير في الواقع غير موجود واعتقدوا ان الامم انما تأسس بوضع القوانين فقللوا من تأثير القوة الحيوية الذاتية واضعفوا تأثير الصنائع والفنون الجارية وهذا الميل هو الذى حمل أهل القانون في الزمن القديم على الدفاع أي دفاع

عن حقوق الملكية حتى أطلقوها من كل قيد اضراً بحق الرعايا وحرية الافراد واستقلال البلاد وهم الذين لم تفتقر لهم هم في زمننا هذا من حزب اليمين كانوا أو من حزب الشمال عن جمع سلطة البلاد في قبضة الحكومة العليا فادخلوا ايدها الثقيلة في كل ناحية ولم يرفعوا أصواتهم بالشكوى منها الا اذا رأوها في جانب خصومهم السياسيين وهم المسئولون قبل سواهم عن اتساع دائرة المصالح الأميرية والدواوين الفرنسية التي أضرت بمالية البلاد ووقفت حجر عثرة في سبيل انتشارهم الافراد . وعليهم نصيب في سقوط منزلة النظام الشورى لأن عادة ارتجال القول فيهم حملتهم على اطالة المباحث بكلام فصيح لكن بغير فائدة بدلا من المداوات المفيدة العملية التي تقتضى معارف مخصوصة وأصبحنا نسمع الناس يصيحون في كل مكان طالبين مجلس نواب يقصر همه على الاعمال ووزارة تثنى العنان عن النظريات أقول وزارة لأنى أرى المحامين قد شغلوا أهم مركز بين النظار والعيب في هذا راجع الى نظام مجالسنا لأنه يطلب في الوزير قولاً رجيحاً لاعمالاً مليحاً ويشترط فيه من الصفات ما يزهو به الانسان لا ما تظهر فوائده الحقة للعيان . ترى النائب إن رام الكلام وجب أن يرقى منبر الخطابة لأن يتكلم من مكانه كما في مجلس نواب الانكليز ومتى توسط ذلك المقام لزمه أن يقدم مقدمة قبل الدخول في الموضوع ويختم بخاتمة اذا انتهى فيضيع جزءاً ثميناً من الوقت في فيهقة وورص ألفاظ ضخام وينقصى من المناقشة جميع النواب الذين لا قدرة لهم على طلاوة اللسان وأولئك هم الذين في الغالب يعرفون حقيقة الاحوال الخيرون بحاجات البلاد بدليل ما هو مشاهد في

اللجان حيث يظهر فضلهم وكان الواجب أن يبقى القول قولهم في الجلسات العمومية فمن المقرر أن أكثر النواب عملاً أقلهم كلاماً وانظامنا يعدمهم في زوايا الخمول ويصدر للناظرين كل منطق فصيح

والخلاصة أن المحامين قد يفيدون النيابة المليية بما لديهم من المعارف الخصوصية ولكن لسوء الحظ زاد عددهم عن نسبة أهميتهم في الأمة فصاروا أصحاب النفوذ في المجلس ووجهوا حركته الي حيث تسوء العقبي

وبقدر ما أغار المحامون على المجالس النيابية تأخر أهل الدين والجنود فلا ترى من الاولين في المجلس سوى رجلين اما لأنه يصعب على الرؤساء الروحانيين أن يجتازوا متاعب الانتخاب واما لخوف الناس من تسلطهم على الحكومة. والسبب في أن رجال الجيش لا يزيدون على ستة نواب حظر القانون على جميع الضباط الذين في الخدمة الدخول في المجالس النيابية فلا يمكننا حينئذ أن نذهب مذهباً في قلتهم

هذا وقد استوى الموظفون على قمة الشكل الذي رسمناه وهم الفريق الاكثر عدداً بعد أهل الحرف الأديية وليلاحظ اننا نعد الموظفين باعتبار وظائفهم التي كانوا يشغلونها قبل الانتخاب لأن النيابة والوظيفة لا يجتمعان . وهم ينقسمون الى ثلاثة وعشرين قاضياً واثنين وسبعين موظفاً ادارياً فالجموع خمسة وتسعون عضواً وهو عدد أكثر من عدد الزراع والصناع والتجار معاً. وأكثر أولئك الموظفين من رجال القانون ولكنهم زادوا على معارفهم الاصلية خبرة بأحوال الناس وتمودوا بمقتضى وظائفهم على احترام أعمال الحكومة وعرفوا جميع الطرق التي تؤيد فوزها وتوجب نصرها وقوم

هذه صفاتهم يظن أنهم أولى بالانتخاب لكونهم أدرى بمصالح البلاد وأحق أن يكون لهم العدد الاوفر بين النواب واعدل القضاة للحكم في المنفعة العامة وليبيان ما في هذا الظن من الخطأ أو الصواب نبحت في المنفعة العامة

المنفعة العامة تقتضى أن يكون ثمن الحكومة رخيصاً حتى لا تكلف الامة من المال الا يسيراً لكن منفعة الموظفين تقتضى أن يكون ذلك الثمن رفيعاً الى حد الامكان فبقدر ضخامة الميزانية توجد الوظائف تحت تصرف الحكومة وتمتد الاطاع لنواها . الا ترى في كل سنة أن النفوس تميل الى التوفير والاقتصاد سداً للعجز الذى يزداد عاماً بعد عام حتى اذا حان زمان البحث في أبواب الميزانية وتتابعت الفصول أثر بعضها تغير شعور مجلس النواب وانحرف ذلك الميل الاولى وتحرك الخمسة وتسمعون موظفاً بحركة شديدة لا دافع لها امام تلك الميزانية التى هى دجاجة البيض الذهبى عندهم وقاموا يدافعون عن حوزة المال الذى عاشوا منه واليه المصير اذا خرجوا من مجلس النواب . ولهم فى دفاعهم نصير من أهل الحرف الادبية لا ملهم اذا ضاقت عليهم روايت المجلس أن يجدوا فى الحكومة ملجأياً وون اليه كما يفعل فار القصة المشهورة فى الجبنة الهولندية . ولما كانت الحرف التى تقدم الاموال للحكومة أقل عدداً فى المجلسين من التى تعيش من ذلك المال ينتهى الامر بالاقرار على الميزانية ويؤجل الاقتصاد الى أجل غير مسمى الا أن الامر لا ينقضى بالاقرار على المصروفات لذلك يركض النواب نحو الاقتراض ووضع الضرائب الجديدة رغماً عن وعودهم التى وعدوا الذين استنابوهم وهكذا يعظم العجز سنة بعد أخرى

المنفعة العمومية تقوم بتبسيط مصالح الحكومة وعدم الاكثار من أنواع فروعها حتى تسهل على الناس معرفة جهات أشغالهم وتقضى شؤونهم كما ينبغي في زمن قصير . ومن مصلحة الموظفين بقاء التعقيب الحالى وهم ينجحون على الدوام في تأييده رغما عن المعارضين في بقاءه أو عن مشروعات الإصلاح التي تقدم في كل حين أما فائدتهم من بقاءه على ما هو عليه فهي أن التعقيد يجعل وجودهم لازماً لحل مشكلاته ويوسع في اختصاصاتهم ويصير التعقيب عليهم عديم الجدوى وبهذا يصيرون أقوىاء مستقلين غير مسئولين

ومن المنفعة العمومية أن لا تتداخل الحكومة في الاحوال الخصوصية المتعلقة بالافراد أو بالقرى كل واحدة على انفرادها وأن لا تعيق همم الافراد عن العمل بما ينبعثون اليه في طلب مصالحهم وأن لا يجدها الانسان أمامه كسور من حديد يصده كلما تحرك يميناً أو شمالاً أو كلما أراد أن يدير بنفسه أقل الاعمال أو يؤدي أقدس الواجبات . ومصلحة الموظفين تخالف كل هذا فلا تقوم الا اذا تداخلوا في كل شيء يتعلق بالقرى والمائلات وكلما تداخلوا زادوا عدد الوظائف وزيادة الوظائف تجر زيادة الموظفين وهذا حال ضرره عظيم خصوصاً وانه عام تشترك فيه جميع الاحزاب فمن الخمسة وتسعين نائباً واحداً وخمسون من حزب الشمال وأربعة وأربعون من حزب اليمين وأقل شيء يختلف فيه هو حيننا جميعاً للميزانية في كل عام

يقال أن كثرة عدد الموظفين في الشورى غير معيب لأنهم أداروا حكومة البلاد كلها فآكتسبوا الخبرة التامة في أعمالها وعرفوا ما يضرها وما

ينفعبا وأصبحوا نوابا محنكين . والحقيقة ان خدمة الحكومة لاتربى الا أشد الرجال العموميين بغضاً عند الناس لأنها تقتل في الرجل همته الذاتية والاستقلال وتميت شعوره بتبعة مايجرى على يديه من الاعمال وهي الصفات التي لا بد منها فيمن تعرض لسياسة الامة . فان كان الموظفون من الحزب القابض على أزمة الاحكام رأيتهم تبعاً للحكومة قد أهدها استقلالهم بما يرجون من حفظ مركز أو نوال وظيفة عندها . وان كانوا من خصومه فهم أعداؤه لأنهم خصومه يحاولون سقوطه لكي يسقط فهم ثوربون طبعاً بمحض انهم خصما . ضع نفسك بينهم تجدهم بين أمرين أما الموت أو الحياة لأن الخدمة لم تؤهلهم الى كسب عيشهم بأنفسهم فاصبحوا ولا عيشة لهم الا في مخادع الوظائف العمومية . اذن لا عجب أن يحولوا وجهتهم الى قبلة واحدة ألا وهي خراب بصره أي قلب حكومة الاخصام

لهذا يجب أن يكون في مجلس النواب أغلبية من أصحاب المنافع الحقيقية في البلاد حتى تضم الموظفين وتحيطهم بدائرة لا يظهر معارضهم ويجب أن تتألف تلك الأغلبية من أهل الحرف الثلاث التي وضعناها في أصل الشكل الذي قدمناه وهي الزراعة والصناعة والتجارة وقد رأينا أن عدد نوابها قليل وانهم ليسوا من الاخير

هذا هو عيب نظام حكومتنا ولذلك فالموازنة مفقودة في مجالسنا تدوم دوام اليقطين لأن الاغلبية مؤلفة من الموظفين وأهل الحرف الادبية فقد بلغ عددهم ثلثمائة وخمسة وستين في مقابل مائة وخمسة وثلاثين نائباً عن

الحرف الجارية الثلاث

رأى القراء أن الشكل الذي قدمناه اليهم يشبه الحجارة العظيمة المتزعزعة لقيامها على أساس ضيق تخرج في كل صوب لأقل صدمة تلاقها أما تلك الاحجار العتيقة فثابتة أعني انها تقاوم تقلبات الحوادث رغمها بها من الاهتزاز وتمر عليها الاجيال وهي باقية ومن سوء حظنا أن الحال ليس كذلك عندنا فالنيابة الملية في فرنسا تجري مع كل ريح تهب من جانب الافكار وتسقط الى حيث تيميل تارة في الشمال وتارة في اليمين فهشم في سقوطها المنافع الثلاث التي رزحت تحت أثقائها وأمست عاطلة . مع أنها هي المنافع العمومية الحقيقية في البلاد

الفرق بين حالنا وبين حال الامة الانكليزية في هذا عظيم . ترى شكل نظام النيابة في تلك البلاد لا يمثل ذلك الحجر الذي اختل مركز ثقله ولكنه يمثل اهرام الفراغة ذوات القواعد العريضة القويمة . هناك ترى نسبة التوازن مرعية وكل عنصر من عناصر الامة مستويًا في مكانه ونسبته تفيده على قدر المنفعة العمومية التي يشخصها وترى الحرف الادبية قد انحصرت في دائرة مقبولة فزال شرها بل صارت كما ينبغي أن تكون زخرفاً ملياً وركناً مهما من أركان التقدم في الافكار والآداب وملطفاً لماعسائه يتأتى من الافراط من جانب أهل الحرف الجارية

الضرر عندنا كل الضرر من أنه لم يعد لنا نواب طبيعيون

وإذا أردت أن تعرف من النائب الطبيعي فاقراً ما كتبه (تاين)

(مذكرات على انكلترا صحيفة ٢١٧ الى ٢١٨) حيث يقول (انا للتعجب باستقرار

الحكومة الانكليزية ولكن لا عجب لانها الخلاصة الطبيعية لتلك العناصر الحية التي علفت بالارض في جميع انحاء البلاد . واذا فرضنا أن الحركة ثورية كحركة اللورد غردون قامت في تلك البلاد وأدارتها يد أكثر تجاربا وأمهر سياسة وأضفنا اليها مطالب الفوضويين وضممنا اليها رجال الجيش وان كان محالا وحسبنا أن النتيجة العاجلة الكلية هي تفويض أركان المجلسين ومحق آثار العائلة الملوكية ثم نظرنا الى البلاد بعد ذلك رأينا أن قوة الحكومة هي التي عفت آثارها ومادونها باق لم يمسه سوء لانك تجد في كل قرية وكل ولاية عائلات ثابتة الدعائم تجتمع حولها عائلات مثلها ورجالا ذوى مكانة رفيعة من المهذبن وأهل الاحساب تبعثهم همهم الى قيادة الزمام والتقدم الى الامام وللناس فيهم ثقة فيتبعونهم لانهم أبناء بجدتها بما عرفوا به من قبل من علو المنزلة وسعة المال وسابق الخدم وبما أتوا من التربية وحازوا من النفوذ ومنهم الضباط والقواد التي تلتف حولهم الجنود المتشنتة فيرجع الجيش على الفور الى نظامه بخلاف الامة الفرنسية فان أواسط الناس فيها والفعلة والشرفاء وأهل الارياق كل يحذر من رفيقه وكاهم متخالفون متباغضون خائفون ولا رئيس الا الموظفون الذين هم عنهم أجنيبون والذين هم في وظائفهم واجفون مؤقتون والذين لا يطيعهم أحد الا طاعة الخوف بلا ميل قلبي ولا احترام شخصي قد احتملهم المحكومون وهم في احتمالهم مسيرون لا مخيرون . هكذا كانت حكومة الانكليز ثابتة لان للانكليز نوابا طبيعيين وقال في موضع آخر صحيفة (١٩٠) ليست المدن في بلاد الانكليز كما هي عندنا الموطن المختار فانا اذا استثنينا المدن الصناعية

لا نرى أحداً يسكن عواصم الارياف مثل مدينة يورك الا البياعون
الشراؤن أما خلاصة الأمة وعظماؤها فبعيداً عن المدن يسكنون ومقامهم
العزب والارياف حتى أن مدينة لوندريه نفسها أصبحت ملتقى أهل الاعمال
لاموطناً لا كابر الرجال)

مأسعد الامم التي أسندت ظهرها الى نوابها الطبيعيين فتمكنت بذلك
من إيجاد النسبة بين عناصرها في النيابة المليية

الفصل الثاني

﴿ السبب في أن الانكليز السكسونيين ﴾

﴿ أبعد عن مذهب الاشتراكيين من الالمانيين والفرنساويين ﴾

الحوادث الاجتماعية كالنبات لكل نوع منها منبت مخصوص يظهر
فيه والبرزة الواحدة لاتنبت في جميع الاقاليم بكيفية واحدة بل للوسط تأثير
عليها كما أن له تأثيراً في كل شيء

ومذهب الاشتراكيين لم يشذ عن هذه القاعدة ومن الواجب أن

نعرف تاريخه كما ينبغي حتى تقف على حقيقة ذلك المذهب وترقيه

أصل نشأة مذهب الاشتراكيين وأول تكوينه كان في البلاد الالمانية
ففيها متبعه ومنها انتشر في بقية أرجاء المسكونة. ذلك ما أجمع عليه
الاشتراكيون والذين كتبوا على مذهبهم قال موسيو (دولافلي) في كتابه

(مذهب الاشتراكيين في العصر الحاضر) صحيفة (٥) نقلا عن (بايمجر) أحد النواب الالمانيين مانصه (من الغريب ان افكار الاشتراكيين لم تجد مجالا في أي بلد كما وجدت في المانيا فانها لم تقتصر على الفعلة بل انجذبت اليها الطبقة الوسطى حتى سمعنا أهلها مرارا يقولون ربما صار الحال أحسن مما هو الآن اذا جرى العمل بالمذهب المشار اليه وانهم لا يرون سبباً يمنع من التجربة. وقد اخترق ذلك المذهب الطبقات العالية في الامة ودخل في جمعية المعارف واستوى على كراسي المدرسين. والعلماء هم الذين رفعوا اصواتهم بالشكوى من الحالة الحاضرة فتبعتهم جمعيات الفعلة والصناع والمحافظون هم الذين نددوا بالاختصاص في الاملاك ونادوا بالويل على رأس المال ولسنا نرى نظيراً لذلك في بلد أخرى) وقال في مقدمة ذلك الكتاب نقلا عن نائب الماني آخر في كلام له أمام مجلس النواب ما يأتي (لقد حط جيش مذهب الاشتراكيين رحاله في البلاد الالمانية وتربى عندنا التربية الفلسفية والعلمية)

وفي الواقع يجد الباحث في المانيا جميع شيع هذا المذهب فثمة الثورويون ومنهم المحافظون ومنهم الانجيليون والكاثوليكيون والمدرسون في المدارس. وهذا الانتشار يدل بذاته على أن جو البلاد الالمانية يلائم هذا المذهب ويساعد على انتشارها وهو يظهر كثيراً أيام الانتخابات فلثورويين من أهله قسم كبير في مجلس النواب وكان عدد الاصوات التي اصابته الترشحين منهم في الانتخابات الاخيرة قريباً من مليون ونصف مليون فاذا اضفنا اليهم أهل الفرق الاخرى كانت الاغلبية في مجلس النواب

الالمانى للاشتراكين

تختلف فرق الاشتراكيين في مقاصدها ومطالبها الا انها متفقة كلها على أمر واحد هو لب المذهب ورايته التي تخفق فوق رأس الجميع وعلامته الخاصة وهو وجوب حل جميع المسائل الاجتماعية بالقانون أو بتدخل الحكومة فكلها تملل النفس بحكومة تقرر طريقة الشغل وتحدد الملكية وتقدر الاجور وتتكفل باسعاد الامة في مجموعها وفي كل واحد منها منفرداً بحيث تصير الحكومة رئيساً عاماً للكل وبالجملة فالحكومة هي كعبة الامال الجديدة التي يحج اليها الاشتراكيون على اختلاف مشاربهم . ولكي يتبين هذا نأتى على طرف من أحوال كل فريق

أقربهم الى المعقول هم الثوريون لانهم يذهبون . برأيهم إلى آخر ما يؤدى اليه وتكاد الفرق الاخرى لاتعمل الا لخدمتهم إذ من عادة الفكر الانسانى متى قذف به في منحدر أن يسير حتى يبلغ النهاية وهذا هو السبب في ازديادهم على الدوام ومن بينهم نبع استاذ مذهب الاشتراكيين الخالى الذى أكمل مبانيه وكان لرأيه تأثير عند جميع الفرق حتى المحافظين والمدرسين وهو (كارل ماركس) ورأيه مبسوط في كتابه المسمى (رأس المال) كتاب كاه قضايا عقلية كقضايا الحساب بل هو أصعب منها قراءة وأثعب فهمها ومبنى طريقته عدة استنتاجات مترتبة على حدود وتعاريف وفرضيات وحدسيات . فبأحدي القضايا يهدم المجتمع الانسانى الحاضر وبنائية بينه على أس جديد . ومن رأيه (ان العمل هو الوحدة الحقيقية التي يمكن تقدير قيمة جميع المصنوعات بحسبها ومعرفة الفرق بين الأنواع

وبعضها « إذن فالعمل وان شئت فقل العامل هو الذى يوجد رأس المال
وعليه فرأس المال كما وجد اليوم إنما هو نتيجة تمد واغتصاب ومن هنا وجب
رد المال لمالكة الحقيقي والمالك الحقيقي هو مجموع الفعلة والعمال أعنى انه يجب رد
المال الى الجمعية ذاتها وهى الكل . وهكذا أخذ المؤلف يترقى من رتبة إلى رتبة
حتى انتهى باعتبار الحكومة رئيسا عاماهو الذى عليه إدارة العمل كله وتقسيم
ثمرته بين الجميع بالعدل والانصاف . وقد تلقى الاشتراكيون الثورويون
هذه المبادئ، واستخلصوا منها طريقة قرروها بينهم سنة ١٨٧٧ فى مؤتمر
« غوطا » واليك أهم ما تقرر

« ان العمل منبع كل ثروة وكل تمدن ولما كان العمل العام المفيد لا يتيسر
الا للامة كلها فالثمرة كلها ملك لها أى لجميع أفرادها ولكل واحد الحق
فى نصيب يناسب حاجاته التى يقبلها العقل وعلى الجميع أن يعملوا
أن آلات العمل فى الهيئة الحاضرة محتكرة بين أيدى ذوى الاموال ومن
ذلك كان الفعلة مسيرين بامرهم وهذا هو السبب فى الشقاء والاستعباد على
اختلاف طرقه وأحواله . وعتق الناس من هذا الحال يقتضى أن تصير تلك
الآلات كلها ملكا عاما للهيئة بتمامها وعليها أن تضع نظاما لجميع الاعمال وأن
يكون عمل الكل لمنفعة الكل وأن تقسم الثمرة على الجميع بلا غبن ولا تمييز »
أما كيفية الاجراء فى الهيئة الجديدة التى يطالبونها فهو أن يصير كل فرد
عاملا فى عمل حيث كان ويمطى لكل عامل أجر على كل عمل أتمه باعتبار
متوسط الساعات التى تنزىم لاتمام ذلك العمل ويدفع له فى ذلك وثائق تدل
على عمله ليستبد لها بما يريد من المصنوعات وتوضع هذه المصنوعات

في مخازن عمومية يصرح للموكلين بها باستبدال البضائع بالوثائق والوثائق بالبضائع وتصير العقارات بانواعها ملكا للحكومة ويعيش كل انسان من العمل أو الوظيفة التي كلف بها فلا يدخر الرجل الا اليسير ولا يترك لورثته الى ما كان مالا منقولاً

وأشهر رؤساء فريق الاشتراكيين الثوريين في هذا الحين ثلاثة هم موسيو «بييل» و «ليكنخت» و «فولمار» والاول كان صانعاً بيده في أحد المعامل والثاني من أهل الطبقة الوسطى والثالث من أقدم العائلات العظيمة في بلاد «باير» وكان من ضباط الجيش الألماني والجيش البابوي وأولئك الرؤساء الثلاثة يشخصون حقيقة مذهب الاشتراكيين في المانيا كما ينبغي ويدلون على أن جذوره تمتد في أعماق الطبقات النازلة وتنتشر فروعه بين الاواسط حتى تصل أعلى درجة في الناس . وقد أصبحت المانيا متشعبة بهذا المذهب من تحتها ومن فوقها على اختلاف في الدرجة وتفاوت في قوة الانتشار . ومع هذا فريده الطائفة التوروية هم من الطبقة النازلة الا قليلا وأما الاواسط والاشراف فانهم يفضلون الطوائف الاخرى لانها أكثر اعتدالاً وهي التي بقي الكلام عليها

قدمنا انه يوجد في المانيا بين فرق الاشتراكيين فرقة تسمى بالمحافظين ولاحظ موسيو «دولاثلي» صحيفة (٣٣) ان كلمتي اشتراكيين ومحافظين متنافرتان لان اشتراكي يرمى الى هدم ما بناه المحافظ ومع هذا فقد وجد حزب اتخذ الكلمتين اسماله وليس من المجازفة أن تقول ان اشهر رئيس له هو البرنس دي بسمارك على نوع ما . ولا تذهب هذه الفئة كسابقتها الى

وجوب القاء آلات العمل كلها بين يدي الحكومة وانما يصدق عليها اسم الاشتراكيين لانها تذهب الى حل جميع المسائل الاجتماعية بوضع نظام محكم وبزيادة تداخل الحكومة حتى تصير مناطة بادارة العمل وتقدير الاجور وسن القواعد لجميع طرق الانتاج والتحصيل . ورجال هذه الفئة هم في الغالب من الاواسط الذين يخافون من مذهب الثورويين ويريدون الهرب من غائلهم بدفع الامة كلها الى حما الحكومة كأنهم يقولون لها (اعملي أنت مام عاملون ان في ذلك نجاتنا أجمعين) وكل يعلم مسارعة امبراطور المانيا الشاب الذي يرى أنه خير بكل شيء إلى تلبية هذا النداء لذلك أتى بمظاهرات عدة كانت عقيمة العاقبة بمقدار مادوت في الارحاء وهو اليوم الرئيس الحقيقي لحزب الاشتراكيين المحافظين

وأما فئة الاشتراكيين الانجيليين فسميت كذلك لان رؤساءها من رعاة الكنيسة الرسمية وقد قامت كالتى قبلها لتؤيد الملوكية في الازهان وتساعد على انتشار نفوذ الملك منذرعة في ذلك بمذهب الاشتراكيين وهي أيضا تطلب حل المسائل الاجتماعية من الزيادة في وظيفة الحكومة وتأيد تداخلها حتى تكون الرئيس العام لجميع الناس . واليك طرفاً من مقاصدها

(ان حزب الفعالة الاشتراكيين المسيحي مؤسس على الاعتقاد الديني والولاء للملك والوطن وهو يطلب من الحكومة ايجاد طوائف للحرف ممتازة عن بعضها بحيث يكون لكل منها نظام قانوني في جميع المملكة ويكون من مقتضى ذلك النظام تحديد شروط الاحتراف تحديداً دقيقاً

وان تشكل مجالس تحكيم تكون قراراتها نافذة على أصحاب الشأن فيها - وان تنشأ صناديق لاعانة الارامل واليتامي وعجزة العمل - وأن تحدد ساعات الشغل على حسب طبيعة العمل - وأن تستغل أملاك الحكومة وأملاك القرى لفائدة الفعلة ويزاد على تلك الاملاك كلما كان ذلك مفيداً من الجهتين الاقتصادية والفنية - وأن يضرب على الايراد خراج يترقى بزيادته وأن يضرب رسم على التركات يترقى بحسب أهميتها وبعد قرابة الوارث (من المتوفى).

فاقصى ما يتخيله هذا الحزب هو أن يحكم البلاد مستبد عادل تكون سعادة الكل في سيادته

وأما فئة الاشتراكيين الكاثوليكين فكثيرة العدد وتألفت على أثر الكتاب الذي نشره موسيو (كتلير) قس (ميانس) وسماه (مسألة الفعلة والنصرانية) وكان له شأن كبير في البلاد الالمانية وقد نقل في كتابه هذا كثيراً عن (لاسال) الاشتراكي وتخلص مثله إلى وجوب تأسيس شركات للتعاون والعمل يكون الغرض منها وضع رأس المال في يد الفعلة فتنحل بذلك مسألة الاجور. ولكن الذي عمم فكرة المؤلف وانتزع من كتابه طريقة اتفق عليها أهل المذهب انما هو أحد تلامذته وهو موسيو (موفانج) شماس كنييسة (ميانس) واليك بيان المهم منها

(ان أجور الفعلة غير كافية بحاجاتهم فوجب تداخل الحكومة وهي تتداخل لتؤيد النظام الذي تدعه طائفة كل حرفة لابلأها وعليها أن تقرر ساعات العمل وتقدر الاجور وتبين علاقة الصبيان مع الرؤساء والعمال مع

أصحاب المعامل وان تقرض جمعيات الفعلة ما تحتاج اليه من المال - وهنا يظهر ميل تلك الفئة الى الاشتراك - قال موسيو (موفانج) لست أوافق على المعامل التي يشير بها موسيو (لوزيلان) ولكنني لا أرى سبباً يمنع الحكومة من مساعدة جمعية الفعلة إذا استت على نظام متين (ومن مقاصدها أيضاً أن تجعل الحكومة حداً للظلم أرباب الاموال ولكنها لم تبين طريقة الوصول إلى ذلك قال موسيو (موفانج) (انى لا أتعرض للفنى ولا للاغنياء ولكن الذى ائدد عليه هي الطريقة التي يفتى بها اليوم أولئك الاغنياء والموسرون)

وليس بين هذا المذهب ومذهب الاشتراكيين الثورين الاتفاوت يسير وأهم ما يفرقان فيه هو اعتماد أحدهما على الدين . نعم أن أصحابه لا يقولون بوجوب جعل الاراضى كلها مشتركة الملك ولكنهم ليسوا بعيدين عن هذه الغاية لان مبادئهم توصلهم حتماً اليها فهم يطلبون أن يكون رأس المال مشتركاً بين جمعيات الفعلة ورأس المال جزء من ذلك الكل . وعلى كل حال فهم يطلبون جهاراً أن تكون الحكومة هي الرئيس العام في العمل وعليه تكون هذه الفئة تابعة حقيقة لمذهب الاشتراكيين كما عرفناه . وتكون تسمية نفسها بهذا الاسم حقيقة

والاخيرة هي طائفة الاشتراكيين المدرسين إلا أن رجالها غير متفقين على المبادئ لذلك يوجد بين مدرسى علم الاقتصاد من يقول بمذهب الاشتراكيين لكن على حذر وتهييب ومنهم من يتمشى فيه الى أكثر من ذلك حتى جهر بعضهم كموسيو (وجنير) إلى القول بوجوب تحديد الملكية

الشخصية والتوسع في الملكية المشتركة ولكنهم كلهم متفقون على رأى واحد من حيث وجوب حل المسائل كلها بواسطة وضع نظام دقيق للعمل والزيادة في تداخل الحكومة

وما سقت هذا البيان إلا لابرهن على أن المانيا وسط يتخلله مذهب الاشتراكيين من أسفل الطبقات الى أرفع المقامات فيها. وقبل أن تنتقل من هذا الموضوع ينبغى أن نأتى بالاختصار على السبب الذى أدى إلى هذه الحالة في تلك البلاد

كان ظهور مذهب الاشتراكيين فى الوجود معاصراً لتبدل الاحوال الاجتماعية فى الامة الالمانية بقيام سلطة الملوكية المطلقة مقام سلطة القرى والاقاليم كما حصل ذلك فى اسبانيا منذ ثلاثة قرون أيام فيليب الثانى وفى فرنسا منذ قرنين أيام لويز الرابع عشر والمطلع على التاريخ يعرف كيف بدأ ملوك البروسيا بهذه الحركة وكيف أن امبراطرة الالمان يهتمون منذ سنة ١٨٧ باتمام ما بدأ به الاولون وادخل التحسينات فيه حتى أصبحت المانيا كلها فى قبضة البروسيا والبروسيا كلها فى قبضة الحكومة. وقد مضى زمن طويل على حكومة البروسيا وهى تعمل بمبادئ الاشتراكيين وان لم تقل بها. فالتوسع فى الجندية حتى عمت جميع الناس وتنظيم المصالح الادارية على شكل غير بسيط يزداد تعقيداً فى كل حين يشبهان من جهات كثيرة ما يرمى اليه الاشتراكيون من النظام الذى يردونه للامة بتمامها فى المستقبل. ومن المعلوم أن الحكومة البروسيانة تضع يدها على كل رجل منذ الطفولية فتبتدي سلطتها عليه أولاً بواسطة المدارس ثم بواسطة الجندية لتربيه

حسب مشيئتها على المبادئ التي تختارها

وأكبر من ذلك كله اننا نجد في القانون المدني البروسياني نصوصاً مطابقة لمبادئ الاشتراكيين . جاء في الفقرة الاولى من الباب التاسع عشر مانصه (يجب على الحكومة أن تقوم بمعيشة الذين لا يقدرون على الارتزاق بانفسهم من مطعم وغيره أو الذين ليس في قدرتهم أن يتحصلوا على معيشتهم ممن هو مسئول عنها بمقتضى القانون) - الفقرة الثانية (يعين للذين لا عمل لهم شغل يليق بحالة كل واحد منهم) - الفقرة الثالثة (الاشخاص الذين يحملهم الكسل أو حب البطالة أو أى سبب آخر من الاسباب الرديئة على عدم الكسب وتحصيل وسائل المعيشة يستخدمون في الاعمال النافعة تحت ملاحظا الحكومة) الفقرة السادسة (للحكومة الحق كما هو واجب عليها أيضاً أن تؤسس مصانع ومعامل يكون فيها قوام حياة المحتاجين وتهذيب أخلاق المسرفين) - السابعة (لا يجوز للحكومة باى حال من الاحوال أن تأتى عملاً من شأنه حمل الناس على الكسل خصوصاً الطبقات النازلة أو يلهى عن الاشغال) - العاشرة . (على جهات الادارة البلدية في القرى ان تقوم بمؤنة فقرائها) -- الحادية عشرة . (وعليها ان تبحث عن أسباب ذلك الفقر وتحيط به السلطة العليا لتتخذ التدابير انواقية منه

ولا شك ان الامة التي تساس بمثل هذا النظام الذي يجهر بحق الناس في العمل ويقضى بتداخل الحكومة حتى يكون ذلك الحق تحت رعايتها ويوجب التداخل إلى هذا الحد في حياة الافراد الخصوصية تكون مهياً بالطبع إلى قبول مذهب الاشتراكيين والعمل بما جاء فيه . هكذا تدرجت

تلك الامة في مباحها طالبة حلال المسئلة الفعلة فوصلت الى وجوب مساعدة الحكومة لكل فرد بذاته وانه ينبغي تغيير نظام الاجتماع ذاته ولم تطلب الدواء من همة كل واحد بالذات . واذا تأملنا وجدنا ان هذه المبادئ التي قرأناها في قانون البروسيا المدني وهي التي يجاهر بوجوب اتباعها ملوك البروسيا وامبراطرة المانيا ويملون هم بها تأييد لسلطتهم المطلقة هي بعينها مبادئ الاشتراكيين ولا فرق بينهما الا ان الاشتراكيين اتخذوا تلك المبادئ صيغا تجرى على أسنتهم ومطالب قالوا انها هي مطالب الانسان أي الامم

ولقد كانت الطبقات الوسطى وطبقات الاشراف مستعدة لقبول هذه الاوامر كالتبقيات النازلة فان الافراط في الجندية وبلوغ الادارة ذلك الحد العظيم من الحسامة والاتساع عطل في هاتين الطبقتين وظائف العمل أولا ثم انتهى فجعلهما يعتبران الحكومة مصدر كل شيء في حياة الامة . وهم مستعدون لذلك أكثر من نظرائهم في فرنسا لان تعدد الثورات عندنا اضعف كثيراً من سلطة الحكومة وان كانت الجندية والادارة سواء عندنا وعندهم . ولا شك في ان القابضين على زمام الاحكام لا يسوسون الامة اليوم كما كانت تساس أيام الملك لويز الرابع عشر

ومما تقدم يتبين لنا ان السبب في ان الامة الالمانية صارت بمقتضى حكم الزمان منبعاً لمبادئ الاشتراكيين هو تأخرها قرناً كاملاً عن بقية أمم الغرب الاوروبي في سبيل الترقى

ويتأيد هذا اذا ثبت ان مذهب أولئك القوم انما ينتقل الى غير تلك البلاد منها وبواسطة الالمانيين أنفسهم واثبات ذلك أمر سهل يقوم بتتبع

سير المذهب في البلاد الاخرى

ففي فرنسا كان مذهب الاشتراكيين خاملا الى سنة ١٨٨٦ كما جاء في كتاب « واتزير » المسمى « مذهب الاشتراكيين العام » صحيفة ١٤٩ نقلا عن احدي جرائد الاشتراكيين الالمانيين اذ قالت متأسفة « يتقدم مذهب الاشتراكيين تقديما حقيقيا لكنه بطيء »

ومن ذلك الحين أخذ أحزاب ذلك المذهب في الظهور والاستقلال والنمو وكان القائم بحركة النمو على الخصوص أنصار مذهب « كارل ماركس » الالمانى. وأهم الرؤساء فيهم ريجلان موسيو « جول جيزد » وموسيو « لافارج » وكان يطلق عليهما اسم مركستيين نسبة الى ذلك الرجل لاجتهادهما في ادخال مبادئه التي وضعها في كتابه « رأس المال » بالبلاد الفرنسية. ومن المعلوم ان موسيو لافارج النائب عن مقاطعة « ليل » سابقا كان مصاهرا لذلك الاشتراكي الشهير لذلك لما نجح مؤتمر المركستيين في باريس سنة ١٨٨٩ صاح الاشتراكيون في ألمانيا طويلا بأصوات الفرح والانتصار. وفي هذا المؤتمر صرح موسيو « جيزد » بين تصفيق سامعيه بأن مذهبه انما هو مذهب الاشتراكيين الالمانيين (راجع كتاب « واتر » المذكور صحيفة ١٧٤) ثبت اذن ان مذهب الاشتراكيين في فرنسا مأخوذ عن مذهبهم

في ألمانيا وانه يسمى باسم أحد الالمانيين وانه ينتسب جهاراً الى ألمانيا وفي بلاد البلجيك اختلط مذهب الاشتراكيين بمذهب الفوضويين والمتطرفين وبقي زمنا تتجاذبه عوامل الخلف والنزاع ولم يخلص ويستقل الا بعد جهد وعناء. وفي ابان استقلاله رأينا اثنين من رؤسائه في

المانيا وهما موسيو « ببيل » وموسيو « بيرنستين » جاء الى البلجيك على الخصوص ليرشدا هذا الضوء الناشئ الى الطريق المستقيم وكان لهذا التداخل تأثير أثبتته أحد مؤرخي مذهب الاشتراكيين هو « واتر » صحيفة ١٢٢ حيث قال (كان مذهب الاشتراكيين في البلجيك منقسما على نفسه بغير نظام فأصبح اليوم في نوع من الترتيب والانضمام على نسق المذهب الألماني)

والذي أدخل مذهب الاشتراكيين في بلاد هولنده رجل كان من رعاة الكنيسة وهو « دوملانيو فانهويس » وقد سافر هذا الرجل منذ ثلاث سنين الى برلين « ليتعلم من الاشتراكيين الألمانين طريقة عملهم في الانتخابات » وهذا الامر وحده كاف في بيان ان المذهب في هولنده مستمد من ألمانيا حتى انهم لا يقتصرون على الاخذ بمبادئهم بل يأخذون عنهم أيضاً كيفية أعمالهم في الانتخاب

وهذا حال بولونيا فلما عقد مؤتمر الاشتراكيين في باريس سنة ١٨٩٠ كان النائب فيه عن اخوانهم في بولونيا سيدة يقال لها « جانكويسكا » وقد جاء في تقريرها عن أهل حزبها « انهم يجتهدون دائماً في تقليد اخوانهم الألمانيين على قدر الامكان في طرق نشر المذهب وكيفية السير واثارة الافكار) فالمانيا هي صاحبة الصوت أيضاً في بولونيا

أما الروسي فلم يكن لمذهب الاشتراكيين فيها من الرسل الا العدميون والفوضيون حتى هذه السنين الاخيرة غير ان الحال تبدلت منذ بضعة أعوام كما ذكر ذلك في مؤتمر باريس فكان للروسيا مندوبان اثنان فيه

أحدهما (لاروف) الثورى الشهير القديم ومن قوله فى ذلك المؤتمر أن الثورة فى روسيا تقرب كل يوم من حزب الاجتماعيين وأن حزبها يتقرب إلى مذهب الاشتراكيين الألمانين ويعمل على طريقهم) هذا وقد نشر موسيو (بليكانو) أحد زعمائهم فى روسيا كتاباً هو فى الحقيقة مذهب كارل ماركس بتمامه وأسس حزب الأحرار الاجتماعيين الروسين جريدة سماها باسم أشهر جرائد الاشتراكيين فى ألمانيا ونقل عنه الكلمة التى اتخذها شعاراً وهى (يا أيها النساء من كل بلد أفاتحداوا) وكان ظهور تلك الجريدة الروسية فى (جنيف) سنة ١٨٨٨ والغرض منها كما جهرت به نشر مبادئ مذهب الاشتراكيين الألمانين فى روسيا

ومذهب الاشتراكيين لا يزال نبتاً حديثاً فى بلاد رومانيا ومع ذلك فقد قال نائبها فى مؤتمر باريس وهو (ماتى) القائم بالحركة فى تلك البلاد ما يأتى (يتقدم مذهب الاشتراكيين حتى بين الفلاحين وأكبر المساعدين لهم المعلمون فى مدرسة (جاسى) وطلبها لأنهم ترجموا كتب كارل ماركس و (آنجل) و (لاسال) وهؤلاء هم أقطاب المذهب الألمانى

وقال موسيو (واتر) (ولد مذهب الاشتراكيين فى سويسرا من المذهب الألمانى وكان بينهما على الدوام روابط محكمة العرى فانا نشاهد الاشتراكيين السويسريين بجانب إخوانهم الألمانين فى كل مكان يتقابلون فى المجتمعات ويتحدثون فى الأدب والمبادئ ويتضافرون فى مقاوماتهم ويتعاونون على ما يطلبون) ولا عجب بعد هذا من أن الاشتراكيين فى مدينة (بال) احتفلوا فى الرابع من شهر ستمبر بتذكار وفاة (لاسال)

الاشتراكي الألماني وأنهم عقدوا في اليوم الثاني اجتماعاً عمومياً دعوا اليه موسيو (ليكنخت) وهو أيضاً اشتراكي الماني لينشر بينهم مذهب كارل ماركس . وللأشترائيين السويسريين جرائد خاصة بهم إلا أن قائدهم لا تزال تلك الجريدة الألمانية الشهيرة فانها روح اجتماعاتهم في (زورخ) و (اترتور) و (آرو) و (بال) و (فروانفلد) و (صان غال) و (شافوز) و (كوار) و (زوج) و (نيوشاتيل) و (لوزان) و (جنيف) وغيرها .

وعليه فسويسرا هي إذن ضحية من ضحايا المذهب الألماني كذلك يأخذ التليان مذهبهم عن ألمانيا ويكفي للدلالة عليه أن نذكر التفراف الذي بعث به أعضاء نادي المتطرفين في رومه باسم الاشتراكيين التليانين الى الاشتراكيين الالمانيين بمناسبة فوزهم في الانتخابات وهو (أن النادي ... يسلم على الاشتراكيين الألمانين الذين هم دعاة الثورة الجديدة طلباً لتقرير العدل الاجتماعي ولا يزال الأحرار التليانيون يذكرون مفتخرين ما أنبأهم به (منزني) منذ سنين عديدة مع ما كان عليه من كراهة مذهب كارل ماركس وهو أن ألمانيا الجديدة وإيطاليا الجديدة هما اللتان يقومان في المستقبل بحل المسئلة الاجتماعية)

ويتضح مما تقدم بأجلى بيان أن ألمانيا هي منبع مذهب الاشتراكيين وأنها هي التي ثبته وتشره في الأمم الأخرى ويؤخذ منه أيضاً أن جميع البلاد لا تقبل مذهب الاشتراكيين بدرجة واحدة فمنها ما تكون أرضها مستعدة لنمو بزوره كالتى ذكرناها ومنها ما ليس كذلك كبلاد نرويج وانكلترة والولايات المتحدة وغيرها من البلاد التي

احتلها العنصر الانكليزي السكسوني

أما كون بلاد النرويج غير صالحة لانتشار المذهب فثبتت من رسالة نشرتها جريدته الالمانية الشهيرة وفيها يشكو المكاتب من الشكوي من ذلك الحال ويعزوها لما عليه تلك البلاد من التمسك الشديد بالدين وهو تلميل ضعيف لاننا رأينا في المانيا كثيرا من الكاثوليك والبروتستانت وفي مقدمتهم زعماء الكنيسة قد اعتنقوا مذهب الاشرائيين

وما من شيء يستوقف النظر كخيرة مؤرخي هذا المذهب عند الكلام عليه في انكلترة فانهم لا يجدون أو يكادون أن لا يجدوا شيئا يذكره عنه في تلك البلاد اللهم الا ما قاساه موسيو «اقلين» من الاتعاب - هو أيضا صهر لكارل مركس - التي ذهبت أدراج الرياح «وهنا أيضا دليل على وجود الاصبع الالمانى» وكذلك اتعاب الشاعر «موزيس» ومسيو «هندمان» وهما رجلان خرجا عن تقاليد قومهم فلم يلتفت اليهما أحدا الا ساخرًا. وقد أتت الرسالة السنوية التي ينشرها الدكتور «لودويج ريشتر» في كل سنة عن حالة المذهب في جميع البلدان خالية من ذكر انكلترة والسبب الذي ذكره لذلك هو «انه لا يوجد شيء يقال» وحاول موسيو «ويزيوا» في كتابه «حركة مذهب الاشرائيين في أوروبا» صحيفة ٢٠٩ بيان علة عدم انتشاره في انكلترة فقال «ان الانكليز شخصيون بفطرتهم يريدون أن يتركوا لانفسهم ليحصل كل واحد منهم رزقه بالطريقة التي يرضاها وطباعهم تأتي أن يتجنّدوا تحت أى لواء كان وان يتنازلوا عن استقلالهم الذاتي طلباً لعمل مشترك وهذا فيما أرى أحد الاسباب التي تجعلهم لا يعيلون

الى مذهب الاشتراكيين

واذا انتقلنا الى الولايات المتحدة رأينا كذلك ان هذا المذهب لم يدخل بين العناصر الانكليزية السكسونية لانه يقاومه كما يقاوم كرم تلك البلاد آفة العنب « فيلو كسرا » وليس له في تلك البلاد أحزاب الامن الارلنديين وعلى الخصوص من الالمانيين كما شهد به موسيو « واترير » في كتابه « مذهب الاشتراكيين العام » صحيفة ٢٣٣ حيث يقول « انا عقدنا هذا الفصل للكلام على مذهب الاشتراكيين في أمريكا وكان حقه ان يعنون بمذهب الاشتراكيين الالمانيين في أمريكا لان أجزاءه في تلك البلاد وأخص القاطنين به فيها لا يزالون من الالمانيين ومن رؤسائهم من كان عضواً في مجلس النواب الالماني ولقد كان كارل ماركس يرجو النجاح لمذهبه في الدنيا الجديدة وأشار بنقل مجلس أبحاثه الى تلك البلاد فخاب رجاؤه » وقال أحد الاشتراكيين الالمانيين يصف المذهب في أمريكا « ان ذلك الحزب لا وجود له الا بالاسم لان أصحابه لا يمكنهم اني كانوا ان يكونوا حزبا سياسياً . والمذهب نفسه يخال انه أجنبي في الولايات المتحدة فقد كان الى عهد قريب لا يقول به غير المهاجرين من الالمانيين الذين كانوا يتكلمون بلقمتهم ولا يعرفون اللغة الانكليزية الا قليلا ثم ان هؤلاء المهاجرين رأيا مخصوصاً في وسائل انتشار الفعلة من التبعية التي هم فيها لا يفهمه الا النذر اليسير من الفعلة الامريكيين » . ولقد اجتهد كثيراً في استمالة انكليز أمريكا الى مذهب الاشتراكيين فبعثوا اليهم كثيرين من الالمانيين نذكر من بينهم موسيو « لبيكنخت » واحدى بنات كارل ماركس التي تزوجت

موسيو « اقلين » فضاع كل ذلك سدى ورفضت جمعيات الفعلة الانضمام الى حزب الاشتراكيين وخسر الالمانيون ما بذلوا من الفصاحة وذلاقة اللسان . ثم عمد بعض الاشتراكيين الى الانضمام في سلك بعض طوائف الفعلة العظيمة التي بلغ أعضاؤها أكثر من مليون من النفوس وحسبوا انهم بذلك يتوصلون الى نشر مبادئهم شيئاً فشيئاً ولكنهم لم يفعلوا » وقال لهم رئيس الطائفة الاعظم ان رغبته موجهة الى « تطهير طائفته من تلك العناصر الثوروية المتطرفة » وعرض بعضهم رأياً مبناه الاقرار على مجرد الميل الى استعمال الوسائل الثوروية فرفض الطلب بمائة وواحد وخمسين صوتاً ضد اثنين وخمسين

كذلك لم ينجح الاشتراكيون لدى حزب الفعلة المجتمعين اذا قصيت منه جميع اللجان التي تلوث بمذهبهم بقرار صدر من الجمعية العمومية في « سيراكيز » والى الآن لم تنجح المساعي في نشر جريدة واحدة للاشتراكيين باللغة الانكليزية وللمذهب عشر جرائد كلها باللغة الالمانية وهو أمر فيه نظر عظيم . . . ومن هنا يتبين السبب في انه لم يأت في مؤتمر الاشتراكيين الاخير بباريس من أميركا الا المحازبون الالمانيون واضطر المندوب المقرر وهو موسيو « كيرشنر » الالماني أن يقول في تقريره « ان الفضل في كون الفعلة الامريكيتين أخذوا يدركون معنى التحزب راجع بالاختصاص الى المهاجرين الالمانيين فانهم لم ينشئوا عن إرشاد تلك الجموع التي لا يزال الجهل يعنى بصائرهم وتنظيم شتاتهم

ثبت اذن ان القائمين بنشر مذهب الاشتراكيين في بلاد الانكليز

السكسونيين هم الالمانيون وانهم لاينجحون معها اجتهدوا وتأبروا وهو أمر جديد لم نعهده فيما مضى وهذا هو ما يمتاز به تلك البلاد على التي ذكرناها من قبل فهم فريق قائم بذاته أهم صفاته انه نفور من مذهب الاشتراكيين

والسر في هذا الاستثناء ان نشأة العنصر الانكليزي السكسوني استقلالية محضة كما ان نشأة العنصر الالماني اتكالية بالمرّة وبينما تفوذ حكومة الالمانيين يمتد امتداداً فوق الحد الذي ينبغي حتى أمات الهمم النفسية ومحركة القرى الذاتية ترى حكومة الفريق الثاني لم تتمكن من الاستيلاء على سلطة كبرى بل وقفت على الدوام عند حدها بما تلاقيه من اتحاد القوتين حياة كل فرد بذاته واستقلال كل قرية بخصوصها . فالمانيا هي اليوم الوسط الذي بلغت فيه اثره الحكومة منهاها وبلاد الانكليز السكسونيين هي الامم التي عاش أفرادها مستقلين وحكموا أنفسهم بأنفسهم . ومن البديهي حينئذ ان لا ترى الاولى سبيلا لحل المسئلة الاجتماعية في غير تداخل الحكومة وسن اللوائح وجعل آلات العمل مشتركة بين جميع الناس من أهلها وان الثانية لا تطلب النجاة الا من هم الافراد وترفض كل الرفض ذلك الاشتراك الجديد الذي يعرض عليها

ولست في حاجة الى تكرار الاسباب التي أوجبت هذا الاختلاف العقلي بين الامتين ولكني أحيل القراء على ما كتبتة عن ذلك مفصلا في الجزء الثالث صحيفة ٥٥٨ وما بعدها والجزء الرابع صحيفة ١٣١ وما بعدها من مجلة العلم الاجتماعي واكتفي بان الالحظ ان أثر هذا الاختلاف في النشأة

يتناول الموضوع الذى نحن فيه

ثبت مما قدمناه ثلاثة أمور: ان ألمانيا هي منبع مذهب الاشتراكيين وان الالمانيين هم الذين ينشرون مذهب الاشتراكيين فى الدنيا وان مذهب الاشتراكيين لا ينتشر فى الامم التى ثبت فيها هم الافراد الذاتية وقل تداخل الحكومات

ولم يبق عندنا الا البحث فيما اذا كان مذهب الاشتراكيين الالمانيين هو الافضل فى حل مشكلة الفعلة أم استقلال الانكليز السكسونيين وفيما هو الحل الذى يدخره المستقبل

وانى أرجو من القراء أن يعتقدوا بأن نظام الاشتراكيين ليس بالجديد أبداً كما يميل الى اعتقاده أولئك الذين ادعوا انهم اخترعوه بل أقول انه قديم قدما عظيما حتى انصرم عمره وانقضت أيامه وصار من السهل الوقوف على ما يأتى منه فى المستقبل بمعرفة ما نتج عنه فى الماضى

ونحن اذا جردنا المذهب من تلك الالفاظ المقعرة ورجعنا به الى صورته الحقيقية رأينا انما يتقهقر بنا الى ما كانت عليه الامم الغابرة تقهقر البسطاء ان لم أقل تقهقر الجهلاء وسنرى ان كان هذا النظام يليق بالمستقبل ولنقتصر الآن على العلم بأنه كان نظام الزمن الذى مضى وانقطع

يريد الاشتراكيون كما عرفنا أن تكون الملكية وآلات العمل وهى وسائل العيش فى الدنيا مشاعا للمجموع وان المجموع يكون هو الرئيس الأكبر وهو الذى يوزع ما تحصل من العمل على كل عامل بحسب شغله أو بحسب حاجاته ولم يهندوا تماما الى الاتفاق على طريقة التقسيم

هذا هو مثال الجمعية التي يطلبها الاشتراكيون وفي ظني انه غير مجبول عندنا فهو الذي ساد على الامم في الأعرص الاولى ومع ما كان يوجد بين تلك الامم من أوجه الافتراق والاختلاف كانت كلها قائمة على الملكية المشتركة

فكانت الارض عند بعضهم كالرعاة الرحل ملكا لجميع السكان وكان الجميع يشتغلونها أقساما بحسب العائلات والقائل التي يرجع نسلها الى أصل واحد . كذا كان حال أقوام الزبوز وقبائل العرب والمغاربة وغيرهم فلما استقرت تلك الشعائر النقلة في نواحيها أقامت كل عائلة وكل قبيلة بالطبع كما كانت من حيث شيوع أملاكها والاشتراك في منافعها . وكان هذا شأن جميع الامم القديمة كالعبرانيين والجرمانيين والسلافيين وغيرهم من كانوا يقسمون الاراضي بين الجميع كل حين . ومن الامم من أسلمت ملكية أرضها الى الوازع وصار هذا سيداً عاماً مكلفاً كما يتتقى الاشتراكيون بتوزيع العمل بالقسط بين الناس وتقسيم ثمراته عليهم وإيجاد معاش للارامل والشيوخ وأكبر مثال لهذا النظام هي مصر أيام الفراعنة واني أكتفى هنا بذكر جملة هذه المسائل المعروفة عندنا وارجع القراء ان أرادوا زيادة الشرح الى ما كتبتناه في مجلة العلم الاجتماعي « رسالة الفنون أيام الرعاة ورسالة الزراعة بالاشتراك جزء أول وثاني وثالث وعاشر ورسالة مصر القديمة لموسيو « بريثيل » جزء تاسع صحيفة ٢١٢ و٥٤٩ وجزء عاشر صحيفة ١٦٠ و٣٣٨ وجزء حادي عشر صحيفة ٨٠ و٢٥٢ وجزء ثاني عشر صحيفة ٦٩ وغيرها)

علي ان نظام الروكية ليس خاصاً بالامم السالفة بل ظل موجوداً في

بعض جهات المسكونة الى يومنا هذا ولا يزال سائداً بين أهل آسيا وأفريقيا الشمالية بل وبين جميع بلاد أوروبا الشرقية . فن المعلوم أن القرية التي تسمى عندهم (مير) عبارة عن روكية عظيمة هي التي تملك الأراضي وتقسما بين روكيات العائلات في كل حين بحيث لا يكون تحت يد كل عائلة من الاطيان إلا بنسبة عدد الذين يعملون من أعضائها فالشغل مشترك كملكية الأراضي

ثبت إذن أن الروكية ليست حلاً جديداً بل هي موجودة من يوم خلق الله الدنيا ولا يزال بعض الأمم يعيش فيها

ودفعاً لما عساه يقال من أنه حل مرضى ينبغي لنا توسع في البحث حتى نرى الأشياء كما هي وأبدأ باستلقات القراء إلى المشاهدين الآيتين الأولى علمنا من التاريخ أن إحدى أم الأزمان السابقة تقدمت كثيراً على البقية وانتهى بها التقدم أن سادت على من سواها وأعني بها الأمة الرومانية وما يستوقف النظر أن الأمة الرومانية هي التي تمكنت من التخلص من الروكية بدرجة لم تصل إليها أمة سواها ولذلك أسباب شرحها موسيو (بريثيل) في مجلة العلم الاجتماعي الصادرة في شهر يناير سنة ١٨٩١ ضمن رسالة على الرومانيين في مصر القديمة . نعم انها لم تتخلص منها تماماً لأن ذلك الحظ لم يتوفر لأمة من أمم الأزمان القديمة غير إنا لانجد أمة عظمت شأن الملكية الشخصية وبالنت في احترامها مثل الأمة الرومانية وفيها وصلت أنانية الانسان الى أعظم نمو أتيح لأهل تلك العصور وفيها صار الانسان مسئولاً عن نفسه وعن عمله وفيها عرف الانسان أنه لا ينبغي له الاعتماد

إلا على نفسه وتأسست الملكية الخصوصية التي هي تقيضة الملكية المشتركة وصار للملكية الأفراد على الارض من الاعتبار ما وصل الى حد العبادة حتى أنهم جعلوا حدود الاملاك من الامور المقدسة وقالوا بوجوده اله يسمى اله الحد وأقاموا أعياداً دعواها الحدية وتقرر أن الحد متى تقرر لا يجوز نقله . وقد جاء في قصصهم ما يدل على هذا حيث نسبوا إلى (جويتير) عظيم الآلهة أنه أراد أن يبني له هيكلًا على جبل (كاييتولان) ولكنه لم يتمكن من نزع ملكية من مالكة اله الحد وعد الذي يهدم الحد أو يزرحه خارجاً على الله ومارقاً في الدين وجاء في قوانينهم القديمة ما يشير إلى أن الرجل إذا أصاب الحد بطرف محرائه يصير ضحية هو وأثواره لآلهة النيران وعلى هذا فالامة التي ارتقت وسمت فوق كل الامم في العصر البعيدة عنا كانت أقلهم اتكالا

المشاهدة الثانية أن استقرار أحوال الأمم الحاضرة يدلنا على أن التي لا تزال النشأة الاتكالية فيها شديدة هي أعظمها تأخرًا وأقلها مالا وأضعفها جانباً قد سبقتها في كل شيء جميع الامم التي نمت فيها الملكية الشخصية وعظم فيها تأثير المرء منفرداً وذلك لا نحتاج فيه الى دليل غير النظر في أحوال الأمم الشرقية التي هي الاتكالية والامم الغربية التي هي الأمم الاستقلالية على اختلاف بينها حيث تبدو لنا الاولى غارقة منذ قرون عديدة في سبات عميق وتبدو لنا الثانية في مظهرها العظيم وقد أبلغت العمل الى الغاية القصوى ورفعت قدر الانسان الى أعلى الدرجات وجعلتنا حائزين على أفضلية لم تنلها امم قبلنا مما نفتخر به وتديه على الملأ وما كنا لنعرف سبب

عجابنا قبل قيام العلم الاجتماعى .
 وإذا جعلنا النظر رأينا أن أكبر أمم الغرب همة فى العمل وأرقام فى
 زراعتها وصناعاتها وتجارتها وأشدهم بأسا فى التنافس الذى تخشاه الامم الاخرى
 وأسرعهم الى احتلال الاقاليم التى لا تزال خالية فى الدنيا هى تلك الامة
 الانكليزية السكسونية التى لا تمارى والتى ضاقت بها بلاد انجلترا فتدفقت
 فى الجهات الاربع وترعرع فى أمريكا غصنها القوى فكانت الولايات المتحدة
 وكل يربى هذا حتى الذين لا يبصرون . ومن المعلوم أن الامة الاستقلالية
 الحقيقية بين أمم الغرب هى الامة الانكليزية السكسونية وأنها أبعدهم عن
 النشأة الاتكالية وأنها هى التى بنفت عندها همم الافراد منتهاها ووصلت
 سلطة الحكومة إلى أداها

هكذا كانت الامتان اللتان تمكنتا من أعناق للعالم فى الزمنين أبعد
 الرومان فى العهد القديم وأمة الانكليز السكسونيين فى هذا الزمان أمة
 الامم عن الاتكال وما هذا الاتفاق بصدفة فان الصدفة محال وإنما هو
 لازم من لوازم نشأة الاستقلال والاقتناع بما نقول سهل ميسور
 ولقد يمكننا أن نلخص الموضوع فى كلمتين . ما اعتمد الانسان على غيره
 وانتظر المعونة من المجموع إلا وقت هتمته وقعد عن الكد بنفسه ليكسب
 معيشته وما عرف الانسان إلا أنه لا اعتماد له إلا على نفسه ولا معونة إلا
 من عمله الذاتى إلا وكبرت هتمته واشتد على الكسب ساعده ليحصل رزقه ويترقى
 على الدوام

حال الأفراد فى الامم الاتكالية كحال موظفى النظارات ومستخدمى

المصالح وهي حال لا تربى في المرء ميلا الى العمل كما هو معروف لانه نظام يقتل في الانسان ملكة العمل وتقدير فوائده العظمى . فاذا تناول ذلك النظام أمة بتمامها انتشرت آثاره بحسبه واذا دام توارثه زمنا طويلا من الآباء الى الابناء اشتد ظهور تلك الآثار على قدر مدته فتضعف القدرة على العمل نوعا في الولد بعد أبيه ويشتد الضعف في بنيه وهكذا حتى يصل الجيل الاخير الى خمول ذلك الرجل الشرقي الذي لم يبق له من القدرة على العمل الا ما يحصل به القوت كيلا يموت جوعا . ومهما قلبنا الحوادث وفتشنا في بطون التواريخ لانستخلص غير نتيجة واحدة هي ان النشأة الاتكالية قد أضعفت الهمم في كل زمان وعطلت استعداد الافراد الى العمل وجعلت أهلها من الضعفاء المتأخرين فان الاتكال وسادة لينة تليق بمن يميل الى النعاس ولكنه ما كان يوما بوقا يقوم على صوته من رام النهوض

ولعل قوما يقولون ان ذلك لمن أحب الاشياء اليهم وانهم يفضلون النوم على القيام لان غاية التمني في الحياة أن يستريح المرء مما استطاع لان يشقى ما استطاع وانهم يرتاحون لخمول أهل النشأة الاتكالية ولا يتسمون لذلك الكد والعناء التي تنميه النشأة الاستقلالية . وأنا أدرك هذا الاعتراض بل أقول ان فيه رفقا وحنانا بالناس وليس فيه عيب الا ان ما يطلبون محال لسببين

الاول ان الاسباب الطبيعية التي تولدت عنها النشأة الاتكالية في الازمان الماضية لم تعد مؤثرة في هذه الايام ولا عامة كما كانت . فالاصل في وجود تلك النشأة حالة البداوة الاولى التي ظهرت في سهول آسيا الفسيحة

ذات الاعشاب الكثيرة حيث بدأت الانسانية في الترقى فلما تفرق الناس استصحبوا معهم نشأتهم الاولى وادخلوها حيث استقر بهم المقام ولم تتغير الا حسب ظروف كل بلد وطباع الساكنين فيه فخفضت لسلطانها جميع الامم القديمة كما يبناء لانها كانت قريبة العهد بمولدها ولان تلك النشأة كانت لا تزال كما وجدت باقية في البلاد المجاورة لاعظم سهل موجود على وجه البسيطة . ومعلوم ان البداوة لم يمد لها ذلك التأثير على الامم خصوصاً في الغرب لانها بعيدة عنها زماناً ومكاناً ولوجود الامم الاستقلالية في الغرب من يوم ظهور الدين المسيحي لاسباب وظروف شرحت في مجلة العلم الاجتماعى ولا حاجة بنا الى تكرارها (جزء اول صحيفة ١١٠)

ثبت اذن أن السبب الاول المؤثر في وجود النشأة الاتكالية لم يمد صالحا اليوم لغايته وانهم يريدون احياء تلك النشأة بسبب صناعي هو القهر أى سن القوانين أى تداخل الحكومة حتى تصير الرئيس الاعظم على الكل في المجتمع الاشتراكي الذى يتألف في خيال الاشتراكيين . وبديهي أن هذا الخيال لا يتحقق اللهم الا اذا اصطدم مع طبائع الاشياء فقلبها وناطح جميع المنافع المتألفة طبعاً عليه فانتصر عليها لانه عبارة عن تجريد كل من كان في يده متقال ذرة من الارض أو يسير من آلات العمل مما ملك ولسنا نرى كيف الوصول الى هذا السبيل على فرض أن الناس كلهم سهل يلين لكل مطلب ولكن الاشتراكيين لا يتحIRON

هب أنهم نجحوا - ولا أدري كيف أنهم نجحون - فادخلوا نظامهم الاشتراكي في البلاد التي لهم في هذه الايام بمض النفوذ بين سكانها

المصالح وهي حال لا تربى في المرء ميلا الى العمل كما هو معروف لانه نظام يقتل في الانسان ملكة العمل وتقدير فوائده العظمى . فاذا تناول ذلك النظام أمة بتامها انتشرت آثاره بحسبه واذا دام توارثه زمناً طويلاً من الآباء الى الابناء اشتد ظهور تلك الآثار على قدر مدته فتضعف القدرة على العمل نوعاً في الولد بعد أبيه ويشتد الضعف في بنيه وهكذا حتى يصل الجيل الاخير الى خمول ذلك الرجل الشرقي الذي لم يبق له من القدرة على العمل الا ما يحصل به القوت كيلا يموت جوعاً . ومهما قلنا الحوادث وقتشنا في بطون التواريخ لانستخلص غير نتيجة واحدة هي ان النشأة الاتكالية قد أضعفت الهمم في كل زمان وعطلت استعداد الافراد الى العمل وجعلت أهلها من الضعفاء المتأخرين فان الاتكال وسادة لينة تليق بمن يميل الى النعاس ولكنه ما كان يوماً بوقا يقوم على صوته من رام النهوض

ولعل قوما يقولون ان ذلك لمن أحب الاشياء اليهم وانهم يفضلون النوم على القيام لان غاية التمني في الحياة أن يستريح المرء مما استطاع لان يشقى ما استطاع وانهم يرتاحون لخمول أهل النشأة الاتكالية ولا يتسمون لذلك الكد والعناء التي تنمية النشأة الاستقلالية . وأنا أدرك هذا الاعتراض بل أقول ان فيه رفقا وحنانا بالناس وليس فيه عيب الا ان ما يطلبون محال لسببين

الاول ان الاسباب الطبيعية التي تولدت عنها النشأة الاتكالية في الازمان الماضية لم تعد مؤثرة في هذه الايام ولا عامة كما كانت . فالاصل في وجود تلك النشأة حالة البداوة الاولى التي ظهرت في سهول آسيا الفسيحة

ذات الاعشاب الكثيرة حيث بدأت الانسانية في الترقى فلما تفرق الناس استصحبوا معهم نشأتهم الاولى وادخلوها حيث استقر بهم المقام ولم تتغير الا حسب ظروف كل بلد وطباع الساكنين فيه فخفضت لسلطانها جميع الامم القديمة كما يبناء لانها كانت قريبة المهدي بولدها ولان تلك النشأة كانت لا تزال كما وجدت باقية في البلاد المجاورة لاعظم سهل موجود على وجه البسيطة . ومعلوم ان البداوة لم يمد لها ذلك التأثير على الامم خصوصاً في الغرب لانها بعيدة عنها زماناً ومكاناً ولوجود الامم الاستقلالية في الغرب من يوم ظهور الدين المسيحي لاسباب وظروف شرحت في مجلة العلم الاجتماعي ولا حاجة بنا الى تكرارها (جزء اول صحيفة ١١٠)

ثبت اذن أن السبب الاول المؤثر في وجود النشأة الاتكالية لم يمد صالحا اليوم لغايته وانهم يريدون احياء تلك النشأة بسبب صناعي هو القهر أي سن القوانين أي تداخل الحكومة حتى تصير الرئيس الاعظم على الكل في المجتمع الاشتراكي الذي يتألف في خيال الاشتراكيين . وبديهي أن هذا الخيال لا يتحقق اللهم الا اذا اصطدم مع طبائع الاشياء فغلبها وناطح جميع المنافع المتألمة طبيعياً عليه فانتصر عليها لانه عبارة عن تجريد كل من كان في يده متقال ذرة من الارض أو يسير من آلات العمل مما ملك ولسنا نرى كيف الوصول الى هذا السبيل على فرض أن الناس كلهم سهل يلين لكل مطلب ولكن الاشتراكيين لا يتحIRON

هب أنهم نجحوا - ولا أدري كيف أنهم ينجحون - فادخلوا نظامهم الاشتراكي في البلاد التي لهم في هذه الايام بعض النفوذ بين سكانها

اذ ذاك تنتصب أمامهم العقبة الثانية ولا غالب لها فتسد في وجههم الطريق سداً مكيناً وهي السبب الثاني الذي بقي الكلام عليه

الثاني اذا تم فوز الاشتراكيين بما يشتهون لا يلبثون أن يروا جميع نتائج النشأة الاتكالية قديما وحديثا بادية بين جموعهم الاشتراكية عملا بسنة العلة بذاتها تنتج المعلول بذاته أبداً . ويكون فعل تلك النتائج في الناس أشد لان النظام الذي يطلبه الاشتراكيون الالمانيون أقسى وأخرج من الذي عرفناه عن زمن الفراغنة في الإمة المصرية . هنالك يستولي الضعف بعينه على دعائم تلك الامم ويدخل الانحلال الى أعصابها الحيوية وهو الذي رمى بامم الزمن القديم بين يدي الزمان . نعم لسنا نخاف اليوم من الرومان الا انه يوجد في طريق الامم الاشتراكية خصم أشد بأسا وأصعب مراسا وهو الجنس الانكليزي السكسوني الذي هم بالاستيلاء على الدنيا بما أوتيه من نمو همة افراده الى الحد المستطاع . أصبح بعد هذا أن الزمن مناسب لبث روح مذهب الاشتراكيين بين الامم

وكيف يخطر بالبال أن تلك العقول النيرة لا تجد من الاصلاح ما تشير به علينا الانظام الشرق مع زيادة في القيود وتشديد في التعاليم وأنهم يختارون لتقديم هذه المشورة ذلك اليوم الذي بلغت فيه قوة الغرب على الشرق منها . أجل لن تبطل عنهم نتيجة عملهم هذا وقد نبأنا بها التاريخ على أن مايجرى اليوم كاف للدلالة عليها

يجرى اليوم أن أمم الغرب تحتل سائدة أمم الشرق وتنشئ فيها المستعمرات وتقيم الحكومات أو تضمها الى أملاكها ضما لا محتاج فيه الى

مشورة أو استئذان . يجرى اليوم ان تلك الامم الاتكالية أصبحت كأنها خلقت ليحتلها قوم آخرون . والامة الانكليزية السكسونية هي التي تتقدم جميع الامم في هذه السيادة العامة فلو انا وضعنا أنفسنا موضع أمم الشرق لزدنا في سيق الانكليز السكسونيين علينا ولقدمنا اليهم فريسة أخرى . وليست الحرب سجالا بين أمتين أمة نمت فيها الهمة والاقدام بين أفرادها وأمة باتت فيها الهمم مضغوطة عليها فتمطلت بل لا بد أن تستعلى الاولى على الثانية

أهذا هو الذي يخظر بأحلام الاشرى كيين الالمانيين وهل يرون من أنفسهم ميلا الى أن يصيروا الى ماصار اليه هنود أمريكا أمام الانكليز من سكانها

ومع ما تقدم كله فلسنا ممن يقول بانه ليس في الامكان أبدع مما كان بالنظر الى الحالة الراهنة كما يذهب اليه فيما يظهر بعض الاقتصاديين . الا ان خطأ الذين يسعون وراء حل مرضى للمسئلة الاجتماعية يأتي من الميل الى زيادة تداخل الحكومة والضغط على همم الافراد الذاتية والواجب بالعكس فان الحقيقة التي تبرهن عليها الحوادث هي انه يجب علينا أن نحذو على الدوام حذو الامم التي تقدمت على غيرها في الماضى وفي الزمن الحاضر لا بقوة السلاح بل بما هو أشد بأسا منها وهي قوة النظام الاجتماعى

ومن المشاهد أن هذا النظام هو أليق الاحوال لحل المسائل التي اختلف عليها المشتغلون بالعمل في جميع البلاد وأعنى بها مسئلة الفعلة التي يدعى الاشرى كيون باطلا انهم عثروا على مفتاحها . والدليل على ما تقبل

ان الامم الاستقلالية هي التي أصبح فيها عاملا العمل وهما السيد والفاعل في أحسن الاحوال الموافقة لفض جميع المنازعات التي تحدث بسبب اتساع النطاق في المعامل الصناعية . ولا حاجة بي أن أبرهن على ان النشأة الاستقلالية تنمى بذاتها في الرؤساء الهمة والاقدام وتمودهم على الاعتماد على أنفسهم وتربى فيهم ملكة استنباط المشروعات أكثر من النشأة الاتكالية بدليل الفرق بين أمم الغرب وبين أمم الشرق . ولا مشاحة في ان هذه الصفات المتعددة لازمة للنجاح في ادارة العمل بالنظر الى الظروف والاحوال الجديدة الدقيقة التي طرأت على الصناعة بعد اكتشاف مناجم الفحم . كما أنه لامراء في ان مثال الرئيس الكبير ذى الكفاءة التامة والاقدام قدما وتقدم في الامة الانكليزية السكسونية أكثر مما عليه أهل الامم الاتكالية أو التي تميل الى الاتكال وهذا التقدم هو الذى جعل لتلك الامة أفضلية يخشاها الجميع في الصناعة

قالوا (وما الذى يفيد هذا فى تحسين حال العامل وهو المقصود أولا وبالذات) والجواب على ذلك بسيط

فأول شرط فى اطمئنان الفعلة على وجود ما يعملون فيه با كبر ما يمكن من الفائدة لهم أن يكون الرؤساء ذوى أهلية كافية لانجاح صناعتهم ولا شك فى ان النظام الذى يربى فى الرؤساء ذلك الاستعداد يكون مناسباً لتحسين حال العمال اذ متى نمت صناعة الرئيس تيسر له أن يدفع لعماله أجوراً طيبة وسهل عليهم تخصيص نصيب من أموالهم لايجاد المنشآت التي تدفع عن رجالهم جوائح الزمان فتعينهم اذا احتاجوا وتكفل لهم رزقهم اذا

قعدوا وهكذا وذلك لا يتيسر للروساء الذين ضعف استعدادهم وقل اقدمهم
وصعبت عليهم الأعمال

يقال أن قدرة الرؤساء على القيام بتلك الاعمال لا يترتب عليها أنهم
يقومون بها وقد يجوز كما شوهد أنهم ينتهزون نجاحهم في أعمالهم فرصة لزيادة
كسبهم غير ملتفتين أقل التفات الى تحسين حال العمال
وهو اعتراض وجيه غير أنه يتيح لنا في الجواب عنه أن نبين أفضلية
النشأة الاستقلالية على النشأة الاتكالية لانها مع عظمها لم يلتفت
الباحثون اليها كما ينبغي وتلك الافضلية حاصلة عند العملة كما هي ثابتة
للرؤساء

النشأة الاتكالية تجعل العامل غير أهل لاي حركة ذاتية عظيمة دائمية
بل تصيره آلة صماء كما كان عامل المزمين القديم وكما هو حال العامل الشرقي
في هذه الايام وكما هو العامل الالماني على التقريب فان هذا الاخير أصبح
آلة في يد المقلقين يخذونه تحت لوأثم بسهولة ليس لها مثيل لافرق بين
المقات الاشتراكي الثوري أو المحافظ أو الانجيلي أو الكاثوليكي أو غيرهم
ولا قوة في الظاهر لرؤساء المذهب الالماني إلا بهذا الاستسلام فقد لانت
في أيديهم طينة العمال فيصورونهم بالشكل الذي يريدون ويسوقونهم
كالاغنام حيث يشاؤون وهذا هو السر في اندهاشهم من استعصاء الامر
عليهم يوم جاءوا الى انكارتة والولايات المتحدة لنشر مبادئهم بين تلك الامم
وانذهلوا لانهم وجدوا الفعلة لا يسمعون لهم نداء وتلك هي دهشة الرجل
الاتكالي الذي يصطدم في طريقه مع الرجل الاستقلالي لذلك وصف أحد

أولئك المقلقين عمال الانكليز السكسونيين محتقراً « بانهم قوم لا يبصرون » وإليك ما كتبه موسيو « ويزيوا » أحد مؤرخيه في كتابه « الاشتراكيون في أوروبا صحيفة ٢١١ » قال « لا يوجد في أوروبا بلد تحصل العملة فيه على الذى نالوه في انجلترا لتحسين حالتهم فانهم أكثرها فيها صناديق الاقتصاد وشركات التأمين وجمعيات التعاون وأصبحوا بطريقتهم المسماة « ترادسينيون » من أهل الاموال ولكنهم حصلوا كل هذا بنير مذهب الاشتراكيين ومن دون أن يفكروا في تمييز النظام الاجتماعى الحاضر » ومعناه أنهم حصلوا كل هذا بدون أن يرضوا بقيادة المقلقين والتطفلين على السياسة وهذا هو ذنبهم الذى لا ينفروه أوئلك المقلقون

والذى يجب الوقوف على ما أتى به الفعلة من الانكليز السكسونيين فى انكلترة والولايات المتحدة بأنفسهم وبمحض قوتهم الذاتية وإقدامهم بدون أن يطلبوا معونة الحكومة بل مع رفضهم تلك المعونة ينبغى له أن يقرأ تاريخ جمعياتهم المسماة « ترادسينيون » المذكورة فلاشئ أفيد منه ولا أقطع حجة على تقدم الفعلة من أهل النشأة الاستقلالية تقدماً فوق الوصف وعلى ما توجد تلك النشأة فيهم من الاستعداد للتقدم والترقى

ومما يلاحظ فى تلك الجمعيات هو أنها متشعبة باستقلالها كأمتها وأنها ليست كالجمعيات الالمانية التى تتوق إلى تعميم نظامها بين الفعلة عند جميع الامم أو عند أمتها وترمى إلى تغيير الهيئة الاجتماعية بتامها وانما هى شركات استقلالية تتألف كل واحدة من فريق مخصوص بجمعها مقصد معين محدود ولا تتألف منها جمعية هائلة يقودها بعض المقلقين ويستعملونها فى إقامة

مباني مجدهم بل هي جمعيات متعددة مستقلة عن بعضها أو لا يربطها الارباط صغير . ويشعر الانسان اذا فكر في نظام تلك الشركات انها وجدت في أمة تميل الى الاستقلال والاطلاق لاني أمة تمشق التقييد والاستبداد والتاريخ شاهد على ماقول فقد نشر موسيو « كاستلو » رسالة في « جريدة الاقتصاديين » الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩١ لخص فيها كتاب موسيو « هويل » كاتب سر مؤتمرات هذه الشركات الذي سماه « النزاع بين العمل ورأس المال » ومما جاء فيها « لقد جاءت شركات تراد سينيون للصناع الانكليز مدرسة تهذيب وأخلاق وعونا على الترقى ولا تزال حافظة لاستقلالها النوعي وبعبارة أخرى لم تخرج عن تقاليد النشأة الاستقلالية - يلاحظ ان الكلمة بذاتها وردت في الرسالة - التي قامت حججا بينها وبين انضمامها الى جمعية واحدة تدخل تحتها جميع الهمم الذاتية ومكاسب الشركين كلها نغابت بذلك كل المساعي التي بذلت في هذا السبيل) وقد بلغ أعضاء تلك الشركات في انكلترا وحدها مليوناً ونصف وبلغ دخلها مليونين من الجنيهات الانكليزية أعني خمسين مليوناً من الفرنكات وعندها مبلغ احتياطي مثل ذلك بالتمام . تلك هي قوة العمال الهائلة التي أوجدها الاقدام الذاتي فلتأت لنا المانيا بمثل هذا

ولا تنقص قوة العمال في الولايات المتحدة عن ذلك كما بيناه عند الكلام على رفضهم الدخول في مذهب الاشتراكيين
ومما يجب الالتفات اليه ان تلك القوة العظيمة لم تكن قائمة في وجه « الهيئة ذات رأس المال » كما يقول الاشتراكيون مغضبين بل الغرض الوحيد

منها تحسين حال العمال فعلا بالمعارضة في تخفيض الاجور واقتصاد جزء مما يكسبون لتخفيف البطالة التي قد تأتي عفواً وكل ذلك من دون أن يمدوا أيديهم الى طلب مساعدة الحكومة أبداً

أمر مجلس النواب باجراء تحقيق عن حالة الفعلة فقرر أغلب رؤساء العمل - رؤساء العمل هل أنتم سامعون - ان العمال الذين من تلك الشركات هم أمهر في عملهم وأخلص في شغلهم من بقية العمال الذين معهم . قال المؤلف السابق « وعلى العموم فانهم اكتفوا باستعمال الطرق الشرعية للحصول على ما به يصيرون جمعا من شأنه انماء الهمم واحترام المرء لذاته ولم يطلبوا في الوصول الى غرضهم من الحكومة الا أن ترفع عنهم القيود التي كانت تغلهم عن الترقى في هذا السبيل دون أن يلتمسوا منها منة أو معونة وقد مضى على تلك الشركات نحو قرن من السنين ولم يجحدوا عن طريقهم هذا لانه الطريق الجد وبه الفخار وله الوقار وهو الذي حمل أقل الناس ميلا اليهم على أن يقوموا لهم بواجب الاحترام ذلك بأنهم نخبة العمال وقد عرفوا بما عرفت به الامة البريطانية من ثبات الاخلاق والبقاء هادئة في مبادئها » هكذا تمكنت النشأة الاستقلالية من ايجاد رجال بين رؤساء وعمال هم أقدر الناس بأنفسهم على حل المسئلة الاجتماعية

والآن نفرض - والامر واقع لاشك فيه - ان بعض الرؤساء لا يدركون حقيقة مصلحتهم فيبتزون أموال الفعلة ويأكلون حقوقهم بالباطل ويعتبرونهم كآلات يستعملونهم متى شاءوا ويتركونهم متى شاءوا ويحملونهم مالا طاقة لهم به من الاعمال ولا يتقدونهم الا الزهيد من الاجور ولا

يحتاطون أقل احتياط لمنع البطالة ومعونة الشيوخ على مصائب الدهر. ألا يكون الفعلة من أهل النشأة الاستقلالية أعظم استعداداً وأكبر قوة وأشد بأساً لاسترداد حقهم المسلوب أضعاف أضعاف ما عليه الفعلة الاتكاليون. انهم أقوى لان قوتهم تأتيهم من أنفسهم ولأنهم يلاقون ما يعترضهم من الصعاب بالمقاومة الذاتية مباشرة وهم ناجحون. ان أجحف بحقوقهم في أمر معين وجدتهم يشكون شكوى معينة ويطلبون الانصاف بما لا يخرج عن حد المعقول والامكان لا كما يفعل رؤساء الاشرأكيين من سرد المبادئ ورص القواعد والقاء الخطب المهيجة ونشر الرسائل في الجرائد وتحضير المشروعات الخالية التي يطلبون فيها قاب نظام الهيئة الاجتماعية بتمامها والفعلة في خلال ذلك يموتون جوعاً

لذلك نقول ان انكائره والولايات المتحدة أسبق الأمم في حل مسألة الفعلة خصوصاً بالنظر الى من كان منهم استقلالياً محضاً وهؤلاء يجتمعون تحت لواء شركات «ترادسينيون» وأما الفعلة الذين هم أقل من أولئك فلا تزال المسئلة دقيقة بالنظر اليهم في هذين البلدين وكذلك عمال الحرف الصغيرة التي لا تقتضى فناً مخصوصاً كالحمالين في مخازن لوندريه العمومية. الا ان أولئك العملة ليسوا من أهل النشأة الاستقلالية الذين استعدوا للتزاحم في الحياة بل يمتازون عنها بما فيهم من النقائص الشخصية أو لانهم من النشأة الاتكالية كالارلنديين والايقدسين ومهاجري الالمانيين والتليان وغيرهم وأولئك هم العناصر الذين ينتخب الفقر من بينهم أهله ورجاله في انكائره والولايات المتحدة وهم الذين يجد مذهب الاشرأكيين من بعضهم ميلاً الى

مبادئه وهم الذين يحتشدون تحت لواء أهل الثورة والاضطراب وهذا أيضاً يؤيد ما استخلصناه من الابحاث المتقدمة وهو تأخر أهل النشأة الاتكالية عن أهل النشأة الاستقلالية بمقدار عظيم انما المستقبل للأمم التي تمكنت من الخلاص من تلك النشأة والحكمة تقضى علينا أن نقول بهذه الحقيقة ونقررها فذلك أولى من التمسك بما يدعونه جلالاً لما نحن فيه وهو خيال لان ذلك المذهب أصبح بالياً ودل ماضيه على انه كان سبباً في استيلاء الضعف على قومه في أزمنة الفراعنة كما انه ينتشر اليوم في الدنيا كلها بواسطة أمة هي أشد أمم القرب خضوعاً لسلطان الحكومة المطلقة

الفصل الثالث

﴿ في ان تصور الوطنية يختلف عند الفرنسيين ﴾

(والانكليز السكسونيين)

يجب على الباحثين الذين يميلون الى اختبار الافكار بالحوادث ولا تحدهم شقشقة الالفاظ ان يفقهوا معنى كلمتي «وطن» و«وطنية» كما ينبغي وهما كلمتان كبيرتان اعتاد قوم على النطق بهما ذات اليمين وذات الشمال من غير امان ولا تمييز وبمضهم ينطق بهما معجبا مختلفا فلا يقبل فيهما ولا تأويلا وآخرون يلفظونهما مفضيين محقرين بلا قيد ولا ميزان فينما هؤلاء

يمجدون الوطن ويدأبون على إثارة الوطنية في الافكار يسعى آخرون في الخط من معاني هذه الكلمة ويقولون أن الوطن امرأة تدعى الامومة تطفلا وأن ذلك الوهم أقام زماناً وانقضى ولم يمد موافقاً لمقتضيات الايام الحاضرة وأن كل الناس إخوان ويعلنون على رؤس الاشهاد أنهم لا وطن لهم غير مبالين بما يحسه مواطنوهم من الخجل لسماع مثل هاته الاقوال :

هذان مذهبان مختلفان يتعذر التوفيق بينهما غير أن لكل مذهب سبباً يعلله ومصدراً يرجع اليه وينبغي لنا أن نبين حقيقة الوطنية ونشرح صورها في الاذهان بحسب تقلب الازمان ونقف على أسبابها ونتائجها ليتبين ان كان العالم صائراً الى تأييد تلك الحقيقة أو أضعافها أو تحويرها فنعلم أي الحزبين أصدق رأياً وأصح فكراً فإذا بلغ منا العلم أنهما محققان من جهة ومخطئان من جهة أخرى بحثنا عن درجة خطأ كل واحد منهما

تلك مسألة عويصة دقيقة تحتاج من كاتب هذه السطور ومن قرائه الى روية كبيرة وحرية فكير واسع فيجب علينا جميعاً أن نطرح ولوالى حين كل ميل الى الحزب الذي ننتسب اليه وكل تحزب للبلد الذي نحن منه ونفرض أنا نوجد في كوكب غير قارتنا حيث نشرف منه مطمئنين على جميع حوادث الارض وما يجري فيها

أول شئ، يراه الباحث هو أن الوطنية لا تنمو بدرجة واحدة عند جميع الامم لانها ثمرة أسباب شتى فهي تتنوع بحسبها ولها صور مختلفة تمازجها أربع عن البقية وهي . الوطنية الدينية أي التي يكون مدارها على الدين والوطنية التجارية أي المبنية على التنافس في التجارة والوظيفة السياسية أي

التي تبني على التطلع السياسي والوطنية الشخصية وهي التي ترجع الى حرية كل فرد في معيشته الذاتية

الوطنية الدينية ❖

تتماز بالوطنية الدينية أمم العرب والتركان ويقال لهم (التواريج) (١) والأتراك وأمثالها وقد بينت في غير هذا الكتاب الاسباب التي تحمل تلك الامم التي نشأت في الصحارى على الخضوع لسيادة الطوائف الدينية (٢) فيوجد في هذه الايام بين تلك الامم كما وجد في جميع ادوارها الماضية طائفة يرى الناس كلهم أنها صاحبة الحق في السيادة فلا ينازعها أحد ولا يخرج عن حكمها أحد وليس رجال تلك الطائفة من قبيلة واحدة بل هي تتألف من كل متعصب أنى وجد لذلك تجد فيها قوماً من شمال الصحراء وقوماً من جنوبها على بعد ما بين المركزين وتتمتاز تلك الطائفة بقوة البأس وبامتداد نفوذها حتى كأنها الجامع العام لتلك القبائل والعشائر . وهي التي وقفت في وجه جميع الفاتحين الذين حاولوا اختراق الصحراء كما وقفت أمام الانكليز على حدود السودان المصرى كأنها حصن عزيز المنال وهي التي

(١) التواريج أمة من برابرة منتشرة في صحراء أفريقيا بين بلاد (القوت) شمالاً وتنبوكتو جنوباً والنيجر غرباً وفزان شرقاً وهي تعتقد أنها من سلالة الترك وتحتقر العرب ورجالها طوال القامة شديد القوى خفيفوا الحركات وديانتهم الاسلام وهم أشد القبائل بأساً في وسط الصحراء وأصعبهم مراساً وهم الذين أبادوا الارسالية الفرنساوية التي توجهت الى تلك الاقطار تحت قيادة الميرالاي فلانتر لتخطيط السكك الحديدية في تلك الاصقاع

(٢) راجع مجلة المؤلف (المسلم الاجتماعى) صحيفة ٣١٥ وما بعدها من الجزء

الخامس عشر

تصدم أمامها الأمة الفرنسية في حدود صحراء الجزائر
 أولئك هم ملوك الصحراء واسمهم الطوائف الدينية واسم رجالهم
 «والاخوان» والخلفاء اسم للرؤساء كما يقال لهم المشايخ وغير ذلك من الاسماء
 وأحياناً يسمونهم المهديون أو رسل الله اذا حميت نار الاعتقاد وظن بعضهم
 نزول الوحي عليه من السماء والويل للويل لمن يحاول الدخول عندهم في
 مثل هذه الازمان

ولهذه الطوائف «زوايا» في جميع الواحات وهي معابد تابعة للجامع
 الاكبر في واحة «غمار» بالصحراء اثنا عشر مسجداً وأربع زوايا مع أن
 سكانها لا يزيدون على سبعمائة أو ثمانمائة . وللاخوان كلمة سر يفهمونها
 واشارات تعارف مخصوصة وهم درجات بعضها فوق بعض مقررة لديهم
 أجمعين تبثدي من السيد الاكبر أو الخليفة الى حامل العلم الى الحارس وهكذا
 ولهم جمعيات عمومية يتلقون فيها أوامر السيد السرية أو يحتفلون بدخول
 بعض المريدين في الطريقة أو يهبطون في البلاد ثورة ضد عدو يريد الاغارة
 عليهم سواء كان من داخل البلاد أو خارجها وكلهم وطنيون وهم غلاة الوطنية
 في الصحراء

الى هذه الوطنية يرجع نظام المشائر التي كانت تسكن اقليمي آشور
 ومصر في الازمان الخالية أعنى في الدور الاول من تاريخ تلك الامم التي
 كانت تتألف من الشعوب الوافدة حديثاً من الصحراء ولذلك خضعت
 لحكم الطوائف الدينية وقسس الاله «أمون» خضوعاً كلياً أو جزئياً واليهما
 أيضاً يرجع محمد «صلى الله عليه وسلم» وأتباعه وجميع القبائل والشعوب التي

اجتمعت تحت رايته في وديان العرب أو الصحراء وأطرافهما من بلاد آسيا الصغرى الى بلاد الاندلس . كذلك يدخل فيها الترك فانهم أخذوا عن الاسلام أشكال حكومتهم وكانوا يجالونها لما هم فيه من البداوة غير مستقرين في مكان ويكفي في بيان حقيقة هذا النوع من الوطنية ذكر هذه الامم فالتمسكون بها لا يطيقون الجدل فيها ولا يشفقون أى اشفاق على أعدائهم لان مرجع الوطنية فيهم الدين وهو لا يقبل التحوير ولا يحتمل التسامح والتفسير . وأم شىء يوجب الخشية منها هي انها لا تقتصر على اخضاع الاجسام الى سلطانها ولكنها تبسط سيادتها أيضا على الافكار والارواح فلا تكتفي برضوخ من تتغلب عليه الى حكمها وتكلفه اعتناق مذهب أصحابها فاما الايمان وأما الاعدام . ولقد أهرقت هذه الوطنية دماء كثيرة خضبت بها تاريخ أجيال عديدة وهي اليوم تنكشف الى الباحثين مثقلة بالفظائع والآثام .

ان الدين اذا تمخذا الارهاب سلاحه بدل الدليل والاقناع لم يكن الا غضبا وهياجا ومن الواجب التنكيل بهذه الوطنية بكل ما في الجهد ومغالبتها حد الاستطاعة وهذا الواجب انما يطلب من المؤمنين لانها تحط من قدر الاحساس الدينى والمدالة الصمدانية وهما أشرف الامور وأعلاها مقاما ذلك لان مثل الدين يدعون هذه الوطنية كمثل اردأ الزنادقة وأخبث المناقنين تراهم يحملون السيف أو العصا ويأتون موارد شهواتهم ومواقع انتقامهم ومرامى اطماعهم باسم الدين وتحت ستاره^(١)

(١) نحن لاندرک معنى لخصر هذا النوع الممقوت من الوطنية في الامم التي تقطن

الوطنية التجارية

تمتاز بها أمم شواطئ البحر الأبيض المتوسط قديماً أيام كان ذلك البحر شبيهاً بحوض ذي سور مقفل أعنى أيام كانت سواحله أهلة بالمدائن والشعوب التي تمتد على شواطئ فينيقيا وآسيا الصغرى واليونان وجنوب إيطاليا والاندلس وأفريقيا الشمالية وكلها تطلب الرزق من التجارة . ولا بد من أن التنافس كان شديداً بين تلك الامم وأن حياة كل واحدة منها كانت متوقفة على فوزها دون غيرها وليس التاريخ القديم إلا عبارة عن قصص تلك المنافسات التجارية

الاقطار الاسلامية والاقتصار على ذكر العرب والترك والتركان فان كان يريد التعريض بالاسلام فانه لم يصب بحجة الصواب لان الاسلام لا يلزم أحداً من مغايريه في الدين أن يصير مسلماً بعد أن يدين لحكمه والتاريخ أصدق شاهد على خلاف رايه وكتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم صريحان في حقد دماء المسلمين ومساآلتهم إلا الوثنيين منهم . هكذا جرى العمل حتى في زمن الفتح أيام ثورة الدين حيث ما كان يرجى الحنان والاشفاق . فان لم يكن الاستشهاد بالقرآن مقنعاً في مذهب غير المسلمين فانا نورد على عبارة المؤلف مقاله حضرة العالم الشهير الكونت هنرى دى كستري صاحب كتاب الاسلام في الفصل الثاني عن ملاينة الدين الاسلامى وكيف أنه عامل المسيحيين وقربهم اليه في مناصب الدولة ووظائف الملك (راجع ترجمتنا هذا الكتاب سنة ١٣١٥ هجرية)

وليس من الانصاف أن يرمى مسيحيو الشرق بهذه التهمة دون إخوانهم في الغرب لان المذهب واحد فان كان الدين هو الذى أغضب المؤلف من وطنيتهم لزمه أن يعمم حكمه على البقية وإن كان غيره فقد فسدت قاعدة رأيه ولعله كان يقرب من الحقيقة لو أطلق شرحه على الوطنية الدينية من غير أن يقيدتها بأمة دون أخرى لان فعل الدين في النفس واحد نصرانياً كان الرجل أو مسلماً أو يهودياً أو مجوسياً

ومن أجل ذلك احتاجت كل أمة من تلك الأمم أن يكون نظامها موافقا لحاجاتها خصوصا ما يتعلق بدفع الاعداء ومهاجمة الخصوم اذ كان لامناص لكل منها من الاعتماد على نفسها وهذا هو السبب في اعتنائها كلها بتربية شبانها على التمرينات الجسمية حتى صارت القوة والمهارة وخفة الحركات والحدق في رمي النبال أعز صفات الشبيبة فاقامت ميادين الالعاب العمومية وعظم الاهتمام بها وما ذلك الا لانها كانت في الحقيقة مظاهر للوطنية في ثوب مخصوص

هنالك كانت الوطنية محلية أى قاصرة على أهل كل مدينة أو طائفة دون جارتها ومن هنا جاء اسم المدينة والبلد بمعنى الوطن مما ملئت به كتب المتقدمين لجميع الاعمال العظيمة والوقائع الشهيرة التي احتفظنا عليها كأنها من الدين وجعلنا نحشوها اذهان أبنائنا في المدارس من غير نظر ولا تأمل كلها صور من تلك الوطنية التجارية . وقد افتخرت كل مدينة بشجعانها كما افتخرت بحكامها لان الفريقين غرس أرض واحدة هي حالة تلك المدن الاجتماعية في هاته الازمان . قال (استرابون) عن (كروتون) أنه كان يعتنى على الخصوص بتربية الشجعان حتى توصل الى اختصاص رجاله بالقلبة في ميادين الالعاب العمومية وقيل أن أضعف رجل من رجاله كان يعد في مقدمة اليونانيين . وكان الناس يعظمون الظافرين في تلك الالعاب تعظيما لا مزيد عليه فيخلعون عليهم أحسن الخلع ويحتصونهم باكبر علامات الشرف والامتياز ويتسابق المصورون الى اقامة تماثيلهم في كل ناد . هكذا أقيم في (أولبيا) تمثال (استيلوس) وهو من تلامذة كريتون المذكور وقد

تمت له الغلبة في ثلاثة ألعاب متواليات . وتمثال « فيليب » صاحب الانتصارات الباهرة في تلك الألعاب وكان أجل أهل زمانه وتزوج ابنة « تيليس » ظالم « تيباريس » وعد بعد وفاته من أكابر الإبطال . وتمثال « فيلوس » وكان مكتوبا عليه انه كان يقفز خمسة وخمسين قدما ويرمي بالكرة على بعد خمس وتسعين خطوة . وأشهرهم « ميلون » السكرتوئي فقد بلغت انتصاراته سثا وعشرين على اختلاف الألعاب وسارت الركبان بقوة الى أقصى الشرق وبلغت مسامع كسرى الفرس وأقيم له تمثال من النحاس وكان له شأن خطير في حروب قومه مع « سيباريس »

وكانت جميع المدائن تطمع في الانتصار في ألعاب أولمبيا وان تفوقها بألعابها ولذلك أقام سيباريس وكروتون في نواحيهم الألعاب العمومية وجعلوا للفائزين فيها وسامات من الفضة رجا أن يجتمع اليها يونان ايتاليا وسيسيليا ومدائن آسيا الصغرى وتلك الألعاب هي الاصل الاصيل الذي نشأت عنه ألعاب الرومانيين المسماة « جلادياتور » وكانت من أفضع الشنائع أيام سقوط الدولة الرومانية

تلك هي صور الوطنية التي عظمت عند أمم البحر الابيض المتوسط في قديم الزمان . والذي ألبأهم الى ذلك احتياج كل أمة الى رداة غيرها بتجارها وهي وطنية ترجع الى المال وكان من نوازمها الأثرة والشرف ولم يكن السبب في تلك الوقائع والحروب التي رواها لنا مؤرخو تلك الأعمار موشاة بما يجب القراء الا الرغبة في اذلال الخصوم بالقوة القهرية بعد المعجز عن مغالبتهم بالمهارة في التجارة والتفنن في أساليبها . ولم يكن حب الوطن الخالص

ورغبة التفانى في الذود عنه من صدور أولئك التجار الامكان صغير في الحقيقة لا كما يتصوره الناس عنهم والدليل عليه انه لما تمت الثروة لتلك المدائن وملئت خزائنها من الذهب والفضة لم تعد تطلب حمايتها من قومها وعمدت الى تجنيد جيوشها من الاجراء . قال «جوستان» انكسر أبطال «كريتون» سنة ٥٦٠ في احدى الوقائع فأهلوا من ذلك الحين صناعة الحرب وألقوا السلاح ومالوا الى الانهماك في اللذائذ والانغماس في الشهوات مثل «سيباريس» وكذلك كان شأن «تارانت» فانه بعد ان اشتهر بالشجاعة وسارت بذكر فضله الركبان أصنعها في التنعم والفساد

والواقع ان تلك الوطنية التي بالغ الناس في الاطراء بها ترجع الى رواية ذات قسمين ففي القسم الاول نشاهد تلك المدائن تثير الحرب على بعضها لتأخذ حظها من التجارة وفي القسم الثاني نشاهد التي ظفرت منها قدتولاها الانحطاط ودمرت بيد متغلب جديد خرج من مجتمع يخالف نوعها

— الوطنية السياسية —

مهدها عند الامم التي عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة في رؤسائها وأعظم مثال لها الامم الفرنسية والالمانية والروسية والتليانية والاندرسية «الاسبانية» في زمننا هذا ومثالها في الزمن القديم الامم الرومانية وليس القائم بالحكم في هذه الامم الطوائف الدينية أو المجالس البلدية المؤلفة من التجار كما في النوعين السابقين بل القائم عليه رؤساء من رجال الحرب أو ممن جمعوا حولهم الجند المجندة وامتدت سلطتهم في أقطار شاسعة

وجمعوا تحت تصرفهم وسائل عظيمة من المال والرجال وخضع لاوامرهم العدد
العديد من الجيوش والموظفين وهم لذلك أقدر من غيرهم على اقامة الحروب
لولايتهم على جميع عناصر البلاد الحية اذ كل شئ خاضع للدولة من جهة ما وليس
لاحد من العمال ارادة غير ارادة الحكومة التي تنقده راتبه ملكياً كان أو
عسكرياً. وفي مثل هذه الاحوال تميل الجيوش الى الحرب أكثر من ميلها
الى السلم كما انها لا يعظمون الملك أو الوازع الا كبر في الجمهورية الا بقدر
ما يكون له من الغزوات وما يؤتاه من الانتصار ومن أجل هذا كان رؤساء
الحكومات ميالين طبعاً الى الحرب وكثيراً ما يكون الحرب سبيلهم الوحيد
في الاستثثار بمرغوب أو في دفع منافس يخشون مزاحمته. وهذا هو السبب
في تلك الحروب العديدة التي منشأها التنازع على الملك بين العائلات أو
الاطماع الذاتية للملوك والنفوس تنخدع عادة بالاستيلاء على سلطة تجعل المرء
في سعة ونعيم والناس يعترفون بهما ويقدمونهما متى تم النصر للغير

غير انه يلزم للظافر بعد ظفره ان ينظر في استبقاء نصره والبقاء ليس
بالامر اليسير على حكم واسع الا كناف لا يد فيه من اغصاب قوم وجرح
عواطف آخرين لعله انه تكفل بالقيام مقام الكل في التفكير والتدبير حتى
لقد يخشى على تلك الحكومات الضخمة ان ترزخ تحت هذه الاحمال
الثقيلة التي جلبها عليها استعلائها وسلطانها الرفيع فاذا وصلت الدولة الى هذا
الحد التمسث نخر جاجا منها بالحرب لتلوي أفكار الامة عن النظر الى الصعوبات
الداخلية وهذا أيضاً هو السبب في حروب كثيرة مما خلده التاريخ وسطره
الكتاب. وهى انتصر أولئك الملوك زادت سلطتهم وتمكنت سيادتهم

وحينئذ ترام يشيرون الحروب ليزدادوا بسطة في الملك لا يثبتوا أملاكهم ولמידوا حدود ممالكهم العظيمة التي يفرح بها المؤرخون وتحزن لها الامم أولئك هم أكابر القياصرة وعظماء الاملاك والا كاسرة الذين غصت باسمائهم صفحات التاريخ واتخذهم المؤرخون بيانا لمراحل الاجيال

على ان هذه الدول العظيمة لاتوافق طبيعة الاجتماع لما يلازمها من ارتكاب أكبر الفظائع في الحياة العمومية ووجب أعظم المصائب والرزايا في الحياة الخصوصية ولذلك فبقاؤها محدود ودوامها محال تراها تنخر مهشمة عقب موت شجاعها وكثيراً ما يدركها الدمار في حياته . هنالك تهب نار الحروب ثانية بين الحلفاء وتستمر من جيل الى جيل وفي الغالب يكون انتشار تلك الحروب رغم أنف الامم لاحتياجها الى السلم كي تتفرغ الى السعي وراء رزقها والحرب تعطل الاعمال غير ان صوت الامة ضعيف في مثل هاتيك الدول فان من شأنها الضغظ على حرية الافراد فيما عساه يأتي من عندياتهم بما استلزمه نظامها من جميع السلطة كلها في يد قوم معدودين . أما العامة التي نزاول الاعمال النافعة وتكعب على الاشغال التي تأتي بالثمرة وتمكنها من أداء الضرائب والخراج فانها مطروحة وراء السلطة العمومية التي انتهت منها رويداً رويداً قدرتها على الاعمال العامة وأضعفت فيها بواعث الاجتهاد ومصادر الانتاج وجعلتها لاتعرف من أمورها إلا الطاعة والاتياد فهي تخضع إلى الحكومة والموظفين كما تخضع لاهل السياسة أو المشتغلين بالسياسة وما علمنا ان الامة أبدت حراً كما أمام رغائب فيليب الثاني ولا تحت حكم لويز الرابع عشر أو حكومة الثروة أو نابليون الاول

ومعلوم أن هذه الحكومات العظيمة التي جمعت من العدد والعدد ما يمكنها من ارضاء أطماعها السياسية لا يتيسر لها تسيير أمها وحملها على احتمال ما تطلبه منها من الرجال والاموال الا اذا تذرعت لديها بمنفعة الوطن وأثارت في نفوسها عواطف الوطنية . ترى تلك الحكومات تتفانى في حب السلام وما من أحد يسبقها في الجهر بهذا الميل وتقول أن الحرب أكبر المصائب وأعظم البلايا حتى لقد جاء ذكر السلم اثنتى عشرة مرة في خطاب امبراطور ألمانيا الذي ألقاه في « كيل » ومع هذا يقضون حياتهم في الحروب أو في تجهيز معداتها وتهيئة لوازمها وتلك الاستعدادات التي لا حد لها في الواقع أشد تدميراً وأعظم تخريباً من الحروب فانها تستنزف ما في الامة من الرجال والاموال وكلما اشتد وقر هذا النظام اشتدت الحاجة في الحكومات الى الاستنجاد بالوطنية ومن الصعب معرفة درجة ما تفعله الوطنية في نفوس أمة بلغت منتهى الاضمحلال من جراء هذه الاحوال كما لا تسهل معرفة مقدار ما تؤل الى من الخراب اذ بلغت الوطنية منها حداً الاقصى ومع هذا قديماً الى الامام بذلك اذا نظرنا الى حالة الامة التليانية لان البحث في حالتها العلمية والاجتماعية يفيدنا فائدة كبرى ويرشدنا الى الغاية التي نحن صائرون اليها . كذلك نهتدى الى غرضنا بالتأمل في حالة بلاد الاندلس « أسبانيا » وأنا نكتفي بتوجيه ذهن اهل العالمين الى هاتين الامتين ونضيف اليها جمهوريات أمريكا الجنوبية لمن رغب الاستزادة في البيان

قال بعضهم ونعم قوله « لو أنا أمعنا النظر في حقيقة معنى وطن لتركنا الطريق وقفنا راجعين » ومن المحقق أن الوطنية هي التي كانت سبباً في

قسم عظيم من الفطائع والمنكرات التي ملأت التاريخ وصيرت قراءته معيبة مخالفة للآداب . نعم أنا عالم بأننى أحدث بمقالى هذا اضطراباً فى نفوس بعض القراء وأراهم لفلوهم فى الوطنية يشددون النكير علىّ ويفوقون نحوى سهام اللوم والتنديد ولذلك فانى أخصمهم بمقالى وأسألهم ان كانوا حقيقة فى وطنيتهم صادقين . وأريد بالوطنى من يبرهن على أعدائه بالافعال لانى لست أجهل أن عدد الوطنيين بالقول لا يحصى غير أن الكلام فى بحثنا لا يفيد وأنا أخشى أن يكون السواد الاعظم مغروراً جذبته الاوهام فادعى بما ليس فيه

إنما الوطنية تقوم بأمرين مهمين دفع ضريبة المال وأداء ضريبة الدماء ولست أنكر أنهم يؤذون الخراج بالتمام ولكن رأس الحكمة مخافة الجباة على أنه لا يحصى من الاداء والدليل عليه أنهم جميعاً يستغفنون من فداحة المصروفات ويشنون الغارة على استرسال الحكومة فى توسيع دائرة مصالحها واذا جاءهم مترشح فى المجالس النيابية وجعل يخطب فيهم أنه يميل الى تخفيف الضرائب والاقتصاد فى المصروفات أقبلوا عليه وأهدوه أصواتهم مهلين ومكبرين . إلا أننى أقسم أنهم بما يعملون يبرهنون على أنهم فى وطنيتهم التى ست أرضاها كاذبون لانهم لا يجهلون أن النظام الذى يدافعون عنه خلافاً لرأى يقتضى المال الكثير فلو كانوا فى ادعائهم الوطنية صادقين أى لو كانت الوطنية فيهم غير مجرد التشدق فى المقال وكانت مفهومة لديهم بغير ما يتظاهرون به من الحركات التى لا يرضاها العقل لما ساءوا الحكومة على المال الذى تحتاج اليه فى تغذية تلك الوطنية وصيانة دعائمها . انهم اذا

صدقوا لدفعوا المال ولم يشكوا إذ كلما دفعوا انتصرت وطنيتهم وكلما انتصرت استبشروا وفرحوا . أما أنا فلست من المبتهجين لاني غير راض عن نظام الهيئة الحاضرة القائم على تلك الوطنية ولا حق لهم ان يفضبو اغضبي لانهم ان غضبوا فقد خالفوا انفسهم وتناقضوا

أيها الوطنيون - العلامة الثانية على الوطنية كما تفهمونها هي ضريبة الدماء فلتنظر كيف أتم بها قائمون إذن ليس بخاف على أحد ان كل اهتمام الفرنسيين حتى غلاة الوطنية منهم موجه الى التخلص من الخدمة العسكرية مدة ثلاث سنين هم وأولادهم وأنهم نظموا حياتهم للسمي في هذا السبيل . فان كانت الخدمة ثلاث سنين لازمة فما سبب الهرب منها وان كانت غير لازمة فلم الدفاع عنها . الا تشعرون انكم متناقضون في دفاعكم عنها وهر بكم منها . انا نشاهد المدارس التي أعفيت تلامذتها من الجندية مدة سنتين بمقتضى قانون العسكرية الجديد أصبحت غاصة بالطلاب وكان الكثير منها في درجة سيئة من الانزواء لقلة الراغبين فيها فأقبل اليوم اليها المدد البعيد حتى ان مدرسة الحقوق خفضت من شدة الامتحان وسهلت للدرس تسهيلات لنوال شهادتها التي تعفى حاملها من الجندية سنتين كاملتين . وكأني بالمدرسين وقد تنبهوا الى انهم آباء وان غلوهم في الابوة يربو على غلوهم في الوطنية . وارجع الى الفواب والاعيان في المجلسين فلا تجد منهم عشرة يؤدى أبنائهم خدمة الجيش ثلاث سنين . هكذا يصادق الرجل منهم على جعل الخدمة ثلاث سنين ولسكنه لا يقر على دخول ابنة فيها

وبالجملة فالوطنية التي نحن بصدددها قائمة على المطامع السياسية بواسطة

الحروب وتوسيع نطاق المصالح العمومية غير أنها وطنية صعبة الاحتمال على الامم فهي تفرج بها في أول الامر ثم لا تلبث ان تشعر بثقلها فترغب في التخلص منها وحينئذ تتكسكل تلك الاحمال على الضعفاء والمساكين والبسطاء أعنى على الامة فتميتها وتضعفها ثم يضيق بها الخناق يوما فتثور ثورة واحدة وتتخلص من مثل لوز الرابع عشر وحكام الثورة ونايليون غيرها لا تخرج من حكم هؤلاء الا لتدخل في حكم لوز الرابع عشر وحكام الثورة ونايليون لان أولئك المسيطرين على الدوام موجودون في مثل ذلك النظام

* الوطنية الشخصية *

يوجد هذا النوع من الوطنية عند الامم التي تفهم من هذا اللفظ معنى غير المعاني الثلاثة السابقة فالرجل من تلك الامم يرى ان الوطن في بيته وان المنفعة التي يجب عليه الدفاع عنها هي استقلال ذلك البيت وساكنته وان الوطن السياسي لا مفهوم له الا إيجاد وسائل ذلك الاستقلال الشخصي وان الرجل لم يخلق للوطن خاصة كما في النوع السابق بل ان الوطن انما وجد لخدمة الانسان فهو لا يهتم كثيراً بأن يكون وطنيا من أمة عظيمة وانما جل اهتمامه ان يكون وطنيا مستقلا وبالجملة فانه يرى نفسه رجلا قبل ان يكون وطنيا

هذه وطنية تحالف وطنية الامم اللاتينية وكان أول ظهورها في غرب القارة الاورباوية نحو القرن الخامس من المسيح فأدخلها قوم « الفرنك » في بلاد « الغلوا » والسكسونيين في بريطانيا العظمى والفرنك والسكسونيون من هيئة اجتماعية واحدة هي التي سميها بالامم الاستقلالية لانها خالفت

الجمعيات التي ترجع في أصولها الى الامة الرومانية القديمة جعلت الشخص
أى الفرد الواحد راجحاً على الدولة

ورجحان الفرد على الدولة هو الذى كان السبب فى تجزئة البلاد
الفرنساوية والجزائر البريطانية الى امارات صغيرة لآتحصى حتى صار عددها
فى القرون الوسطى بقدر عدد الاملاك الخصوصية فكان كل واحد سيداً
فى أرضه له الحكم فيها وحفظ النظام بين ساكنيها وهكذا حلت أوطان
كثيرة فى محل ذلك الوطن الوحيد الرومانى وليس من غرضى الآن أن
أبين هنا السبب فى زوال هذا الشكل الجديد شيئاً فشيئاً من البلاد
الفرنساوية حيث أقصته عنها الحكومة للملوكية التى جمعت أشتات السلطة
وفى بقائه كما هو ببلاد انكلترا غير أن الواقع هو أننا لا نزال نشاهد تلك
الصورة عند الامم الانكليزية السكسونية أعنى فى بلاد انكلترا ومستعمراتها
العديدة وفى الولايات المتحدة. ولكنى نين حقيقة تلك الوطنية ينبغى لنا أن
نذكر طرفاً من الحوادث التى يعملها الكل لما فيها من الدلالة الواضحة
أولاً سهولة هجرة الرجل عن وطنه وليس مقصدنا أن يهاجر منه على
مقربة من حدوده بل يرحل عنه بعيداً جداً فيقطع الارض من ناحية الى
أخرى. والمهاجر من الانكليز السكسونيين يشعر دائماً بأنه إنما يرحل عن
بلده مستصحباً لوطنه اذ هو الوطن حيث يعيش المرء حراً^(١)

(١) هذا يذكروننا بقول الحريرى

لا تركن الى وطن
وارحل عن الدار التى
وجب البلاد فأبها
فيه تهان وتمهن
تعل الوهاد على القن
ارضاك فاختره وطن

وثانياً استقلال المستعمرات بالنظر الى العاصمة الكبرى فكل مستعمرة لا يلزمها الا أن تكون تابعة لها ثم هي بعد ذلك مطلقة تحكم نفسها بنفسها كما يشاء ولا تحسب أن حب الوطن يحملها عن تسليم نفسها اليه يسيرها كما يريد. ثم أن هذه التبعية وقتية لا تدوم الا بقدر ما يتربى التابع وان دامت فلزمن قريب لان المستعمرات الانكليزية تميل الى الهجرة مثلها كمثل شبان الانكليز. هكذا انفصلت الولايات المتحدة عن الامة البريطانية وهكذا تبدو الآن علائم الانفصال في أستراليا ونيوزيلندا الجديدة وكندا ورأس الرجاء. قال أحد السواح الانكليز وهو موسيو (مكس أوريل) (يفتخر سكان المستعمرات في هذه الأيام بأن يطلق عليهم اسم الاستراليين و (الكنديين) والافريقيين وينمو فيهم روح الملة كل يوم والانكليزي هو الذي يفدى ذلك الاحساس فيهم اذ كل انكليزي يقيم بضع سنين في مستعمرة لا يبقى انكليزيا بل يصير أستراليا أو كنديا أو افريقيا ويحلف بوطنه الجديد وهم لا يقبلون من العاصمة الكبرى أن ترسل عليهم ولاية الا تأدباً منهم ومع ذلك يشترطون عليهم أن لا يشتغلوا بالسياسة أكثر مما تشتغل بها الملكة ورجال البيت الملوكي

وثالثاً عدم الالتفات مطلقاً الى الجندية وقلة الاهتمام بشأنها قال (أدوارد بيكلوس) في كتابه (تخطيط البلدان الجديد) (أن إنجلترا هي أقل الدول في الجيوش الدائمة مع أنها تحكم على أمم أكثر مما تحكم جميع دول أوروبا بأربعة الاضعاف فلا يزيد جيشها النظامي على مائة ألف جندي) وهو سدس الجيش الفرنسي والاماني والروسي أعنى بلاد الوطنية الثلاثة

وهو ربع الجيش النمساوى وثالث الجيش التلياني في حالة السلم وهو جزء من ثلاثين أو من أربعين من عدد الرعايا^(١)

وهناك أمر آخر يوضح جيداً أن نظام تلك الامم لا يوافق الحروب قال «ريكوس» في الجزء الرابع من كتابه المتقدم ذكره صحيفة ٨٧٩ «لا يوجد في انكاتره قانون للقرعة العسكرية وليس في استطاعة الحكومة أن تحشد من أفراد الامة جيشاً تحارب به رغبات الامة والخدمة عندهم سنوية ولولا أن المجالس النيابية تقضى في كل سنة باستمرار المساكر مجندة لا ينحل الجيش في كل عام . ومن مبادئهم أنه لا حق للواضع في استبقاء جيش مستمر ينفق عليه من بيت المال الا باقرار القرى والبلدان فهم التي تقدم المال اللازم وتقرر القانون العسكري في كل عام» وليلاحظ أن القرعة غير موجودة كذلك في البحرية بل يحشد رجالها من المتطوعين كالمساكر البرية

وعدد الجيش في الولايات المتحدة أيام السلم قليل جداً . فلا يزيد على ستة وعشرين ألفاً مع كثرة عدد السكان وبعد ما بين مشرق تلك البلاد

ومن هنا يتبين لك أن تلك الامم ليست ميالة الى الجندية ويزداد عدم الميل بتكاثر جمعيات السلام غير أن هذة الجمعيات لم تنتشر انتشاراً

(١) يظهر ان في الطبعه الفرنسيه خطأ لان مجموع الرعايا على تلك النسبة لا يزيد على اربعة ملايين وهو قليل كالاخفى ولعل الاصل جزء من ثلاثمائة او اربعمائة ويجب ايضاً ان يكون المقصود بالمعدود الرعايا الاصليين التابعين

محسوساً الا في انجلترا والولايات المتحدة فلا يبلغ عدد جميع اعضاء الشركات التي تألفت لهذا الغرض في البلاد الفرنسية الا ألفاً ومائتين ولا تعرف في المانيا سوى جمعية واحدة لا يزيد عدد أعضائها على السبعين أما انكلترا ففيها خمس جمعيات تتألف من خمس وعشرين ألف عضو وهذا بخلاف جمعية سادسة تسمى جمعية السلام تألفت سنة ١٨١٦ وفيها بضعة آلاف من الاعضاء . وفي الولايات المتحدة جمعية واحدة يبلغ أعضاؤها أكثر من مليونين وبجانها جمعيات كثيرة لا تحصى وأعضاؤها في ازدياد على الدوام ومما يدل على بنفهم أيضاً للحروب اتجاه الاميال في هذه الايام الى فض المشا كل بواسطة المحكمين لا باستعمال المدافع والسيوف

اذا تقرر هذا سهل علينا أن تقارن بين هذه الانواع الاربعة فاما الوطنية الدينية فقد انحصرت اليوم في الصحراء حيث تتعب الطوائف الدينية في استبقائها وعلى كل حال فانه لم يعد لها اثر في الخارج لانها لا تستطيع ذلك وقد مال الدين في أمم الغرب الى الملاينة والمحاسنة وصار ينتشر بالاقناع والاستدلال بالقهر والغلبة ثم انه اتخذ الضمائر أرضاً يسكنها ومال عن الاستعانة بسلطة الحكومة على جلب المحازبين وعليه ترى أن الوطنية الدينية آخذة في التقهقر من جميع الجهات

وكذلك الوطنية التجارية اتقضى زمامها ولم يعد للاسباب التي كانت قائمة بها على شواطئ البحر المتوسط أثر في الوقت الحاضر وكادت المدائن العتيقة تنقرض ان لم تكن قد بادت مثل فينيقيا وقرطاجنه واليونان ثم فينسيا وچين وأصبحت تدل باطلاها أو اضمحلها على أن تلك الوطنية التجارية

لا تصلح أن تكون أساساً يقوم به نظام الهيئة الاجتماعية . واليوم لاجتماعية
 للتجارة الا بالتنافس فيها وان عمدت بعض الامم الى تخفيفها أو تحديدها
 بجبي الخراج على المتاجر في مرافئ بلادها بل نشاهد ان العقبان آخذة في
 الزوال بين الامم وان التجارة تتخلص كل يوم من قيودها وتسير بسرعة
 نحو الاطلاق بلا قيد ولا حرج . وحينئذ لا يمكن الاعتماد على هذه الوطنية
 فستلحق بسابقتها التصير معها من زخارف تاريخ الاعصر الخالية

ومن الاسف انه لا يسفنا ذكر الثالثة كما ذكرنا الاولتين فان روح
 الوطنية السياسية لم يمت حتى الآن غير ان المرض قد اشتد بها أكثر مما تخيله
 الناس وبدت عليها أمارات الفناء المحتم ولم يعد في الامكان استبقاء تلك الوطنية
 زمناً الا باستعمال الوسائل الوقتية واستخدام أسباب الغلوف فيها الى حد التعسف
 والتفطرس مما جعلها تزداد وقرأ على الامم حتى صارت عبأ ثقيلاً . ومن
 المظنون ان الدائرة تدور على فرنسا أو المانيا مثلاً اذا سبقت إحداها الاخرى
 فخرجت قبيلة تحت أثقال هذا السلام الذي صار أصعب اجتماعاً من القتال .
 غير ان الظاهر في ذلك الحين لا يفضل المغلوب إلا قليلاً

والنصر كل النصر للامم التي وطدت أركان نظامها على دعائم الوطنية
 الرابعة أو الوطنية الشخصية فهي التي تلوح على وجهها جميع بشائر الموجودات
 النامية التي استقر لها الامر وأمس آمنة على مستقبل الايام

أولا لانها طبيعية فلا تحتاج لمنبه من الخارج دائماً ولكنها آتية من
 حالة اجتماع شأنها ان تربي في المرء بحكم الضرورة حاجة الاستقلال والبعد
 عن كل قيد تريده الدولة ولا منفعة له فيه . ثم هو لا يحتاج في المحافظة

على هذا الاستقلال أمام الحكومة والتخلص من تلك القيود الا أن يتبع وجدانه الخاص فتراه يجرى على هذه الوطنية بطبيعة الحال كما يأكل ويشرب وينام

ثانياً لانها تساعد على انماء الثروة فهي لا تقتضى للجيش نفقة طائلة وهي تحمل النفوس على السكد والاسترزاق ما استطاعت ولا مشاحة في الامم التي من هذا النوع هي أغنى أمم الارض كلها وما لها من ثمة اتعابها

ثالثاً لانها تربي الاحساس الادبي في الانسان وهنما موضع تأمل لان غلاتنا أفسدوه في الاذهان طلباً لمنفعتهم فقالوا ويقولون ان الحرب منبع عظيم تستمد منه الشجاعة والهمة ان لم يكن أعظم المنابع وأكبرها وانه لو انعدم الحرب سقطت همم بني البشر وذلوا . وربما كان القول مفيداً في حمل الامم على تقبيل بعضها بعضاً ولكنه قول يخالف المشاهدات كل المخالفة . ألا ترى ان متوحشى أمريكا الجنوبية وهمج افريقيا في حرب ونزال مستمر منذ قرون على أماكن الصيد والاقتناص وهم مع ذلك في أحط درجات الانسانية ، ولو صح قول الفلاة لكانوا أول الامم في نمو الاحساس الادبي منذ قرون ، واذا راجعنا التاريخ رأينا إن الرجل لم تسقط آدابه ويفقد مزايا الهمة الصحيحة الا في أزمان الحروب والغارات أيام كانت الوطنية الحربية بالغة منتهاها ، هنالك تترادف على أسنة أقلام الكتتاب حوادث القتل والخديعة والزور ومصارعة الاخ اخاه وغير ذلك من أنواع الفظائع والمخازى ، ومن الصعب أن لا يعجز الانسان بين هذه الاحوال وبين

ما يقتضيه نمو الاحساس الادبي في الامم على ان ذلك من الامور الطبيعية فانه متى نارت ثورة الجشع في قلوب الرؤساء أقبولوا بكلياتهم وجزئياتهم على الحرب والفتوح وداسوا كرائم الشماثل بالاقدام . ومتى اشتبك القتال وحمى وطيس الحرب بين الجنود اندفع العسكر الى ارتكاب الشناعات وأعمال القسوة والتوحش والفجور وهي الافعال التي يسميها الناس فظائع الحرب وموبقات الجيوش . نعم يرد ان نظام الجيوش في هذه الايام لا يقتضى مثل تلك الاعمال وهو صحيح الا ان فساد الاخلاق حاصل أيضاً وانما تغير شكله ليس الا

ومن حسن الحظ في هذا الزمان ان صار الحرب نادراً وصارت معيشة الجندي معيشة سلم مدجج بالسلاح وصار بيننا وبين ذلك العسكري الذي يقضى حياته في الحروب أجيال طوال وأصبح جندينا يقضى حياته في الشكنات يتمرن بسلاح قد لا تحين الفرصة لاستعماله فهو واحد من الامة يعيش مطمئناً الا انه على نفقة الحكومة وليس في تلك المعيشة ما يوجب نمو الاحساس الادبي وامكنى أرى فيها ما يدعو الى النقص فيه لانهم يعيشون في شبه بطالة بغير عمل ذاتي ولا تبعه عليهم في شيء محرومين من جميع المشتريات كالرهبان وكما شروط لا توافق العزة ولا تربي الانفة ولا تشجع النفس ولا تنمي الاحساس لان أول الدلائل على نمو الاحساس الادبي في الانسان قدرته على مغالبة نفسه واستطاعته على تذليل متاعب الحياة ورضوخه الى ما يقتضيه من السكد والعمل . ومما لا يختلف فيه اثنان ان الخدمة العسكرية تضمف في الرجل هذا الاستعداداً ضعافاً شديداً فلا يليق الجندي

القديم الا للخدم في مكاتب الشرطة ومن الصعب عليه أن يعود زارعا أو
 أجيراً كما كان قبل أن يصير جندياً لانه يرى تلك الأعمال شاقة عليه فثبت
 إن مدة إقامته في ثكنة العساكر أضعفت عزيمته وأوهنت قواه الادبية
 كذلك يتأثر الضابط من ذلك الوسط تأثيراً ليس حميداً ومنهم من
 يشتغلون فينجون من عدوى الثكنات بعض النجاة ولكنهم لا يفضلون
 غيرهم من الناس الذين يكدون على رزقهم . ومنهم من لا يعمل عملاً أبداً
 ويكتفون بأداء الواجبات العسكرية دون غيرها وأولئك ترام يقضون
 أوقات فراغهم الطويلة في القهاوى أو المقاصرة أو استنشاق الهواء أو الزيارات
 أو الملاهي والملاذ . وليس في هذه الاعمال كلها ما يرفع درجتهم الادبية فوق
 درجة أقل الناس .

ولا شك في ان الامم التي لم تحفل بالجندية والوظائف الادارية أرفع
 منزلة في الآداب من التي بسطنا الكلام عليها لان شبانها لا يجدون في
 العسكرية أو المصالح الاميرية مقاعد يتكئون عليها بلا تعب ولا عناء بل
 يضطرون في تحصيل رزقهم الى الاحتراف بالصنائع الجارية وهذه تقتضى
 أقداماً أوفر وعزماً أوفى وفيها السراء والضراء وتبعثها أكبر ولكنها في
 كدم هذا لتحصيل عيشهم واىواء عائلاتهم يجدون همة وقدرة أدبيتين
 لا يجدهما من تيسر رزقه وعاش كسولاً .

رابعاً لانها تساعد على انتشار الامة وسهولة تعود أفرادها على الإقامة في
 جميع أنحاء المسكونة . فبينما نحن الفرنساويين نجتهد في احياء العواطف
 الوطنية التي تولها الانحطاط في ارجاء البلاد كلها باستعراض الجيوش

واقامة الاحتفالات العسكرية يمخر خصمنا في عرض البحار بسفنه العديدة
وغير على أطراف المسكونة بمهجره الذين لانحصى لهم عدداً وكاننا لانراه
أواننا محتقره لانه لم يتسلح مثلنا من قدميه الى عينيه . ولكننا لانزال
متأخرين باعتقادنا ان قوة الامه من قوة حكومتها لانه اعتقاد باطل اذلو
كان صحيحاً لأصبحت سيادة العالم بأسره في يد الامم اللاتينية ومن المشاهد
انها ترجع القهقري كل يوم أمام تقدم الامم الانكليزية السكسونية على
صغر حكوماتها وقلة جيوشها .

اذا تبينا هذا كما ينبغي تمكننا من أخذنا من ألمانيا كما بتغنيه كل واحد
منا لاننا إذ ذاك لانطلبه بالافراط في حشد الجيوش وتمبئة السلاح فان ذلك
يضعف الغالب والغلوب سواء بل بتغنيه من وراء اعلاء كلمة الامه . فهي
القوة الحقيقية لان قوامها العمل واستقلال الافراد فيه

وليلاحظ ان حلة الحرب أو حلة السلم المسلح ليست من الضروريات
الازلية بل هي نتيجة أشكال الجمعيات التي استولت على زمام الامم الى هذا
الحين وكانت كلها راجعة الى الافراط في تعظيم السلطة العمومية وتوسيع
نطاقها . أما الامم التي اتخذت شكلاً آخر فانها لم تعد تشعر بحاجة الى
الاقتتال وصار الحرب عندها نادراً وهم لا يستبقون جيوشهم على قلة عددها
الاتمسكا بالمعادات وجريا على الماضي أو لأجل أن يدفوا بها غارة الامم
التي لاتزال ترى كل رشيء من خلال الجند مليحاً

ولنلخص ماتقدم فنقول :

ان الوطنية السياسية وطنية صناعية كاذبة تقود الامم الى الدمار

والوطنية الحقيقية هي التي تفضل استقلال الشخص وتحميه من تعديات الحكومة وتوسيع نطاقها ضد مصالحته لان هذه هي الطريقة الوحيدة في استبقاء قوة الوطن وتحصيل سعادته

الفصل الرابع

﴿ في ان فرنساوين يختلفون عن الانكليز السكسونيين ﴾

(في ادراك حقيقة التضامن والتكافل)

أصبح التكافل اليوم مذهباً مقبولاً في فرنسا كالبديهيات حتى ان أحد رؤساء الوزارة السابقين وهو موسيو « ليون بورجوا » كتب فيه رسالة مخصوصة قال فيها ان أحزابه عديدون وذكروا منهم الاشتراكيين من المسيحيين وبعض علماء الاقتصاد الالمانيين والفلاسفة كموسيو « فويه » و « ايزولي » وحكماء الفلسفة الوضعية الذين يسمونه مذهب « الغيرية » قال « والمذهب واحد عند الجميع وان اختلفت أسماؤه ومرجه الى القول بوجود رباط طبيعي من التكافل بين كل فرد من الافراد وبين البقية » ولو اقتصرنا على ذلك لا يمكن التسليم بهذا المذهب إذ لا ضرر فيه ولانه إنما جاء بحقيقة لا تخفى على عامة الناس غير ان في الامر شيئاً آخر ينبغي التحرز منه ذلك ان القائلين بهذا المذهب يريدون أن يجعلوه المرجع الاصلى في المسئلة الاجتماعية بتمامها ويرون إنه الوسيلة في حل مشكلاتها ومقدار بحسبهم كله على المسئلة الآتية هل يجب أن يكون الفرد تابعاً لكل أو الكل للواحد وهم يجيبون

بأن الصواب تتبع الواحد للكل وعليه فالموضوع ليس بسيطاً ولكنه يحتاج الى النظر والتنقيب

وأكبر دليل في رأي موسيو « بورجوا » على صحة المذهب هو قوله ان الرجل تابع للجمعية لانه مدين لها وليس هو مدينا لماصريه فقط بل « يولد مديناً للنوع الانساني بأكمله » ومنه الاجيال الماضية « لانه يأخذ حظه مما ترك آباؤه وآباء الآخرين »

ويرى المتأمل من اراد هذا الدليل على هذه الصورة انه يسهل على صاحبه اطالة الشرح فيه كما يعلم ان من السهل انتحال طريقته للرد عليه قال « يتبادل الناس المنافع وهم أحياء » فهم حينئذ متكافلون وقد يجاب على هذا القول بأنه قول صحيح وبأن الناس يتبادلون أيضاً احقاداً وبعضهم مع البعض الآخر يتنافسون فليسوا حينئذ متكافلين قال « إذا ولد الانسان رأيته يتمتع برأس مال عظيم جمعه الاجيال الماضية » فهو حينئذ مدين

ويقال في الجواب نعم ولكنهم أيضاً أضعفوا قوة العمل الذاتي لانهم لم يتركوا من الارض الا يسيراً لم يستغلوه فصيروا التنازع في الحياة عنيفا لذلك يكون الفرد من الدائنين

وهكذا يسهل الاسترسال في هذا البحث على هذا النحو والموضوع واقف عند الحد الاول وتكون النتيجة لعباً بين متناظرين ينتهي باعتقاد كل واحد منهما انه ألزم خصمه الحجة وأسكته بقوة البرهان والحقيقة ان بين الناس منافع مشتركة وأخرى متناقضة فهم للاجتماع

دائون ومدينون وهنا عقدة الاشكال الا ان موسيو « بوجوا » قد سهل لنا حلها برسائله

ولنجعل مبدأ بحثنا ذلك الدليل الذي اختاره دون غيره وورده مراراً وجمعه الماد الاول في تفضيل الشكل على الواحد وهو قوله « يولد المرء مدينة للهيئة الاجتماعية فيأخذ حظه مما ترك آباؤه وآباء الآخرين حتى ان أحقر الصناعات في زمننا هذا ليفضل متوحش الازمان القديمة بمقدار ما ينه هو من التفاوت وبين رجل من نوابغ عصره » الى أن قال :

« وما تاريخ الانسانية الا عبارة عن تاريخ ما تحمله النوع الانساني من المتاعب والخسائر التي لا يحصى عددها ولا يمكن تقدير أهميتها حتى وصل بعقله وقوة ارادته الى ادراك ما أودع في الكون من العناصر والقوى وتمكن من اخضاع الجميع لسلطانه واستعمالها في منفعة ليجد كل فرد من أفراده يوم يوجد وسطاً يسهل عليه فيه تربية ملكاته وانماء ما اختص به من القوى بحرية أوفى وأكبر أى لتكون الانسانية أحسن في الحال والاستقبال منها في الماضي والى راحة الاجسام أقرب والى دعة الافكار ألزم والى اطمئنان الضمائر أوجب »

ذلك أمر لا شك فيه فالرجل مدين للهيئة الاجتماعية بما وصلت اليه من الترقى واليه يرجع فضله الحالى على متوحش القرون الاولى . غير ان البحث الوحيد المهم الذى ينبغى الخوض فيه هو معرفة كيف حصل هذا الترقى فى الهيئة الاجتماعية . هل كان فى حصوله الشكل خاصناً للفرد أو الفرد تابعاً للشكل كما يشاء موسيو بوجوا . وبعبارة أخرى هل الذى أوجب

ذلك الترقى الذى صير فى رأيهم الواحد مدينا لكل هو عمل الجمع أو عمل الافراد . وبعبارة أوضح هل هو من عمل الجمعيات التى كانت السلطة فيها فوق كل شىء أو من عمل الجمعيات التى كان كل فرد حراً فيها يجرى وراء مصالحه كما يشاء : لانه لا يتأتى لهم بالطبع أن يبنوا مذهبهم على ما حصل من الترقى ولا يلتفتون الى كيفية حصوله وطريقة اكتسابه

وإذا تمهد هذا سهل علينا البحث فى موضوعنا

من الحقائق التى يعرفها كل واحد ان الامم الحالية ساعدت على نمو التقدم أكثر من الامم الماضية وان الامم الغربية تفضل فى ذلك الامم الشرقية

ومن الواضح ان الامم الحالية والامم الغربية انما فضلت غيرها بتغلب العمل الشخصى على العمل العام أى بقوة استقلال الفرد أمام الكل فكلما انتقلنا من الماضى الى المستقبل وسرنا من الشرق الى الغرب نشاهد شخصية الافراد تمظم شيئاً فشيئاً وان الواحد يستقل عن الهيئة ويستأثر بكثير من الأعمال دون البقية وان العمل أصبح حراً بعد ان كان مقيداً واضحى ذاتياً بعد ان كان كلياً كما انتقلت الملكية من يد الجمع وتقسمت على الافراد فبطلت صولة القبيلة على كل واحد من أعضائها وبادت أثرة الطوائف دون أفرادها واستوى كل باخيه مدنياً وسياسياً وتبدلت الحكومات من ملوكية مطلقة أو جمهورية مستبدة الى ملوكية أو جمهورية حرة نيابية . وبالجملة نشاهد التقدم الاجتماعى يسير خلف استقلال الافراد تجاه الحكومات : واذا نظرنا الى أمم الغرب وحدها رأينا ان التى تفوق غيرها منها فى التقدم وسرعة

الترقى والثروة والانتشار هي التي يعظم فيها قدر الواحد ويتأيد استقلاله الذاتي ذلك كله واضح محسوس فلا أطيل الشرح فيه .

على ان موسيو « بورجوا » لا يخالف في الحقيقة ما أقول ولم يفته ما في مذهبه من الضعف والفساد وان بناه على ظاهر خداع قد تفوت مضاره على غير الناقدین بل عرف يقيناً انه يؤدي الى أمانة روح العمل في الافراد وسد باب التقدم الذي هو مدار مذهبه لذلك أخذ يتقدم الود على ما خشى الاعتراض به عليه فقال « لقد عرف الكل في تاريخ الامم والشعوب ان السبب الاصلی في الترقى تراحم الافراد على استقلالهم وان الامة لا تتجه نحو التقدم الا اذا نشط الواحد من قيوده وتيسر له استعمال ما اختص به من الملكات والمزايا وانه بقدر تقدم الافراد في استقلالهم ونمو حركاتهم الجسمية والنفسية التي هي قوام كل حركة اجتماعية يكون تقدم الهيئة بتمامها ويعظم عملها في سبيل الترقى والنجاح »

وذلك أبلغ ما يقال غير ان المؤلف بعد ان فرغ من هذا التحقيق جعل يتأوله ويتدرج فيه حتى أرجعه الى مذهبه كيلا لا تترك قوى الافراد للافراد فقال « واجتماع قوى الافراد تحت لواء واحد قهراً في أزمنة الاستبداد أو إختياراً في أعصر الحكومات الحرة هو الذي أيد بقاء المجتمعات الانسانية وحفظها من الشتات وهي العائلة والقبيلة والمدينة والشعب والدين والامة » وعليه فارتقى نظام في الوجود هو « الذي تحصل به الموازنة بين الافراد والكل حتى يعيش الكل للواحد ويعيش الواحد للكل ويصبح هذان المؤثران متلازمين بعد ان ظنهما الناس نقيضين زمناً مديداً الا وهما تقدم

كل فرد في حياته وتقدم الامة في حياتها» ومزج النظامين الفردى والكلى على هذا النحو يأخذ بالافكار علماً ويدل صراحة على ان المؤلف يريد أن يرضى الجميع لكن من ذا الذى يبين لنا مقدار مايجب من كل عنصر في هذا المزيج ومن الذى يتولى أمر المزج بين العنصرين وهل يوجد من يتبنى له هذا المزج ونحن نعلم ان علم تحليل الهيئات الاجتماعية أكثر تعقيداً وأكبر إستعصاء من علم تحليل الاجرام .

لم يفث ذلك موسيو بورجوا ففقد له فصلاً مخصوصاً عنوانه « تطبيق مذهب التكافل الاجتماعى عملاً » اليك أم حديثه فيه

يجب في التأليف بين العنصرين ان يلتفت إلى طبيعة الاجتماع وغايته والظروف التى تكتنف كل فرد يوم ينضم اليه وحظه منه وواجبه فيه وبالجملة ينبغى أن يقابل بين مزايا الاجتماع ومتاعبه بالنظر الى كل فرد من أفرادها حتى يتبين بذلك ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات

« وليس لشارع الامة أن يكون هو مفرق الحظوظ والمتاعب فى الاجتماع فلن يكون من وظيفته إيجاد الحقوق بين الناس بل تنحصر واجباته فى انتزاعها من ملاحظة روابطهم مع بعضهم البعض والوقوف عند بيانها وتقرير أحكامها متى تبين النسبة الكائنة بين عناصر الهيئة الاجتماعية وضحت له النسب التى توجد بين ضمائر المجتمعين ومشاعرهم فيقررهما

وحينئذ لا يكون دشرعه قانوناً سنته الهيئة الاجتماعية وألزمت الافراد باتباعه الزاماً بل يكون ذلك القانون عبارة عن الناموس الطبيعى للهيئة الاجتماعية الواجب العمل به بين الناس

ويرى القارئ إن موسيو بورجوا على رجااء من وصول الناس - بعد زمن طويل - الى درجة من التنور والعرفان والحكمة تمكنهم من الاتفاق على عقد اجتماعي يصيرون بمقتضاه شركة اختيارية يسهل عليهم فيها «الجمع بين القوى المتناقضة وتحويلها كلها الاموثرات مفيدة لكل فرد وللجموع وان يقيموا على اطلال التنافس والخصام ودوارس السلطة القهرية والاستبداد بناء هيئة اجتماعية جديدة عمادها السلام وقوامها التراضي والاختيار»

ولا شك في ان هذا مطمح لا يرمى اليه الا حكيم حكيم وهو النرض الذي يجب أن تقصده الانسانية في خطاها وهو الذي يمكنها أن تسير اليه الا إنه يصعب علينا أن نمشى مع المؤلف هذا الشوط البعيد كما يصعب علينا ان نوافقه على ان للمقدمات التي وضعها تؤدي الى النتيجة المذكورة فقد دلنا على وجود قوتين في الحياة الانسانية وهما قوة كل فرد منها وقوة الهيئة المجتمعة واعترف بان التقدم الذي وصلت اليه راجع الى الاولى منهما ثم استنتج مع هذا وجوب انهاء الثانية وجعلها محل الرجااء في «الوصول الى هيئة جديدة عمادها السلام وقوامها التراضي والاختيار»

وإني لأخطئ كثيراً اذا قلت بان هذا التناقض مقصود فان موسيو بورجوا رجل سياسي أولاً وبالذات وشغله الشاغل قبل كل شيء تأليف حزب يكون له نصيراً ثم الصل على دوام هذا الحزب وانتشاره بما يصل اليه الامكان وهو يخشى أن ينفر محازبيه إن قال لهم ان الحياة أيها الاولياء ليست لعباً ولهواً وإنما هي مغالبة دائمية ضد متاعب لا تحصى متجددة في كل آن ولن تنالوا الظفر في هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على أنفسكم

لاعلى غيركم اذ كل ما يمكن لاهليكم وأصدقائكم وجيرانكم وحكومتم ان يساعدوكم به اقل في الحقيقة بكثير مما يمكنكم ان تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم اذ اعوانتم عليها ولم ترجعوا في أموركم الا اليها . لانه من المسلم أن مثل هذا الخطاب انما يؤثر في عقول المتورين ولا يأخذ الا بقلوب الذين سمت مداركهم وكانوا قوما عارفين . ولكنه لا يجذب الجماهير خصوصاً من أسسوا أمرهم الى أهل السياسة وأوقفوا حظهم في الحياة على ما يعملون . ذلك لانهم لا يطلبون نصيبهم في الوجود الا من الحكومة ولا يرجون مزية الا من الهيئة بتامها ومثل هؤلاء القوم سهل اكتساب قلوبهم اذا وعدوا صلاح أمورهم بواسطة ذلك التكافل لانه صيغة مبهمه بسيطة يقبلها الناس بالسهولة ولا تضيق على أحد ولا توجب شيئاً من المتاعب ولا تستلزم مع ذلك تغيير شيء مما يجري عليه الناس في الحياة الآن . وهي دعوة تذلعة للناس الذين لا يطلب منهم عمل من الاعمال وهم لا يطلبون كل شيء من غيرهم وتذاً أيضاً لرجال السياسة والمشتغلين بالمسائل الاجتماعية والحكام ومحبي الانسانية الذين لا يتكفون من القول الا يسيراً ليظهروا أمام الناس في ثوب قوم عرفوا متاعب الانسانية وكانوا بها مشفقين

نعم يكفي ذلك لتأليف الاحزاب وجمع النصارى ولكنه لا يكفي للنهوض بالانسانية نحو كمالها بل أنه يزيد في سوء حالها لان التكافل أمر وهمي أكثر مما هو حقيق واليك البيان بالايجاز

أولا مجرد النداء بان الناس كفلاء بعضهم لبعض وأن مساعدة البعض للبعض واجبة لا يكفي لاجاز التكافل أو لاحكام روابطه بينهم وانما ميل الافراد

الى الاعتماد على الجمع أو جعل الفرد تابعاً للكل يتولد في الهيئات الاجتماعية بمقتضى نوااميس مقررة يرشد اليها التأمل في الوجود ويعرفها قراؤنا فحيثما وجدت تلك النوااميس تولد هذا الميل من غير احتياج الى النداء به أو الارشاد اليه لانه يحدث بانتظام كما تتولد جميع الحوادث الطبيعية فاذا أردنا إنماءه وجب علينا أن نعرف الظروف والحوادث التي استلزمت وجوده وهنا يظهر مافي مذهب التكافل من الوهم والخيال اذ لسوء الحظ كلما قوى هذا الميل اشتدت تايمية الواحد للكل وتأصلت عنده عادة الركون اليه وقل اعتماده على نفسه وصار أعزل أمام متاعب الحياة لما يعتريه من فتور الهمة وضعف الارادة وسقوط العزيمة على العمل. وما لتأخر الشرق عن الغرب سبب غير هذا

واذا أردنا أن نحفظ التوازن بين الواحد والكل على الدوام لزمنا القول بوجود زيادة اعتناء الكل ومضاعفة سهره على قدر ما يعترى الواحد في ذلك الوسط من الخمول والانحطاط. ومن نكد الطالع أن العكس هو الواقع وهو معقول لان ذلك الكل الذي يحتاج اليه في الاستماتة على ضعف الواحد انما يتألف من مجموع أولئك الضعفاء فطبيعته من طبيعتهم والذي يضعف الفرد ويجمعه مفتقراً الى غيره يضعف الكل ويعوزه ومعناه ان التكافل يزداد ضعفاً بقدر اشتداد الحاجة اليه. وأني أسأل القراء عفواً عن تقرير هذه الحقائق التي هي في الواقع بديهيات

وعليه يتبين أن هذا المذهب معيب من جهتين أولاً لانه يولد في الامة أفراداً لأهلية لهم في شيء من الاعمال ويساعد على كثرة عددم

شيئاً فشيئاً . ونايماً لان أمة تضعف عن مساعدتهم كلما كثر عددهم
 ما مساعدة الهيئة للأفراد الا وسيلة عرضية وقتية تحصل بطريق
 الاستثناء عند إشتداد الضنك ببعض الناس فليست دواء يشفى العلة بل
 هي مسكن كالخدرات تهدي صورة الألم حيناً لكنها لا تنيم الألم الا اذا
 أنامت المريض

كذلك يحتاج في تطبيق مذهب التكافل عملاً الى اتفاق جميع الافراد
 على قبوله أى الى تحرير ذلك العقد الاجتماعى الذى ينشده موسيو بورجوا
 ويحصر آماله فيه . أما اذا اعتضنا عن عمل الكل بعمل كل فرد فانا نفتتح
 لكل واحد سبيل نجاة الهيئة الاجتماعية تمامها كما أن الدين يفتح لكل
 فرد باب سلامته الابدية . فالواقع أن الحياة الاجتماعية كالحياة الابدية كلاهما
 متعلق بالافراد لا بالجموع وعلى كل امرئ ان يتخير السبيل الذى يوصله
 الى نجاته بنفسه كما يتخير التربية التى تجعل أبناءه قادرين على الحياة بأحسن
 الطرق والوسائل . وكما تشبعت الأفكار بان قيام المجتمع الانسانى متوقف
 على عمل كل فرد أحس كل واحد منهم بوجود التعويل على نفسه دون
 غيره ومال الى استعمال ما أوتيته من الهمة والارادة والاجتهاد .

رب معترض يقول أنا مقيم حب الذات مقام مذهب عليه صلاح
 الانسانية وفيه نجاتها وهو اعراض نعيم الالفاظ يخاف منه اناس كثيرون
 لذلك وجب أن نفصح القول لنعلم ان كان حب الذات فيما تقول أو فى
 المذهب الذى يقول به غيرنا

قلت ان مذهب التكافل خيالى وأزيد عليه ولا أخشى معارضاً انه

صورة من صور حب الذات المخجل حتى انني كنت وضعت لهذا الفصل عنوانا آخر (هو حب الذات عند الغيرين) وسيتضح للقراء ان التسمية كانت صحيحة لا مجرد تلاعب بالالفاظ . ذلك لانه بالبحث في التكافل نراه يشتمل على امرين كون المرء يساعد غيره وكونه ينتظر المساعدة من غيره ولعمري لست أدري أي الاعتبارين يجذب النفوس نحو هذا المذهب ويجعل الناس يجتمعون حوله ان كانت رغبتهم في مساعدة غيرهم أو رجاءهم المساعدة من ذلك الغير . ومن المشاهد ان الذين يميلون الى مساعدة غيرهم يؤدون تلك المساعدة من أنفسهم وهم يفعلون ذلك منذ خلقت السموات والارض ولم يقولوا بان عملهم هذا مذهب لازم في الانسانية ولم يتحروا النداء به على رؤوس الاشهاد . وعليه فيل المرء الى مساعدة غيره ليس هو الاعتبار الذي أوجب انتشار مذهب التكافل الجديد وإنما الذي أوجب ذلك هو تصور المساعدة من الغير حيث يسمى الواحد راجياً أن تجعل له الحكومة أو الامة راتباً أو توجد له عملاً ايا كان يعيش منه . هذا هو الذي يختلب الافكار ويجتذب النفوس ويحشد الجموع حول مذهب ظاهره التضامن والتكافل وباطنه الاثرة وحب الذات .

إن الرجل الذي يؤدي الجزية الى صندوق الحكومة والذي يتقاضى الراتب من ذلك الصندوق شريكاً متكافلاً في عملها غير ان لكل وجهة في شركته فالتكافل يجلو لأحدهما دون أخيه . ألا ترى أن المرء ميل الى التوظف أكثر من ميله الى أن يكون ممن وجب عليه الخراج وأقرب الى اعتبار التكافل في منفعته من إعتباره واجباً عليه .

والخلاصة ان المرء ميال الى استخدام غيره أكثر من ميله الى خدمته وان صاح موسىو بورجوا بما يخالف ما ذكر واليك دليلين قريبي العهد منا أخذناهما من طريقة الاستعمار عندنا

الاول نقله عن أستاذ الفلسفة موسىو «لاي» من رسالة نشرها في مجلة الفلسفة العقلية يصف فيها معاملة الاوروبواوين للاهالي في مستعمراتنا قال «لقد نشر الاستبداد جناحيه في كل ناحية وشملت الاثرة جميع الناس بأشد حالاتها وصرنا نشاهد ان حكم الشرفاء يحجي من جديد في المستعمرات حيث الأوروبى هو السيد الأمير والوطنى هو الخادم الحقير حيث الامير هو الذى يقضى بين أتباعه بمعنى انه يصادرهم فى ماشيتهم ان جاءت لترعى فى أراضيه أو يقدر الغرامة التى تجب عليهم وقد حذا الخدام حذو الخدميين فما وجد خادم أوروبى بين خدام وطنيين الا رأيتة ألقى ماني يده من آلات العمل وجعل يصدر الأوامر للأخرين ثم الجندى يوحى الى المدنى طريقة الاستبداد وبالجملة فان عيشة المستعمرات لاتلائم الفضيلة ولا تدعو الى مكارم الأخلاق»

والدليل الثانى نأخذه عن موسىو «لانسان» وهو من الطبيعيين خلافا لموسيو «لاي» وكان حاكما فى «التونكين» وقضى فى المستعمرات زمنا طويلا وله كتاب سماه «مبادئ الاستعمار» تكلم فيه عن علاقات الاوروبواوين بالوطنين ومما جاء فيه قوله «أعظم رجل متمدن يصير فى المستعمرات كالطفل فى معاملة العجاوات فهو يعامل الوطنيين كأنهم آلات خلقت للآلام. يبعث بدينهم ولا يحترم عائلاتهم ولا يوقر ما اعتادوا على توقيره فى

مجتمعاتهم ولا يعبأ بأملآكهم ولا يتهيب أشخآصهم ولا يقدر لهم حياة وليس توحش الاستعمار في هذه الأيام بأقل من توحشه في غابر الأزمان» ثم أتى بالشواهد على قوله فسرد وقائع وحوادث لا عدد لها. والحال واحدى كل جهة في الهند الصينية ومدغشقر وشطوط أفريقيا ثم ختم موسيو «لإنسان» الكلام بقوله «يجب وضع حد لهذه المعاملات الفظيعة ان كانت الحكومة تريد أن لاتسوء عقبي السياسة الاستعمارية بسببها» نحن نرى أيضاً انه يجب اقامة حد لتلك المعاملات الشنيعة التي تقسم الناس الى قسمين من يستعملون التكافل في منفعتهم ومن يترقبون الفرص ليستأثروا بمنافعه والفريق الاول ظالم والفريق الثانى مظلوم ولكنهما يجتمعان في رغباتهما ان يعيشوا كلا على الكلى أى على المجموع أى على الامة

وإذا بحثنا عن طريقة للخلاص من هذه الحال فانا لانجدها في نشر مذهب التكافل لانارأينا أقل الناس استحقاقاً لامنية قد انتهزوه فرصة لاحتكار منافعه إضراراً بحقوق غيرهم فلم يستفد منه الا الخبيثاء الذين اتخذوا التكافل آلة يبتزون بها أموال ذلك الغير ويستعملونه متكافلاً لهم حتى كل منهم واستجار وقرب من العدم

إذا ثبت هذا علمت ان ترقى الهيئة الاجتماعية لايقوم بالانكال على الغير والحيف عليه وذلك هو أكبر برهان يقدمه كل واحد لأخيه على انه وإياه متكافلان . ويحصل هذا الترقى بمقدار ما عند كل واحد من الاعتماد على نفسه وكفائة حاجاته بنفسه ونشأته على استعمال قوته الذاتية ومهته الشخصية . ومعنى ماتقدم انه ينبغى الاهتمام بترية القدرة الشخصية أكثر

من الاهتمام بتعظيم السلطة الاجتماعية

علمنا إن تربية الناس على الاعتماد على الهيئة يضعف من قوتهم الذاتية ومنه يؤخذ ان تربيتهم على الاعتماد على أنفسهم يزيد في تلك القوة وهو برهان ساطع على ماللوسط من التأثير فان كان ملائماً للعمل أصبح العامل الطيب ماهراً والعامل المتوسط متقدماً والعامل البسيط متوسطاً والعامل الخمل بسيطاً وهكذا تترقى الطبقات واحدة بعد الأخرى

وليلاحظ إنني لأقول هذا إعتباطاً من غير أن يكون لي سند فيه غاية مافي الامر إنني أخلص للقراء حوادث كثيرة كلها ثابتة بالخبر والاستقراء ودليله ما كتبه الى صديقي وزميلى الفاضل موسيو «بول دوروسيه» في الشهر الماضى من مدينة «سنسناتى» بامريكا حيث ذهب ليستطلع الاحوال فى تلك البلاد قال « رأيت فى أمريكا كنزاً للاستقراء لايفنى فهى بلدياتها المهاجرون من كل ناحية ابلا انقطاع وقد اشتغل علماءؤها بالبحث عن الأجناس التى فيها قابلية لاحتمال العيشة الامريكية والتى لا تقدر عليها وفى ذلك فائدة كلية لانخفى وأغرب ماشاهدت هنا هو تقدم الارلنديين منذ عشرين عاما وكل شىء قابل للترقى والنمو يعظم ويكبر فى هذه البلاد لذلك لاترى الارلندى اليوم يكنس الطرقات ولم يعد هو ذلك العامل الخفير الجاهل الذى كنا نعرفه من قبل بل ذلك شأن قداختص به الآن «البولونى» والاي تالى وغيرهما

ولا شبهة فى أن هذا الاستقراء مفيد جداً وإنه يساعد كثيراً على توضيح مسألتنا الاجتماعية التى نبحث فيها وعلى القراء أن يقابلوا بين هذا

وبين ما نقلناه عن موسيو « لاني » و« لانسان » ليتبينوا الفرق. ويقفوا على حقيقة الموضوع ويهتدوا الى الصواب فيه

الاوروبي هو الذي يهاجر في الحالتين الا ان الفرق عظيم بين النسيجتين والسفر في هذا ان بعضهم أقام ببلد اتكالي أي لم يتعود أهله الاعتماد على أنفسهم بل على الهيئة التي وجدوا فيها وكانت نتيجة تأثير هذا الوسط مضرة بالفريقين الوطني والاوروبوي الا انهم لما يصيبه من الظلم والاستبداد والثاني لما يأتيه منهما . وبعضهم أقام ببلد إستقلالي أي تعود كل واحد من أهله المحافظة على استقلاله تجاه الهيئة بتامها وشب على الارتقاء بجدده وعمله مستعينا بهمته وقوته حيث القدرة الشخصية بلغت غايتها وقل تأثير الهيئة الى الحد الاذني . فادا وصل الاوروبي الى هذا الوسط الحى سرت فيه حركة الحياة وتنهت قواه وتبدلت أحواله فصار رجلا غير الذي هاجر وأصبح قادراً على تحصيل حاجاته بنفسه اذ لا سبيل للاعتماد على الغير في تلك البلاد ولا إلى إبتزاز المال من يدهم ولا إلى الاتكال على تكافل وهمي يخدع النفوس كذبا وتليدسا . تلك بلاد « المرء بنفسه » فكل ما فيها يناديك أعن نفسك بنفسك . لذلك تحول الارلندي وارلقى وهي معجزة من السهل على من لهم أقل المام بالعلم الاجتماعي أن يدركوا السر فيها

مضت الاجيال الطوال على ذلك الرجل وهو في وسط اتكالي حتى صار يهرب من كل عمل يكلفه بعض العناء أو يقتضي بعض الهممة الذاتية متعوداً على المعيشة من تكافل عشيرته حتى وصل بتأثير ذلك التكافل الى حاله التي نشاهده عليها في أوروبا من الانحطاط السياسي والضعف الاجتماعي

فاصبح رجلا ترفع عن الحرف الدينية التي كان مقصورا عليها بحكم مذهب التكافل المميت ولم يعد كناسا في الشوارع والطرقات أو صانعا كالا لة تتحرك بارادة غيرها وأمسى قادرا على العمل بنفسه وتحصيل الرزق من غير الاستعانة فيه الا بهتمته ودخل في طريق سعادته

أما المهاجرون من التليانيين والبولونيين فهم أقرب منه عهدا بجماعة الأمة الانكليزية السكسونية ولم يتم خلاصهم حتى الآن مما تربوا عليه في بلادهم ولم ينته تحولهم من حال الى حال الا ان الشوط الذي ساره الارلندي في تلك البلاد يدلنا على الغاية التي هم صائرون أيضا اليها بالتدريج فلا بد لهم مثله أن ينالوا في ذلك الوسط وتأثيره مافيه سعادتهم

ولا يتوهم أحد ان هذا الانقلاب يحصل اجماعا أن يناله الكل على السواء بل هو يحصل لكل فرد على حدته كما أشرنا اليه فأكثرهم عملا وأكبرهم همة أسبقهم الى الترقى ثم تليهم الطبقة التي دونهم فآتى من بعدها وهكذا لكل امرئ ما كسب

ثبت من هذا ان الامم الاستقلالية أصلح لنمو التكافل الاجتماعي من الامم الاتكالية . وكانى بالذين يحبون التماذى فى الجدال من القراء يتساءلون عن مصير الأفراد الذين لا قبل لهم على الاتقاء بأنفسهم فى مثل ذلك الوسط الاستقلالى رغما عن تعدد وسائل الحث والتجريض فأجيبهم بان من لوازم هذا الوسط تقليل عدد أولئك الضعفاء جداً بخلاف مذهب التكافل فانه يساعد على كثرتهم دائما وبرهانه الارلنديون فى الولايات المتحدة . ثم ان مذهب التكافل فضلا عن كونه يعود للناس على عدم الاهتمام

بتحصيل حاجاتهم بأنفسهم ويربهم على طلب المعونة دائماً من أمتهم لا يساعد الضعفاء على النهوض من خمولهم كما انه يضعف من هم أولى العزم بما يقلل من نتائج عملهم كما يقول علماء الاقتصاد ويلحق بهم الفقر فتقل قدرتهم على مساعدة الغير وان رغبوا فيها ما استطاعوا . ونقص الثروة في يد كل فرد يؤدي الى نقصها في يد الامة بتمامها وحينئذ يعدم البائس الضعيف سبيل المعونة من الافراد ومن الحكومة سواء . ولن تقوم الامة بمساعدة الضعفاء ومواساة الفقراء والبائسين الا اذا توفر المال لدى الكثيرين من أفرادها حتى يسهل عليهم تخصيص مازاد على حاجاتهم الى الخيرات . والذي يساعد على انماء ثروة الافراد هو الذي يساعد على انماء روح المعونة وفعل الخيرات الخاصة والعامة . واذا قابلت بين ماينفقه الانكليز والامريكان كل عام في هذا السبيل وبين ماينفقه نحن مثلاً في فرنسا مما يقل سنة عن سنة وجدت الفرق عظيماً وارتاح ضميرك من هذه الجهة

تلخص من هذا ان رجلنا الاجتماعي يمتاز على رجل مذهب التكافل بقدرته على مساعدة الضعفاء وبكونه يسهل لهم أيضاً سبيل التقدم والارتقاء وهو الذي يسير بالانسانية الى طريق حل مشكلاتها وعلى الخصوص الى حل مايسمى « مسألة الفعلة والصناع » فهو الذي يخطو نحو فض الاشكال بمحو حالة الفعلة الحاضرة من الوجود وذلك هو مستقبل الدنيا

ربما عد هذا من قبيل السفسطة لتعودنا الحكم على المستقبل بالماضى ولكونه يصعب على الفكر طبعاً أن ينسى الاوضاع التي اعتادها وان أخذت في الانزواء والزوال وأن يلتفت الى الاوضاع الجديدة التي تظهر في

الوجود هنا وهناك غير أن علائم هذا الانقلاب بادية جلية في الامم المتقدمة في طريق المستقبل وهي واضحة تماماً في انكلتره والولايات المتحدة فانك ترى الصناع في الحرف الدنيئة كلهم من الأجانب أو من القادمين حديثاً ولم يمض عليهم زمن كاف ليتشبهوا بأهل تلك البلاد والصنائع الرفيعة تدار بالآلات شيئاً فشيئاً والرجل ينتقل من كونه صانعاً أو عاملاً الى كونه موظفاً أو ملاحظاً . كذلك أصبح الصناع الفلاح الذي نعرفه في بلادنا من زمن مديد على وشك الزوال فان آلات الزراعة تكثر كل يوم حتى كأن الفلاح في كثير من أقاليم أمريكا عالم يبحث في طبقات الأرض عن معادنها فيحترق ويهدد ويحصد ويدرس وهو مستريح على جلسة منتظمة يقود منها دابته كأنه في عمله أحد الظرفاء في عربته وربما رأيت بلباس الظرفاء أحياناً . ولم يبق عليه الا أن يتعلم أطوارهم ويتهدب بأفكارهم وسيتم له ذلك . وقد اتسع ذهنه في جميع مايرقى الزراعة لذلك لا يحجم عن استعمال كل جديد فيها

الولايات المتحدة الآن في طليعة الامم من حيث التقدم الاجتماعي كما سبقهم في المصنوعات الميكانيكية وهما نوعان من أنواع التقدم متلازمان لا كما يظن الناس عادة فالثاني نتيجة الاول والاول يتأثر كثيراً بالثاني وليس في قدرة أحد أن يخبر بما تصل اليه الامم من الترقى باجتماع هذين الامرين وجب علينا اذن ان نقلع عن التمسك بأوضاع الاجتماع القديمة كما أخذنا في ترك آلات العمل التي تديرها يد الانسان فذلك هو الماضي الذي يبغد عنا كل يوم ولا مرد له أبداً

وبينما العالم الانساني يسير مظفراً نحو حال جديد نرى رجلاً كوسيو
بورجوا نجله أن يكون في عداد كل الناس مع كونه يطمع في رئاسة حزب
الترقي في البلاد الفرنسية يعرض علينا أن نرجع الى مذهب تقادم العهد
عليه حتى بلى ظاناً انه اكتشاف جديد وهو أوهى المذاهب وأشدّها تعسفاً
واستبداداً. حقا ليس لنا من نصيب

الفصل الخامس

﴿ ماهي أحسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة ﴾

الف السير (جون لوبوك) كتاباً عنوانه (سعادة الحياة) وقد انتشر
انتشاراً عظيماً في انكلترة حتى ان الذي عنى بترجمته الى اللغة الفرنسية لم
يفرغ من الجزء الاول الا بعد أن أعيد طبع الكتاب عشرين مرة ومن
الجزء الثاني الا بعد ان ظهرت طبعته السابعة والسبعين

ولا يحسبن القراء أن المؤلف أمسك العنقاء وجعل يعرضها على أهل
زمانه في نظير بمض شلنات يدفعونها ممن كتابه اذ لو كان الامر كذلك
لقلنا أن الانكليز ليسوا بطماعين بل الكتاب بجزئيه عبارة عن جمع حكم
وتقل أفكار من كتب جميع المؤلفين المشهورين وغرض المؤلف من هذا
الجمع وذاك النقل أن يبرهن للناس انهم سعداء لكونهم أحياء

وللدلالة على صحة رأيه جعل يسرد موجبات السعادة التي يشاهدها
الانسان واحداً فواحداً كالارتياح بعد أداء الواجب واللذة من قراءة أشهر

مألف وأحسن ما كتب ونعمة المحبة ولذة السياحة ولذة البيت والملاذ
العلمية والعشق والفنون والشعر والموسيقى وبدائع الطبيعة وهكذا . وهو
لكل شىء باش الوجه هاش النفس يملأؤه الامل على الدوام فلا يرى الا
سروراً بحيث يضعف خصمه مع مناضلته . ومن قوله « لقد سمعت الناس
كثيراً يشكون مما فى هذه الدنيا من كفران النعم ومحبة الذات أما أنا فلم
أشعر مرة واحدة بأثر هاتين المصيبتين ولعل ذلك من حسن حظى » ذلك
أمر يوجب الاستغراب أويدعو الى القول بان صاحبه رجل من البسطاء
واليك أغرب منه قال « نحن فى الحقيقة أغنياء أكثر مما نظن وكثيراً ما نسمع
عن شدة رغبات الناس فى الكسب والاستحواز وبعضهم يحسد كبار
الموسرين ويظن السعادة فى امتلاك الاراضى الواسعة غير ان للغالب ان
الرجل يملك الارض والارض تملكه كما قال « ايمرسون » وإذا ارتقينا قليلاً
بالفكر لوجدنا ان لنا الالوف المؤلفة من الفراسخ والاميال فالشوارع
والطرق والسكك العمومية والجسور وشواطئ البحر على اختلاف صنوفها
وتنوع مناظرها كلها ملك لنا فنحن من كبار الاغنياء ولا علم لنا وليست
الارض هى التى تنقصنا بل الذى نحتاج اليه هو القدرة على التمتع بما ملكنا
وتلك مزية عظيمة تتبعها مزية أخرى وهى أنها لا تكلفنا عملاً ولا تطلب منا
عناء فصاحب الاملاك مشغول البال على الدوام ولكن المناظر الطبيعية
مملوكة لكل من له عينان تبصران . وبهذا المعنى صح لموسيو « كنجلي »
أن يقول بان بستانه زمن الشتاء كان الخضرة التى تكسنتف بعض المكان
الذى يسكنه لا لأنه كان يملكها حقيقة بل اعتباراً بالمعنى الذى يجعل

الألوف من البشر مالكين للشيء بعينه»

والكتاب كله محشو بهذا الأمل الشديد وأدلة المؤلف على مذهبه كلها من هذا القبيل ومن المعلوم ان الانكليز السكسونيين لا يقنعون بمثل تلك الأدلة الضعيفة كما ان تلك الأدلة ليست هي السبب في انتشار الكتاب بينهم ذلك الانتشار

ومما يجب البحث عنه معرفة السبب الذي لأجله لم ينتشر هذا الكتاب عندنا الا قليلا ولأجله يضحك الفرنسيون من قراءته ويتبسمون لسرد أدلته

ويلزمنا في ذلك أن نؤمن النظر ونطيل التأمل أكثر من موسيو «لوبوك» في موضوع تلك السعادة التي شغلت الانسان طول الزمان

— تعريف السعادة —

نريد بهذه الكلمة «السعادة» حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والأدبية تغلباً حقيقياً. والفرض من وصف المتاعب بالمادية والأدبية أن يتناول التعريف حاجتى المرء العظيمتين في الدنيا وهما راحة الجسم وراحة النفس فوجوده كله راجع اليهما

ويلزمنا قبل كل شيء أن نقف على حقيقة الأسباب التي ذهب الكثيرون الى أنها هي وحدها مصدر سعادة الانسان كالطبع والصحة والمال والدين فأما الطبع الحسن فهو الذي يميل بصاحبه الى أخذ الأشياء بأحسن جهاتها أي يحمله على اعتبار جهة الحسن في الأشياء مطلقاً. ولكل شيء

جهة حسن وأخرى تقيضها غير أن الخيال محدود مهما كان شديداً وعلى كل حال فهو لا يغير من حقائق الأمور شيئاً ومتى اتضحت الحقيقة ووجب التسليم بها كان اليأس أشد وقمماً وعليه فان توهم عدم وجود الضرر لا ينافيه وأما الصحة فانها تكفيننا شر كثير من الآلام الجسمية وتجعلنا بذلك قادرين على مزاوله العمل اللازم في تحصيل المأكل والملبس والمنسكن غير أنها لا تعطى الا القدرة وقد تعطل القدرة بسبب من الأسباب فيجوز أن يكون المرء بالغاً منتهى الصحة وهو مع ذلك في أشد حالات الضنك والاحتياج وما ذلك من موجبات السعادة في شيء

وأما المال فكثيرون يعتبرونه أهم وسيلة في السعادة والواقع أنه يضمن لصاحبه عيشه اليومي ويسهل له اجتياز الكثير من المتاعب المادية وليس هذا ييسر ولكن المال لا يفيد شيئاً في اجتياز المتاعب الأدبية فمن شأنه الميل بالهمة الى الفتور واضعاف الارادة ومن أهم أسباب السعادة الامل أى رجاء الحصول على المرغوب فاذا ملكت مارجوت ضاع جزء عظيم من ميلك السابق اليه والمال لا يجعل للامل محلاً لانه يسهل الحصول فوراً على المراد وذلك يؤدي الى ضعف لذة الانتظار وهذا هو السبب في أن الاغنياء يطلبون دائماً ملاذ جديدة وملاهي غير التي اعتادوها لانهم سريعو الشبع من كل أمر في أوله . فالمال يضيع الاهتمام بكل شيء ، ومتى ضاع الاهتمام فقد الرجل ذوق سعادة الحياة ذوقاً صحيحاً فلا يحفل بشيء ولا شيء ، يحمله على الاهتمام . وخطأنا في المال آت من اعتبارنا اياه بالنظر الى الفقر أو التوسط في المعيشة والواجب أن ننظر اليه من حيث هو ونقدره حق قدره

في الواقع ونفس الامر تقديراً صحيحاً . واذا فعلنا ذلك وجدناه أبتى من جهات كثيرة حتى ان صاحبه لا يتمكن بواسطته في بعض الأحيان من التملب على الصعوبات المادية التي تعرض له وان خيل لبعضهم ان ذلك من المستغربات . ألا ترى أن الذين يميلون في معيشتهم الى اللذات والزخارف يصرفون في غالب الاحوال أكثر مما يكسبون وينتهي بهم الامر الى تعود العرف من غير حساب والى فقدان التعود على العمل فيختل التعادل عندهم وفي ذلك الجب العميق انهالت ثروة كبار الاغنياء في كل زمان . كم من عائلة كانت ذات بسطة كبيرة من اليسار فأصبح أبناؤها بائسين . فان دام الحال لأبنائهم افتقر الدور الثاني أو الثالث ويمسون غير قادرين على اصلاح حالهم الماذى فضلاً عن الادبى لان من فقد عادة العمل والسكد يصعب عليه استرجاعها . كذا حال الشرفاء منا وكذا شأن الموسرين من الاواسط وهي سنة أبدية . واخلاصة ان فراغ اليد ادعى الى تحسين حال الانسان ماديا وأديبا من الثروة لانه ادعى الى العمل والاجتهاد

بقي علينا الدين وقد اعتبره بعضهم كافيًا في تحصيل السعادة ولاشبهة في أن الدين يساعد كثيراً على اجتياز متاعب الحياة النفسية غير أنه ان لم يصادف في نفس صاحبه قدرة على العمل واستعداداً للسكد كان تأثيره قاصراً على التوكل والاستسلام الى حكم القضاء والاستسلام لامر اذعان من المستسلم بأنه متعب شاق . وهذا هو الاعتقاد الذي يحدته الدين في النفوس من جهة الحياة في مثل تلك الاحوال . فترى صاحبنا أنها دارعناء وبكاه ويميل الى الاعتقاد بأن السعادة ليست من هذه الحياة الدنيا . والواقع

ان الدين لا يقصد به أولا وبالذات سعادة الامم في الدنيا بل السعادة الأخروية لانه لا يلتفت الى الأمور الزائلة ولكن الى الخلود وهو أفضل ما يتنقى على التحقيق . لكننا لا نبحت في هذا وانما كلامنا فيما يحصل لنا سعادة هذه الدار الفانية لانا لا نتكلم في التوحيد بل نتكلم في العلم الاجتماعى ولا يفتين عن القراء ان بعض المتصفيين بالتقوى يخطئون خطأ فاحشا في العمل بمقتضى قاعدة التسليم فيتذرعون بها الى الكسل والخمول ويقولون فى أنفسهم ان الحياة لا تساوى تلك المتاعب كلها ثم يرمون تكلائهم كله على الله « الذى لا ينسى من آمن به ولجا اليه » وينسون قوله تعالى « أعن نفسك يعنك ربك » والادعى للراحة عندهم ان يرموا أحمالهم كلها عليه . ومن كان هذا فكره أصبح ضعيفا لقاء اتعاب الحياة ماديا وأديبا . وعليه فالدين اذا فسد العمل به يصير آلة ضعف وانحطاط مع انه قوام الحياة وفيه أكبر معين على تحصيل السعادة ولكن الناس يعززون أنفسهم متى فسدوا بقولهم (ان الله يتلى عبده المخلصين) أو بقولهم (أبناء الجحيم أكبر حذقا وأوفر حظا فى الدنيا من أبناء النعيم) وما أسهلها طريقة فى ارجاع الانسان خطاياها وآثامها الى الله وحده

اذا ثبت هذا فلنا أن نقول بان الاسباب السانف ذكرها لا تكفى لتحصيل السعادة وإنما هى من المساعدات على تحصيلها والواقع ان تأثيرها يتبع الوسط الذى توجد فيه وكيفية استعمالها قوة وضعفا ومن هنا وجب علينا أن نعرف كيف يكون الوسط ملائما أو منافيا لتحصيل السعادة أى لا يجاد ذلك الارتياح الذى يشعر به من تمكن من التغلب على متاعب

الحياة المادية والأدبية تغلبا حقيقيا

وإذا نظرنا الى الامم وجدناها لا تسير في طريق واحد نحو السعادة بل تفترق الى ثلاث

الاولى هي التي سهل فيها تحصيل السعادة لسهولة وسائل المعيشة
الثانية هي التي يصعب فيها الحصول على السعادة لصعوبة تلك الوسائل
الثالثة هي التي تتحصل فيها السعادة رغما عن تلك الصعوبة
ولنشرح تلك الاحوال الثلاثة التي يخال انها غامضة لا يدرك المراد منها
كلنا يعرف المثل المشهور - ليس للامة السعيدة تاريخ معروف - والمثل
صحيح علما

أما الامم التي لا تاريخ لها فهي التي تعيش من الرزق الطبيعي كالمشائر
البرحالة التي تنتقل من مكان الى مكان بين المراتع والمروج . هنالك تكثر
الاعشاب فلا يجد الرجل منهم للعمل داعيا . وأهم أولئك الاقوام عشائر
التتار (المنغوليين) . واني لا أذكر قبائل الصحارى كالعرب وشعوب أواسط
أفريقيا لانهم مضطرون الى شيء من العمل ليحصلوا اتمام عيشهم
فعند المشائر الرحالة الحقيقية تجد صعوبة الحياة المادية والادبية ممهدة
مذلة من ذاتها

أما المتاعب المادية التي ترجع الى المأكل والملبس والسكن فهي معدومة
اذ الماشية كافية لتلك الحاجات وهي تنفذي بما تنبتة الارض من الاعشاب
بدون عمل للانسان . وليس على وجه المسكونة رجل خالص من تلك
الاتقال وأمن الموت جو عامثل أولئك القوم فلا يهتمون كل يوم بتحصيل

قوتهم كما هو حالنا لان العشب قد كفاهم مؤنة ذاك الاهتمام والعشب ينبت وحده ولا يحتاج النازل فيه الى حصده أو تجفيفه أو ادخاره . وبذلك نجا أولئك القوم من مخالب الفقر والفاقة ولا يعرفون مانسميه مسألة الفعلة لانهم ليس فيهم رجل أجير

وهذا الرجل الذي أمن بطبيعة الحال من جهة حاجاته المادية آمن أيضا من حيث الحياة الادبعية : ولا ينبغي ان نقيسه بنا فان لنا حاجات ورغبات ومقاصد كيفها ظروف اجتماعنا وأكدها حالة معيشتنا مما لانسبة بينه وبين ما هو فيه . وتلك الحاجات التي استحدثناها أو التي ولدها فينا وسطنا الاجتماعي تجعلنا من التمساء ما عجزنا عن القيام بها . فاذا كفينا مؤنة حاجة تولدت فينا حاجات جديدة ورغائب غير الاولى أشد تحكما وأصعب ارضاء . لذلك قالوا (السعادة في الاقلال من الرغبات) كما قالوا (ينبغي للمرء ان يكتفي بالعيش الوسط الهني) وهو قول حسن غير ان حالتنا الاجتماعية تدفعنا الى ضد ما به ينصحون . على انهم لم يرشدونا الى تلك الحكمة الا لان العمل بها نادر في الوجود . وأقطع دليل على ان ذلك الرحالة راض عن حاله وهذا الرضاء هو أقصى مراتب السعادة في هذه الدار انك لن تفلح في حمله على استبدالها اذ من المقرر ان أشد الناس استعصاء على الانتقال من حال الى غيره هو البدوى الذي لا يرضي ان يستعيض في غدوه ورواحه بالاستقرار في مكان واحد ولا أن يتخلى عما ألف في البداوة ليمتنق ما نحن فيه من الاعمال التي نجاهد فيها لتحصيل قوتنا . والامم المتعدنة المتاخمة لتلك العشائر تعلم ما نقول فانها لم تصل الى

ادخال بعض التعديل في أحوالهم الا بشق الانفس واستعمال طرق الاعنا
 مما يكاد يبلغ حد القهر والاجبار . ولم ينجح القياصرة في هذا السبيل
 (السلافيين) الا بعد مرور الاجيال والقرون ومعلوم ان يد القياصرة
 تكن رحيمة أبداً ومع هذا فانهم لم ينجحوا تماماً ولا يزال السلافي على جانبي
 عظيم من حالته الاولى يعيش في مبادئ البداوة أكثر مما يعيش في عوا
 الحضارة والتمدن ولا يزال يقدر السعادة بكثرة المشاة لاسعة الارض
 التي يفلحها

وقد كان القدماء يعرفون تلك السعادة في المشائر البدوية فكان (هومر)
 ومن بعده (ايفور) يسميانهم (أعدل الناس) وقال (كوريلوس) الرح
 (هم أولئك القوم الافاضل العادل) وقال (استرابون) (أنهم يعيشون
 عيشة تقشف ولا هم لهم بجمع المال) ولا يزال هذا رأى السواح في هذه
 العصر قال موسيو (هوك) يحدث عن (المنغوليين) وقد عاش بينهم
 حولين كاملين (أولئك المنغوليون لهم نفوس دينية كما ينبغي قترام دائماً
 مشغولين بالحياة الباقية وكل ما في هذه الدار صغير في أعينهم فهم يعيشون
 في هذه الدنيا كأنهم ليسوا منها)

ذلك هو مثال الرجل الذي يقلل من رغباته ويرى السعادة في عيش
 وسط ليس بالمنبسط عليه . ومرجع هذه السعادة هو الوسط المادي الذي
 يعيش فيه لكفايته بالحاجات وتوفيره وسائل العيش أى توفير . ثم ان
 سهولة المعيشة تزداد لديهم بضرورة اجتماعهم فقد تبلغ العائلة منهم مئات
 من النفوس كما كان عليه اسباط التوراة . فليس الرجل بمعزل عن الناس

ابل الواحد منهم يستغين بأخيه فيصبحا في مأمن من طوارق الحدتان.
 من الضعفاء منهم والمقعدون وفاقدوا الاهلية والطائشون مهمالين وشأنهم
 معرضين لتلك الحالة التعيسة التي تفاقم خطبها بين القوم المتمدنين
 والخالصة أنك ترى الرجل في تلك المجتمعات سعيداً بوفرة الغذاء
 يسبي ومعونة الوسط الذي ولد فيه فهو بهما في مأمن من غوائل الحياة
 عن موجبات الشقاء سعيد لا يتفنى عن حالته بديلا

ويوجد بجانب تلك العشائر أقوام آخرون غير قليلين يعيشون من
 شباب مستعنين بجمعيتهم للتكافة لكن على حال أقل كالأمن الاولين
 أيضا في مأمن على التقريب من صروف الحياة . وأولئك الاقوام طبقات
 بها أخط من بعض في درجة السعادة وهي تبتدى من تلك الطبقة التي
 فناها لك حتى تصل الى حالة الامم الثانية التي سنتكلم عليها

تلك الامم الثانية هي التي فقدت وسائل الحياة المادية لفقد الاعشاب
 يعية وتمزق العائلة فالرجل فيها واقف بنفسه أمام متاعب عيشه ولكنه
 دم على اقتحامها بل انه يفرغ جهده في الهرب منها . وقد يقال ان
 ب في هربه هذا ما فطر عليه المرء من حب الابتعاد عن الشقاء وهو
 ب صحيح من بعض الوجوه الا أنه يلزمنا البحث عن السبب الذي جعل
 ية وقيام الضرورة لاتزيران ذلك الداعي الى البطالة والكسل

والعلم الاجتماعي يدلنا على ان هذه الامم التي تسكن القسم الاكبر
 وجه البسيط وناحية من غرب أوروبا قد نشأت اتكالية أيام كان آباؤهم
 دمون يعيشون في تلك البقاع ذاتها مما تنبت الارض بغير عناء

فأم اليوم سلالة أمم الامس والفرق بينهما ان الارض لم تعد تنبت شيئاً من نفسها كما مضى

ورجل اليوم من تلك الامم تعود الاعتماد على ما يسوق الله اليه من الرزق الطبيعي وما يساعده به الاهل والمواطنون ثم أمسى وقد فقد المعونتين واضطر الى اقتحام الاتعاب ليحصل قوته بنفسه فالحاجة تناديه (اعمل وكن ذا عزيمة ومضاء ولا تركز الى غيرك اذ ليس من سبيل غير هذا في تحصيل رزقك وسعادتك) وفطرته الأصلية وما شب عليه من العادات يجيب هذا النداء (ان العمل والجد والعزيمة متاعب أحلي منها اجتنابها وفي البعد عنها سعادة الانسان) والغالب هو صوت الفطرة لانه يجد أذنا صاغية هي العادة المألوفة لاسيما وانها مقبولة يرتاح الى الاسترسال معها

ومن المعلوم أنه لاملجأ للمرء من تحمل هاتيك المتاعب الا استعمال ماورثه عن آبائه من الاعتما على الغير والعيشة مما يكسبون أعنى بذلك التماذي في طلب المعونة من الناس شأن الزنبور مع النحلة

نم زنبور ذلك الفقى الذى بلغ العشرين من عمره وكان سليم الجسم صحيح القوى ثم جعل كل اعتماده على ما يتناوله من عائلته فلا يمشى الا من مكارمها

زنبور ذلك الفقى التى بلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين ثم هو لا ينظر الى الزواج الا من حيث المهر الذى يكون لخطيبته ليكون له منه سبيل سهل للمعيشة على نفقتها

زنبور ذلك الفقى الذى يحتقر المهن الحرة والصناعات المستقلة ويرى الشرف

كل الشرف في وظائف الحكومة حيث لا جهد ولا عناء ولا همة ولا
أقدام فيعيش كلا على بيت المال

زنبور ذلك الرجل متوسط الحال أو الاجير الذي لا يرى فرجا من
مصاعب الحياة في الزمن الحاضر غير الالتجاء الى الهيئة كالببلدية أو الحكومة
ليطلب المعونة منها ويعيش أيضا من بيت المال
ثم زنبور ذلك الذي اتخذ السياسة مهنة واستخدم سداجة قومه
فتحجب اليهم بوعدهم ما يشتهون حتى يعيش على نفقة أولئك القوم الذين
يخدعهم ويلحق بهم الفقر والدمار

اذا بلغ الحال في أمة هذه الدرجة اتنى العجب من ظهور
الاشتراكيين فيها وسرعة انتشارهم بين طبقاتها اذ في مذهبهم وعد للناس
بهية اجتماعية جديدة يكون النكل فيها من الزناير . لكن لسوء حظ
المبشرين بهذا النعيم لا وجود للزناير الا اذا وجد النحل ولا سبيل للاكثار
من الاولى الا اذا ضعف عمل الثانية وهذه ضرورة يؤسف لوجودها
ولولاها لخلنا بالطبع لكل انسان أن يعيش من مال الجميع

ورب معترض يقول أجل ان حالة الزناير مما ترتاح له النفوس والهم
كل الهم في صيرورة الانسان زنبورا فن نال ذلك كان سعيدا وعليه
لتنجي الزناير . غير أن الامة التي يكون هذا حالها لا تساعد على تحصيل
لسعادة كثيراً لان من المعضلات أن يحصل الانسان سعاده بأقل عمل
ممكن في أمة لا قوام لها الا بأكثر عمل ممكن . وطالب هذا شبيه بالرجل
الذي يطلب حاجته من وراء نهر جار فهو مضطر الى مقاومة الماء على الدوام

في كل يوم وساعة والنهر لا يزال يجري ضد مقصده ومن كان هذا شأنه
تمذر أن يكون خلى البال سعيداً

هذه حال لا يأمن الضيم معها أولئك الذين صاروا من صف الموظفين
أنفسهم مع أنهم قد خلعوا بذلك من متاع كثيرة في الحياة لان غالبهم
يعيش في ضيق وتقتير اضطراراً الى المعيشة هم وعائلاتهم والى تربية بناتهم
برزق قليل . ذلك هو الشقاء تحت الكسوة السوداء وهو أقسى شقاء في
الوجود . ذلك يؤس لا يتمكن المرء معه من المحافظة على درجته بين الناس
ولا هو يخلص من التلم به فهو جرح يتجدد في كل صباح . وزد على ذلك
أنه يعيش مسلوب الارادة مؤتمراً بغيره والآمال محصورة وللرجاء حد قريب
ثم الحال أشد في تلك الامم بالنظر لغير الموظفين الذين يضطرون الى
العمل بأنفسهم وهم عليه غير قادرين لانهم لم يتهيأوا اليه من قبل بالتربية
والتعليم والكسب غير محقق فيوم يسر ويوم في اعسار . ولهم فوق ذلك
أعين يبصرون بها وظائف الحكومة واطماع تمتد نحوها وهم على الدوام
يرجعون من آمالهم خائبين

وبالجملة فالحياة شاقة على الجميع والكل متأثر بنشأته الاتكالية وهي
السبب في اعتقاد كل واحد ان مال الاب مال لجميع عائلته لذلك ترى الرجل
يتجرد عن أملاكه في حياته ويهبها مهراً لاولاده متى حان وقت الزواج
ووجب على كل والد أن يجمع من المال ما يكفي لجميع أولاده مع أن من
الصعب في هذه الايام أن يحصل الانسان مالا يكفيه وحده . فلما رأي
قومنا أن القيام بهذا الواجب متعذر لم يجدوا لهم بدا في الهرب منه الا

الاقبال من الابناء وأصبحنا نفضل ان نمهر أبناءنا على الاكثار من نسلنا. ومع هذا لاتزال الحياة تبعه اذ نحن نعيش عيشة ضيق وحرمان و تقتصد اقتصاد الفقراء والمساكين وذلك بما يكدر صفو الحياة ويعطل السعادة في الامة

ولهذا الضيق في تلك الامم آثار ينبغي النظر فيها واكتفى بذكر أربعة يرجع كل واحد منها الى دور من أدوار الامة التي ظهر فيها وقد عينت باختيارها في بلاد مختلفة

فلاول هو يأس النفوس الذي امتازت به الامم الهندية وهو مذهب الغناء المعروف عندهم باسم (نيرفانا) وقد انتشر هذا الروح بسرعة بين سكان الشرق الاقصى مع ان زراعتهم لاتزال قريبة من الحالة الطبيعية الا انهم حرموا من التسهيلات اللازمة فيها ومعنى (نيرفانا) هو النجاة أو السلامة وبعبارة أخرى السعادة التي وعد بها الهنديين صاحب المذهب البودي المشهور . ومدار هذه السعادة على ان الناس لا يرجعون بعموتهم الى حياة كلتي فارقوها بل يدخلون في حياة أخرى غير جسمانية ولا محسوسة ومن الموصلات اليها السبات المستمر والتسليم المطلق وهجر العمل وانكار فضله حتى يكاد المرء ينسى انه موجود : وهو عبارة عن انكار السعادة في الحياة الدنيا فترى الرجل منهم قد استولى عليه اليأس من تحصيل سعادته الدنيوية فلا يجد له ملجأ في معيشتة غير الانكماش والاستماتة لا يسعى لتحصيل رزقه ولا يغالب ما يعرض له من الصعوبات في حياته بل يسلم نفسه لكل جائحة على الدوام والاستمرار

والثاني مذهب العدميين المعروفين في الامم السلافية الشمالية باسم (نهليست) وهو ضرب من ضروب اليأس أيضاً. وهم أمم خرجوا من حالة المعيشة البسيطة الى حالة أوروبا الغربية ورأوا أنهم ملجأون الى الكد والعمل فأرادوا الهرب من تلك الواجبات الجديدة ولم يهتدوا اليه سبيلاً. لذلك تولد فيهم مذهب العدم أى انكار كل مافى الوجود ووجوب العمل بما يقتضى التخريب والابادة. وأولئك قوم لاسعادة لهم في هذه الدار أيضاً

والثالث مذهب الاشتراكيين وهو اليأس الذى استولى على أمم الغرب الذين لا يزالون على الحالة الاتكالية قليلاً أو كثيراً. والسبب في ظهور هذا الروح كما يبينه النشأة الاصلية التى فطرت عليها تلك الامم. وخالصة المذهب حمل كل فرد على طلب السعادة من أمته وفيه انكار مزايا العمل والاجتهاد والهمة والاقدام. ومن أراد الوقوف على حقيقة رأيهم فليقرأ رسالة موسيو (لافارج) ضد العمل التي عنوانها (حق الانسان في الكسل) فمنها (لقد استولى الجنون على طبقات الفعلة في الامم التي ساد فيها أصحاب الاموال ونشأ عن هذا الجنون بثوس حال الناس وضنك الهيئة الاجتماعية اللذين أصيبت بهما الانسانية منذقرنين كاملين فكدر اصفو العيش عليها. والعمل هو السبب الفعال في فساد أفكار الامم التي ساد المال فيها وهو السبب في تشويه الانسان وتركيب الانسان) ثم أراد المؤلف أن يستدل على أفضلية الكسل على العمل فذكر المثل الاندلسي (الراحة هي الصحة) (١)

(١) ولو كان يعرف العربية لتمثل بقول بعضهم
ان البطالة والكسل أحلى مذاقاً من غسل

وعلى كل فان ظهور ذلك المذهب يدل دلالة قاطعة على أن أهله لا يجدون
سعادتهم في هذه الدار كما خلقت

والرابع مذهب التطير وهو الفكر الذي استولى على طبقات المتورين
في الامم الغربية وأريد به تلك المذاهب الفلسفية أو التي تنتسب الى الفلسفة
التي سادت بين الامم الالمانية والسلتية وبنوا عليها نظرم في هذه الحياة
الدنيا . نعم لا أنكر ان اليونانيين والتليان يتوسمون الخير في الحياة أكثر من
غيرهم ولكن السبب في هذا عند الامتين المذكورتين سكانهم بلاداً تكثر
فيها النباتات والاعشاب فيسهل عليهم زرعها زرعاً بسيطاً وذلك مما يؤيد القاعدة
التي ذكرناها وقد يعيش العدد الكثير منهم من جنى الثمار ولا يعملون الا
قليلاً . والشحاذون في مدينة نابل هم أعظم مثال لتلك الامم لذلك تتصل
الامم التي تسكن جوانب البحر الابيض المتوسط بالامم التي ترى سعادتها
العظمى في سهولة معيشتها

ويتبين مما تقدم ان مسألة السعادة مفصلة في الحالة الثالثة غير انها هي
الحالة التي ينجح السعى فيها وراءها فقد رأينا الانسان يبحث عن سعادته
في راحته أو في انه لا يشتغل الا القليل ما استطاع وهو في حالة الراحة يجد
السعادة الا انها عفة ضئيلة وهو في الثانية لا يجدها أبداً

لكنه في الحالة الثالثة يطلبها بجده الذاتي وعمله الخاص فلا يهرب من
صعب ولا يجزع لعمل شاق بل يقدم على المتاعب ثابت الجأش ويقدرها
كما ينبغي ثم يجتازها بعزم وأقدام

ويخال في أول الامر ان طلب السعادة من الكد والعناء أمر يشبه

التسليم المؤلم أو لعب النصيب وهو صحيح إذا لم يلاحظ الانسان في الحكم على هذا الا ذاته وما يشعر به لانه بالطبع ميال الى الراحة أكثر من ميله الى التعب أعنى انه يفضل السهل على العسير ولو لم يكن له باعث يدعو به الى الحركة لصبا الى عيشة الزهاد والمتعبدين واكتفى بمشائش الارض طعاما ولكن لا نبحت عن شعور القارئ أو عما يشعر به نحن بل نتتبع الوقائع ونستقرى الحوادث لنقف عليها كما ينبغي ومهما كانت غرابة الامر فان ادراكه من اليسور عقلا والمرء لم يطلب السعادة بالهرب من الكد والنصب الا لكونه يستعظم الجهد الذي يجب عليه أن يتحملة في التغلب على الصعوبات الممكنة وعادة الانسان انه لا يقبل العمل المطلوب منه اذا علم من نفسه عدم القدرة على أدائه غير ان العمل الذي لا يتأتى لزيد من الناس فعلة لصعوبته عنده يكون سهلا عند كثيرين غيره بل ربما كان من الامور المحببة اليهم واذا ثبت هذا ثبت بالطبع ان أولئك القوم الاشداء الاقوياء لا ينظرون الى الحياة كما ننظر نحن اليها وانه لا تأثير فيهم لتلك المذاهب من يأس وعدم وفوضى وتطيرهم يرون الحياة كلها بعين غير أعيننا فتتجلى لهما في بهاء وجمال لذلك كان مذهبهم مذهب رجاء وآمال وحسن ظن بالاستقبال

بقى علينا أن نعرف ان كان أولئك القوم موجودين أم لا ولا يشك أحد ممن قرأ الاسطر السابقة في انهم موجودون والى كنى أريد أن أبرهن على أمر جديد وهو ان الجمغيات الاستقلالية كما توجب رفعة أممها في العالم وتقدمها على غيرها فانها هي التي تميل بالانسان الى تحصيل أو في حظ ممكن

من السعادة في هذه الدار اذا اتفقت في جميع الظروف مع الامم الاخرى
 شرحت فيما تقدم نظام مدرسة غرض القائمين بها تعليم الانسان كيف
 يقدر على تحصيل عيشه بنفسه وقلت انها تربي العزيمة والارادة والثبات
 وانها تقوى الجسم كما تربي العقل . وشرح موسيو « روزيه » و « بيرو » في
 مجلة « العلم الاجتماعى » تلك الطريقة عينها في بلاد الانكليز والولايات المتحدة
 فعرفنا منهما ان الشاب يشب على اعتقاد ان الرجل اذا سقط يجب أن
 يسقط على قدميه كالمهر سواء تعلم في البيت أو في المدرسة أو بين اخوانه وهم
 يعملون فوجهة الشبان هناك الكد والتراحم في الحياة لا الخلود الى الراحة
 والكسل وهم لا يخافون من تلك الكلمات تراحم في الحياة كد نصب لانهم
 لا يخافون من مسمياتها وما عدم خوفهم الا من ان تربيتهم جعلتهم قادرين
 على مقابلتها

والواقع ان تلك الامة الانكليزية السكسونية قدأخرجتنا من معظم
 البلاد التي كنا تحتها فلم يحل علينا القرن مذكنا أصحاب السيادة والنفوذ في
 آسيا وأفريقيا وأمريكا وقد انهزمنا في كل مكان أمامها فهي خصمنا الموروث
 وهى الخصم الذى يجب علينا أن نقلده في ارتقائه ولسنا بترداد هذا النصح
 نعمل كعالم وقف على حقائق الاشياء ليس الابل كحج لوطنه يلاحظ
 المستقبل ويأخذ بالاحوط

الا ان غرضى الآن ينحصر في بيان ان تلك التربية تجعل الرجل سعيداً
 أكثر من غيره لما توجد في نفسه من الاعتقاد برفته عن سواه واستخفافه
 بالمتاعب واستسهاله كل صعب في سبيل وجوده واليك مثلاً لا يخلو من

الغربة في بابه وهو من اللفظ ما يحكى عثرت عليه في جريدة «الطمان» بقلم موسيو «دى فارينى» قال «اجتمع في أواخر يناير الماضى على مائدة في أحد مطاعم «بوسطون» ليف من الشبان ذوى البيوت الكريمة تخرجوا حديثاً من كلية «هاروارد» وفاقوا في العلم والتمرينات الجسمية ثم أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث فقال أحدهم وكان اسمه «بول جونيس» انه لم يبق في الولايات المتحدة فقير الا الذين لا ثقة لهم بأنفسهم وانه لو أضع هو جميع ماتركه له أبوه من المال وأصبح لا يملك فلساً واحداً وكان عرياناً كيوم ولدت أمه لو سعه أن يحصل عيشه وأن يرجع من تلك البلاد بخمسة آلاف دولار أى خمسة وعشرين ألف فرنك بعد مصاريفه كلها وذلك بعد سنة واحدة من الزمان . فتراهن معه أصحابه على خمسين ألف فرنك واتفقوا على انه يتوجه في اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير الى الحمامات التركية وهناك يتجرد عن جميع ملابسه حتى اذا جاء الزمن المحدود بدأ في طوافه حول الارض وكانت الصعوبة عليه أن يبدأ بسياحته لانه كان عرياناً لذلك وجه اهتمامه أولاً وبالذات الى ستر عورته باقل ما يمكن من المال فجعل يمسح أحذية رجال المكان الذى هو فيه بحمد ورضاء كأنه لم يتعود غير تلك الصنعة في حياته . ثم يتناول الراتب المخصص لهذا العمل وهو زهيد فيقسمه بين قوته وكسائه ومكث هكذا خمسة عشر يوماً وهو زمن كبير نظراً للاجل المحدود له وهو سنة واحدة فلما خرج من الحمام قصد مدينة لندره ليسافر منها الى الهند ولكي يحصل أجره السفر جعل يبيع الجرائد في الاسواق ويشغل بالسمررة ومرافقة الاجانب كترجمان لانه كان يعرف

الفرنساوية والالمانية والتليانية وتوصل بصفته ترجاناً إلى السفر مجاناً على احدى البواخر الامريكية إلى لندره ومعه من المال خمسون دولاراً رأياً مائتان وخمسون فرنكاً وصار يلقي الخطب في لندره حتى كثر المال لديه والتحق ببعض الجرائد الانكليزية وتحصل من ذلك على مصاريفه الى البلاد الهندية ولما قام الى تلك البلاد أخذ معه متجراً خفيفاً بما جمع من المال وباعه في مدينة (كلكوتا) بثمن ربيع ولا يزال الآن سائرأفي طريقه ويظهر من خطاباته لاصحابه وما ينشره في الجرائد انه متأسف على عدم جملة الجمل ضعفين ولو استازم ذلك مضاعفة المبلغ الذي تعهد بكسبه لدى عودته من سياحته

ويظهر ان انتشار هذه الروح في جسم الامريكانيين حرم الانكليز لذيد المنام فقد قرأنا في جريدة (بتي جرنال) ان اثنين من شبانهم تراهنا على الامر بعينه واجتازا البلاد الفرنسية للغاية نفسها حتى يبرهنا انهما غير متأخرين عن اخوانهما

عرفنا السعادة بقولنا انها حالة ارتياح تقوم بنفس أولئك الذين يتمكنون من التغلب على متاعب الحياة المادية والادبية تغلباً حقيقياً وعليه فكل وسط يساعد الانسان على اجتياز تلك المتاعب كما يجتاز الصبي حواجز الالعب يساعد من غير شك على تحصيل السعادة أكثر من غيره ولست أدري ان كان أولئك الشبان الثلاثة الذين ذكرتهم يفوزون بما تراهنو عليه أم لا على ان ذلك ليس محلاً للنظر بل الذي يقتضى الالتفات هو تلك الحالة الفكرية التي دبّت في اذهانهم وتلك الهمة الذاتية التي يدل عليها عملهم. ولا

شك انهم ينظرون الى الحياة بنظر يخالف نظر الامتين اللتين قدمنا ذكرهما مخالفة كلية فان الرجل فيهما يلقي السلاح أمام الصعاب اذا اعترضته في طريقه ويمسى تعيساً لشعوره بما هو فيه من الضعف والانهازم . أما رفيقه ففي نفسه اعتقاد بان همته أكبر من كل صعب يلقاه وهو في الواقع أشد مراساً وأثبت قدما واعتقاده هذا سبب في اطمئنانه وتبسمه للحياة تبسم الموقن بالنجاح . ذلك رجل قد تولى بيده زمام السعادة على قدر ما يسر الله للبشر في الحياة الدنيا

لهذا لا نرى الزناير بين صفوف تلك الامة الا نادراً وليس لهم وجود في الامم الانكليزية السكسونية اللهم الا ان كانوا من تلك الامم الاتكالية الذين استوطنوا البلاد الانكليزية قديماً وهاجروا الى البلاد الامريكية حديثاً ومن المعلوم أن طائفة السياسيين في هذه البلاد الاخيرة من الارلنديين وليلاحظ أنها هي الطائفة التي كثر شغبها وقل رضاها بما قسم الله لها

حقيقة ليس من الزناير أولئك الشبان الذين بلغوا المتممة للعشرين لم يطلبوا مساعدة من آباءهم أبداً وتزوجوا بنساء بغير مهر واحتقروا الوظائف في الحكومة وفضلوا عليها الاشتغال بالحرف الجارية والصنائع المألوفة المستقلة وجعلوا اتكالهم على همهم غير منتظرين معونة من الحكومة أو الامة . ومن الواجب علينا أن نعتقد بان هؤلاء القوم الذين قد ترك كل واحد منهم لنفسه أقرب الى السعادة من أولئك الذين اذا صادقتهم صعوبة مدوا الاعناق نحو الغير يرجون معونته . وهذا الشعور هو السر في نجاح

كتاب موسيو «جون لوبوك» وانتشاره ذلك الانتشار الغريب مما لا يدرك له نحن سبباً فان أدلته ضعيفة لا تؤدي بذاتها الى اقناع واحد من قرائه بالرضى بما نال من رزقه إلا إذا كانت نفسه متشعبة بذاك الارتياح والاطمئنان وتجلت له الحياة بمظاهر الفرح والابتهاج مما يبعد عنا تصويره وبالجملة فانه كتاب ألفه انكليزي لقوم من الانكليز . وكأني بترجم هذا الكتاب الى لغتنا وقد أحسن بهذه الحقيقة حيث قال « لقد شرح هذا الكتاب أجمل صفات الانكيز العقلية فهو انكليزي بما أودع فيه من الاستبشار وحسن الحظ بالمال وكمال الرضاء والارتياح) وهو استنباط صحيح لان المؤلف يلقب انكيزه بانكيزه المتهجة ويقول (إذا أردت ان تعرف الحزن الصحيح فول وجهك قبل المشرق إذليس شيئاً أشد حزناً من شعر عمر الخيام أو شعر ديواس^(١) قالاً

(الزمن الذي يقضيه المرء في هذه الحياة الدنيا قصير وهو لا ينال منها غير حزن وآلام ولا يدرك من حقائق الاشياء الا اليسير وقد أصبحت مسائل الحياة بغير حل ولات حين النظر فيها فقد انقضى الاجل ووجب الرحيل)
 (الحياة اشبه برياح ضللت وجهها ونحن أشبه بصوت بتلك الريح نطلب الراحة فلا نلاقي الا ما يوجب التحسر والانتحاب وانهمال العبرات ولا نلاقي الا عواصف تهددنا وحرباً تقتتل فيها)

ثم اتفق رأى المؤلف ورأينا فقال (وإذا صح هذا وكانت الحياة

(١) قد بحثنا عن هذين الاسمين فلم نقف على ثانيهما ولم نعلم لا ولهما على منظوم بهذا المعنى ولذلك سقنا الترجمة ثراً

الانسانية على قدر ما قالوا من الايلام والشدة فلا غرابة في أن العدم أى
انقضاء الاكدار يكون من أقصى الأمانى ولو أضعاف الناس في سبيله وجدانهم
وما يشعرون) وفي هذا كما قلنا بيان لوجود مذهب التطير في كتب الجرمانيين
والسليتين أى في الامم التى لم تتعود العمل ولم تترب على الاجتهاد كما هو
موجود في فلسفة الشرقيين وأشعارهم

كذلك اتفق معنا في القول بان الانكليزى السكسونى لا يهاب الكد
ولا يرهب العمل ولا يخشى الصعاب وأيد قوله باقوى الحجج قال في أول
الفصل العاشر الذى عنوانه (الراحة والعمل) ما ترجمته (انى بالطبع لا اعد
ضرورة العمل بين متاعب الحياة) وهذه جملة لا اظنها تصدر من قلم كاتب
نشأ في أمة اتكالية لانه من غير شك كان يعد العمل في مقدمة تلك المتاعب
ما السير (جون لوبوك) فانه يستثنى منها العمل بلطف وصدر رحيب حيث
يقول بالطبع لان ذلك أمر طبيعى عنده وفي اعتقاده أن قرأى لن
يوافقه كما أنى أشهد على نفسى انى من صفهم . ولا غرابة فانى أقيم هذه
الدعوى على نفسى كما اقيمها على قومى . ثم ترقى السير جون لوبوك في فكره
فقال (ان العمل وان شق منبع منابع السعادة متى ابتعد المرء فيه عن
حدى التفريط والافراط فكلنا يعلم كيف ان الزمان يمر سريعاً على الانسان
المشتغل وأن الاوقات تثقل على الكسالى ثم الاشتغال يذهب الهم ويسرى
أحزان المعيشة اليومية ولا يجد المشتغل من زمانه وقتاً يقتله في التخيل أو
الاضطراب ونحن معاشر الانكليز انما نجحنا وصرنا أمة حية نامية لاننا
قوم نحب الشغل ونهوى العمل)

وقد مدح علماء الاخلاق عندنا العمل واجتهد أساتذة المدارس في غرس محبته في قلوب الاطفال وليكننا نمذحه ونوصي به ونعلم محبته باعتباره أحد الواجبات وكأنه ضرورة لا مفر منها فوجب الرضوخ لحكمها وحمل النفس على القيام بما اقتضته أما عندهم فصيغة الكلام غير ذلك فهم انما يشيرون الى ان الامر يجرى كذلك في العالم بطبيعة الحال ولا يمدون العمل متعباً بل يقولون انه (منبع من منابع السعادة) وما من أحد يخالف قولهم حتى انني سألت فتاة من الانكليز فوجدتها على رأى السير جون لوبوك ترى الراحة في العمل والسكد والتغلب على الصعوبة وتقول ان كل الناس في بلدها على رأيها وكنت أثناء كلامها أظهر الاستنكار فقالت ولا بد للانكليزي من عمل فان لم يكن لديه من الاشغال الاعتيادية ما يعمل فيه عمد الى التجذيف في النهر أو الى لعب الكرة والرياضة الجسمية أو قصدقة جبل شاهق يصل اليها ولو كان في الامر خطر تلذذ باجتياز صعب من الصعاب. ولا شك في ان الانكليز لا ينظرون الى الشغل بهذه العين الراضية الا لانهم متعودون عليه حتى صار في جبلتهم أمراً مقضياً قال موسيو جون لوبوك (وقد شاهد أحد السواح الشرقيين جماعة في أوروبا يلعبون لعبة شاققة ورأى بينهم كثيراً من الاغنياء فعجب وسأل لم انهم لا يستعملون غيرهم فيما شق من هذه اللعبة بأجرة يدفعونها) والسائل انما جرى في سؤاله على حسب تربيته لان الامم الاتكالية لا تنظر الى العمل الا من حيث كونه أمراً متعباً. وقد جاء في المثل التركي (أولى للمرء ان يكون جالساً من ان يكون قائماً وأن يكون قائماً من أن يكون جالساً وأن يموت من أن يكون قائماً)

ومعلوم ان تلك الاماني بعيدة المنال لذلك كانت الامم التي تودها أتمس
الامم في الحياة الدنيا وهي لذلك أشدها حزنا وكدرًا . أما الامم التي تعتقد
ان الاولى للانسان أن يكون قائما من أن يكون جالسا فهي بالطبع أوفر
حظا وأوفى سعادة اذ يلزم للفوز في الدنيا ان لا يجلس المرء ما استطاع الى
الوقوف سبيلا

لكن ليس من السهل ادخال هذه الروح في الازهان فلا يكفي لذلك
أن ينادى على منابر الخطابة أو في المدارس بان السعادة في العمل لان هذه
الصيغة بهذا التركيب (السعادة في العمل) غير صحيحة حتى عند الذين
ينطقون بها ولا يعملون بها الا قليلا ولو كانت صحيحة لاصبح الناس أجمعون
لاتنثني لهم عزيمة عن العمل أبداً اذ ما من أحدا لا وهو يحب السعادة حبا
كثيراً والحقيقة ان معظم البشر لا يجد السعادة في العمل

والواقع ان السعادة ليست في العمل بل هي في القدرة عليه و الفرق بين
الحالتين فمن الناس من يقولون ليتنا نجب العمل ولكنهم لا يجربونه ولن
يجبوه مع ما يقرأون في كتب الاخلاق من الحض عليه والنصح به ومع
ما جاءت به الفلسفة وأمر به الدين من وجوبه وأسناد النجاح اليه . ولن
يصل المرء الى اجتياز هذه العقبة الا بعد أن يكون من وسط تعود حب
العمل زمانا طويلا وذلك يقتضى أن الابوين لا يريان من واجبيهما بالنظر
الى أبنائهما الا تربيتهم تربية صحيحة . وان الابناء يرون ان لاملجأ لهم في
الحياة الا أنفسهم . وأن الزوجة انما يقصد بها الرفيق لا المال الكثير . وان
الحكومة لا تأخذ من السلطة الا ما احتاجت اليه . ولا تتوسع في الوظائف

لا بقدره الضرورة لتشجع الناس بذلك على اعتناق الحرف والاشتغال بالصنائع التي تقتضى العمل وتستلزم الجهد وتطلب الهمم الذاتية وبالاختصار ينبغي أن يقل اعتبار الموظف والسياسى والبطل الذى لا عمل له عن اعتبار الزراع وذوى الصناعة والتاجر وظاهر ان ذلك كله ليس بالامر البسيط غير انه كله لازم فى تحصيل السعادة للناس وكله لازم فى استمالة الرجل الى العمل أولا وغرس محبته فى قلبه ثانيا ومهما بحثنا عن حل صحيح للمسئلة الاجتماعية لانبجذ الا هذا

الفصل السادس

﴿ فى ضعف المؤثر الأدبى ﴾

« وفى امارات نهوض الهيئة الاجتماعية »

ظهر فى هذه الاوقات فريق من الناس يطلب من علم الاخلاق الأخذ بناصر بنى الانسان للنهوض مما آلوا اليه من الانحطاط ويسمى وراء « تطمين السرائر وتهدئة الضمائر بمعيشة أحسن وأرضى » كما هو اللفظ الذى اصطلحوا عليه ويقولون ان الطريق الى غرضهم هذا هو تربية الانسان على تحمل الحرمان ومحبة الغير وان حالة الناس التي هم فيها اليوم ليست « مسببة عن أحوالهم الاجتماعية أو السياسية » بل « مرجعها الى الاخلاق والدين ». ومن هنا كان أنجح الوسائل فى تغيير تلك الحالة هو أن يبدأ كل واحد بتغيير نفسه وأن يولد من جديد « كما هو قولهم وقول انجيل يوحنا

وان « أول عمل يدخل به المرء باب هذا الاصلاح هو العزم على ترك محبة الذات والخضوع الى التعاليم الماثورة » وبالجمله يريد أولئك القوم لاصلاح حال البشر أن يعينوا « زمان الاختيار » أهل التحقيق والابرار » ويقولون ان منهم من هو الآن بيننا «ولسكنها الينا بيع الراتقة والعيون الصافية تذهب سدى واحداً فواحداً في الاراضى المجذبة والرمال المتربة والناس لاهون فيتركونها تضيع ولا يستقون منها ومن استقى فقليل غير ظاهر» ثم يشيرون بالمحافظة على تلك الينا بيع والاكثر منها

وهم مع هذا يتبرأون من الميل إلى إيجاد دين جديدًا وإضافة شيعة على التي وجدت من قبل وينادون بانه « ليس من الغرض بناء مرشئ جديد ترسو اليه الارواح وانما المراد اطلاق الينبوع في المراسى الموجودة ليملاها الماء فتتصل ببعضها »

والواقع انهم لا يأتون بدين جديد لانهم لا يقولون بمذهب مخصوص بل تلك فكرة دينية أى ميل دينى مخصوص الغرض منه مقاومة مذهب السادين وأهل اليأس لذلك مدوا أيديهم الى جميع الطوائف والنحل المسيحية وغيرها ممن يشعرون بحاجتهم الى مساعدأجنبي في محاربة الشهوات والتغلب على الاهواء جاء في كتابهم المسمى « عقلنا » « انا وان اعتبرنا جميع التابعين للكنائس على اختلافها من المساعدين المحبوبين لدينا نرى أيضاً في المنشقين أو المتفرقين أبناء لنا لانهم في عزلة شديدة » أعنى انهم يدعون اليهم كل من آلمته الحياة أديباً ومادياً حتى يكوّنوا هيئة جديدة أساسها تضحية المنفعة الذاتية وترك محبة الذات وامانة الشهوات وأغفال الاميال

الشخصية ومحبة الغير ويقولون « ان الانسان يؤثر بارادته في نفوس الغير بمجرد اقدامه بشجاعته على العيشه الروحانية »

لكن هل تضحية الذاتيات وتذليل النفس وحب الغير وهى التى يجمعها قولهم « المؤثر الادبى » تؤدى كما يؤكدون لزومها الى رفع شأن العالم الانسانى وابتعاد النظام الاجتماعى المطلوب

هذا هو محل البحث وموضع النظر . وأنا أجهر بمخالفتهم وأقول بأن المؤثر الادبى مهما عظم فعله لا يكتفى للقيام بحاجه الهيئه الاجتماعيه ولا أبالى اذا أخرجتهم بشذوذى عنهم وأخرجت معهم قوما آخرين . على انى لست من اليائسين فالذين خرجوا عن جميع الاديان ولكنى من المؤمنين التابعين لمذهب مقرر فى الدين ولى كنيسة أركن اليها فقولى هذا ليس ناشئا عن بنص أو مجافاة بل العلم هو الذى أملاه على . وإذا أردتم أيها القراء فابحثوا معى فيه

لنأفى البحث طريق سهل حقيقى وهو أن نقيس مرادهم فى المستقبل بما كان فى الماضى . وقد نبغ فى بعض الازمان الماضيه رجال من الاولياء البررة الاخيار اعتقد الناس بحق فيهم انهم بلغوا من كمال الصفات وتهذيب الاخلاق حد الاعجاز وبرهنوا على تضحية الذاتيات وردجماح الشهوات وحب الغير أى برهان . ولا شك فى أن أصحابنا يرضون كمال الرضى ويصبحون آمنين على صلاح النوع البشرى اذا تسر العود الى مثل تلك الاوقات وظهور مثل أوائك الاقطاب ورجوع ذلك الينبوع الى مجاريه ولننظر ماذا نتج عن ذلك فى الايام الاولى لظهور الدين المسيحى

جری ذلك الینبوع وفاض حتى فار الماء واستوى على جانبيه وكان بجانبه أيضاً ينبوع آخر يساعده ماؤه يتكون من دماء ألوف المستقلين حبا في ذلك الدين وأهله فما أزهرت رياض الاولياء في زمن أكثر من تلك الازمان وما بلغ الانسان في الادب والكمال درجة أعلى من التي بلغها فيها. ومع هذا يخال لي ان الناس لم ينحطوا الى درك أسفل مما هبطوا اليه في تلك الايام بذاتها. زمان كان الحكم فيه حكم القياصرة أعنى ان حكومته كانت أردأ الحكومات التي تولت زمام الناس في جميع الازمان وأفظعها وهي التي سبقت غيرها في أساليب المظالم وأفانين المغارم وليس لما استولى على الانسان من الذل والهوان والخسف والحرمان وفساد التربية العامة وسوء التربية الخاصة اذ ذاك نظير الاشدوذاً. قال القس «سلفيان» لسنا نجد مثل تلك المظالم في جميع الامم الا عند الرومانيين فما بلغ الفرنك من الشره هذا المبلغ وما عرف «الهونس» وأم «الثندال» و«الجوط» مثل هاتيك الفضائع والآثام بل ان الرومانيين أنفسهم الذين يعيشون بين المتبربرين لا يطبقون تلك الفعال ولا يتمنون الا انهم لا يعودون الى حكم الرومان مرة أخرى وهذا هو السبب في ان اخواننا هجروا الاوطان وفضلوا الإقامة بين المتبربرين ومن لم يقدر على الرحيل لكثرة عائلته أو ثقل بيته لم يربداً في الحياة من الالتجاء الى الاغنياء فأسلموا أنفسهم اليهم ومع ذلك لم يحممهم الموسرون من ظلم الظالمين بل زادوهم بلاء وشقاء»

وهذا الشقاء قديم تكلم عنه «لاكتانس» فقال «مسحت الاطيان حتى قيست الذرات منها وجرى تعداد قوائم مكعبات الكروم وأصول

الاشجار وسجلت أنواع الحيوانات على اختلافها في الدفاتر والاوراق ولم
تعب نفس واحدة عن الحاسيين وقد حشدت الخلائق في المدن من جميع
الجهات وسارت قوافل الرقيق تروح وتندو في الخلاء وسمعت أصوات
السياط وضربات التعذيب صاعدة من كل جهة ومكان وكان الرجل يدفع
الضرائب عن أرض لا يملكها ولا هي في يده حتى المعجزة حتى المرضى حتى
الاموات سجلوا في دفاتر الصيارف وضربت عليهم الجزية أي على الاحياء
من أجلهم)

ولم تترك تلك المظالم بغير طعن ولا تنديد بل قام الالوف من القسس
والرهبان والاولياء لنصرة المظلوم وروفعا أصواتهم بالتنديد على المعتدين
وجعلوا يعظون الناس باتباع أسلم المسالك وكانوا لهم في ذلك قدوة حسنة
ولكن الانحطاط استمر في هبوطه وسار سيراً حثيثاً ولم تجد الاقوال ولا
نجحت التعاليم ولم يقف الدمار برهة واحدة من الزمان بل ظل يتقدم حتى
استحكم الفشل وتم التمزيق والانحلال

هنالك أقبل المتبررون وأتو بتلك المعجزات التي عجز عنها أولئك
الافاضل والاولياء بسهولة لا مزيد عليها ومن دون أن يلتفتوا إلى ما يصنعون
ورغما عن توحشهم ومعائبهم وما ارتكبوا من الجرائم والآثام فبرزت من
بينهم الامم الحاضرة التي تخالف الامم النابرة كل المخالفة وتفوقها من حيث
الاخلاق والاحوال الاجتماعية

ربما يعترض بأن المتبررين انما نجحوا في تغيير الاحوال الاجتماعية
لانهم نشروا في الامة الرومانية بساطتهم في المعيشة ولانهم كانوا أقل فساداً

في الاخلاق لقلة المال عندهم الا أن هذا الاعتراض يسقط إذا لو حظ ان الامم المتبربرة ليست كلها هي التي احتلت البلاد وان الذين جاءوا منها اليها لم يكونوا من أبسطهم معيشة واقلمهم مالا « راجع في شرح هذا الدليل ما كتبه موسيودي نورفيل » في مجلة العلم الاجتماعي تحت عنوان « تاريخ النشأة الاستقلالية »

على انني لا أنسب نجاح المتبربرين الى توحشهم وردائلمهم وجرائمهم وسأين فيما بعد سبب هذا التحول وأكتفي الآن ببيان أنهم قاموا بما عجز عنه غيرهم وان ذلك يدل على انهم كانوا يحملون معهم روحاً شديداً وأكبر قوة من فعل المؤثر الادبي

ولنا في أرانده مثال آخر علي ضعف ذلك المؤثر الادبي فقد سميت تلك الجزيرة في القرن السادس بجزيرة الاولياء والقديسين وكانت مشحونة بالمعابد والاديرة ومنها ذهب المرسلون لنشر الدين المسيحي في الامم الجرمانية وكان في إمكان جمعية الاخلاق ان تجد فيهم أنصاراً بقدر ما تريد لان كل الناس في جميع الاقطار كانوا مشتغلين بتلك « الحياة الحقيقية » وكانت تلك البلاد غاصة بالرجال الذين اتصفوا بما تسمى اليه من الاخلاق كحب الخير والعقل والتقى وما كان اعتقادهم كمنار القش لانكاد توقد حتى تصير رماداً بل هو اعتقاد متين لان ارلنده لا تزال الى اليوم مهد الحماية الدينية وكان من اللازم ان هذه الحياة الادبية توجد في تلك الامة حالة اجتماع من أحسن الحالات وأكثرها دواماً وأرضابها ولكنها السوء الحظ ماجنت الا دوام التفهقر وكان مبدأ ظهوره وهي في أشد حالاتها تمسكا

بتلك الاخلاق ولا تزال هاوية حتى الآن

وهنا أيضاً لا أنسب تأخرها الى نمو الأخلاق والدين فيها لانني أقع بذلك فيما وقعوا فيه من الخطأ اذ قالوا ان بين حركة الاخلاق وحركة الامم نسبة كما بين العلة والمعلول وهو خطأ انا اجتهد في نفيه والتحذير منه وسأفي هذا المقام حقه لانه مفتاح الموضوع الذي أبحث فيه

بلغت حركة الأخلاق والدين في ايطاليا في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر مبلغاً عظيماً وظهر فيها من القائلين بتلك الحركة كبار من أهل الدين كالقديسين «فرنسواداسيز» و«كلير» و«انطوان دى بادو» والسعيد «يو اقيم دى فلور» و«حنادى پارم» و«فراسالامبو» و«يعقوبين دى تودى» و«سليستان» و«كترين دى ستين» وغيرهم ظهرت طوائف الفرنسيسكان و«كلاريس» التي ادهشت الدنيا بفقرها وخضوعها وهما الفضيلتان اللتان يحلما أصحاب المؤثر الادبي أعلى مقام لقولهم انه لاصلاح للناس «الا اذا تجردوا عن التعلق بكل أمر لا يكون ضروريا» ولقولهم «عجبا لقوم يأتون لينصحوا الامة وهم في العربات راكبون مع أنها لا فائدة لها من اقتنائهم تلك العربات وهم بذلك انما يزرعون الحسد في القلوب بما يظهرون من التأنق والترفة ويؤكدون بهذا وجود طبقات بعضها فوق بعض مع أنهم يقولون ان ذلك وهم وخيال وعليه فاذا أردنا أن نشفق حقيقة على الامة ونتأسى لما هي فيه من الآلام ينبغي لنا أن نتجرد عن كل شيء من شأنه أن يجعل الحياة في الظاهر حياة تفاخر وتنعم ولا يحيص لنا عن العمل بهذا الواجب وان كان شاقا كما قدمنا اذ يجب علينا أن نعكس سلم أحكام العقل فنجعل الفوق

تحتياً والتحتى فوقياً وبالجملة لا بد لنا من قلب العقول قلباً تاماً فاذا لم تهياً النفوس الى هذا الانقلاب فلا بد لها من الانتخاب على مفسد الناس كما يبكى الاطفال» ولو ان هذا الخطاب قرىء على القديس «فرنسوا داسيز» لامضى عليه باليدى لانه كان يريد أيضاً «أن يتجرد المرء عن كل ما ليس ضرورياً» قال «اذهبوا ولا تلبسوا فضة ولا ذهباً ولا تأخذوا مالا فى جيوبكم ولا وطابا ولا بردين ولا نملين ولا عصا» ونحن نعلم ما كان لمذهبه من سرعة الانتشار وكثرة اقبال الناس عليه فلم يمض على تأسيسه تسع سنوات حتى تمكن من ارسال خمسة آلاف مرید الى الجمعية العمومية فى «أسيز» وبلغ عدد أصحابه مائة وخمسة عشر ألف نسمة يقيمون فى سبعة آلاف دير وذلك غير اديرة النساء وعامة القوم الذين مالوا الى ذلك المذهب وجروا عليه ولو أن تلك الجماهير أصغت الى هذا النداء لاصبح أصحاب المؤثر الادبى آمنين على تحسين حال الامة الفرنسية لكن الحوادث دلتنا على ان انتشار الاخلاق والدين ذلك الانتشار لم يؤثر باكثر مما كان له من النتائج فى الدولة الرومانية وايرلنده التعميسة. وظلت عوامل التقهقر تنهك الامة التليانية بين فوضى سياسية وفساد أخلاق دينية. منهما أمة الرومان أيام عبادة الاصنام. ولم تقتصر النهضة الجديدة على ارجاع التليان الى ما كانت عليه الامم الغابرة من الاخلاق والفنون بل أعادت اليها أيضاً رذائلهم الاولى. وانتهى الحال فى ذلك البلد بتقويض أركان نظامه الاجتماعى والسياسى ولم يفن عن ذلك سوى القديسين والاختياروما كان لهم من النفوذ ولم يقتد الناس بهم فيما كانوا به يتظاهرون

لست أبني الا كشار من ايرد الامثلة فتاريخ تلك الازمان محشوبها
ولسكنى أستميح للقراء في ذكر شاهد واحد

ذهب الناس في هذه الايام الى تعظيم آداب الديانة البوذية واحلوها
مكانا علياً وهي في الواقع شديدة الاشفاق على الضعفاء والبائيس كثيرة
الحنان على المظلومين غير ان هذا ليس المراد بل المدار على معرفة ماذا
كانت تعاليم تلك الديانة أو جددت حلاً للمسئلة الاجتماعية ونهضت بامم
الهند والشرق الاقصى التي كان لها عليها التأثير العظيم من وهاد الانحطاط الى
أوج السعادة والهناء

بلى ان انحطاط تلك الامم غير محتاج الى دليل وما على الباحث الا ان
ينظر بعينه ليعلم كيف الحال وليوقن بان آداب تلك الديانة لم تنتشل تلك الامم
من الحضيض الذي هم فيه

ومن أظهر البراهين على عدم نجاح المؤثر الادبي في تحسين حال الامم
ان الذين ينكرون قولنا لا يسهم ان ينكروا وما يشاهدون في أحوال الامم
مثلنا بل ان الحق يخرج من أفواههم بالرغم عن ارادتهم مدفوعا بقوة
الحوادث والمشاهدات وهي أكبر الدوافع وألزمها بيانا

اليك ما جاء في منشور الحزب المشار اليه قالوا « نعم نحن نعلم ان
العائلات والمدارس تقول للاطفال انه يجب على الانسان أن يكون صادقا
أمينا من أهل الخير وأن يكون صدقه وأمانته قائمين باخلاصه ونزاهته .
ولو كان مجرد قول الشيء وسماعه من المخاطب كافياً للعمل به لاصبح فتح

الضائر واجتذاب القلوب الى الدين امرأً يسيراً . كذلك قد انتشرت الكنائس والمعابد والهياكل انتشاراً عظيماً ويدخلها الكثير من الاطفال ليتلقوا تعاليمها والعدد العديد من الناس ليسمعوا الوعظ والنصائح وتشاهد أعينهم بما يمثل أمامها من المناظر والاحتفالات كيف ينتقل المرء من حالته الاعتيادية فيصير من أهل الخير تقياً . وللوعظ والارشاد رهبان وقسس يمدون بالآلاف وهم لا يفترقون عن أداء ذلك الواجب . فلر كان هذا كله مما يوصل إلى الغاية وحده وإن عز نواهلنا لاصبحنا بها ظافرين لكننا مع ما نقول لا نرى الانجيل سائداً في الناس ولا هم يعملون بمقتضى قواعد الحكمة الصحيحة التي أسسها عظماء الفلاسفة في العصر الاخيرة والتي تطابق تعاليم الانجيل ومبادئه . والجلي الواضح إن الفرق عظيم بين درجة الكمال التي يشمر بها الوجدان بعد هذا العناء وبين ما تجرى عليه فعلا من الاخلاق والآداب » راجع كتاب عقلنا صحيفة ١١ «

ولو اني القائل لما أجدت كما أجادوا والعجب من كون الذين كتبوا ما نقلنا لم يدركوا مكان الضعف في مذهبهم الذي أسسوه على المؤثر الادبي دون سواه . يعترفون بان « ألوفا من القسس والرهبان يعملون على الدوام لانجاح مقصدهم » في الاخذ بناصر الامم من وهدتها وأولئك القسس والرهبان هم من جميع المذاهب والاديان فمنهم الكاثوليكي والبروتستانتى واليهودى وياليتهم كانوا وحدهم بل أضافوا اليهم «عظماء فلاسفة العصر» وخرجوا من هذا كله يعترفون والحزن ملء قلوبهم بانهم كلهم أمسوا خائبين وبان « الناس لا يعملون بما قضى به الانجيل وما قرره الحكماء وأعجب

منه انهم بعد ذلك يقولون وهم مطمئنون هادئون بوجوب « الابتداء في العمل من جديد » ويؤمنون النجاح حيث لم تنجح الكنائس والمباعد على اختلاف مذاهبها مع ما كان لها من قوة السلطان ونفوذ الكلمة وعلو الشأن كأنهم لم يعرفوا إن عدم نجاح تلك المساعي مع ما ساعدت به من الأعمال والاخلاص والتجرد عن الذات وفعل الخيرات وتضحية النفوس والأرواح وحب الجار دليل على إنه لا شيء ينفع ولا مريد ينجح إن دام يسلك من ذاك الطريق . وكل عالم خابت تجربته لا يغيب عنه هذا الخاطر البديهي البسيط ولكنهم لم يعرفوا حتى الآن إن المؤثر الأدبي لا يكفي لتحقيق سعادة الأمم ودوام نعيمها وتحصيل مجدها الاجتماعي وإنه ينقصه شيء آخر فقدانه هو السبب في تخلف الغرض المراد

فلتبحث حينئذ عن ذلك الشيء الذي يعوزنا

وليسمح لى القراء أن أضرب فى البيان مثلاً أستعيده من الانجيل

وأظن بهذا التشبيه لا أغضب أصحاب المؤثر الأدبي

يمكن تشبيه المؤثر الادبي ببذرة تنبت إن غرست فى أرض صالحة ولا تنبت إن خبت مفرسها . وعليه فوجود الارض وفسادها تأثير عظيم . ولست بهذا أقول قولاً جديداً وإنما هو قول متفق عليه اجماعاً بالتقريب وقد قرره الوعاظ وعلماء الاخلاق والمتكلمون من كل مذهب ودين الف مرة من يوم ان ظهر الانجيل وصار من العاديات لصحته وبداهته غير أنهم لسوء الحظ أقاموا بجانب هذه الحقيقة خطأ البسها من الظلام ثوباً فآخفاها اذ حسبوا أن جودة البذرة تولد جودة الارض وتقتضى

الانبات وقالوا « ليس من أرض غير صالحة وما الفساد الا في البذور »
 وظاهر انه لم يبق بين هذا القول وبين اهمال النظر في طبيعة الارض التي
 يراد الفرس فيها الا مرحلة قصيرة وقد اجتازوها بأسهل ما يكون فانتقلوا
 من قضية الى قضية حتى قالوا مانصه بالحرف الواحد « ليس محل البحث
 معرفة ما اذا كان الزمن الحاضر أرداداً من الزمن الماضي لانه ليس في استطاعة
 أحد أن يحقق شيئاً في هذا الباب فمن العبث أن يسأل عنه » ومعناه أن من
 العبث البحث عن طبيعة الارض المراد غرسها . إدعوا هذا بغير دليل
 وملاًوا اليدين من بذور الاخلاق ثم بذورها في كل صوب ومع كل ريح
 تهب وعجبوا بعد ذلك من تخلف نبتها أو إنهم أخفوا عجبهم بما ذهبوا اليه
 من انتظار النبات يوماً لا يعرفون له وقتاً فقالوا « ان المقصد خطير والعمل
 جليل فلا يطمعن أحد منا في أن يدرك بوادر تحققه غير ان هذا لا يغير من
 واجبتنا لأن النجاح ليس من أعمالنا (راجع كتاب عقلنا صحيفة ٢٦)
 أجل إنما النجاح هو الذي من عملنا وهو كل العمل بل لا عمل لنا الا
 هو . ومن المستغربات أيها الناس أن تدعوا القيام بذلك المقصد الامجد
 الرفيع الشأن وهو النهوض بالامم من حضيضها من حيث الأخلاق
 والأحوال الاجتماعية ثم أنتم تدعون مع هذا إن النجاح أي نهوض الامم
 ليس من عملكم . انكم إذن قوم تحبون الفنون لذاتها ومكارم الاخلاق
 لمكارم الأخلاق

ماعدم نجاح أصحاب المؤثر الادبي وحده ممن خلوا من قبلكم الا
 مسبب عن ذلك الاعتقاد الفاسد بأنه لا تأثير لطبيعة الارض التي تلقى

البذور فيها وبانه من (العبث) الالتفات اليها ، إنما طبيعة الارض الاجتماعية سبب من الاسباب الجوهرية التي لها التأثير الاعظم في نجاح المؤثر الادبي وخيبته . ولا أريد الاستدلال على ما أقول الا بتجارب موسيو (بولدى جاردان) صاحب الدعوة الى تأليف القلوب حول المؤثر الادبي فقد التقينا في ايدنبورج أيام قصدناها لالقاء بمض الخطب هناك هو في مؤثره الادبي وأنا في العلم الاجتماعي ورأيته متعجبا من اقبال الناس على مذهبه ويرى كما أخبرني (ان الارض صالحة جداً والواقع انه لقي من أهل تلك المدينة قوما يصفون اليه بكمال الالتفات ويسمعون حديثه بحمد واهتمام وعلى أفكار تليق كل اللياقة بمذهبه ونشر مبادئه وكان مندهشاً من الفرق بين استعداد الافكار في هذه المدينة وبين حالة الافكار في فرنسا اذ يوجد بين أصحابه أنفسهم عندنا من يتبعه لمجرد الانضمام اليه حباً في التقليد والتمسك بكل شيء جديد جرياً على أميال الفرنسيين في هذه الايام الى علوم الادب والأخلاق فان الرجل منا اليوم يتمذهب بمذهب كذا أو كذا ليقال كما جرى على سنتهم ذلك أظرف وأحلى ذلك أحكم وأدق ذلك هو الرأي الاخير ذلك ميل من الاميال وهمكذا من الالفاظ الغربية التي درجت بينهم . فاذا تبدل الحال أوجد جديد رأيهم يتسارعون الى ترك ماتعشقوا وذهبوا يتفرجون على الرأي المطل كما يترك الرجل رداء الصيف ليلبس ثوب الشتاء وفي كل هذه الادوار ترى عامة القوم يقبلون ذاك الجد هزلاً كما هي عادة الفرنسيين في قلب كل شيء تهكماً

تلك أرض ليست صالحة لوضع البذور فيها والنشأة الاجتماعية الحاضرة

ليست مستعدة لقبول فعل المؤثر الادبي كما قامت في وجهه عند الامة الرومانية وفي إيرلنده وإيطاليا وفي الشرق حيث لم يأت بما كان ينتظر منه من المزايا ولا بما أرادوا أن يكون له منها

وجب إذن أن يبدأ بتغيير النشأة الاجتماعية ذاتها إن كان المراد الوصول الى فائدة صحيحة أعنى انه ينبغي البدء في الاصلاح بأوله

وأول ما يجب البدء فيه عندنا حتى يكون المؤثر الادبي صالحا للغرض المطلوب تربية الرجال وإعدادهم للحياة الحقيقية . ونحن اليوم نعلم أبناءنا ان منتهى الامل ومنتهى الحكمة هو الاخلاص بما في الجهد من متاعب الحياة وتقلباتها . يقول الوالد لولده (يا بني توكل أولا علينا في دنياك فانك ترى كيف تقتصد وتدخر لنجمع لك مالا جزيلا نقدمه لك مهراً يوم زواجك ولقد بلغ جنبنا لك مبلغا لا نستطيع معه أن نترك أمامك عقبة من عقبات الحياة الا ذللناها ما استطعنا . ثم توكل بعدنا على أقاربنا وأصدقائنا في معونتك والتوصية بك حتى تنال مرتزقا . وتوكل أيضا على الحكومة فليدها من الوظائف عدد لا يحصى وهناك بيت المرء مطمئن البال آمنا من التقلبات يقبض راتبه في آخر كل شهر على التوالي ويترقى بطبيعة الحال لمجرد وجود المعاش وحق التقاعد والوفاة حتى انك لتعرف راتبك متى بلغت سن كذا وكذا ومتى تنال المعاش فتتعد عن العمل آمنا مستريحاً بحيث إنك بعد أن تكون قضيت زمنا من حياتك وكأنك لم تأت عملاً يمكنك أن تعيش بقية عمرك من غير أن تأتي عملاً أبداً وان كنت لاتزال في سن يكاد فيه المرء ويتمب . ولما كان أيها الولد العزيز راتب الوظائف زهيداً وما كل

ما يمتنى المرء يدركه ينبغي لك أن تتوكل أيضاً على المهر الذي تأتي به لك زوجتك وعليه فن واجبك قبل كل شيء، أن تبحث عن زوجة غنية وليطمئن بالك من هذه الجهة فسنبحث لك نحن عليها وسنجدها ان شاء الله . تلك أيها الولد العزيز هي النصيحة التي يلمها علينا حبنا لك وميلنا اليك »

هذا هو القول الذي يسمعه الولد كل يوم في بيت أبيه ومن جيرانه ومخالطيه واني ذهب ولا شك في انه يعود من غير شعوره على الاعتماد على غيره أكثر من نفسه ويبعده عن حب المرتزقات التي تقتضى الجد وتلتزم الهمة والاقدام وقد يصيب فيها أويخب كالزراعة والصناعة والتجارة ويجعله ميالا الى الحياة المستريحة

ومتى صار هذا نظره في الحياة جمدت ارادته وخملت همته وارتخت منه العزيمة وصار غير قادر على الكد والعمل ميالا الى الهرب من الصعاب لاراعبا في مبالغتها يبحث عما في الحياة من المسليات لاعن الجديات ويمسى غير قابل لتأثير ذلك المؤثر الادبي الذي يطالب الكد ويوجب على الانسان أن يقهر نفسه لملكها

هذا هو المانع الاكبر للعمل بمقتضى الارشاد الادبي وحده ولا يمكن ازالته بالمؤثر الادبي وحده لان الوسط الاجتماعي كله متضافر عليه فالمؤثر الادبي يقول « يجب على المرء أن يكون مستعداً لاجراء ماقيه كلفة عليه » ووسطنا الاجتماعي كله يصيح بضد هذا ويفشى بصوته كل صوت عذاه . وجب إذن تمييز هذا الوسط قبل كل شيء ، وأن يكون تمييزه على النحو الذي يوجب نموهم الافراد الذاتية وبعبارة أخرى توجيه الناس الى اعتناق

« الحياة الحقيقية »

يقولون ان هذا أمد بعيد ولكن أقرب الطرق هو الذى يؤدى الى
 الغرض المقصود والمؤثر الادبى باعتراف أهله لا يؤدى اليه
 على أن الطريق ليس بعيداً كما يظنون لان الزمان يدفعنا نحوه ودافع
 الزمان أشد البواعث كلها والواجب علينا أن نوجه أعمالنا ونلفت هممنا
 الى معرفة هذه الحركة ونساعدها فى فعلها ونستبطنها لا أن نقاومها
 ونعيقها ونؤخرها

وها أنا أذكر بوجه الاختصار علامات تلك الحركة وبوادرها

العلامة الاولى اختلاط الجنس الانكازى السكسونى ومنافسته انا
 لا يمكننا أن نتخلص من تلك المزاحمة والمنافسة فانا نلتقى مع ذلك الجنس
 المقدم المغير فى جميع الاقطار التى يمتد اليها نفوذنا . نجد على أبوابنا فى
 أوروبا ونجد انى ذهبنا فى البلاد الاجنبية وهو الذى نجد فى كل مكان
 نتخذه مستعمرة لنا أو نضع فيه أى عمل كان . ينافسنا حيث وجدنا بزراعه
 ومستعمريه وصناعه وتجاره . وأنتم تملكون ما فى منافسته من الخطر علينا
 لما امتازت به من عزم القائمين بها وثباتهم وخبرتهم بالمسائل العملية وتعودهم
 الاعتماد على أنفسهم . فيجب أن يكون لنا مشجع من هذه المزاحمة وتلك
 المنافسة لان المرء ينبعث الى العمل اذا ضاق الفضاء أمامه وخاف التقهقر
 من المواقع التى يحتلها ويستفيد من التمثل بخصمه ويتأثر فى أحواله وأعماله
 ونحن انما نحث الشبان الذين يحضرون درسنا فى العلم الاجتماعى على
 الذهاب الى لندره لكي يتلقوا ذلك الدرس المفيد بالخبر والعيان فيها اذ

يجتمعون هناك باهل تلك الامة ويتعلمون منها المزايا التي تفضل بها
من عداها

غير ان هذه العلامة لاتكفي للدلالة على ان الترقى بدأ فينا اذالم تقترن
بنيرها مما هو كائن في الامة نفسها

العلامة الثانية خيبة طريقة التعليم عندنا كما أجمع الناس على تحقيقه
خيبة التعليم ظاهرة لجميع الناس لذلك يزداد عدد المنددين يوماً فيوماً
كما يزدادون جرأة في التنديد واقداماً وفيهم من كل صنف حتى من المدرسين
وزراء المعارف العمومية وجميع الاحزاب السياسية والكل متفق تقريباً على
ان المدارس لم تأت بما كان يرجى منها . والمشتغلون بالتعالم يشاهدون
سقوطه وانحطاط درجته على وجه العموم . نعم تعلم المدارس شباناً يخرجون
منها حائزين للشهادة النانوية « بكالوريا » أو موظفين ومستخدمين ولكنها
لاتربي رجالاً قادرين على تحصيل عيشهم بانفسهم

ودليلنا على وجوب ادخال التحوير في طريقة التعليم عندنا ما قرأناه
ضمن خطاب ألقاه في هذا الموضوع على أحد النوادي موسيو « لاقيس »
رئيس فريق من رجال التعليم عندنا يسمون في الوصول الى تلك الناية حتى
يكون التعليم صالحاً لاستثمار ما أودع في المرء من القوى والمنكات وهو
« اني أذكر كلمة قالها لي أحد الشبان الانكليز » وهي أرجوك أن لاتظنني من
العلماء فان المدرسة لاتعلمنا شيئاً كبيراً اللهم فيما أظن الا كيف نسير في
الحياة » وما أجمل هذا الفخار الانكليزي الذي اندرج طي هذا التواضع
في المقال ولا شك عندي في ان زائري ما كان ليرضى أن يستعيض عن علم

السير في الحياة بمعارفنا المدرسية ولو انى عرضت المعارضة عليه لا جاني ان انكناثره محتاجة الى رجال تعودوا الاعتماد على أنفسهم وشبو اعلى الاستقلال والاقدام ليكونوا لها نجاراً وساسة وصناعاً

وليس يديسيراننا قدرنا حاجة طريقة التعليم عندنا الى التغيير والاصلاح وانها لا تعلمنا «كيف نسير في الحياة» ولا تعودنا على «الاعتماد على أنفسنا» فان ادراك الخطأ أول خطوة نحو الحقيقة

العلامة الثالثة تقدم التمرينات الجسمية عند الشبان

كفانا ما احتقرنا من التربية الجسمية فقد جهلنا منها حتى اسمها . وكنا يعرف مدارسنا وطول دروسها وقصر أوقات الاستراحة منها وعدم وجود تمرين من أى نوع كان ونزعتها التي تشبه نزهة المسجونين حيث يروح النلامذة ويفدون بين أربع حيطان مرتفعة تحزن النفوس ثم فسحة يوم الخميس ويوم الاحد على النظام العسكري اذ يخرج الطلبة صفافاً كما يترىض الشيوخ لا الشبان . ولاشك في ان البقاء تحت هذا النظام يطفى همة الجسم ويجعله عاقلاً لصاحبه لا مساعد له . وعليه فلا يتأني نمو القدرة والاقدام وحب العمل والميل الى الاستقلال . والرجل اذا كان متمكناً من آلة طبيعية جيدة يكون أشد وثوقاً من نفسه . وأقدر على مغالبة الحياة واقتحام متاعبها وأكثر ميلاً الى العمل لا الى البطالة والبقاء تابعا كما لو كان موظفاً ويشعر من نفسه شعوراً أعظم برجوليته وهو كذلك في الحقيقة . وقد انتشرت التمرينات الجسمية انتشاراً عظيماً منذ بضع سنين كما هو المعلوم ودارت أسماء الالعب المختلفة الانكليزية على السنة الفرنسيين ودخلت

فإنهم وخصصت كل جريدة قسماً من صفحاتها لنشر ما يتعلق بتلك الألعاب وأنشئت فيها جرائد مخصوصة تطبع بعضها ما يزيد على عشرة آلاف نسخة في كل مرة وصار يجتمع للتفرج على تلك الألعاب في بعض الأماكن ما ينوف على العشرين ألف نسمة وقد ينص المكان فيرد الزائرون ولاشبهة في أن الشبان الذين جذبهم تلك التمرينات إلى هذا الحدم أقدر من غيرهم على تحمل آتاع الحياة وأكبرهمة وأشد عزمًا لأنهم تعلموا كيف يتغلبون على تكاسل أجسامهم ويحكمون على حركاتها وتلك أحسن الوسائل للنجاح في ما تقتضيه الحياة من الأعمال وأصبحت هذه الشببية محل الأمل وموضع الرجاء

العلامة الرابعة كثرة التزام على الوظائف الإدارية والحرف الأدبية غصت وظائف الحكومة والحرف الأدبية بأهلها حتى ضج الناس كلها وأمسى على باب الوظيفة أو الحرفة الواحدة عشرة طلاب وعشرون ومائة لأن كل الناس راغب فيها وزاد عددهم حتى ملئت بهم دهايز المصالح الإدارية وضائق رحاها وتهافتوا على حمل كتب التوصية وباتوا حيارى. ولما اشتد الأمر ظهر في الوجود فكر جديد وهو أن الناس صاروا يشعرون بصعوبة نوال تلك الوظائف وقل الأمل فيها وهي لا تجزى عن الآتاع التي يقاسونها للوصول إليها وبدأت العميون تشخص إلى الحرف المستقلة التي هي أيضاً أكثر ربحاً وأوفر كسباً إلا أنهم لا يزالون مترددين ولكن الشخوص موجود فلترك الأمر لفعل الزمان إذ لا بد لهذه الحركة من الظهور تماماً وقد ظهرت من قبل في الشبان الذين هم أكبر استعداداً وأبعد نظر

العلامة الخامسة هبوط فائدة المال

بعد ان كانت فائدة النقود خمسة في المائة نزلت الى اربعه ثم صارت ثلاثة في هذه الايام بل ان فائدة احسن القراطيس اقل من ذلك ووجب حينئذ ان لا يعتمد الانسان على ايراده أو مهر زوجته وصار من الصعب كفاية الحاجات برواتب الوظائف لقاتها وأصبحت معيشة الرجل من ايراده الخاص أصعب وأشد حرجا اذا اكتفى به وركن الى البطالة وتلك حال من أقوى البواعث في حمل المرء على العمل بنفسه وأن لا يعتمد الا على نفسه . وليس في قدرة الناس أن يستمعوا زمانا طويلا على اجابة هذا النداء لانهم بعد أن يترقوا أبواب الاقتصاد كلها لا بد لهم من دخول ذلك الباب

العلامة السادسة فداحة الضرائب الى الحد الاقصى

الفرنساويون هم الامة التي كثرت ضرائبها عن غيرها وهم يهتمون وقرها بقوة التوفير والاقتصاد لابقوة العمل والاجتهاد لان الناس اذا ارتقوا في الامة عندنا تركوا الزراعة والصناعة والتجارة مع ان الذين يرتقون هم الذين كان في قدرتهم أن يصلوا بها الى الغاية القصوى من التحسين والاتقان بما أوتوا من العقل وما جمعوا من الاموال . ومن هنا نقص ايراد هذه المصادر الثلاثة التي عليها مدار الثروة العامة سنة بعد أخرى وأصبح من المتعسر الاعتماد على الضرائب لانها تصعب حيننا بعد حين اللهم الا اذا عرفنا طريق الاعتماد على أنفسنا لنقوم ما عوج من حال الزراعة والصناعة والتجارة ونوجهها نحو النمو المستمر فهي المنبع الذي تستقى منه جميع الحرف الدخيلة

التي اتخذت لها موطناً مختاراً في الميزانية

العلامة السابعة ميل الناس ثانية الى المعيشة الخلوية والاحتراف

بالمهن المستقلة

والسبب في هذا الميل هو الازدحام على أبواب الوظائف وهبوط
فائدة المال وعدم كفاية الميزانية بحاجة الامة وقد بدأ الناس يقللون من
إحتقارهم لتلك المهن التي هجروها لمجرد الاستحسان لا بالبرهان ولتوهم انها
دون الرتبة وللنفور من كل عمل يقتضى الكد ويطلب الهمة ويكون صاحبه
فيه مسؤولاً عنه وسيعودون اليها خاضعين لحكم الزمان . ظهرت هذه الحركة
على الخصوص في الزراعة فقد التجأ اليها اضطراراً عدد من أرباب الاملاك
الذين خسروا بأنحطاط الزراعة وهبوط فائدة الاموال والتزاحم حول
الوظائف الادارية وهم مع ذلك يودون اطالة مدة اقامتهم في المدن ولكن
طبيعة الحال تدفعهم الى الريف وقد انتهى بهم الحال - وكان لا بد من
ذلك - فتعودوا على الاشتغال باستغلال أراضيهم التي هجرها المستأجرون
أو أضروا بها وصار بعضهم يسكن وسط أملاكه ويقضى القسم الاكبر من
السنة فيها ومنهم من أقام فيها نهائياً طلباً للاقتصاد ومما يدل على تلك
الحركة أيضاً انتشار الشركات الزراعية وكثرة الجرائد الزراعية والجمعيات
الزراعية فقد ظهرت هذه الجمعية مئات مئات في كل ناحية وكان تأليفها
بسعى أصحاب الاملاك الواسعة الذين كانوا في مبدأ الامر يستخدمونها
في أغراضهم السياسية وتأييد نفوذهم ولكنهم صاروا يتأثرون شيئاً فشيئاً
بذلك الوسط الجديد وأصبحوا يتعرفون مسائل السماد والآلات الزراعية

التي احتقروها الى هذا الحين وانقلبت الجمعية زراعية محضة بحكم الضرورة ومن جهة ثانية فطن بعض أصحاب الاموال الى هبوط أسعار الاطيان لانحطاط الزراعة فمكفوا على مشتري الاراضى لان غلة الاطيان ماثلة الى التقرب من فائدة النقود.

العلامة الثامنة التشجيعات على الاستعمار.

ان قوة الامة في الاستعمار من أدل الدلائل على قوتها الاجتماعية لانها تدل على مالا هلبا من الهمة والاقدام والقدرة على الانتشار في الدنيا وهذه الصفة هي التي أصبحت بها الامة الانكليزية السكسونية تهدد من سواها. نم لايسعنا أن نقول بأن فرنسا دخلت في هذا الطريق حقيقة لاننا لانزال نبعث بالعساكر والوظفين أكثر من المستعمرين غير ان من المشاهد حصول التشجيع على الاستعمار والاجتهاد في بيان مزاياه وقد أسست لهذا الغرض شركات وأنشئت جرائد ونظمت بعثات الاكتشاف وصار عدد الذين يهتمون بعلم تقويم البلدان يكثر في كل يوم كأن الفرنسي الذي ألف بيته أخذ يلتفت الى انه يوجد خارج فرنسا بلاد تمكن الإقامة والمعيشة فيها. ومع اعترافنا بأن ذلك كله لايزال في عالم القوة نرى ان العلامات التي سبق ذكرها تبعث الهم أيضاً الى الاستعمار وتساعد على نمو تلك الحركة

العلامة التاسعة سقوط منزلة السياسة والذين اتخذوها حرفة سقوطاً مستمراً

كما ان قوة الامة في الاستعمار دليل على قوتها الاجتماعية كذلك ثقتها

بالسياسة والمحرفين بها برهان على ضعفها وانحطاطها لما في ذلك من الدلالة على ان الناس يعتمدون على الحكومة أكثر من اعتمادهم على انفسهم وانهم ميالون الى الارتزاق من الوظائف أكثر من ميلهم الى الكسب من المهن الحرة المستقلة . والذي تطمع فيه الاحزاب بعد انتصارها انما هو التهام الغنيمة أعنى الوظائف فى الحكومة فالاسلاب لمن ظفر ومتى رسخت هذه الافكار فى العقول أبعدت أهلها عن الحرف المستقلة والحرف المستقلة هى التى فيها قوة الامة الحيوية كما ان تلك الافكار تثبط العزائم وتثنى الهمم . وعندنا اليوم من العلامات الصحيحة مايشير الى ان الفرنسيين بدأوا ينفضون عن أفكارهم غبار هذا الخيال فصرنا نعلم ان السياسة لم تأت لنا بما كنا نرجوه منها وان أملنا قد خاب فى كل صوب فلم نزل حطنا من الحرية والمساواة والاخاء ولم نحظ بحكومة قل مصرفها ولم تخفف عنا ضرائبنا ولم تحصل المسالمة والاحتمال فى الاراء السياسية والمعتقدات الدينية ولم بل رجعنا من اليأس الى قلب الحكومات واسقاط الوزارات واكثر من ذلك تنقيح القوانين وتعديل النظام وأصبحنا وقد اخترنا كل شئ . وصرنا عالمين بما فى جوف السياسة كلها . ومن أجل ذلك تولد هذا الروح الجديد الذى نشاهده وهو زيادة عدد الذين يقل اهتمامهم يوما بعد يوم بالجراند السياسية المحضة . ارجع الى زمن « الاصلاح » أو زمن « حكومة شهر يولية » أو زمن « الامبراطورية الثانية » نفسها تران كل جريدة سياسية كانت قوة بذاتها يحترمها الناس ويسمعون قولها وكانت لصاحب الجريدة قوة كبرى حتى كان أعظم رجال العصر من أصحاب الجرائد ومنهم

من أمسك عليه جريدته في منصبه وكانت جرائد «ناسيونال» و«جلوب» و«كونستيتيوسيونيل» و«الديبا» تقلب الرأي العام كيفما شاءت وتوقد نار الثورة في بضعة أشهر ان أرادت ولم يكن في الامة من الجرائد الا السياسية وكانت كل جريدة تشخص فريقا مستقلا من أقسام الرأي العام . ولكن ما أعظم تقلبات الزمان فقد أضاعت الجرائد السياسية قسما كبيرا من سلطاتها وقسما أكبر من قرائها وانتقل الرواج إلى الجرائد المسماة جرائد الطريق التي أزوت السياسة الى ركن صغير واعتبرتها تشد الخناق على الناس والى الجرائد الاخبارية التي تنقل الحوادث البرقية من غير أن يكون لها رأى في السياسة والى النشرات الموضوعية التي تكتب في الاعمال وترجم عن حال المهن والصنائع أو تخدم المنافع المحلية وكان هذا الصنف مجهولا تماما قبل أربعين أو خمسين عاما . ومن علامات ذلك السقوط أيضا ان المراتب السياسية لم تعد وحدها صاحبة المنزلة الرفيعة والسكينة العالية في نظر الناس ولم يعد للموظفين من الاعتبار ما كان لهم أيام الحكومات السابقة بل الفرق بين الحالتين عظيم . أين ذلك المدير أيام الإمبراطورية الذي ما كان يقع بصر أحد عليه إلا وارتعدت فرائصه وتولاه الفزع والاضطراب . أين تلك المحاكم التي عرفناها منذ أربعين عاما حيث كانت كل محكمة اقليم منها أشبه بقديسين تحصنوا في الوظائف وامتنعوا في حصون القضاء . ائقدا أصبحنا شاعرين بان تلك الوظائف أقل ثباتا وأضعف مكانة مما كنا نظنه من قبل وبانها تقيد استقلال صاحبها بسلاسل وأغلال وبانها قليلة الراتب عديمة المكاسب . هذا ولست اذكر في بياني حوادث «بناما» التي تسمى لاجلها

من السياسة نفوس الذين هم أقل الناس نفوراً منها
اليوم انكشف غطاء الابهة والجلال الذي كان يغشى الدولة ووزراءها
وموظفيها ونم الحال فالذي تخسره الحكومة ايكسبه الافراد والحياة
الخصوصية والحياة المحلية وتلك هي الدعائم الحقيقية المتينة التي يشاهد عليها بناء
الهيئة الاجتماعية وعلى هذا ففي الحال تقدم من تلك الجهة أيضاً
العلامة العائشة قيام الرأي العام حقيقة ضد سيادة الجندية
ان انتشار الجندية عقبه في طريق الاصلاح الاجتماعى فانه يضر بثروة
الامة ويدفع الشبان الى المدارس العالية فينتهم عن الاشتغال بالفنون
الجارية والمهن النافعة والذين لا ينجحون في سبيل الجندية لا يكونون أهلاً
لاعتناق الحرف المستقلة التي تقتضى الهمة والاقدام الذاتية لان تلك التربية
أضرت بهذه الملكات . غير انه يمكننا أن نبشر قومنا بان الجندية أصبحت
في انزواء منذ الآن اذ لم يعد للامة قدرة على تحمل أثمانها زماناً طويلاً ولان
السلم بهذا الثمن أشد ضرراً من حرب تكون وبالاً . وقد فرغت خزائن
ايطاليا بما أنفقته حكومتها في هذا السبيل ولا بد لها من الاقتصاد في
حريتها . ولا تزال المانيا وفرنسا تقومان باعباء جيوشهما بغاية الصعوبة وان
دام الحال زمناً فانه يضر بحياة الامتين . ولا بد لهذا البرهان المالى من
الفوز على أدلة الجندية كلها . على ان أنصار الجندية أصبحوا اليوم يذمون
ما آلت اليه وأصبحت أعمالهم تكذب أقوالهم وعلموا ان طول الاقامة
في الشكنات يجعل الاحتراف بغير الجندية صعباً بعيد الامكان ومن أجل
ذلك تراهم أسرع الناس الى تخليص أولادهم منها والفائز من وجد له

مهريا من ذلك النظام الذي يقولون أمام الناس بضرورته وفوائده . هذا هو السبب في اقبال الناس على المدارس التي يعنى طلبتها من سنتين في الخدمة العسكرية منذ صدر القانون الجديد اقبالا حتى صار القاصدون يدوسون بعضهم على أربابها وفي ذلك من الادلة أظهرها على النفور من الخدمة العسكرية لانها حالة شعرت بها الامة من غير منبه اليها وليس أمام الآباء والامهات في العائلات الكبيرة من المضلات التي لا ينفكون يلتصون لها حلا الا كيف ينجوا بأولادهم من الخدمة المشار اليها وهي مع ذلك أبهى النظمات عندنا . وأما أهل الطبقات النازلة فيخضعون لحكمها وهم يزجرون ويحسدون أهل الطبقات الرفيعة على تحلصهم منها ومتى هرب الناس من نظام وهجره الصقم به وأشدهم دفاعا عنه فقد أدركه الضعف وصار منحطاً ولا أظن أن نمو الجندي الى هذا الحد يدوم دوام أعمارنا فان لم يكن فينا من سلامة الذوق ما يكفينا مؤنته لقام بتلك الوظيفة عسر الحال من جهة المال ومنفعة العموم

الغلامه الحادية عشر سقوط منزلة المشروعات الخيرية

نعم ان المقصد الذي توجد لاجله جمعيات البر والاحسان وجمعيات الاعانة وجمعيات الخير العام من أجل المقاصد واسماها لكنها مضرة من جهة كونها تجعل الناس يعتقدون بانها كافية لحل المسئلة الاجتماعية مع انها من قبيل المسكنات لا الادواء فهي تخدر الالم كالمورفين ولا تشفيه . والمساعدة الحقيقية انما تكون بجعل المساعد قادراً على الترقى لاتقديم المعونة اليه ومن هذه الجهة كان البحث على حل المسئلة الاجتماعية بتلك

الوسائل لا يخلو من الخطر

ومن المحقق ان اقبال الناس على هذه الاعمال وتمظيمهم للقائمين بها أخذ في التناقص لان المساعي التي بذلت في سبيل ذلك ذهبت أدراج الرياح ودام خذلانها زمنا طويلا وقد الناس ما كان لهم فيها من الثقة الحسنى وتيسر لهم أن يقفوا على ضعف تلك المساعي المجتمعة مع ما هي عليه من مظاهر القوة والنجاح لانها ليست في الحقيقة الا برهانا على ضعف الانسان وأيقن الكل بان رئيس المعمل أو صاحب الاطيان أو مدير المتجر اذا اهتم بأمر رجاله أتي بفائدة أكبر مما يأتيه خمسون رجلا من رجال تلك المشروعات في تحسين حال قوم تشتتوا في كل صوب وهم لا يعرفونهم وليس بينهم وبينهم أقل رابطة طبيعية فعلية

العلامة الثانية عشرة تدفق المذاهب الاشتراكية

ان العلامات التي سبق ذكرها تدفنا بلا شك في طريق غير طريق الاشتراكيين لانها تساعد على نمو الهمة الذاتية وحصر السلطة العمومية. ومن جهة ثانية نرى أعظم الامم تقدا على البقية وهي الامة الانكليزية السكسونية انما حازت هذا التقدم بهمة أفرادها فذهب الاشتراكيين يناقض حينئذ مجرى الاحوال الحاضرة . أما سبب ظهور هذا المذهب من جهة وكوونا اتخذناه دليلا على تقدم الامم نحو الترقى من جهة أخرى فظاهر وبيانه ان التحول الذي قدمنا ذكر علاماته لا يحصل في أمة بالسهولة من دون أن يضر ببعض المصالح فيها وايلاها بعض الامم . كان الرجل متموداً على مساعدة أهله وأصحابه والحزب السياسي الذي اتعمى اليه

والحكومة وكانت الامة التي يعيش فيها مائلة الى المحافظة على حالتها لا متجهة نحو الترقى وكان التسابق فيها قليلا لضعف وسائل النقل وكل ذلك يؤدي الى بقاء التقاليد كما كانت ودوام وسائل الارتزاق على ما هي عليه . غير ان تسهيل وسائل النقل واتساع نطاق معامل الصناعة على اثر اكتشاف الفحم حطمت جميع تلك الحواجز ومزقت دائرة ذلك الوسط العميق الذي كان يحتضن الانسان بين جوانبه وأصبح الزارع والصانع والتاجر عرضة لمنافسة جميع الزراع وكل الصنائع والتجارفي الدنيا فمن كان من القوم ذاعزيمة وهمة واقدام رأي في ذلك الحال الجديد تغييراً لا بد منه في الدنيا وانخذه منه حظاً فاندفع يطلب الزيادة في الهمة والاكتثار من الاقدام ووصل الى درجة من الغنى والقوة لم تكن لاحد في حساب . ذلك شأن الامة الانكليزية السكسونية لانها كانت في مقدمة الكل من حيث همة افرادها واقدامهم . ومن ذلك الحين أخذت تنتشر في ارجاء المسكونة وتهدد جميع الامم الاخرى . ومن كان منهم اقل عزمًا وأضعف اقدامًا تولاه الاندهاش وأن تحت أثقال الحياة الجديدة ولم يتخذ لنفسه سلاحاً من عزمه ولم يتدارك قواه ليقاوم ما أقبل عليه من المتاعب وأحتفه من الصعاب بل استسهل التخليب أولاً وعمد بعد ذلك الى مناجاة وسطه المتمزق البالي من أهل وأصحاب . وحكومة وأمة جريا على سنة أسلافه الاولين ثم التفت تلك الجموع الضالة بيهضها وتداعى المتأخرون والضعفاء وفاقدوا الاهلية الى صعيد واحد فاحتشدوا تحت لواء مذهب الاشتراكيين ومذهب الاشتراكيين الا صور من صور روكية الشرق التي أدت بامه الى الضعف والانحلال .

هكذا لما رأيت طوائف العمال في القرن الماضي ان منيتها قد حانت باتساع نطاق المعامل جمعت ما بقى فيها من القوى وقامت تقاوم التقدم الجديد جهدها فأكثر منها اللوائح وشدت القيود والاحكام التي كانت تحفظ لها احتكار العمل وتممها من منافسة الاجنبي ولكن ذهبت انماها ادراج الرياح كما يعلمه كل واحد منا ونسف التيار الجديد تلك المنظمات العتيقة فجعلها نسيا منسيا

أخطأ الاشتراكيون إذ جهلوا التاريخ فجاءوا بمذهب درجت عليه الاعوام وجعلوا يصادمون الحوادث الطبيعية التي تدفع العالم الانساني في طريق جديد . ومهما اجتهدوا وشددوا العزائم فانهم انما يزيدون في قوة البرهان على هذا المصير الجديد الذي تألبوا للمغالبة بما بقى فيهم من القوة كما فعلت الطوائف التي ذكرناها من قبل وأصبحوا على فعلهم نادمين . وليس لمذهب الاشتراكيون فائدة تنتظر إلا زيادة الضعف في نفوس أولئك الذين عميت بصائرهم فأصبحوا يرجعون السلامة من منج لا وجود له الا في الخيال

مامذهب الاشتراكيين بجديد يبدو ولكنه قديم يتفانى وعليه فهما قلبنا الحوادث وغيرنا وجهة البحث فيها لانستفيد منها غير ان العالم متقدم ونحن معه نحو انماء الهمة الذاتية في الانسان ولا سبيل للنجاح في هذه الايام إلا بهذا

والآن أسأل ان كان واجبنا اليوم هو في الاكتفاء بفعل المؤثر الادبي والنداء به نداء مبهما أو في اننا نقف على حقيقة أحوال المعيشة الجديدة التي

يتوقف عليها رغد الامة لانه ثبت ان المؤثر الادبي وحده لا يقوم بمحاجتنا في هذه الازمان وفي ائنا ننشر تلك الفضائل الاجتماعية وندافع عنها لانها دار السلام

ولا خوف من هذا على المؤثر الادبي ان ينسى وتثقل عليه وطأة نمو الهمة الذاتية واعتماد كل امرء في الحياة على نفسه كما انه لا يخشى من حط درجة الانسان وجعله محبا لذاته وامانة الامل وقتل روح الاحتمال وعاطفة الاحسان وحب الجار فيه فاني لن أفرغ من كتابي إلا إذا أسكنت روع القراء مما يخافون

أقول لهم ان ترتيب الحوادث وسير الوجود يرشدنا الى أن الامم التي بلغت فيها همة الانسان منهاها هي ملجأ الحياة الادبية الصحيحة حيث تثبت الاخلاق وتبقى المحامد . ويبيانه ان المؤثر الادبي انما يجعل المرء قادراً على قهر النفس والتغلب على هواها . وليس من درس يتعلم فيه الرجل قهر نفسه وقيادة زمامها أشد فعلا من الحياة المليئة التي يتعلم فيها أنه لا اعتماد له الا على نفسه . وليس من صرب يأخذ بمجامع القلوب أكثر من تلك الحياة فهي التي تقود المرء الى « الحياة الحقيقية » وهي المدرسة الطبيعية التي تربه كيف يحتمل المتاعب والرزايا وهي الاسهل تناولا والاكثر شيوعا وطلابا . تلك ضرورة أشد فعلا في النفوس من وعظ الواعظين ونصح الحكماء والمرشدين الذين يدخل كلامهم من احدى الاذنين ويخرج من الاخرى ذلك لان الاعمال تدعوا الى العمل أكثر من الاقوال جاء في الكتاب « انك لتنال عيشك من عرق جبينك » حكمة هي

أسّ القوة الاجتماعية ومبنى الآداب وبها تتمكن الاخلاق وما من أمة هربت من حكم تلك الحكمة التي تقضى على المرء بالكد والمعمل بما تلتبس من الحيل الا انحطت أخلاقها وتأخرت الآداب بين قومها . كذا أهل الجلود الحمر أمام الشرقيين . كذا الشرقيون أمام الغربيين كذا أمم الغرب اللاتينيون والجرمانيون أمام الانكليز السكسونيين

« تم »



فهرست

صحيفة

مقدمة المترجم

مقدمة المؤلف ٣٣

مقدمة الطبعة الثانية - قول فيما يدعي من أفضلية الالمانيين ٣٥

الباب الأول

الفرنساويون والانكليز السكسونيين في المدرسة ٤٢

(الفصل الأول)

فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنسية يربي رجالا ٤٣

(الفصل الثاني)

فيما اذا كان نظام التعليم في المدارس الالمانية يربي رجالا ٥٢

(الفصل الثالث)

فيما اذا كان نظام التعليم في المدارس الانكليزية يربي رجالا ٧٧

(الفصل الرابع)

١٠٢ كيف ينبغي أن يربي أولادنا

الباب الثاني

صحيفة

١٢٣ الفرنسيساوى والانكيزرى السكسونى فى حياتهما الخصوصية

(الفصل الاول)

١٢٣ فى ان طريقة التربية عندنا تقلل المواليد فى فرنسا

(الفصل الثانى)

١٤٢ فى ان طريقة التربية عندنا مضرة بثروة الامة الفرنسيساوية

(الفصل الثالث)

١٥٣ فى ان التربية الانكيزرية السكسونية تساعد على التزاحم فى الحياة

النوع والاخلاق

(الفصل الرابع)

١٧٨ فى ان طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح الانكيزر السكسونيين

الباب الثالث

٢٠٥ الفرنسيساوى والانكيزرى السكسونى فى المعيشة العمومية

(الفصل الاول)

٢٠٥ اهل السياسة فى فرنسا وفى انكلترا

الفصل الثاني

صحيفة

٢٣٢ السبب في أن الانكليز السكسونيين أبعد عن مذهب الاشتراكيين
من الالمانيين والفرنساويين

(الفصل الثالث)

٢٦٦ في أن تصور الوطنية يختلف عند الفرنسيين والانكليز السكسونيين

(الفصل الرابع)

٢٩٠ في أن الفرنسيين يختلفون عن الانكليز السكسونيين في إدراك
حقيقة التضامن والتكافل

(الفصل الخامس)

٣٠٨ ماهي أحسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة

(الفصل السادس)

٣٣٣ في ضعف المؤثر الادبي وفي أمارات نهوض الهيئة الاجتماعية

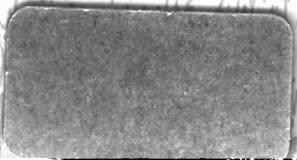


044 011 690 815

THE BORROWER WILL BE CHARGED AN OVERDUE FEE IF THIS BOOK IS NOT RETURNED TO THE LIBRARY ON OR BEFORE THE LAST DATE STAMPED BELOW. NON-RECEIPT OF OVERDUE NOTICES DOES NOT EXEMPT THE BORROWER FROM OVERDUE FEES.

~~WIDENER~~
BOOK DUE
CANCELLED
SEP 20 1991
JUL 18 1991

~~WIDENER~~
BOOK DUE
SEP 20 1991



الفصل الثاني

صحيفة

٢٣٢ السبب في أن الانكليز السكسونيين أبعد عن مذهب الاشتراكيين
من الالمانيين والفرنساويين

(الفصل الثالث)

٢٦٦ في أن تصور الوطنية يختلف عند الفرنسيين والانكليز السكسونيين

(الفصل الرابع)

٢٩٠ في أن الفرنسيين يختلفون عن الانكليز السكسونيين في إدراك
حقيقة التضامن والتكافل

(الفصل الخامس)

٣٠٨ ماهي أحسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة

(الفصل السادس)

٣٣٣ في ضعف المؤثر الادبي وفي أمارات نهوض الهيئة الاجتماعية



044 011 690 815

THE BORROWER WILL BE CHARGED AN OVERDUE FEE IF THIS BOOK IS NOT RETURNED TO THE LIBRARY ON OR BEFORE THE LAST DATE STAMPED BELOW. NON-RECEIPT OF OVERDUE NOTICES DOES NOT EXEMPT THE BORROWER FROM OVERDUE FEES.

~~WIDENER~~
BOOK DUPLICATE
CANCELLED
SEP 20 1991
JUL 18 1992

~~WIDENER~~
BOOK DUPLICATE
SEP 20 1991



